

الأدب العربي بين البدايات والحاضر

تأليف

الدكتور إبراهيم عوفينج

وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إذا كانت دراسة الأدب من خلال العصور الأدبية تقدم تصوراً لمسيرته ، تتضح من المظهر إليه أطواره .. فإن صورة الأدب تبدو في هذه الأطوار باهتة ، تتطلب مزيداً من التحديد ، وتشير كثيراً من التساؤلات ، وكان من أبرز هذه التساؤلات ، تساؤل بعض الدارسين من العرب والمشرقين عن السر في تباين الأدب العربي في الطور الواحد ، بحيث تواجه في العصر الواحد بأدب سهل الألفاظ لينها ، لا خشونة فيه ولا قوهر ، بل ولا جزالة ، كما تواجه في العصر ذاته بأدب جزل الألفاظ قويا ، مع سهولة ووضوح ، أو مع خشونة وقوهر .. إنما أثار أكثر من قضية كان من أهمها دعوى الحقل والتريف .

لذا كان على - وقد سبق أن قدمت دراسة للأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام - أن أضم إليها دراسة أخرى للأدب العربي في بيئاته المختلفة ، تركز على تقديم صورة له في البيئة المتقاربة الآثار زمانية ومكانية وثقافية ، بحيث تبدو الصورة متلائمة ، يمكن بها الإجابة على بعض تلك التساؤلات المثارة .

وذلك لأن العصر الجاهلي - مثلاً - قد قام على بيئات عديدة ، منها البيئة ذات الحضارة المادية كما في إمارتي الحيرة والشام ، والبيئة ذات الحضارة البدوية ، وهي البيئة البدوية التي وفدت إليها بعض الظاهر الحضاري ، فأثرت في أبنائها تأثيراً ما ، والبيئة ذات الحضارة الروحية والفكرية وهي البيئة البدوية التي جاءت بها حضارة الإسلام الروحية والفكرية فهزت أبنائها هذا أسقط عنهم الكثير من موروثاتهم القديمة - أضف إلى هذه البيئات الثلاثة البيئة البدوية البادية التي حرص أبنائها على بداوتهم بكل ما فيها من خشونة وقوة .

فليس شك في أن اجتماع هذه البيئات على أمة واحدة في عصر زمني واحد ،

يجعل دارسى الأدب فى حيرة ؛ فهو أمام ظواهر أدبية لا تقل عن أربع ظواهر ، كل منها تختلف عن الأخريات فى آثارها .

من ثم رأيت أن أقدم دراسة فى الأدب العربى من خلال بيئاته ، لتتكون مكملة لدراسته من خلال عصوره ، تتضح بهما معا صورة الأدب العربى وأطواره .

بيد أن دراسة النثر الجاهلى فى البادية والحاضرة لم تكن بالأمر اليسور ؛ لتمذر الوقوف على نصوص نثرية موثوق فى صحة نسبتها إلى قائلها . فكان أن تبعت فنون النثر فى أطواره المختلفة وفقا للبيئة الزمانية بحسب - دون نظر إلى البيئة المكانية - لتتعرف على انعكاس الحضارة الإسلامية عليه ، وأثر ذلك فيه .

وأما كان الجهد المبذول ، فهى خطوات على الطريق ، فى حاجة إلى ما يكملها ، فالمدى واسع ، والأحداث متشابكة ، وفقنا الله وسدد خطانا ، وهى أنا للصواب وهى الصواب لنا .

المؤلف

النسورة فى ٦ من ذى القعدة ١٤٠٠ هـ

١٦ من سبتمبر ١٩٨٠ م

تمهيد

الفصل الأول

الادب

من يتعرض لدراسة الأدب العربي يواجهه في أول أمره سؤال عن المقصود بكلمة « أدب » ، وأصل اشتقاقها ، وأطوار استعمالها منذ الفترة الزمنية التي يتيسر للدارس أن يطال على اللغة فيها حتى عصرنا الذي نعيش فيه .

ولا ريب في أن تلك الفترة الزمنية التي لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها في إطلاعه على اللغة العربية وآثارها هي ما نمارف عليه الدارسون باسم العصر الجاهلي ، وهو تلك الفترة الزمنية التي سبقت مجيء الإسلام، وتمتد إلى نحو مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام .
مفهوم كلمة أدب :

الناظر في مأثور العرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة « أدب » ومادتها في استعمالات القوم نادرة ، وهي مع هذه الندرة - فيما وصلنا - لم تكن تستعمل بالمفهوم التمييزي الذي نعرفه اليوم ؛ فقد اجترأت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها معنى إلى معنى ، شأن كلمات اللغة دائماً .

ولعل من أقدم استعمالات مادة « أدب » ما روى على لسان طرفة بن العبد للتوفيق سنة ٥٦٩ :

بحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب! منا ينتقر^(١)

فالآدب هنا : الداعي إلى الطعام ، يقال : أدب يأدب أدبا - من باب ضرب - دعا إلى الطعام ؛ فالآدب - بسكون الدال - للدعاء إلى الطعام .

(١) انظر القصيدة (٥) بيت (٤٦) من ديوان طرفة ، طبعة آلوارد . والمشتاة : الشتاء ، والدعوة الجفلى : الدعوة المأمة ، والآدب : الداعي إلى الطعام ، والانتقار : لختيار أناس دون أناس ، فالدهوة النقرى تقابل الدعوة الجفلى .

ثم ماروى على لسان أعشى قيس ، وهو شاعر مخضرم :
جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمرت حرب بأغمار (١)

وماجاء فى حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند ، يصف أبا سفيان بن حرب حين
خطبها قبيل الإسلام : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وماجاء فى ردها عليه :
« وسأخذنه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلهقي » (٢) .

يشير إلى أن الكلمة انتقلت من المعنى الحسى السابق إلى المعنى الخلقى .

وقد يكون استعمالها فى المعنيين دون ترتيب ، لكن لم يصلنا ما يدل على ذلك .

حق إذا جاء الإسلام استعملت الكلمة فى الدلالة على المعنى التعليمى ، مثال ذلك
ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب وفود العرب على اختلاف
لهجاتهم ، فيفهم عنهم ويفهمهم ، فقال له على كرم الله وجهه : يا رسول الله نحن بنو أب
واحد ، ونراك تسكلم الوفود بما لا نفهم أكثره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أدبى ربي فأحسن تأدبى » (٣) . ومثاله كذلك ماجاء فى قول كعب بن سعد الغنوى
للتوفى فى السنة الماشرة قبل الهجرة :

حبيب إلى الزوار غشيان بينه حميل الهيا شب وهو أديب

ثم اطررد استعمالها فى العصر الأموى بهذه المعانى الثلاثة ، وكثر استعمالها فى الدلالة
على ما كان ياتيه العلم إلى طلبته من الشعر والنقص والأخبار والأنساب وكل ما يهدب
النفوس ويشققها من محتلف العلوم والمعارف . ومن ثم نشأت مهنة جديدة لجماعة من
الناس أطلق عليهم « المؤدبون » ، وهم أولئك المتميزون فى العلم والأدب ، فكانوا

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تختلف روايتها بالزيادة والنقص ، والتقديم
والتأخير ، فى الأغنى ج ٨ ص ٧٩ ، وجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٧٦ ، والبلدان ج ١
ص ٨٦ وما بعدها ، وشعراء الجاهلية ص ٣٦١ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٢٦١ ،
ص ٢٦٢ بتحقيق هاكر .

(٢) الأملى ج ٢ ص ١٠٤

(٣) لنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١هـ .

موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسموا إليهم لتأديب أبنائهم وتهذيبهم ، وتلقينهم للأثور من ألوان التعبير ، وأخذ ألسنتهم بثقاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وفنونها .

ومن ثم السع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها ، وأصبحت شاملة كل ما يحقق للاسان العلم والثقافة من معارف ، وعلوم ، ورواية شعر ونثر ، وظلت على هذا النحو يسع مدلولها ويضيق وقتا لتمام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي ، ونمت الحضارة العربية ، وازدهرت النهضة العلمية ، وقويت حركة التأليف والترجمة ، أخذ كل لون في الاستقلال بنفسه عن الأدب ، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير السكلامي الجيد - شعرا ونثرا - وما يدور في ملكه من شرح وتعليق وتقد . وأصبحت كلمة أدب تدل على من يطالع فيه التعبير السكلامي ، قولاً أو نقداً أو شرحاً . ولم تعد لشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان .

بيد أن مادة « أدب » كانت تطلق في بعض الأحيان - مع هذا التخصص - على المعنى العام الشامل لكل ألوان الثقافة ومظاهرها ؛ فقد روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : « الأدب عشرة ، وثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ؛ فأما الشهرجانية فضرب العسود ولعب الشطرنج ، ولعب الصواجج ، فأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر واللسان وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس^(١) . وبهذا المدلول العام استعمل الكلمة إخوان الصفاء ، وعبروا بها عن مختلف العلوم والمعارف في رسائلهم^(٢) ، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا حديمه الأدب قالوا : « الأدب هو حفظ أشمار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »^(٣) .

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهاريج أو الشهارجة ، وهم أشراف الفرس ، والأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١ هـ - ٥٧٩ م . انظر زهر الآداب للحصري - ص ١٤٤ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .

(٢) انظر الرسالة السابعة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفاء .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٩٠ طبع كتاب التحرير بمصر سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

ومازال هذان السيلان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث ، فتارة تستعمل للدلالة على كل ما يحقق الثقافة للسان ويهذب عقله وشموره ولسانه ، وأخرى يراد بها الكلام الجيد الذى يعبر به صاحبه عما يحس ويرى شهرا كان أو نثرا .



هذا ويلاحظ أننا فى تتبعنا لاستعمالات كلمة « أدب » واشتقاقاتها كنا خاضعين لما وصدا من استعمالات العرب قدمائهم ومحدثهم ، مما يلفت النظر إلى أن هذا التدرج اقتراضى ، لا يمكن الجزم به ؛ إذ من الممكن أن يكون العرب الجاهليون قد استعملوا الكلمة فى المعانى التى رأينا أنها جددت عليها وأصل الكلمة لا يمنع من ذلك ؛ فهى تدل على الدعاء ، سواء كان الدعاء إلى طعام أو رأى أو فكر أو شعور أو خلق .

أياما كانت أطوار الكلمة التى استعمات بها ، فالذى يعيننا فى دراستنا هنا هو أن الأدب العربى الذى سنتناوله بالتأريخ والبحث هو الكلام الجيد الذى عبر به العرب عن أحاسيسهم ومشاعرهم وصوروا من خلاله رؤيتهم للأشياء والأحداث بالقدر الذى يحقق الإمتاع النفسى ، واللذة الوجدانية ، فيحرك المواطن ، ويملك الاتصالات .

أقسام الأدب :

١ - الأدب أدبان : أدب ذاتى ، وأدب موضوعى .

أما الأدب الذاتى فهو ذلك الكلام الذى يعبر به صاحبه عن الأشياء أو الأحداث أو المواطن أو نحو ذلك تعبيرا مباشرا ، وهو ما عرف بالأدب الإنشائى ، وإنما كان هذا اللون من الكلام أدبا ذاتيا لأنه - كما ترى - يعرض لشخصية صاحبه بحيث ترى الحياة من خلال نفسه وعاطفته هو ؛ فأنت حين تتلقى قصيدة شاعر أو رسالة كاتب ترى فيها مآرآه هو من خلال تصوراته وحياله ، وتقع فيها تحت سلطان هواطفه وانتمالاته .

هذا اللون من الأدب إذن مرآة لنفس صاحبه ، ولأن نفس صاحبه تلك خاضعة لختلف المؤثرات البيئية للعصر الذى تميش فيه ؛ نقول أن هذا اللون من الأدب كذلك مرآة لعصره وبيئته .

ومن ثم كان حتميا أن تختلف حول هذا الأدب الآراء ، وتباين الاتجاهات ؛

إذ هو يمتد بالدرجة الأولى على الذوق الخاص والمزاج الشخصي للأديب ، ولا يمكن أن تصور الناس مصبوبين في قلب عاطفي واحد . ومن ثم كان مولد الأدب الموضوعي . فالأدب الموضوعي هو ذلك الكلام الذي يتناول به صاحبه الأدب الداتي أو المواقف القدائية بالوصف أو الشرح والتحليل أو التأريخ أو الموازنة ، فهو أدب وصفي .
وإعنا كان هذا اللون من الكلام أدبا ولم يكن علما ؛ لأنه لا يمكن لصاحبه أن يمتد فيه على الحقائق العلمية الخالصة ، بل هو فيه مضطرا إلى أن يجمع بين العلم والفن ، فبينما يقيم عمله على قوانين علمية ثابتة ، تجده مضطرا إلى أن يمزج ذلك بالاعتماد على القوق الخاص والرؤية الشخصية ؛ فناقد الأدب أو مؤرخه لا يستطيع أن يفقد أو يؤرخ ما لم يكن ذا ذوق أدبي ، يدرك به أسرار التعبير وظلاله ، ويتمكن به من موازنة نص أهني بآحر . . إلى غير ذلك الذي يتعرض له ناقد الأدب ودراسة ؛ فهو - في ذلك - يختلف عن غيره من الباحثين في مختلف مروع العلوم الأخرى ، إذ ليس ضروريا أن يكون مؤرخ الثورة ثوريا ، ولا أن يكون مؤرخ السياسة سياسيا ، بخلاف من يؤرخ للأدب ، فلا بد من أن يكون أدبيا .

* * *

٣ - ثم الأدب الداتي (الإنشائي) أدبان ؛ شعر ونثر في .

أما الشعر فتميزه عن النثر ميراث شقي ، مثل الموسيقى المتولدة من الوزن والقافية ، واعتاده على العاطفة أكثر من النثر ، بيد أنهما يشتركان في المقومات العامة للأدب الإنشائي ، التي من أبرزها الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والصورة ، ثم الأسلوب .
(أ) والفكرة : مر الحدث أو الموقف الذي يؤثر في الأديب ؛ ويوقظ مشاعره وأحاسيسه تمهيدا لتحريك العاطفة المناسبة فيه .

(ب) والعاطفة : هي الاستجابة العاطفية لدى الأديب للموقف أو للحدث الذي أثر فيه ؛ إذ بدون ذلك يفقد الأديب أهم عوامل السجاح الأدبي وهو الصدق الفني ، فيخرج كلامه حامدا حافا لا روح فيه ولا حياة ، فهو مصنوع ملفق .

(ج) والخيال : هو المظار الشخصي للأديب ، يرى بواسطته الفكرة التي تحركت مشاعره وأثارت عواطفه ، فهي رؤيا جديدة للأفكار بعد التأثر بها ؛ فنبث الأيام بنا

وقصاؤها علينا فكرة حركت مشاعر المرى وأثارت عاطفة الأس والحزن بيه، فرأى
الإنسان أمام الأيام زجاجا تلمحه في قوله :

ضحكنا وكان الصحك منسفاهة وحق لكان البسيطة أن ييكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا رجاج ولسكن لا يبادل سبك

(د) والأسلوب : هو ذلك المنهج السكلاى الذى يسير عليه الأديب فى صوغ العبارات
التي تنقل ما يرى من خلال ذاته ، ليشعر متلقى أدبه بما شعر ، ويحس بما أحس ، ويحد
ما وجد . وبواسطة نجاح الأديب فى تأليف عبارته موافقة لما فى نفسه ، يضمن لعمله
لونا آخر من ألوان الموسيقى - بل هو أصمها - وهو تلك الهزات المنغمة المتوافقة فى
الإيقاع مع أحاسيس الأديب وعواطفه ، والتي تصل متلقى الأدب من ثنايا عباراته
وإيماءاتها . وهذا اللون الموسيقى هو ما عرف باسم الموسيقى الداخلية .

نشأة الشعر والنثر :

كثر الحديث حول أسبقية الشعر للنثر أو أسبقية النثر للشعر ، وقدم كل ما عرزه
افتراضه ؛ فالحديث فى هذا الموضوع افتراضى حالص ، لا يمكن أن يجزم فيه برأى ،
وبالتالى لا يمكن أن يحمل واحد على قبول أحد الرأيين دون الآخر

لكذا نميل إلى أسبقية الشعر بل نؤكد نؤمن بذلك ؛ لأن الشعر بمقوماته وخصائصه
هو الفن التمييزى الذى يناسب المرحلة الأولى للأمة فى أطوار حياتها الأدبية .

فالأدب المشور يحمل صاحبه على مزيد معاناة وبذل جهد أكثر فى تجميع أفكاره
وترتيبها وتقديمها فى ثوبها الفنى ، وهذه المعاناة فى صياغة الأدب المشور لا تعادلها المعاناة
فى الترام الشاعر بالوزن والقافية - كما فى الشعر النربى - لأن الوزن والقافية من الامور
التي يسهلها على الأديب الشاعر فطرته التي تجنح إلى الموسيقى وتميل نحو التطريب والإيقاع
المتسق ، فالترام بموسيقى الشعر ما صعب إلا على أبناء الأطوار اللاحقة والأهم فى أطوارها
الأولى تسلم حياتها بما يتطلب الشعر ويتوافق معه ، إذ تسكون فى فترة الصراعات والحروب
التي تسبق الاستقرار وما يتولد عنه من تنظيم سياسى واجتماعى إلى آخره . مما يتطلب
التفكير والتروى ومعالجة الأمور بلون من التمييز أكثر تعقلا وحكمة .

هذا إلى أن الشعر وليد الخيال والنثر الأدبى وليد العقل، والخيال دائماً يسبق العقل

في النمو والحركة ، كما يتضح من النظر في ملوك الأمم البدائية والمتحضرة ، فالخيال لدى البدائيين أقوى من العقل ، على خلاف الحال لدى المتحضرين ، وكما يتضح من النظر في سلوك الصبي والشاب ، فالخيال لديه أقوى من العقل ، بينما العقل لدى الشيوخ أقوى من الخيال ، فالخيال مصاحب للمراحل الأولى من أطوار الحياة ، ثم يليه العقل .
فذلك أقرر بأن الشعر كان الفن التصويري الأسبق في حياة كل أمة ، وليست أمة في ذلك بمختلفة عن أمة

الفصل الثاني

العرب

العرب اسم لإحدى الجماعات السامية ، لم يعرف بمدى وجه التحقيق المهدى الأصلي لها ولأحوالها الأخرى ؛ فقد تمددت الأقوال ، واضطربت الافتراضات ، دون الوصول إلى قول حازم يحدد منشأها في عصور ما قبل التاريخ .

والذى يكاد يتفق عليه أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الجماعات السامية كلها في العصور التاريخية . استقروا فيها ، وأخذوا منها كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم .

وتحت ضغط الحياة في الجزيرة اندفع كثير من أهلها إلى الخروج منها والهجرة إلى حيث الخصب والطمأنينة ، ولكن على فترات متباعدة .

في الألف الثالث قبل الميلاد خرج الأكديون ، الآشوريون والبابليون ، من الجزيرة إلى العراق ، وهناك عاشوا في صراع دائم مع المطامع الشخصية تارة ومع الأمم الوافدة - مثل الكشيين والحيثيين - تارة أخرى ، حتى قصى عليهم الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد خرج الكنعانيون من الجزيرة إلى الشام ، وأسسوا هناك مدينتا تجارية ، مثل صيدا ، وصور ، وبيروت ، وقد أطلق اليونانيون على من أقام من هؤلاء بساحل البحر المتوسط اسم الفينيقيين . ولم يلبث هؤلاء الكنعانيون أن تشعبوا وانتشروا في المنطقة ، فتغلقت طائفة منهم في شمالي سوريا وهم المرومون باسم « الأوجريتيون » ، واستقرت طائفة أخرى في شرقي الأردن ، وهم « المؤابيون » ونزحت طائفة « العبريين » إلى فلسطين .

وفي نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد خرج الآراميون من الجزيرة العربية ، إلى صحراء النفود في بادية الشام والعراق ، وتغلغلوا فيها حتى وصلوا إلى خليج العقبة غربا وجنوبي الفرات شرقا ، وكونوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربي ، عرفت باسم « كلد » ، ومنها أخذ اسم السكوثانيين .

أما من استقر به المقام في الجزيرة العربية فقد عاش بعضهم في القسم الجنوبي منها ، وعاش الآخرون في القسم الشمالي ، وكل من القسمين طبيعته وخصائصه التي تميز من يعيش فيه .

* * *

أما من أقاموا في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية فقد صادوا في موطنهم من أسباب التضجر ما أعانهم على النهوض ببلادهم ، وإيجاد حضارة مازالت آثارها باقية إلى يومنا هذا ؛ فقد تمكنوا من تشييد سد مأرب ليتحكموا في مياه الأمطار ، ويستخدموها بتدرج على مدار السنة صانعا لزراعة خصيبة تلي حاجتهم ، وتغدهم بأسباب الثراء والقدم .

ومن ثم راجت في البلاد حركة التجارة الداخلية ، كما راجت حركة التجارة الخارجية التي دعت القوم إلى تكوين لهم علاقات على مختلف المستويات بمن يجاورونهم في مصر والشام والعراق ، وأصبح مألوقا رؤية للقوافل التجارية تجوب الصحراء العربية شرقا وشمالا

وقد كشف النقوش التي عثر عليها في منتصف القرن التاسع عشر عن كثير مما كان مجهولا عن حضارة القوم وأنظمتهم الحكومية ؛ فقد تبين أن هذا الوطن العربي كان مقسما خمس ممالك هي مملكة معين وعاصمتها معين في الجوف البني ، ومملكة سبأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتيبان في الجيوب الغربية لسبأ وعاصمتها تمع ، والمملكة الإوسانية جنوبي قتيبان ، ثم مملكة حضرموت وعاصمتها شبوة .

وتسببت الطامع في نشوب حروب كثيرة وصراعات بين هذه الممالك الخمسة ، فقد كان لكل مطمح في أن يسيطر على طرق التجارة ويجعل الأمر كله في يده دون غيره تحق ذلك للمعنيين في نحو القرن الماشر قبل الميلاد ، ثم دارت الأيام وتقلب السبتيون في نحو القرن السابع فهدوا سلطنتهم على الأرض ، وتحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية .

وفي نحو سنة ٣٧٠ ق . م أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحريا يجوب البحر الأحمر ليربط بين مصر والهند وإفريقية الشرقية فاضطربت اقتصاديات السبتيين ، مما يسر على ملوك ريدان أصحاب ظفار أن يارعوهم وينلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية نحو سنة ١١٥ ق . م ويقموا دولة الحيريين .

وفي سنة ٢٤ ق . م حاول والى الرومان على مصر (إليوس جالوس) أن يستولى على بلاد الحميرين ، فأعد جيشا كبيرا لذلك ، ولكنه عاد مكابلا بالفشل الذريع .

وفي منتصف القرن الرابع الميلادى استطاع ملوك الحبشة أن يستولوا على بلاد الحميرين ، ويظفواها نحو عشرين عاما ، استعاد بعدها الحميريون دولتهم ، ولكنها عادت إليهم ضميعة وانية ، يطعم فيها حيرانها ، فقد أخذ الشماليون في الإمارة عليها ، كما اضطروا كثير من أبائهم إلى الهجرة منها إلى الشمال .

ونحت ضنظ الاضطهاد الرومانى الواقع على اليهود اندفعوا إلى الجزيرة العربية في نحو القرن الأول الميلادى ، وفي الوقت نفسه توالت البعثات الدينية المسيحية ، حتى اعتنقت نجران المسيحية ، وشب صراع بين معتقى الدينين ، وأحد للصراع أشكالاً مختلفة كان أبرزها مناهضة ملوك حمير لتظل الصراعية في ديارهم حوفا من أن يكون وراء ذلك تحرك البيزنطيين . ولعل هذا كان من أهم الدوافع إلى أن يستق اليهودية ذونواس آخر ملوك حمير ، ويحول الفضاء على المسيحيين في نجران ، الأمر الذى دعا البيزنطيين إلى أن يوعزوا إلى النجاشى بغزو اليمن سنة ٥٢٥ م ، فاستولى عليها وضمها إلى الحبشة ، ولم تفلت من قبضتهم إلا بعد نحو خمسين عاما بمعاونة الفرس أعداء بيزنطة ، فاتتقات بذلك إلى سلطات الفرس ، وظلت خاصة لهم حتى سنة ٦٢٨ م حيث اعتنق الإسلام (باذان) عامل الفرس عليها (١) .

* * *

وفي القسم الشمالى كان العرب المدنايون ، وكانوا يقيمون في الحجاز ومجد وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والمراق . وكانوا يعيشون عيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والتم

ومن ثم لم يكن لهم - فى الغالب - سكنى دائمة إلا حيث توجد بعض الواحات

(١) انظر التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسين ، نشر وزارة التربية والتعليم . وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ٢٧٥ ، ج ٢ ص ٨ وما بعدها ، و ج ٣ ص ١٣٦ - ٢١٤ .

في الحجاز ، ولعل هذا من أبرز العوامل التي تسببت في عدم تجمعهم في وحدة سياسية قبل الميلاد .

ولقد نشأت علاقات بين عرب الجنوب وعرب الشمال ؛ ففي تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح قامت مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق . م ، كما كان للمعديين مستعمرة في ناحية « الملا » شمالي الحجاز ، نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة إلى غير ذلك من مظاهر الالتقاء التي نجد مجال بحثنا هنا لا يتسع لتساوطها بالتفصيل .

الفصل الثالث

الوطن العربي

أقصد بالوطن العربي الأرض التي ضمت الجماعات السامية ، والتي عرفت باسم « الجزيرة العربية » ، أو على وجه الدقة « شبه الجزيرة العربية » ، وإعنا أطلق عليها قديما اسم « جزيرة » لإحاطة الماء بها ولكن لأنه يحيط بها من ثلاث جهات حسب هي الشرق والغرب والجنوب ، قيل هي « شبه جزيرة » .

وعلماء الجيولوجيا يرون أن شبه الجزيرة العربية في العصر الجليدي كانت تحرى بها بعض الأنهار ، وكانت تغطي بعض أجزائها مروج حضراء ، ولا يزال يشهد على ذلك وجود بعض الأودية الجافة العميقة بها .

كما يرون أن تلك الأرض كانت تتصل بالقارة الإفريقية في الزمن البعيد الموعول في التقدم .

وشبه الجزيرة العربية تمتد لتشغل مساحة كبيرة لاتعادلها شبه جزيرة أخرى عرفت حتى الآن .

واشتهرت عند جغرافيين اليونان والرومان بأقسامها الثلاثة « العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية ، والعربية السميدة » .

فقد كانوا يطلقون اسم « العربية الصحراوية » على المنطقة الشمالية التي تقع بين بلاد العراق والحيرة من الشرق وبين بلاد الشام من الغرب . وفي شمالي هذا الإقليم قامت مملكة تدمر التي حكمتها أسرة « الرباء » المشهورة .

وكانوا يطلقون اسم « العربية الصخرية » على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالي الحجاز وحموي البحر الميت، وفي هذه المنطقة قامت مملكة النبط ، وكانت حاصرتها مدينة سلع « بطرا » .

وكانوا يطلقون اسم « العربية السميدة » على باقي شبه الجزيرة العربية، وتشمل وسط الجزيرة وجوبيها .

لسكن الجنرايين العرب قسموها خمسة أقسام هي (تهامة والحجاز ونجد
والعروض واليمن) .

وحدوا تهامة بالمنطقة الساحلية الضيقة التي تطل على البحر الأحمر (بحر القلزم)
المعروفة بإقليم الحجاز ، وهي أرض منخفضة رملية شديدة الحرارة ، كانت
تسمى العور - قديما - لانخفاض أرضها ويقع في شمالها ثغر صنير يعرف اسم (الوجه)
يظن أنه كان ثغر مدينة الحجر المعروفة الآن باسم (مدائن صالح) ، ويقع في جنوبي
(الوجه) قرية الحوراء . وقد قامت بمنطقة تهامة بعض المرافق والنفور مثل حدة
ويبع في الحجاز، والحديدة في اليمن وتكثر الأودية والمناطق البركانية والحرات (١)
في هذا الإقليم .

ويصل تهامة من هضبة نجد سلسلة جبال السراة التي تمتد في شرق تهامة من
الشمال إلى الجنوب .

وكما وجدت في هذه المنطقة آبار وعيون كانت دليلا على الخصب وقيام القرى
الكثيرة ، مثل يثرب ووادى القرى - في شمالها - وهو يقع بينها وبين الميلاء التي
كانت تسمى قديما (دادان) ومن مدن هذا الوادى مدينة (قرح) وكانت تقام بها
سوق عظيمة في الجاهلية ، ومدينة الحجر أو مدائن صالح وحبير وذلك التي نزل بها
اليهود وامتدوا إلى تهامة في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات
قبل الإسلام قبائل عذرة وبلي وجهينة وقضاعة .

أما الحجاز فينبسط شرقا في هضبة نجد المسيحة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق
حتى تنصل بأرض العروض - وهي بلاد اليمامة والبحرين - ويعرف الجزء المرتفع مما يلي
الحجاز باسم (المالبة) ، بينما يعرف الجزء المنخفض مما يلي العراق باسم (السائلة) ،
أما شرقها إلى اليمامة فيعرف باسم (الوشوم) ، ويعرف شمالها إلى جبل طيء - أحادسلى -
باسم (تقصيم) ، وهو عندم الرمل الذي يثبت الغضا (١) ، وإليه ينسب أهل نجد يسمون
أهل الغضا وأهم مدن الحجاز مكة ، وطى بمدحمة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي

(١) الحرة : أرض رملية تملؤها قمم الراكين .

(٢) الغضا ضرب من الأثل .

من مكة تقع الطائف التي أقيمت على ظهر جبل (غزوان) وتحف بها كثير من الأودية والآبار ، مما أتاح للملكة النباتية من قديم أن تزدهر بها .

وتقع شمالى نجد صحراء النفود مبتدئة من واحة تيماء حيث تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل لتشغل مساحة واسعة تزخر بكثبان الرمال الحمراء ، وتتخللها مراعي فسيحة ، حتى إذا اقتربت من العراق مدت ذراعا لها نحو الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم (الدهناء) أو رملة عاج - وهي مشارل قبيلتي تميم وضبة - فإذا أحاطت باليمامة انبطحت في الربع الخالى - وهو صحراء واسعة قاحلة ، تفصل بين اليمامة ونجد وبين عمان ومهرة والشحر وحضرموت - وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز وهذه الصحارى التي تطرق نجد في الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة ، يمتاز من بينها القسم الشمالى بأقطاره الكثيرة التي تكسوه حلة قشبية من النباتات والمراعى . وتقع وراء هذا القسم الشمالى بادية الشام بأوديتها وواحاتها الكثيرة وبادية العراق أو السهولة .

والمروض تشمل اليمامة والبحرين وما والاها ، والبحرين تمتد من البصرة إلى عمان - وهي المعروفة اليوم بالكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر - وكانت تنزل بها قبيلة عبد القيس في الجاهلية .

وتكثر في هذا الإقليم الآبار واليآء خصوصا في الأحساء . ومن مدن هذا الإقليم القديمة مدينة (هجر) ، و (القطيف) وكانت تسمى (الخط) وإليها تنسب الرماح الخطية . وفي جنوبي البحرين عمان ، ومن مدنها (محار ودبا) ، وعرف سكان هذا الإقليم من قديم بالملاحه واستخراج اللآلىء .

واليمن يطلق على جنوبي شبه الجزيرة كله ، ويشمل حضرموت ومهرة والشحر - وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة كما هو معروف اليوم - وتتألف من أقسام طبيعة ثلاثة أحدها ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن ، وثانيها جبال موارية للساحل هى امتداد سلسلة جبال السراة ، وثالثها هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالى ، ولغزارة الأمطار التي تهطل على هذه الهضبة بفضل الرياح الموسمية كثرت بها الأودية والسهول ، فالتست بها المزارع الحصبية ، وتنوعت الثمار ، فاجتذبت إليها

السكان المستقرين الذين أقاموا فيها دولا وحضارات منذ الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي .

والقسم الشمالي من اليمن الحياور للحجاز يسمى (عسير) ، وهو الذي كانت تقطنه قبيلة بجيلة في الجاهلية .

ومن أشهر مدن اليمن عدن وصنعا وزبيد ونجران وظفار ، ومن أشهر وديانها تبالة وبيشة — وكانت به مأسدة — وحضرموت التي تمتد شرقي اليمن على ساحل بحر العرب ، بإقليم مهرة ، والشحر^(١) ، وتنمو في جباله أشجار الإسكندر وهو اللبان الذي اشتهر به جنوبي بلاد العرب في الجاهلية .

* * *

وعلى السوم تمتاز شبه الجزيرة العربية بمناخ حار شديد الحرارة ، أما الرياح فألطفها الرياح الشرقية للمروفة بالعصبا ، وأقدها ربح السوم التي تهب صيفا على نجد فنشوى الوجوه ، وأبردها ربح الشمال التي تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان خصوصا في الشرق .

وأما في شبه الجزيرة قليلة إلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء ، وإلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية صيفا ، فتتحول في كثير من الأحيان إلى سيول جارفة في شمالي الحجاز واليمن ، أما في الداخل فهي قليلة جدا ، يتشوف السكان لنزولها ، ويسعدون بها لأنها تحمل لهم أسباب الحياة ؛ ولذلك سموها الغيث والحيا ، واستنزلها الشعراء على ديار مشوقاتهم وقبور موتاهم . وأصبح احتباس المطر في هذه المناطق نذير الخطر ، تهجر الأرض بسببه خشية الجذب المهلك ، فكثرت لذلك عندهم الرحلة في طلب المشب والسكلا ، حيث ترحل القبيلة — حين يحتبس المطر — بإبلها وأغنامها طلبا لمراع جديدة ، يحلون بأرضها ويقيمون فيها .

وشبه جزيرة العرب خالية تماما من الغابات ، وليس بها أنهار جارفة ، ولا بحيرات إلا ما يقال من أن في الربع الخالي بحيرة مالحة .

وتضم شبه الجزيرة أنواعا مختلفة من الحيوانات والطيور ، ورد الشعراء أسماء

(١) الشحر في اللغة الجنوبية يعني الساحل .

أكثرها في شعرهم فذكروا من الحيوانات الخيل والإبل والأغنام ، ومثل الطيلاء والأوعال والنعام وحمار الوحش والنزال والزراف ، ومثل الأسد والنمر والضبع والقثب والفهد ، ومن الطيور الصقر والسر والنراب والحدأة والقطا ، وذكروا كثيرا من الجراد والنحل ، أما الزواحف فذكروا منها الضب والثعبان والمقرب والورل والحية (١) .

(١) لمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد طي ج ١ ص ٨٦ وما بعدها طبع بنسداد ، وتاريخ العرب لفيليب حق ج ١ ص ١٥ وما بعدها الترجمة العربية وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

الفصل الرابع

اللغة العربية

الناظر في تاريخ الأمة العربية وعلاقتها بالجماعات السامية لا يصعب عليه تصور نشوء اللغة العربية ، وإدراك ما بينها وبين اللغات السامية من علاقات ، تبدو في توافق الاشتقاقات وتكون الأفعال والأسماء والحروف ، كما تبدو في الاشتراك في كثير من المفردات .

فاللغة العربية - وهي لغة واحدة من الجماعات السامية - لم تبدأ متميزة هكذا ، لأنها لم تبدأ منعصلة عن أخواتها ، إنما هي وأخواتها تفرعن عن لغة واحدة هي اللغة الأم المعروفة باللغة السامية .

ولا شك في أن هذه اللغة الأم قد تم نموها فتسكونت أفعالها وأسماؤها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل أن يتفرق أصحابها وتوزعهم الأرض . ولما أخذت الجماعات السامية في الزواج عن شبه الجزيرة العربية - على ما سبق ذكره - نزحت كل جماعة بلهجتها التي كانت فيما بعد لغة مستقلة متميزة فأصبح في العراق اللغة الأكديّة بسميها « البابلية والأشورية » ، وفي الشام اللغة الأجرينية - وهي لغة نقوش رأس شمرا - والفيليقية ، والعربية ، والآامية وفي شبه الجزيرة العربية بقيت اللغة العربية .

بيد أن هذه اللغة العربية لم تلبث أن تشعبت إلى لهجات ولغات يختلف بعضها عن بعض تبعاً لاختلاف البيئات والطبائع ، وهي لغات الحجاز ، واليمن ، والحبشة وحتى هذه اللغات تفرغت إلى لهجات حيث كان لسكل قبيلة وبطن لهجة تناسب مميسته وموطنه الأصغر .

والذي يعيننا من هذا كله أن نتحفظ في الحكم على بعض الألفاظ في اللغة بأنها ألفاظ دخلية ، وأن هذه الكلمة سريانية أو عبرية أو حبشية إلى آخر ما يواجهنا به بعض أسلافنا من الباحثين ؛ فما دامت هذه اللغات مبنية عن أم واحدة فليست واحدة

منها بأولى من غيرها بنسبة لفظة إليها، ومن ثم لا يصح من الباحث أن يتسرع في الحكم
فيذكر أن تلك الكلمة مأخوذة عن السريانية أو عن الحبشية أو عن العبرية .

* * *

وبالنظر فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلي نبتين أن الشعراء العرب - على اختلاف
قبائلهم ولهجاتهم الخاصة - قد اصطالحوا على لجة من بين لهجاتهم هي اللهجة القرشية
لتكون لغة أدبية للعرب جميعاً ؛ وهذا يفسر ما نراه من توحد لغة الشعر الجاهلي
وقيامها على اللهجة القرشية .

ونبحث عن السر في تفوق اللهجة القرشية على سائر اللهجات فنجد لدى قريش
من الأسباب ما هو كليل بأن يشد إليها أنظار قلوب وعقول العرب جميعاً ؛ فقد
فرضت عليهم ديانتهم أن يخضعوا لنفوذ قريش عليهم ؛ إذ كانت حارسه الكعبة بيت
عبادتهم كما فرضت عليهم المعاملات الاقتصادية أن تكون لقريش عليهم اليد الطولى ،
فقد كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك
في قوله تعالى : « لإيلاف قريش - إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .. » . وأعان على
ذلك ماجد من ظروف سياسية دعت مختلف القبائل العربية إلى الاتجاه نحو قريش ،
فقد رأت القبائل العربية ما يهددها من الدولتين العظيمتين المجاورتين (الفرس والروم)
ثم محاوله الحبشة من جهة ثالثة لتفرض سلطانها وسيطرتها عليها ، في مواجهة مكشوفة
تارة ، وتارة أخرى في هجوم ديني على أجزاء من الأرض العربية يحلهم على دينهم
الوثني ، فلم يكن لهم بد إزاء ذلك كله من أن يتجهوا إلى قريش بكل ما أوتوا من
الأسباب والوسائل ، مما هأأ للهجة القرشية السيادة والتسلط على كل اللهجات ، لتصبح
بعد ذلك اللغة الأدبية السائدة ، أو اللغة مفصحة لجميع العرب .

وعلى الرغم من ذلك نجد طائفة من المستشرقين ومن سائرهم يحاولون أن
يخرجوا علينا بأراء أخرى قائمة على الافتراض والحدس دون إماسد معقول ، ولعل
الذي أملى على بعضهم هذا المسلك عداوتهم للقرآن والإسلام ومحاولة السكيد له بشق
الاساليب ، على نحو ما زعم هارثمان وفولر من أن لغة الشعر لهجة أعراب نجد والتمامة ،
وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ثم يزعم (فولر) أن بقية بلاد العرب كانت
تتكلم لغة مخالفة ، ليقرر ما يراه من أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية غير معربة

على لهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - غير معربة ، تختلف عن لهجة
الشمر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو العربية ، وأن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه
في لغة البدو للمعربة .

وهكذا يكشف هذا المستشرق عما يقصد إليه من وراء بحسه الخلف بالعلمية ،
فيقيم على فروض وأحداً هي أقرب إلى شطحات المخربين ، فليس له من سند علمي
واحد ، ولهذا رفض رعم هذا رفضاً قاطعاً طائفة من المستشرقين في مقدمتهم (بوهل
وتولده وجاير) (١) :

ويكفي أن نذكر (فولرز) بأن قراءات القرآن الكريم توفيقية نقلت كما سمعت
من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا جهد لأحد فيها ، وأن الذين نقلوه عن الرسول
صلى الله عليه وسلم هم صحابته ، ولو كان الأمر على ما صوره له وهمه من أن الرسول صلى
الله عليه وسلم قرأ على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللغات المعربة من حوله .

هذا إلى أن (فولرز) وقع في خطأ آخر يكشف عن ضلال أوهامه ، إذ لم يعرفه
عن قبيلة من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة حالية من قواعد النحو والعربية .

ويبد أن (فولرز) وأصرابه من المستشرقين وجدوا اللغويين حين أخذوا في
جمع مادتهم اللغوية في القرن الثاني الهجري يرحلون إلى قبائل نجدية دون قريش
توهموا أن ذلك كان لأن لهجة نجد هي اللهجة المختارة وأنها هي لغة الأدب العامة
في العصر الجاهلي ، وفاتهم أن ذلك إنما كان حرصاً من اللغويين العرب ، فقد كان
معلوماً أن اللهجة القرشية سادت وأصبحت لغة الأدب في كل المناطق العربية ، وكان
معلوماً كذلك أن قبائل نجد ما زالت سليمة اللغة دون أخواتها اللاتي أثر في لغتها ماجد
عليها من لغات الأعاجم والوالى الذين كثروا في مكة بمد الإسلام كثيرة مفرطة فآثرها
اللغويون من القبائل العربية ورحلوا إليها طلباً للغة العربية الخالصة . وفي ذلك يقول
أبو نصر الفارابي : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح بين الألفاظ وأسهلها على
اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس والدين عنهم نقلت اللغة
العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم
وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا معظمه ، وعليهم اتسكل في الغريب

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية « مادة قرآن » ، وكتاب العربية ليوهان فلك

ص ٢ وما بعدها ، وتاريخ القرآن لولدكه .

وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كساة وبعض الطائين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ إلا من تخم ولا من جذام مجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرتهم نصارى يقرءون بالبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقيط والفرس ، ولا من عبدالقيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين محالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن الخالطهم للهند والحشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من تقيف وأهل الطائف الخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين تقالوا الامة صادوهم حين ابتدوهم ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) .

(١) الزهر للسيوطي ج ١ ص ١٢٨ طبع صبيح بمصر .

الكتاب الأول

الأدب العربي

إفصل الأول

البيئة والأدب

مما لا جدال فيه أن الأدب مرآة تمكس صورة أصحابه ، وتكشف عن دخائل نفوسهم ، وتبين ما خفي من أسرار حياتهم ، وتماثل لاتجاهاتهم التعبيرية ، وتلقى عما يتوقع في المستقبل لهم من اتجاهات منية ومكرمة . كما أنه القالب الذي يصب فيه ناضجة الأمة ، فيشكلهم ويهشيم لما يتضمن من خلق وعادات سلوكية واتجاهات ومذاهب عقيدية .

ومما لا جدال فيه - كذلك - أن الأدب انعكاس لما يتبل في نفوس أصحابه ، وترديد لما يدور في أعمقهم ، وتعبير صادق عن كل ما أثر فيهم على المدى الطويل من أحداث كونية واقتصادية وسياسية وعقيدية . . الخ .

فهو يعنى - بالنسبة للإنسان - الشيء ومصدره ، إذ هو مرآة تمكس صورة البيئة ، وصورة تترأى على سطح مرآة هي البيئة التي تحيط بالأديب وتكتنفه . . . أى أن الأدب والبيئة متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالأديب لا يستطيع أن يقطع نفسه عن بيئته التي يعيش فيها ، ولا أن يحول بين أبيه وبين ما يمر به من مواقف ، وما يعانى من مشاعر وانفعالات ، بل إن الأدب هو متنفس الأديب الذي يخفف عنه ضغط الحياة ، وما تنص به من أحداث ومشكلات ، فيقدم لمجتمعه مشكلاته التي يعانى منها مصحوبة بأماله وأمانيسه التي يسعى للوصول إليها ، أى أن الأديب يؤثر في تلوين الأدب كما يتأثر به .

حقا قد يستطيع الأديب أن يتحكم - إلى حد ما - في عبارته ليستر شيئا من خصائص نفسه ، ربما على الأحداث ، أو تأييا على مظهر من مظاهر الضعف البشرى - وهو الظهور في ثوب الشاكي للتألم - ولكنه مع هذا كله لا يستطيع أن يتحكم في نفسه إلى الحد الذي لا يتم فيه أدبه عن حاله .

ومن ثم أصبح في مقدور بعض الدارسين أن يصلوا إلى الخطوط الرئيسية والمهمة في حياة الأديب الصادق من خلال أدبه ، كذلك أصبح في مقدور بعض الدارسين

أن يثروا على طبيعة الحياة وما فيها من أحداث عامة في عصر ما من عصور الأدب من خلال الإلمام بمختلف الألوان والمنون الأدبية التي قدمها أدباء هذا العصر .

وعلى العكس من ذلك أصبح على من يريد أن يتعرف على مسار الأدب في عصر ما أن يتعرف أولاً على ظروف الحياة في ذلك العصر ، وأن يقف على أبرز الأحداث التي وقعت فيه ، وأن يلم بطبيعة من يفهم العصر ، وما صادفهم من مشكلات وأحداث ، وكيفية مواجهتهم لتلك المشكلات والأحداث ، ومدى تأثير هذه المشكلات والأحداث عليهم

وإنما لزم المدارس أن يتعرفوا على كل ذلك ليصبح بين يدي المدارس الناقد المحقق من وسائل التحقيق والضبط ما يقربه من الحقيقة وبدنيه منها إن لم يقدمها له بكامل هيئاتها وأبعادها ؛ إذ هو أمام النتائج الأدبي ، والتاريخ البيئي للجماعة كمن يضع بين يديه العملية الحسائية وميزانها ليتأكد من صحة ما يصل إليه .

وليتمكن هذا المدارس من الوقوف على التفسير المقنع لكثير من التسميات الأدبية ، والتعرف على ما يشتمل من صور وخيالات ودية يدهش لها بعض المدارس لما فيها من غرابة ، أو وحشية ، أو سذاجة نسبية .

من ثم كان لزاماً على من يتعرض لأي طور من أطوار الأدب العربي إما كان أن يتعرف أولاً على طبيعة الحياة العربية في العصر الذي ضم هذا الطور بالقدر الذي يعينه على تصور الحركة الأدبية فيه ، ويطامسه على اتجاهات مسارها ، إذ من خلال ذلك يستطيع أن يستخلص العوامل التي كان لها التأثير المباشر في نفوس الأدباء العرب فقدموا أدبهم على هيئته التي قدموه عليها .

ولاريب في أن هذا المنهج فيه من المشقة والجهد ما يربو على منهج الشك من أول الأمر في كل ما ينسب إلى عصر من العصور أو إلى أديب من الأدباء - شاعراً كان أو كاتباً - ثم البحث عما يثبت هذا التراث أو ينفيه ؛ لما يتضمن منهج الشك من شبهة وجود حكم مسبق يسمى صاحبه لإقراره .

يد أن منهج التحقيق والاستقصاء القائم على البحث في ثمايا البيئة يقدم الباحث من الحقائق ما يشغله عن المشقات والصعاب التي يتجشمها ويماني منها .

ونظرة إلى ما بين أيدينا من أدب الأمم للماضية تقرر ما ندعو إليه من أهمية التعرف على البيئته بكل أبعادها ليصدر حكما على أدب هذه البيئة صادقا أو قريبا من الصدق .

فالبيئة - وليس العصر - هي للقياس الصادق، والكشاف الدقيق للأدب المنسوب إلى أبنائها؛ إذ العصر الواحد يضم ألوانا مختلفة من العاصر البشرية التي يتباين فيها كل لون عما عداه من الألوان تباينا غير مستقر، فقد يضيق هذا التباين مشتركات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك، كما قد يوسع هذا التباين ويرده اختلافات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك كذلك. بحيث تصبح الأمة الواحدة في العصر الواحد كأنها عديد من الأمم لكل جماعة منها من الدوازع والأذواق والمزاج ما يمنحها كيانا استقلاليا تميز به عن الأخرى بحيث تسمع صوت الفرد منها فلا تصدق أنه يندرج في المجموعة التي تضم أفراد الجماعة؛ فبينما صوت الواحد هنا يدوب رقة وسلاسة، إذا صوت الواحد هناك يصلك السمع بمخشونة ألفاظه ووعورة تراكبه، وقوة إيقاعه .

ولقد اعتاد الدارسون أن يقسموا الأدب إلى عصور، يضم كل عصر طائفة من الأدباء الذين يمثلونه في أدبهم، ويمبرون عن أحداثه واتجاهات الحركة الفنية فيه، على الرغم مما قد يكون بين أبناء الجيل الواحد من اختلافات أصيلة توجه بعضهم جهة اليمين، وتوجه البعض الآخر جهة اليسار . . . فإذا ما توجه الدارس بمثل هذا التباين لجأ إلى البيئة الخاصة يطلب فيها تفسيراً له وتمليلاً .

من ثم كان الطريق الأقرب إلى الواقع، والأوضح في الكشف عن الاتجاهات الفنية لأمة من الأمم هو البحث في أدبها من خلال البيئات الأدبية، لتكون الصورة أشمل وأوضح، وليكون الخلاف البادى مسبوqa بما يفسره وبماله، وليس محتاجا إلى تفسير وتمليل .

* * *

من هذا للنطق أقـرر أن البيئة الأدبية هي المجتمع المحصوص الذي يفرض على أفرادها اتجاهها معينا موحدا أو متقاربا، يلون أدبهم بلون خاص ويميزه من غيره بميزة يسير بها .

أو هي الوسط البشري الناقل، الذي يستقبل أحداث العصر ويتأثر بها، ويمتصها

ثم يتمثلها فيما يقدم من تعبيرات أدبية، ودون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، إذ هو أهم منهما وأوسع انتشارا وتأثرا .

فالبينة الأدبية ليست مقصورة على عصر، ولا محصورة بجبل، ولا محدودة بموطن، بل يمكن أن تراها ماثلة في أعصر عديدة، وأجيال مختلفة، ومواطن كثيرة .

أى أن البينة الأدبية قد تكون مجاورة غيرها من البينات الأخرى، كما قد تكون منفردة، إذ هي تخضع بالدرجة الأولى - لنوع الثقافات، وظروف الحياة وما يتولد عنها من أحداث، ومدى اتصال الأديب بتلك الأحداث، وكيفية تسماله معها أو استقبالها وتمثلها (١)

فالأديب يخضع في مساره الأدبي لموامل ومؤثرات متشابكة تتماون حتما في تشكيل أدبه وصبغه بالصبغة التي تتفق مع من يماثله في ظروفه، على الرغم مما قد تكون بينهما من فوارق زمانية أو مكانية .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم أدباء أى أمة، وتقديمهم في مجموعات بيئية متلائمة تكشف عن أديهم ومدى استجابتهم به لتلك البيئة، وتبين المؤثرات التي خضع لها كل منهم، فلونت أدبه باللون المميز له من غيره من الآداب .

ولأن هذا المنهج فيه من الشمول والسع التناول ما يجعل النظر ممثدا بين عصور التاريخ على اتساع رقعتها، ليرى أدب البيئة الواحدة في هذه العصور كلها . . . كما قد يصيب الدراسة بنوع من التراكت . . . لهذا رأيت أن أقدم البيئة في عصرها متميزة عن البيئة الأخرى في العصر ذاته، حتى إذا استوعبنا بيئات العصر كله، انتقلنا إلى بيئة العصر التالي . وبذا نتلأى ما قد يشأ من خلط أو اضطراب .

* * *

ولقد احتفاد المدارس من قبل حول الأسس التي يقام عليها تقسيم الشعراء الجاهلين، ويعرض من خلالها شعرهم .

فابن سلام نظر في شعرهم وقومه، واحتار من الشعراء الجاهلين خوولهم، ثم صنف هؤلاء الفحول، ووزعهم على طبقات رتبها ترتيبا تنازليا، بناء تارة على ما يراه من

(١) راجع للمؤلف « في الأدب العربي للمعاصر » القسم الثاني ص ٧٩

هلوفى للشاعر، وتارة على كثرة ما روى من شعره وقتله، ومرة يعتبر الفن الشعري، وأخرى يعتبر الموقع الجغرافي حصرا لما قدمته بمض القرى المرية^(١) من خول الشعراء، ثم فى النهاية عرج إلى العقيدة الدينية فجعلها أساسا لإحدى الطبقات .

ويلاحظ أنه على الأساس الأول والثانى والثالث قدم عشر طبقات ، ذكر فى كل طبقة أربعة شعراء، ثم على الأساس الرابع والخامس لم يلتزم بمدد محدد على ما التزمه فى الطبقات السابقة .

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والنابة الديباني زياد بن معاوية ، وزهير ابن أبى سلمى المزنى ، وأبو بصير الأعشى ميمون بن قيس .

والطبقة الثانية : أوس بن حجر ، وبشر بن أبى خازم الأسدى ، وكعب بن زهير ، والخطيئة أبو مليكة جرول بن أوس .

والطبقة الثالثة : أبو ليلى نابغة بنى جمدة ، وأبو ذؤيب الهذلى، والشاخ بن ضرار، ولييد بن ربيعة .

والطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى ابن ريد . واستثنى هذه الطبقة من منهجه ، فقرر أن موضع شعرائها مع الأوائل ، وإنما أدخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة .

والطبقة الخامسة : حداد بن زهير ، والأسود بن يعمر ، وأبو يزيد النخبل بن ربيعة ، وتميم بن أبى بن مقبل .

والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حازمة ، وعنزة بن شداد ، وسويد بن كاهل . وذكر لسكل واحد منهم قصيده هى التى ألحقته بهذه الطبقة .

والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، وحسين بن الحمام المرى والثعلب وهو جرير ابن عبد المسبح ، والمسبب بن علس . وذكر أن هؤلاء أربعة رهط محكمون^(٢) مقلون ، وفى أشعارهم قلة ، فذاك الذى أحرمهم .

والطبقة الثامنة : عمرو بن قبيصة ، والنسر بن تولب ، وأوس بن خلفاء ، وعوف ابن عطية .

(١) المقصود بالقرى هما المدن والحواصر .

(٢) محكمون - بضم مكسور فكسر - من إحكام القول .

والطبقة التاسعة : ضايب بن الحارث البرجمي ، وسويد بن كراع المكلي ،
والحويدرة قطبة بن محسن ، وسحيم عبد بن الحسحاس .

والطبقة العاشرة ، أمية بن حريثان بن الأسكر ، وحريث بن عفظ ، والسكيت
ابن معروف ، وعمرو بن شاس .

ثم الحلق بتلك الطبقات طبقة أصحاب للرأى ، وذكر فيها : متم بن نيرة ،
والخساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوي .

وطبقة شعراء القرى العربية :

ذكر من شعراء المدينة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ،
وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت .

ومن شعراء مكة : عبد الله بن الزبير . وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبوسفيان
ابن الحارث ، ومسافر بن أبي عمرو ، وضراد بن الخطاب القهري ، وأبو عزة الجمحي ،
وعبد الله بن حذافة السهمي ، وهيبرة بن أبي وهب .

ومن شعراء الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أمية بن أبي الصلت ،
وأبو عجمن الثقفي ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل .

ومن شعراء البحرين^(١) : المثقف^(٢) العبدى ، والمزق^(٣) العبدى ، والفضل
ابن معشر السكري^(٤) .

ثم طبقة شعراء يهود : السموأل بن عدياه ، والربع بن أبي الحقيقة ، وكعب
ابن الأشرف ، وثرييح بن عمران ، وسمية بن القريص ، وأبو قيس بن رطاعة ،
وأبو الذيال ، ودرهم بن زيد .

(١) البحرين : كانت قديما اسم مكان جامع لبلاد على ساحل الهند ، ما بين البصرة
وعمان ، وقسمتها بحر ، أما المعروفة الآن باسم البحرين فهي جزيرة يحيط بها البحر
في ناحية البحرين ، ركعات تعرف قديما باسم : « أوال » بضم الهمزة وفتحها « كان
فيها نخل كثير ربساتين .

(٢) بكسر التاء المشددة . (٣) بفتح الزاى المشددة .

(٤) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا لم يستقر ابن سلام في عمله على منهج واحد ، فاضطربت تقسيماته ، وتمذد عليها أن عمد الباحث المدارس بالرأى المحدد الواضح ، ولو استقام على واحدة من تلك الأسس لأفاد كثيرا .

أما أبو عبيدة فرأى أن أشعر الناس أهل الورح خاصة ، ورتبهم في ثلاث طبقات :
لطبقة الأولى : امرؤ القيس ، وزهير ، والناطقة .

الطبقة الثانية : الأعشى ، ولييد ، وطرفة .

والطبقة الثالثة : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وحداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، والشماخ بن ضرار ، وعمرو بن أحمد ، والمرقس الأمغر وعمرو بن حرملة (١) .

وابن رشيق استعرض طائفة من الآراء التي تفضل شاعرا على الآخرين للمحظ عام تارة ، وتارة أخرى لخصوصية فنية . وعرف في إيجاز بشعراء بمص القبايل التي اشتهرت بالشعر مثل ربيعة وقيس وعميم دون أن يرتبهم (٢) .

* * *

وإذا كان المدارسون من قبل قد اختلفوا هذا الاختلاف في تقسيم الشعراء العرب في العصر الجاهلي ، فهو ليس اختلافا في تقسيم الشعراء فحسب ، وإنما هو شامل للأدباء عموما شعراء ونائرين ، لسكن لما كان الشعر هو الفن الغالب على الأدب في تلك الآونة دار التقسيم حول الشعراء دون غيرهم .

والملاحظ أن هذه التقسيمات على اختلافها لا تقوم على أساس ثابت ؛ فتارة لجد التقسيم مبنيًا على المنهج الروماني ، وتارة أخرى نجده مبنيًا على المنهج المسكاني ، ومرة ثالثة نجده مبنيًا على المنهج القبلي ، دون مراعاة للبيئة وأثرها في الأدب والأديب ، وعلى الرغم من وضوح أثر البيئة العربية - على اختلافها - في أدب العرب وضوحا لا يحق لدارس منصف أن ينازع فيه . حتى أصبح العصر الواحد يضم لونين من الأدب على طرفي تقيض ، فهذا لين قريب ، ودالا حوشى غريب ، بحيث ينظر الناظر إليهما مجتمعين فلا يتصور أن يكون هذان ابنى عصر واحد .

(١) جمهرة أشعار العرب لإبى زيد بن الخطاب القرشى ص ٤٥ .

(٢) الممددة ج ١ ص ٨٦ وما بعدها .

الفصل الثاني

أجناس الأدب العربي

من المقرر أن الأدب العربي - على اختلاف أنواعه وفنونه - يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد من انفعالات وعواطف ونزعات ؛ ففي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان - أيا كان موطنه - في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تعوقه عن مواصلة المسار . . . لا يختلف في ذلك أدب عن أدب . وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانفعالات رضاها واحتفالا ، أو سخطا عليها ونقورا ، دفاعا عنها وتبشيرا بها أو بر ما بها وتحذيرا منها .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أخها في أمور كثيرة، من أبرزها - في ميدان الأدب والتعبير عن الأحاسيس والشاعر - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة، وكيفية نقل هذا المعنى المرثى أو الصورة المدركة إلى الآخرين ثم الأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

فالأبوة والأمومة - مثلا - من العواطف الإنسانية المشتركة التي لا تختلف حول الاحتفاء بها أمة عن أمة ولا بيئة عن بيئة . بيد أن تصوير حرص الإنسان عليها ، أو الدعوة إليها ، أو أسلوب الاحتفاء بها يختلف من أمة لأمة ، ومن بيئة لبيئة ، بل من فرد لفرد ، وفقا للمزاج العقلي والخيالي الذي يشكل إدراكه التصوري لهذه العاطفة أو لتلك .

من هذا يتقرر أن أدب بيئة ما له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى وهو تميز تفرسه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها من اختلاف في المزاج العام الذي تقوم عليه اتجاهات أفرادها ، وتتشكل به مناظرهم . فليصبح - لذلك - أن يحدد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هذه الخصائص وتلك من

ضروريات البيئة التي لاجهد لأحد فيها . إنما بحاسب أدباء أمة أو جيل ويذم أديبهم إذا تجاوزوا ماتمليه عليه بيئتهم أو مجاهلوه . فجاء أديبهم غير ممثل لتلك البيئة ؛ لأن أديبهم عندئذ يكون مسخاً مصنوعاً لا يبر عن ذات أصحابه ، ولا يفيدهم في شيء بحيثه على نسق آخر ، بل جد التميز والجودة في بيئته .

* * *

ودارس الأدب العربي يلاحظ أنه يقوم على جلسيه المتعارف عليهما - الشعر والنثر - بيد أن ظاهر الأمر يوحي بأن هذين الجنسيتين لا يكونان على قدم المساوى في جميع البيئات الأدبية ، فبينما يطغى أحدهما في عصر بحيث يبدو أنه الأثير عند أهل ذلك العصر نجد الجنس الثاني يبرز حتى يطغى على الجنس الأول في عصر آخر .

ولا ريب في أن إشار الشعر أو إشار النثر لا يقصد إليه الأديب قصداً ، ولكنه من فعل البيئة وعواملها للتخيرة ، وهي التي تعيد بالأديب - من غير قصد منه أو عمد - إلى أن يبر عن مكنون نفسه ، وما يختلج بين جوانحه بهذا الجنس الأدبي أو ذلك . ولا يفي هذا أن يخلص أدب عصر أو جيل لهذا الجنس دون الجنس الآخر ، فهما دائماً موجودان مائتان في كل بيئة وجيل ، إلا أنهما - كما قررنا - لا يتساويان .

وقد بطراً على عصر مامن الظروف والعوامل ما يدعو إلى اختفاء أحد هذين الجنسيتين من بين آدابه الماثورة ، سواء كانت هذه الظروف والعوامل أصيلة في البناء الأدبي أو كانت عوامل ناقلة مساعدة . . . فتثور الشكوك حول وجود هذا الجنس أو ذلك كما ثارت حول أدب العصر الجاهلي بجنسيه - الشكوك - .

* * *

النثر : ولقد نوهم بعض دارسي الأدب الجاهلي أن هذا العصر خلاصاً من أديب يعبر بالنثر ، فنكل ما أثر عن أدبائه قائم على جنس الشعر ، حتى قرر بعضهم هؤلاء أن العربي في هذا العصر كان لا ينطق إلا للشعر في جميع شؤبه ، وليس فقط في مجال التعبير الفني .

كما تشكك بعض الدارسين فيما حظته كتب الأدب العربي من نثر جاهلي ، وإن أقر بأن أدباء هذا العصر قد عرفوا فنونا من النثر عبروا من خلالها عما أرادوا التعبير عنه ، لكنهم قطعوا بأن شيئاً من هذا النثر لم يصلنا ، وكل ما وصلنا منه منقول

مصنوع ، قد يكون على نظام ما كان لهم في ذلك العصر ، يقول الدكتور طه حسين :
« وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر القوي يضاف إلى الجاهليين إنما هو شيء
واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد
ما كان للمغرب في جاهليتهم من نثر ، لحفظ لنا صورة مامن هذا النثر الجاهلي ، دون
أن يحفظ لنا نصا من نصوصه » (١) .

وأنا لاشك في أن العصر الجاهلي قد عرف النثر الأدبي باعتباره وسيلة من
وسائل البيان . ولا اشك كذلك في أن ماعرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على
غرار ماعرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي
للقول عندها - على ما قررنا - فلا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر
ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك ، كما لا يحق لنا أن نطلب في الأدب
لجاهلي من فنون النثر ما نجد في الأدب الإسلامي أو العباسي أو نحو ذلك من عصور
الأدب العربي ذات البيئة المختلفة ، والظروف المتباينة .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يرمعون بها
أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجيئون النثر الفني
لما كان لتحديدهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدى للمعجز لا يكون عن فقر وجهل بما
سجل ميدانا للتحدى ، وإنما يكون عن مقدرة دائمة وتمكن مشهور في ذلك المجال .

هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا
البيان القرآني ويحلوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام طائفة من أعلام
الأدب لديهم كما حدث في إسلام عمر بن الخطاب ، ويكون عاملا من عوامل التشكك
في نفوس طائفة أخرى على رأسها الوليد بن المغيرة وضرباؤه من الجاهليين الذين وجدوا
في القرآن ما يفهمهم إلى التروى في الحكيم عليه ، ومعاودة النظر فيما يدعوهم إليه ،
لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيتهم من ضعف سلطانهم المورث .

ولاعك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ،
ولمصادفته بالقرآن الكريم ، واشتغال العرب به - من أسلم منهم ومن لم يسلم - بما كان له

(١) في الأدب الجاهلي ص ٣٦٧ .

أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه ولعل ما حدث في العصر الإسلامي تجاه القرآن الكريم حين استعمر القتل في حفاظه أثناء حروب الردة يقرر ما أقول في هأن النثر الجاهلي قبيل ذلك بأعوام قلائل ؛ إذ انتشار الإسلام ، واتجاه الكثيرين من أعلام العرب الجاهليين للدخول فيه أو مقاومته، وقتل من قتل منهم في الحروب التي نشبت بين الجاهليين والمسلمين كل هذا كان من أسباب الاشتغال عن النثر الجاهلي .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا الجنس الأدبي عند الجاهليين على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغييرات في بعض عباراته ، وما قد أصابه من تحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو — مع كل ذلك — يطلعنا على للفنون السائدة بينهم ، ويعرفنا بكثير من قصايم التي كانت تفتل تكسريم ، كما يقفنا على منهجهم البياني في ذلك الفن .

والناظر فيما تناقله الرواة من نثر هذا العصر يلاحظ أنه يدور في محورين متميزين:

أحدهما : محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات البيانية ، والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصي ، دون إجهاد في بناء قصص أو في نقل حبرات الأديب بالحياة ، والتعبير عن خلاصة رأيه وعصارة فكره وهذا ما تناقله الرواة تحت اسم (الحكمة والمثل) .

والثاني : محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحمه وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات وللنوافر ؛ فهذا كله تعبير فني ، قصد به الإثارة والتأثير ؛ حاضن في هذا وذال المزاج قائله وما تأصل في نفسه من مبادئ وأنكار ، وتأثر به من أحداث بيته . أما الكتابة الفنية فلم يكن لها دور ملموس في هذا المحور الخطابي ؛ فقد آثروا فيه الخطاب المباشر على الرسائل لصومية وسائل الكتابة الفنية ومتطلباتها ، وليس لجلهم بها ، فقد استخدموا للكتابة في غير الأدب من شئون الحياة ، كالسياسة والتجارة ، حيث كتبوا ما هداهم ، ودونوا وثائقهم المالية والتجارية .

فالفنون الأدبية التي قدمها النثر الجاهلي هي : المثل والحكمة ، والخطابة ، والوصايا والمحاورات ، وللنوافر . أما ما روى من القصص فلا يستطيع أن أسلمكها في ضمن

فتون نثرهم ؛ لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية . . . فهي سبيح
غير جاهلي يعالج قضايا وأحداثا جاهلية ، أو هي أدب غير جاهلي بحوى مضمونا جاهليا .
يبد أنها — إلى ذلك — تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص ،
وتداولوها فيما بينهم ، متوسلين فيها بالنص والحكاية (١) .

ويلاحظ لناظر في لنثر الجاهلي أن المثل والحكمة تعبير يأنى موجز غير منسوب
لقائله في النال ، فهو تعبير سائر ، لا يرتبط بصاحبه قدر ارتباطه بمصره أى أنه تعبير
فى إخضع للبيئة العامة التى نسب إليها ، أما البيان الخطاى — على تمدده — فهو فى النال
منسوب إلى من صدر عنه ، أى أنه تعبير فى إخضع لبيئة قائله الخاصة ويتأثر بما تأثر
هو به منها ، على ما سنحاول أن نجليه إن شاء الله تعالى فى بحثنا هذا .

* * *

الشعر : أما الشعر الجاهلي فلقد كان أحسن حفظا من النثر ؛ إذ صادف من أسباب
الحفظ والانتقال ماضن له الخلود والبقاء ، وإن لم يسلم من ممتد يصيه بالتغيير
والتحريف ، أو شاك متعصب يهمل عليه ماشاء من الظنون والتراكبات عاولا
طسه وإنكاره .

والشعر الذى وصلنا من العصر الجاهلي يرجع إلى نحو مائة وخسين عاما قبل
الإسلام ، فليس هذا العصر مبتدا قول الشعر العربى ؛ لأن ما وصلنا منه مثلا هذه
الفترة الزمنية شعر ناضج مستقيم ، يسير فيه الشاعر وفق منهج تعارف عليه الشعراء
من أقصى الجزيرة إلى أقصاها واستساغوه ومرنوا عليه ، وأقام القاد قواعدهم النقدية
على أصوله المرعية من الجميع ؛ سواء فى ذلك القالب العام — من بناء القصيدة على أبيات
فأث وحدة ، واعتمادها على قافية ثابتة لاتتغير — والبناء الفنى للقصيدة الذى يلتم فيه
الشاعر غالبا بمطلع ييكى فيه ويصف الأطلال ، وينتقل منه إلى وصف الرحلة فى
الصعراء وما يتصل بذلك من حديث عن الناقة وقوتها وضخامة جسمها ، ووصف

(١) انظر ذلك فى نحو أمثال العرب للمفضل الضبي ، والأغانى لأبى الفرج ، ومجمع

الأمثال للسيدانى ، وجمهرة الأمثال للمسكرى ، والبيان والتبيين .

للطريق وما فيه من مشقات . ثم يخرج من ذلك إلى النرض من القصيدة - مدحا كان أو هجاء ، أو نفرا أو رثاء - فینهی القصيدة بالانتهاء من عرضه .

ولاشك می أن هذا النظام الذى يقوم علیه الشعر الجاهلى ليس ابن یومه ولینته ، فهو نظام مر بأطوار ومراحل هذبت فیها حواشیه ، وتساقت معه كل معوقات العمل الأدبى ، حتى وصلنا على مازاء الیوم من التكامل والتناسق .

لكن متى بدأت تلك الأطوار ؟ وكيف هذبت الشعر فیها ؟ وما العوامل التى أثرت فیها ؟ ومن كان له الدور الواضح من الشعراء فى ذلك ؟ إلى غیر تلك التساؤلات التى تفرض نفسها وتطفو على السطح فى مواجئة من یدرس من شعر هذا العصر .

الإجابة على مثل تلك التساؤلات من الأمور التى لا یتطبیح المدارس الموضوعی أن یقف على جواب لها ، بل ولا یتطبیح أن یسلم بالافتراضات التى یحجاب بها ، فلیس بین أیدیها ما یدل على شىء من ذلك أو یرجحها ، مما كان سیبلا إلى تجرؤ بعض المستشرقین ومن تابعهم من العرب فتشككوا فى صحته وما وصلنا من شعر هذه المرحلة وشككوا فیها - بل بلغ ببعضهم الجرأة أن أنكروه - معتمدين على فقدان الأثر المادى الذى یقطع بتلك النسبة مستبمدين ما علیه الشعر الجاهلى من أعراف فنیة معقدة می المانی والموضوعات ، وفى الأسالیب والصیغات المحکمة ، وفى الوزن والقافية .

والملاحظ أن هؤلاء وأولئك بنوا شکهم أو إنكارهم على افتقاد الشعر الجاهلى الوسيلة المادية التى تقطع بنسبته إلى عصره ، ویقصدون بذلك المکتوبات . . . وم فى ذلك یریدون أن یحضروا الجاهلیین لأعرافهم می العصر الحدیث ؛ وفاهم أن الجاهلیین كانوا لا یثقون فى المدونات والمکتوبات ثقتهم می الرویات ، لتقديرهم أن شعرهم فن توثقه الروایة أكثر مما توثقه المکتابة ، حتى لقد صرح ابن سلام فى طبقاته بأن وثقته الروایة لا ینبغى بما أخذ عن صحیفه (١) .

وأنهم - كذلك - بنوا هذا الشك أو الإنكار على أن ما بین أیدینا من شعر الجاهلیین یمثل المرحلة الأولى من هذا الشعر ، ومن ثم فلیس مقبولا ، أن تكون تلك المرحلة الأولى على مثل هذا النضج . وفانهم أن هذا یمثل مرحلة سبقت بمراحل ، غیر أن تتاجها الأدبى طوی مع الزمن كما یقطع بذلك العقل السوى .

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقیق شاکر .

وإذا كان منطبق العقل السوى يقرر أن ما بين أيدينا من الشعر الجاهلي هو ابن
مرحلة سبقتها مراحل، فإن بمص شعراء الجاهلية أشار إلى ذلك في حديثه عن سبقهم
من الشعراء . مثل امرئ القيس في قوله :

عوجا على الطلل الحيل لأننا نبيكي الديار كما بيكي ابن خدام^(١)

فإن خدام هذا شاعر سبق امرأ القيس في بكائه ووقوفه . بيد أننا لانعرف شيئاً
عن ابن خدام هذا أكثر من ذلك الذي جاء في بيت امرئ القيس ، قد يكون أول
من بيكى ، وقد يكون بمن تقدموا امرأ القيس إلى البكاء ، ولكنه ليس أولهم
ومثل زهير بن أبي سلمى في قوله :

ما أرانا تقول إلا معاراً أو معادا من قولنا مكرورا

إذ يقرر أنه في قوله يمتدنى سابقه ويكرر ما قالوا، ويستعير منهم . لكن ما هذا
الذي استعاره ؟ ومن هم الشعراء الذين سبقوه إلى القول على هذا الخط ؟ وكيف كانوا
يقولون ؟ ومتى وأين كانوا ؟ وبم اتصل هؤلاء بأولئك ؟

لما نجد إجابة شافية على هذه التساؤلات ونحوها ، لأننا حتى يومنا هذا لم نستطع
أن نجتاز بالتقريب هذا المعسر إلى مأسبقه . وكل ما نصل إليه من ذلك هو أن زهيراً
يعترف بأنه سبق بشعراء عبيدين استقاموا على الطريقة ، وأنه ومعاصروه تتلمذوا على
هؤلاء السابقين المحيدين . وهذا يعنى - بالتبع - أن سابق زهير المحيدين سبقواهم
أيضاً بمن تتلمذوا عليهم ، إذ لا يعقل في تصور الأطوار الفنية إلا أن يكون الأمر هكذا.
حتى يصل بالشعر إلى مرحلته الأولى .

ومثل ذلك قرره عنتر بن شداد العسلى في قوله :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرمت الدار بعد قوم^(٢)

(١) عوجا : اعطفا روا حلكما : على الطلل الحيل : الطلل الذى أنى عليه حول
فتغير ، لأننا - بفتح اللام - لعلما . انظر ديوان امرئ القيس ص ١١٤ طبع دار
المعارف بمصر ، تحقيق محمد أبو الفضل .

(٢) المتردم : الموضع الذى يستترقع ويستصلح لما هراه من الوهن . يقول : هل
ترك الشعراء موضعاً مستترقماً إلا وقد رقموه وأصلحوه . يعنى : لم يترك الشعراء السابقون
لنا شيئاً نقول فيه قولاً جديداً . شرح المملكات السبع للزوزنى ص ١٦٨ طبع صبيح بمصر .

ففترة يستنكر أن يكون الشعراء السابقون قد تركوا لمن لحق بهم - على عهده - شيئاً يقولون فيه ؛ فاللاحقون - ومن بينهم عنزة - يحتذون سابقهم ، ويأخذون عنهم ، ويتلمذون عليهم ؛ لأن السابقين بلغوا من أطوار الشئ - مرحلة مكنتهم من استيعاب للكثير من الفن الشعري ، بحيث يشمر التلميذ - من جيل عنزة - بأبه عاجز عن الابتكار والانطلاق متحرراً من تقليد هؤلاء السابقين .

أى أن واقع الشعراء الجاهليين يميز ماقرره العقل والمنطق في سنة التطور من ألى العصر الجاهلى يمثل مرحلة ناضجة من مراحل الشعر العربى ، وأن تلك المرحلة سبقتها مراحل متوالية ، تدرج الشعر فيها حتى نما واستقام قبل مبتدأ هذا العصر .

* * *

والناظر فى أدب هذا العصر - على عمومه - يلاحظ أن الشعر قد احتل من النشاط العربى مكان الصدارة ، ونال منهم أرقى درجات التقدير ، وسائر الفروسية لديهم ؛ فقد كان لهم الهديوان الذى يحفظ تاريخهم وأيامهم ، وكان جهاز الإعلام المتنقل الذى ينشر آراءهم ويديع أنبياءهم ، وكان المحمس لفرسانهم فى المعارك ، وللؤنس لأرئهم وغايتهم فى وحشة الصحراء ، والتنفس الذى يمتص من أعصابهم السكد والإرهاق ، ليجتمعون وبه يسرون .

من ثم كان الشعراء ذوى حظوة فى القبيلة ، فهم الذين يسطقون بلسانها ، ويعبرون عن مشاعرها ، ويحفظون أمجادها ، ويدعمون الماديات عنها ، ويرهبون خصومها ، ولذلك حرصت كل قبيلة - لافرق بين البادية فى ذلك والحاضرة - على أن تضم أكثر عدد من الشعراء الذين تسير الركبان بشعرهم ، ضامبا لاتساع سطورنها ، وانتشار سلطانها فوريتها للناشئة من أبنائها كل أسباب النبوغ والتفوق ، واحتفت بمولد الشاعر من بليها فسكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أنت القبائل لتنهتتها بذلك ، ومدت الموائد واجتمع للنساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، ويتباشرن الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذبح عن أحسابهم ، وتحليلد لمآثرهم ، وإعادة بذكورهم ، وكانوا الايهنثون لإلا بعلام يولد ، أو شاعر ينبع فيهم ، أو مرس تنتج (١) . فلم تسكن تختص بالشعر قبيلة دون قبيلة ، وإن تميزت فيه واحدة عن أخرى بكثرة الشعراء ، وسيرورة الشعر .

(١) العمدة لابن رشيق ج١ ص ٦٥ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين طبع التجارية بمصر .

ولذلك يجد المدارس نفسه أمام فيض من الشعراء تابع من قبائل العرب - على اختلاف مواطنهم وبيئاتهم - لا يستطيع أن تحبب بهم . فقد كانوا كثيرين متنوعين ، تشرك الرجال فيه النساء ، ويتفوق فيه البدوي كما يتفوق الحضري وينسخ فيه الصماليك كما يبلغ السادة حتى يخيل له أن الشعر في هذا العصر كان شغل العرب الشاغل ، وأنه كان ميسورا للكثيرين ، يجري على كل لسان ؟ ولا يكاد يسمع على أحد منهم ؟

وهل كان للمرب - في مجموعها - ما يشغلهم عن الشعر ؟ لقد كانوا محاطين بظروف اجتماعية وسياسية وبيئية تجردهم للشعر ونحوه من فنون البيان ، وتحقيا لذواتهم ، واستجابة لحاجاتهم الطبيعية . ولقد قرأ ابن قتيبة ذلك في قوله : « والشعراء للمروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف وراء عددهم واقف ولو أفند عمره في التقدير عنهم ، واستفرغ مجهدوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استفرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها » (٢) وابن سلام في تنبيهه له حول شعراء العرب قدم أربعة وسبعين شاعرا من حول الجاهليين والحضرمين ، أربعين منهم في عشر طبقات ، كل طبقة يمثلها أربعة ، وخمسة في المدينة ، وتسعة في مكة ، وخمسة في اللطائف ، وثلاثة في البحرين ، وثمانية من اليهود .

والناظر إلى هؤلاء الشعراء يلاحظ أنهم ينطون مختلف البيئات العربية - من بدوية وحضرية - بيد أن القبائل المضرية كان لها أومر نصيب من الشعراء . يتضح هذا من إلقاء النظر في نحو الأغاني والمفضليات والأصمعيات . كما يتضح أن القبائل - مضرية أو قحطانية - متماوتة كذلك في حظها منهم .

لقد كان للشعر أثره البالغ في حياة العرب ، به يتوسل صاحب الحاجة ، وبواسطته تستل السخائم من النفوس ، وعاليه تقوم للعلائق في المجتمع العربي ، روى أن الحارث ابن حلزة اليشكري - وكان أبرص - ارتحل بين يدي عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :
آذنتها بينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٦٠ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبع

وكان يلدش من وراء السجف للبرص الذى كان به ، فأمر عمرو برفع السجف بينه وبينه استحسانا لها (١) . وروى أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم ، وهو رجل مفوه ، محدود فى الشعر مامدح أحدا إلا رفمه ، ولاهجا أحدا إلا وصمه ، فلو سبقت للناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له لرجوت لك حسن العاقبة . فسبق إليه المحلق ، فأزله وحر له وسقاه وبالغ فى إكرامه ، ولكن الأعشى عرف بؤس حال مضيغه ، وكثرة بنائه ، فقال للأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بمكاظ يلدش قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المورق وما بى من سقم وما بى ممشق
وفيها يقول :

نفى الذم عن آل المحاق حفة كجاية الشيخ المراقى تهق
لمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
كشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهشون ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريا يخطبون بنائه ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهم واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبها ألف ضعف (٢) .

وقد يكون فى هذه الروايات مبالغة، لكنها على أية حال تكشف عن تقدير العرب للشعر والشعراء ، حتى لو كانت هذه الروايات مختزعة ، فهى تبين عن تصور مختزعيها لسكابة الشعر لدى العرب الجاهليين .



ولا ريب فى أن شعراء العرب كانوا فى مسيرتهم الشعرية خاضعين لمؤثرات بيئتهم العربية العامة ومتطلباتها ، فتتحقق بذلك لشعرهم التميز عن شعر غيرهم من الأمم - دون قصد إلى ذلك - فى قالبه ، وأنواعه ، وصوره ، وأخيلته ؛ وموضوعاته إلى غير ذلك من جوانب الاختلاف البيئى .

(١) للشعر والشعراء ج ١ ص ١٩٧ الطبعة السابقة ، والمعدة ج ١ ص ٤٣

(٢) للمعدة ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩

وطى الرغم من توفر أسباب التميز تلك للشعر العربي في العصر الجاهلي ، نجد طائفة من الدارسين المعاصرين يحرصون على أن ينزرا هذا الشعر بموازين الشعر في البيئات الأخرى ؛ ويقيسوه - من ثم - بمقاييس غريبة عليه ، مما يضطرهم إلى أن يطلبوا فيه مالا يحق لهم طلبه ، لأنه من نتاج بيئات غريبة على البيئة العربية ، ولقد اشتهر عن الدارسين والنقاد الغربيين أنهم قسموا الشعر منذ اليونان أقساما ثلاثة هي الشعر الملحمي ، والتمثيلي ، والغنائي ، ولكل قسم منهما سماته ومميزاته .

فالشعر الملحمي - طى ما رأى هؤلاء النقاد في شعر أسلافهم - قصة في قصيدة طويلة تتجاوز ألف بيت ، وتمرض أحداثا متوالية تدور حول بطل واحد ، أو يشاركه في أدوار ثانوية منها عدة أبطال آخرون ، مثل إلياذة هو ميروس من الأدب اليوناني وإنيادة فرجيل من الأدب الروماني ، والرامايانا والمهابهارانا من الأدب الهندي ، والشهنامه من الأدب الفارسي . وأحداث هذه الملاحم خيالية أسطورية ، تتلىء بالافعال الغريبة ، والأمور الخارقة .

والشعر التمثيلي لون من الشعر القصصي ، ولكنه يتميز عنه بقيامه على الحوار بدلا من الحكاية ، كما يعتمد على مسرح نرزه قوة الأحداث والمواقف .

والشعر الغنائي هو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن حلجاته النفسية ، ومشاعره للوجدانية ، وأحاسيسه الذاتية ، فهو شعر ذاتي يمثل صاحبه ، ويصور ما يعتدل في داخله وما ينعكس على مرآة نفسه من الأحداث والمواقف التي يواجهها في حياته .

ومن الواضح البين أنهم أقاموا هذا التقسيم وتلك الترميزات على أساس مدارأوا أمامهم من إنتاج شعري ، فهي تقسيمات للشعر اليوناني والروماني وماتوله منهما . ولما اتصلت دراساتهم وتناولت الأدب العربي - شعره ونثره - نظروا في الشعر العربي بالمنظار الذي نظروا به إلى شعرهم ، وقاسوه بالمقياس نفسه الذي قاسوا به الشعر العربي عديم ، ومن هذه النظرات والمقاييس قرروا أن الشعر العربي شعر ذاتي ليس غير ؛ إذ لم يجدوا فيه القصيدة التي تتجاوز في طولها ألف بيت ، والتي تتكون من أحداث متوالية في منطقية متقنة لتمرض الأساطير اليونانية وما شتمته من أمور خارقة بالغة الغرابة . كما لم يجدوا فيه الحوار التمثيلي المشخص .

وحاء الدارسون والنقاد العرب طى أثر هؤلاء متعلمين عليهم ، فسار بعضهم على

طريق الغربيين نفسه دون مراجعة وتفهم لطبيعة الشعر هنا وطبيعته هناك ، ومتطلبات القوم هنا ومتطلباتهم هناك ، وطبيعة الحياة هنا وطبيعة الحياة هناك . . . إلى غير ذلك من العوامل المؤثرة في الأدب على عمومه ، وفي الشعر والشعراء بخاصة . . . فأجروا التقسيمات الشعرية عند اليونانيين والرومانيين على الشعر العربي ، ونفوا من الشعر العربي ما لم يتطابق مع التقسيمات ، ثم نظروا فلم يجدوا بين أيديهم سوى القسم الثالث - وهو الشعر الفنائى - فقررنا أن كل الشعر العربي يدخل في هذا القسم دون سواه .

وكان على الدارس الموضوعى المنصف أن ينظر إلى الأدب فوق أرضه ، ومن خلال أهله ، وفى إطار بيئته ، ثم يتخذ لنفسه مقاييس عامة يقيس بها العمل الفنى فى كل بيئة على حسب ما يتناسب معها ، حتى يوفر لرؤيته المناخ الصادق الصادق ، ويضمن لقرائته العدالة والقرب من الصواب .

وإذا نحن سرنا فى تفحصنا للشعر العربي فى البيئة الجاهلية على هذا الدرب الموضوعى المنصف كنا خليقين بالمعرف على طبيعة الشعر العربي فى هذا العصر ؛ وبذلك نستطيع أن نتابع المسار فى طريقنا إلى العصر الحديث لنكشف عن أطواره ، ومراحل نموه ، وتكيفاته فى تلك الأطوار .

فإذا كان دارسو الأدب العربى القديم قد قسموا الشعر - وفق ما أروا - ثلاثة أقسام ، فليس معنى ذلك أن الشعر فى عمومه خاضع لهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج عليها؛ إذ هم إنما التزموا فى تقسيماتهم ما تحتم أظنهم ، ومن ثم فليس حتما علينا أن ندور حيث داروا . ونخضع الأدب العربى لهذه الأقسام دون غيرها .

والذى أراه أن الشعر العربى الجاهلى - وإن يكن خاليا من الملحمة والتمثيل - ليس غنائيا لحسب ؛ لأنه لم يكن مقصورا على تنفى الشاعر بآلامه وآماله وتصوير أحاسيسه الذاتية - كما يقولون - بل كان منه الفنائى القدانى الذى يسير على هذا النهج ، ومنه القصصى - بالمفهوم العام للقصص - الذى يسير على النهج الموضوعى الخارجى ؛ ليقدم أحيانا متوالية ، ومنطقية فى تحركاتها وانتقالاتها ، ليعرض الحكايا التى تتبع من بيئته ونفرضها على خياله وفكره قيم مجتمعه . وكان منه الوصفى القدانى يتمد فيه الشاعر على وصف مرآته من خلال ذاته ، ومنه الوصف الموضوعى الذى يبرز الصورة فى دقة

الحاذق اللامع . فالشاعر العربي كما توسل بالشعر لينقل لنا ما يهتم في داخله ، توسل به لينقل لنا ما ينعكس على صفحات نفسه من المرائي المحيطة به ، وتوسل به ليحكى لنا من أيام العرب ما يصور البطولات المربية ، مارجا فيه الحقيقة بالخيال . وتوسل به كذلك ليقص علينا من واقعه ما يبرز قيمه ومثله وفضائله ، لكنه - مع ذلك كله - لم يأخذ نفسه بما أخذ به شعراء اليونان والرومان لأنفسهم لا اختلاف البيئات وملابسها ، ولو صنع الشاعر العربي ما صنع هؤلاء وسار في محاذاتهم لافقد عمله الصدق وأسقط عن قه أم خصائصه ، ولكان مسخا من بناء غربي في زى عربي أو العكس

ونظرة إلى ما وصلنا من شعر هذا العصر بالمناظر الموضوعي المتزن تؤكد ذلك الذي نقول ، ويكفي النظر في معلقة امرئ القيس لرى فيها أم المعاصر القصصية ؛ ففي هذه المعلقة لا تكاد تلمح شخصية الشاعر بقدر ما ترى فيها حياة طائفة من المجتمع الذي يعيش فيه . إذ بقص علينا طرفا من مغامراته التي كانت تلك عليه حياته ، وبمخلص من ذلك إلى تصوير إحدى رحلات الصيد التي كانت امتدادا لبعض تلك المغامرات النسائية . وتبحث عن ذاتية الشاعر بين تلك الأحداث والوقائع ، فلا تجهد إلا ما تخلفه قصة من إيماءات وإشارات توحى عما ينطوي عليه من معاناة .

وليس امرؤ القيس وحده هو الذي يمثل هذا الاتجاه ، وعلى غرارهم نجد الكثرة من الشعراء الجاهليين في بعض ما قدموا ، مثل الأعشى في مقطوعاته التي تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية ، ومثل لقيط بن يممير الإيادي في عينيته التي سمث بها إلى قومه يحذرهم من كسرى وما أعد لهم ، ويستنفرهم فيها ليستمدوا لمواجهة تلك الحرب ، وفي مطلعها يقول :

أبلغ إيادا وحاصل في سراهم أنى أرى الرأى إن لم أعص قد نصما
ومثل عمرو بن كلثوم في معلقته ، ومثل الشنفرى في تائيته التي يصف فيها إحدى غاراته ، والتي يقول في مطلعها :

وباضمة حمر القسي . مشتها ومن يغز يفنم مرة ويشمت (١)

(١) الباضمة : القاطمة ، ويريد بها رفاهه . مشتها : غزوت بها . حمر القسي : يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس ، ويشمت : يحقق .

وفي اللامية المنسوبة إليه ، والتي تتضمن قصة حياته بمراحلها المختلفة ، وفي مطلعها
يقول :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق في أعوار النفس البشرية في لحظة من
لحظات صحتها ، ويبرز صورها والصراع الدائر في داخلها في قالب قصصي متمم ، على نحو
ما صنع حاتم الطائي في قوله :

يداع دعا بعد الهدو كأما	يقا تل أهـ وال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجون وما به	جنون ، ولكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه	بصوت كريم الجسد حلو شمائله
فأبرزت ناري ، ثم أثبتت ضوءها	وأخرجت كلى وهوى البيت داخله
وقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا	رشدت ، ولم أقعد إليه أسائله
وقمت إلى برك هجان أعده	لوجبة حق نارل أنا فاعله
بأبيض حطت نعله حيث أدركت	من الأرض لم تخطل على حمائله
فقال قليلا واتقاني بخيره	سنا ما ، وأمسلاه من التي كاهله
نفر وظيف القرم في نصف ساقه	وذاك عقال لا ينشط عاقله

وعلى نحو ما صنع الخطيب الشاعر المخضرم في قوله :

وطاوى ثلاث ، عاصب البطن مرمل	بيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخى جفوة ، فيه من الأنس وحشة	يرى البؤس فيهم من شراسته نعمى
وأورد في شهب عجوزا إزاءها	ثلاثة أشباح تخالمهم إيهما
جناة عمارة ما اغتذوا خبز ملة	ولا عرفوا للبر مسد خلقوا طعما
رأى شيعا وسط الظلام فراعته	فلسا رأى ضيفا تشمروا همتا
فقال : هيا رباه ضيف ولا قرى !	بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما
فقال ابنه - لما رآه بحيرة - :	أيا أبت ! اذبحنى ويسر له طعما
ولا تهتدري بالهدم على الذى طرا	يظن لنا مالا فيوسمنا ذما
مروى قليلا ، ثم أحجم برهة	وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبينما همت على البيد عانة	قد انتظمت من حلف مسجلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها	على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشها فأرسل فيها من كنانته سهما
نحرت نحو من ذات جحش سمينة قدا كتنزت لحما وقد طبقت شعما
فياشره إذ جرها نحو قومه وياشرهم لما رأوا كلها يدي
ويانوا كراما قد قضاوا حق ضيهم وما غرموا غرما، وقد عننوا عننا
وبات أبوم من بشاشته أبا لضيقهم ، والأم من بشرها أما

وما صنع تأبط شرا (ثابت بن جابر الفهمي) في قصته مع النول (١) :

نقول سليبي لجاراتها أرى أبنا يفسا حوقلا (٢)
لها الويل ، ما وجدت ثابتا ألف اليمين ولا زملا (٣)
ولارعن الساق عمد الجراء إذا بادر الحلة الهيضلا (٤)
يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواديا القسطلا (٥)
وأدم قد جيت جلبابه كما اجتات الكعاب الخيملا (٦)
إلى أن أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأليلا (٧)
على شيم نار تورتما فبت لها مدبرا مقبلا (٨)
فأصبحت والنول لي جارة فيا جارتا أنت أنت ما أهولا
وطاليتها بضمها فالتوت بوجهه تهول ما استمولا
قلقت لها : يا انظري كي ترى فولت فكنت لها أغولا

-
- (١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة - ١ ص ٣١٣ بتحقيق شاکر .
(٢) اليفن — بفتح الفاء - الشيخ الفاني ، والحوقل : الشيخ إذا فتر عن النكاح
(٣) الزمل : الضميف الجبان الرذل .
(٤) الجراء : المهاراة ، الهيفل : الجيش الكثير .
(٥) القسطل : النبار الساطع .
(٦) الخيملا : الفرو أو قميص لا كم له ، واجتاته : لبسته ، يقال : اجتبت القميص
والليل إذا دخلت فيه .
(٧) الليل الأليل . شديد الطلعة .
(٨) الشيم : النظر إلى الدار ، يقال : شام السحاب أو البرق شاما : نظر إليه أين
يقصد وأين يخطر

فطار بحقف ابنه الجن ذو سفاق قد أخلق الحملا (١)
إذا كل أمهيته بالصفاء ضد ولم أره صيلا (٢)
عطاءة قمر لها حلتنا ن من ورق الطلع لم تنزلا (٣)
فمن سال أين ثوت جارتى فإن لها باللوى منزلا
وكنت إذا ماهمت اعتزمت وأحر إذا قات أن أملا

* * *

لا يستطيع دارس موضوعى بمعنى الحقيقة إلا أن يقرر بأن الشعر العربى فى العصر الجاهلى - شأنه شأن غيره من أشعار الأمم الأخرى - كان له مساره الخاص به، وسماته التى تميزه من غيره ، وافتى فرصتها عليه الأيئة العربية ؛ بحيث تختلف أجسامه الفنية عن أجناس الشعر العربى بالقدر الذى يربط كل شعر ببيئته .

من ثم لا يحق لدارس أن يطلب فى الشعر العربى ما يطلبه فى الشعر الغربى ، ولا أن يطلب فى الشعر الغربى ما يطلبه فى الشعر العربى ولا يحق لدارس - بناء على ذلك - أن يقارن شعر أمة بشعر أمة أخرى ولو فى الجنس الواحد الذى يتفقان عليه ؛ إذ منشأ الجنس فى هذا الشعر ما ليس لمنشئه فى ذلك . كما لا يحق لدارس أن يلم شعراء أمة بما ألزم به شعراء أمة أخرى ، ولا يحق لمنصف أن يقيس اتجاهات شعر أمة بما عليه شعر أمة أخرى ، بل على المنصف أن يقيس هذا وذاك بمقياس عام محدد واضح ، ثم يخص كل أمة بمقاييس تتلاءم مع متطلبات البيئة فيها بكل أبعادها . فبدلاً من أن يطلب فى الشعر العربى الهيئة القصصية التى كان عليها الشعر اليونانى ، يجب عليه أن

(١) القحف - بكسر القاف - المظم فوق الدماغ وما انقلب من الجمجمة فبان ، ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء ، ذو سفاق : السيف ، وهى طرائمه التى يقال لها الفرزد ، الواحدة سفاقة بكسر السين .

(٢) أمهيته : أحدوته ورقةته ، يقال : أمهى الحديدية : سقاها الماء وأحدها .

(٣) النطاءة : دويبة معروفة على خلفه سام أربص ، أعظم منها شيئاً .

(٤ - الأدب العربى)

يلاحظ ما في الشعر العربي من الأجناس الفنية ، والطرائق البيانية دون مراعاة لما عليه غير الشعر العربي . . . فإذا وجد الشاعر يقص فلا يطلب منه أن يقص بهذه الطريقة أو تلك ، إنما عليه أن يتبع قصه وقصص غيره من أداء أمته ، ثم يتفحص مساره فيها ، ليحدد منهجه ، ويبين أبعاد القصة لديه ، ويقارن بين القصة عنده والقصة عند غيره ، بحثاً عن العوامل والوآثرات التي وجهت كلا وجهته الخاصة به^(١)

(١) أنظر الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام للمؤلف ص ٤٦ - ٥٦ .

الفصل الثالث

مصادر الأدب الجاهلي

لعبت البيئة العربية الجاهلية دورا فعالا في تحديد الوسائل التي تنقل أدهم إلى الأجيال التالية ، بل لقد كان لها أثرها الواضح في تحديد الوسائل النافذة له من قبيلة إلى قبيلة في الوقت ذاته ؛ إذ طبيعة الحياة العربية في ذلك العصر لم تفرض على أهله الكتابة والقراءة إلا في أضيق الحدود ، حيث لم يشعروا بالحاجة إلى المكتوبات إلا في الأغراض السياسية والتجارية . أما بما عدا ذلك ، لم تصادفهم فيه ضرورة تلجئهم إلى تدوينه وكتابته ، فالأديب منهم يمشي في كنف القبيلة بفنه البياني الذي يمتد على الإلقاء أكثر مما يمتد على أية وسيلة أخرى ؛ لأن العربي كان يشعر بأن صوته بكل أساده يصفي على ما يقول كثيرا مما يريد أن يبلغه سامعيه ، ولا تستقل الحروف المركبة وحدها بإصاله . وإذا حدث أمر طارئ ، واحتاجت القبيلة إلى إبلاغ صوتها لمن يقيم خارج حدودها أوفدت من بينها الأديباء من يؤدي هذا الدور بنفسه خطيبا كان أو شاعرا .

ودارس الأدب في هذا العصر حين يتدرج في سلم انتقال آدابهم إلينا من عصور التدوين إلى العصر الجاهلي . . . يلاحظ أن وسائل انتقال النثر تختلف بمصر الشيء عن وسائل انتقال الشعر بما يتناسب مع طبيعة كل جلس ومتطلباته ، بيد أنها لا تختلف في النثر بما يميزها عنها في الشعر .

فإذا كان الشعر سلك في طريقه إلينا سبيلين متصلين هيأتهما له مكانته في نفوس العرب ، هما سبيل الرواية ، وسبيل التدوين ، فإن النثر - بفنونه المختلفة - قد سلك هذين السبيلين مع شيء من الاختلاف يتضح في استمرارنا مصادرهما فيما يلي .

وإنما سلك الأدب الجاهلي - بحجسه - في طريقه إلينا هذين السبيلين ؛ لأن الكتابة لم تكن عند العرب الجاهليين - بدوهم وحضرم - قد أخذت مكانها معارفهم وآدابهم ، على الرغم من ثبوت معرفتهم بها وشيوعها بينهم في الجاهلية ، وإننا إلى الآن

لم تقف على دليل قاطع يؤكد أن الجاهليين اعتمدوا على الكتابة في حفظ آدابهم وسيرورتها عبر الزمان وللمكان ، ولم يثر الباحثون والمقبولون بمدى وثائق جاهلية صحيحة تتضمن شيئاً من الفنون البيانية وكل ما وصلنا من أخبار عن وجود أدب جاهلي مكتوب - إن صحّت تلك الأخبار - إنما تعلق بقطع شمعية تكتب على رطل أو حجر أورق أو عظم لناية من غيايات الإبلاغ والتلبيه ، أو تتماق بيمص حكّ وأمثال مما نسب إلى لقمان على ما روى ابن هشام من أن سويد بن الصامت قدم مكة حاحاً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلهو الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرضها على ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزل الله على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبد منه ، وقال : إن هذا القول حسن (١) .

قالعبر لا يفيد أكثر من أنه كان عند العرب في هذا العصر صحيفة بها بعض الحكم والأمثال مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ولكنه لا يدل على أنهم توسلوا بالكفاية في إذاعة بيانهم ونشره . ومناقشة هذه القضية - نفيًا أو إثباتًا - تتمتع على الفرض والحدس ، وليس هناك ما يدعونا إلى مثل ذلك في دراستنا مادامنا نستطيع أن تقدم الحقيقة من الواقع المقرر .

أى أننا لا نجد بدا من أن نقرر أن هذا الفيض الأدبي وصلنا من العصر الجاهلي أولاً عن طريق الرواية المنطوقة ، وامتدت - في جملتها - حتى أخباريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين

* * *

والناظر في نثر هذا العصر يلاحظ أن رواة يدررون في ثلاثة محاور .
أحدها : العامة ، وهؤلاء هم رواة الحكم والأمثال الذين طوامم الشيوع ، فلم تناسب حكمة أو مثلاً إلى راوٍ بشخصه ، وإعما هي أقوال أكثر دورانها على الألسنة

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٨ طبعة الحلبي .

لإيجازها ، ودقة تركيبها ، وسمو محتواها ، وقوة تأثيرها في نفوس سادحيها ، لما تنطوي عليه من خبرة بالحياة وصدق تجربة .

لقد كان عمل الرواة في نقل الأمثال والحكم لا يمد التمثل والاستشهاد في الموقف المشابه، إذ هي - كما هو معروف - عبارات تصرب في حوادث مشابهة للحوادث الأصلية التي صدرت فيها عن قائلها . فهو يجري على السنة المتمثلين كما جرى على السنة قائله ، بدون أي تفتير فيه ، مهما كانت دواعي التفتير ، كما هو الشأن في بعض الأمثلة التي رويت مخالفة لقواعد النحو والتصريف مثل قولهم . « أجناؤها أبناؤها (١) » . وقولهم : « أعط القوس باريها (٢) » وقولهم . « الصيف ضيبت اللبن » بكسر اللام يخاطب به المدكر والمؤنث والفرد والثني والجمع ، دون تمييز ، من كل ما يقرر أن راوي المثل ملتزم بحرفه ومبناه ، مما ضمن لهذا الفن البياني انتشارا زمانيا ومكانيا مع الاحتفاظ بصورته الأصلية ، فأصبح - بذلك - أصدق فنون القول ، تمثيلا للأدب الجاهلي .

هذا إلى ما صادفه ذلك اللون الأدبي من اهتمام المدونين ، فسكان في مقدمة مادونه العرب من الأجناس الأدبية ، حيث سارعوا إلى تدوين الحكم والأمثال ، وبدأوا ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الهجري الأول على نحو ما صنع صحر العبيدي في عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) ، وهو أحد اللسابين العرب ، فقد ألف كتابا في الأمثال ، كما ألف معاصره عبيد بن شربة كتابا آخر في ذلك ، ذكره ابن النديم ، وقال إنه رآه في نحو خمسين ورقة (٣) . فلما كان العصر العباسي ازداد إقبال العلماء والأدباء على جمع الأمثال والحكم وتدوينها ، والتفتين في عرضها ، فوفروا لنا مجموعة من الكتب التي حفلت بالأمثال ، وقامت على ترتيبها وشرحها وتفسير إيماءاتها مثل كتاب أمثال العرب للمفضل العبي ، وتلاه أبو عبيد القاسم بن سلام فألف كتابا في الأمثال ، شرحه من بعده أبو عبيد البكري تحت عنوان . « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام » ثم توالى المؤلفات في هذا الباب ، وكان

(١) جمع جان وبان ، والقياس الصرفي . جناها وبناتها ؛ لأن فاعلا لا يجمع على

أفعال .

(٢) بتسكين الياء في باريها ، والأصل فتحها .

(٣) المهرست لابن النديم ص ١٣٢ .

من أبرز ما قدم فيه . كتاب « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري ، وكتاب « مجمع الأمثال » للبيدائي ، الذي جمع مادته بالرجوع إلى ما يربو على خمسين كتاباً (١) .

حقيقة كان للمنهج الذي سار عليه أكثر المدونين في كتبهم أثر كبير في اختلاط الأمثال ، فأصبح من العسير تمييز أمثال الجاهلي من أمثال العصر الإسلامي ، وذلك لأن مدوني الأمثال ركزوا جهدهم في ترتيبها في أبواب على حسب الترتيب الأبجدي دون الاهتمام بذكر عصرها . اللهم إلا ما نسب من الأمثال صراحة إلى قائله ، فإن هذه النسبة تحدد عصره مادام عصر قائله معروفاً .

أضف إلى هذا ما يصاحب الحكمة والمثل - في هذا السكتب - من قصص ترجع إلى العصر الجاهلي ، أو ما يأتي المثل في ثناياه من قصص جاهلي ، فقد ذكر البيدائي ثمانية عشر مثلاً وردت في أنباء قصة الزباء ، مثل : « بيدى لا بيد عمرو » و « لا يطاع لتصير أمر » .

وأكثر من نسبت الأمثال إليهم صراحة كانوا من حكماء العصر الجاهلي بد أن منهم من يوغل في التقدم مثل لقمان عاد الذي رددت اسمه السنة شمراهم وحكامهم ناسبين إليه الحلم والحكمة ، وبه يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يذكر بالفن والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والسكران . لقمان عاد . » (٢) ، وهو غير لقمان الحكيم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم كما نص على ذلك المفسرون (٣) وصرح به الجاحظ (٤) كما روى طرفاً من تماليم لقمان الحكيم ذات الطابع الديني (٥) ، واهتم كذلك - تذكر وصايا وحكمه كتب الفقه والتفسير ، مثل موطأ مالك ومفسر أبي حيان ومنهم من يدنو من العصر الإسلامي ، كما مر بن الظرب السدواني ، وأكرم ابن صيفي التميمي ، وكان من العمرين ، حتى قيل إنه أدرك الإسلام ، ومات وهو في

(١) انظر مقدمة « مجمع الأمثال » للبيدائي .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها .

(٣) تفسير أبي حيان ج ٧ ص ١٨٦ ، وقصص الأنبياء للثعالبي ج ٥ ص ٣٤ طبعة القاهرة

وانظر في ذلك خزنة الأدب للبيدائي ج ٢ ص ٧٧

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٩ .

طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامه^(١) وقد ذكر السيوطى طائفة من الأمثال والحكم للنسوبة إليه نقلًا عن ابن دريد في أماليه^(٢)؛ مثل : « لا جماعة لمن احتاف » ، « شر المصرة التمدى » ، « كل ذات بعل ستئيم^(٣) » ، « لا تطمع في كل ما تسمع » .

• • •

ثانيها : القصص . وهؤلاء هم المسامرون الذين كان يجتمع إليهم أبناء القبيلة طلبًا للسمر والتسلية حين يرخى الليل سدوله ، فينصتون إليهم ، ويتابعون ما تنبس به شفاههم ، ولا ريب في أن القاص كلما رأى من الحاضرين إنسانًا وإقبالًا بذل المزيد من الجهد ليظل على تسلطه وتمكته من السيطرة على الحاضرين ، فيفيض على القصة من خيال ما يهر به سامعيه ، ويتحرك بمواطنهم كيما شاء من الإعجاب إلى الإشفاق ، ومن الخوف إلى الأمان والاطمئنان ، ومن الشفقة إلى القسوة . . .

وظل هؤلاء للقصص على منهجهم يتوارثون ذلك الفن مع إنسائه اللاحق على ما خلف السابق بالقدر الذى يلائم أذواق سامعية ، وهذا لأطوار الحياة فلما كان العصر الماسى لجأ الرواة واللغويون إلى تدوين ما تحت أيديهم من قصص تتضمن - في أكثرها - أيام العرب ووقائعهم ، سواء فيما بين قبائلهم بعضهم مع بعض أو ما كان بين بعض القبائل العربية وغير العرب من الفرس أو الروم أو الأبحاش ، مما تجده في السيرة النبوية لابن هشام ، وفي تاريخ الطبرى ، والأغانى ، والأمالي ، وغير ذلك .

ولم يتوقفوا في قصص البطولات عند قصص البطولة العربية ، فقد قصوا - كذلك - عن بطولات من الأمم المجاورة غير العربية ، على نحو ما كان يقصه الضمر بن الحارث

(١) أنظر مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ١٤٥ ، وجمهرة الأمثال للمسكوى على هامش مجمع الأمثال ج ١ ص ١٢٠ والمعرين للسجستاني ص ١٠ والأغانى ج ١٥ ص ٧٠ طبعة ساسى .

(٢) الزهر للسيوطى ج ١ ص ١ طبعة الحلبي .

(٣) تئيم : يهلك عنها زوجها .

في مكة بقصد صرف الناس عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تملم في الحيرة أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس محمد صلى الله عليه وسلم مجلسا تذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خافه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله بأعشر قريش أحسن حديثا منه ، فهل إلي ، وأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار (١) . .

ولم تقتصر قصصهم على البطولات - العربية وغير العربية - فقد قصوا كذلك عن شمرأهم ، وساداتهم ، وكهانهم ، كقصة المرقش الأكبر مع أسماء بنت هوف ، وما حدث له حين تقدم لخطبتها من أبيها ، الذي طلب منه مالا يطيق ، فاحتمل في سبيلها المشتات ، ورحل ليحقق ما طلب منه ، حتى إذا عاد وجدها روجا لمبره . . الخ (٢) .

وقصوا عن الجن والمفاريت والشياطين والقيلان ، والحيات ، بل لقد صنعوا حرافات عن الحيوانات ، مثل خرافة الحية والفأس . فقد رعموا أن حية قتلت رجلا ، فطلبها أحوه ليقتلها ، فاحتالت حتى صالحها وعاهدته على أن تترك له الوادي ، وتمطيه كل يوم ديناراً ، فلما كثر ماله ، وأصبح من أحسن الناس حالا ، ذكر أخاه ، وما أصابه على يدي الحية ، فأتجه إلى قتلها ، وعمد إلى رأس فأحدها ، ثم عمد للحية ، فلما مرت به تبعها ثم ضربها ، ولما رأته أخطأها ، فلما رآها تنجو من الصربة وتدخل الجحر رمى الفأس بالجبل فوق وقع فوق جحرها فأثر فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تمطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها ودم ، وقال لها : هل لك في أن تتواثق وتورد إلى ما كنا عليه ؟ قالت ، كيف أعاهدك وهذا أثر رأسك ، وأنت فاجر لا تبالي المهدي (٣) ؟

ولاريب في أن هذه القصص لا تمثل القصة الجاهلية بكل أبعادها ؛ فقد تنسب أسلوبها ونسقها البياني من قاص إلى آخر ، فتصاري هذه القصص أنها تقدم مضمون القصة الجاهلية وروحها وجانبها كبيرا من ملاحظتها وطبيعتها ؛ وما ذلك إلا لأن شيئا من

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٢١ طبعة الحلبي .

(٢) راجع القصة في الأغاني ج ٦ ص ١٢٩ وما بعدها طبع دار السكتب

(٣) أنظر أمثال العرب للضي ص ١٠٦

هذه القصص التي تضاف إلى الجاهليين لم يصل إلى المدونين مكتوباً ، ولا بطريق العتمة في الرواية ؛ لأن وكند القاص أن ينقل مضمون القصة في إطار من حياله وأسلوبه ، دون حرص منه على شيء أكثر من ذلك .

ثالثاً : الأمثلة ذاتها ؛ وذلك لأن كثيراً من هذه القصص اعتمدت في روايته على الإيحاء والإشارة للبيثقة من بعض الأمثلة ، فيمكن أن يذكر مثل من هذه الأمثلة لتتوارد الأحداث على خاطر السامع ، على نحو ما رأينا في قصة الحية والفأس ، وقيامها على المثل السائر . « كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك »

أى أن المثل يقوم في ذلك المجال بدور الراوي الذي يعتمد على الإيحاء والإيحاء . فهو محرر تخبرن طواياها أحداث القصة

وهذا يعني أن المثل وظيفة أخرى إلى جانب وظيفة البياينة المهودة ، فلقد لجأ العرب الجاهليون إليه ، متوسلين به في نقل قصصهم وما تضمنته من أحداث ومواقف لم تتوفر لها في ذلك العصر من وسائل الإداعة سوى مثل ذلك .

أما ما عدا ذلك من فنون النثر كالخطابة والنداءة والرصايات فقد اعتمدت في روايته على الرواة المخصوصين ، شأنه ذلك شأن الشعر ، بيد أن الشعر كان أيسر في روايته وانتقاله عبر الأزمان والأماكن . على ما سنرى في الصفحات التالية . أما فنون النثر تلك فلم يكن ميسوراً حفظها ونقلها بحالها كما نطق بها الخطيب أو اللوصي ، وإعماكل ما حرص عليه الراوي . فما زى . أن ينقل لنا نظرة قائمها وأهـكاره ، في قالب قريب الشبه بالقالب الأصلي . . .

من ثم نستطيع أن نقرر أن فنون النثر الجاهلي تورد لها من وسائل الرواية ما يناسب كل فن بحيث تتمكن هؤلاء الرواة . على اختلافهم . من أن يربطوا العصر الجاهلي ونثره بما تلاه من العصر . وإن لم يكن بالشر ذاته فهو . على أقل تقدير . بصورته العامة التي كان عليها . وعليه ملاحق لمن يذكره هذا الجنس الأدبي أو يتشكك كون فيه ، إلا في تلك الحدود التي أو ضحت .

أما الشعر الجاهلي فتعد سلك في طريقه إلينا من العصر الجاهلي طريق الرواية الشخصية المنطوقة ، التي امتدت حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين .

ولأهمية الشعر في حياة العرب قام على الرواية طائفة من الشعراء أنفسهم ، فتعدت الرواية وسيلة من وسائل الران على صوغ الشعر ، وأصبح على من يريد التفوق في الشعر أن يلزم شاعراً أو أكثر يأخذ عنه ما يقول ، ويذبح بين العرب ما يأخذ ، ويظل هكذا حتى بلين الشعر على لسانه ويتمكن منه ، ويشتهر أمره ومذهبه ويأتي من يتلمذ عليه ، ويروى عنه ، وهكذا راو عن راو في سلسلة متصلة .

فكانت رواية الشعر لهؤلاء شغلهم الشاغل ، وعملهم القدي يقفون أنفسهم عليه ، والذي تدعمهم إليه القبيلة دفءاً ، كما نرى اليوم في المدرسة الحديثة حيث تحوى تلميذها بالتعليم والتأيين ، فاذا أتم تعلمه فيها ، تولى تعليم من يليه من الأجيال .

ولقد حرص العرب على ذكر الصلة بين الرواه في بعض الأحيان ، حق استطاع الأصمغاني أن يقدم لنا في أغانيه بعض ما وقف عليه من تلك السلاسل ، مثل أوس بن حجر التميمي الذي روى شعره زهير بن أبي سلمى المزني ، حتى أجاد الشعر وبرز فيه ثم كان له رويتان هما كعب ابته والحطيئة ، وعن الحطيئة روى الشعر هذبه بن حشرم المذري ، وعن هذبه أخذ جميل بن ممر صاحب ثبية ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة (١) .

وبينا نلاحظ أن الرواة في السلسلة السابقة كانوا من قبائل مختلفة ، نخدم مرة أخرى مرتبطين بشاعر القبيلة ، فقد ذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان واوية لحاله المسيب ابن علس (٢) ، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لمساعدة بن جؤية الهذلي (٣) .

ولما كان عهد عمر رضي الله تعالى عنه الخليفة الثاني وأنشأ الدواوين ، مست الحاجة إلى الرواية والرواة للتعرف على الأنساب لتحديد رواتب الجند على أساسها ، فبدأ

(١) الأغاني ج ٨ ص ٩١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٤ بتحقيق شاعر .

(٣) للرجع السابق ج ٣ ص ٦٥٣ نفس الطبعة .

الرواية تتحول إلى حرفة يخلص لها بعض الأفراد أنفسهم تماماً، ويحملونها عملهم الذي تقوم عليه حياتهم ، وساعد على ذلك ما تميرت به الدولة الأموية ، فقد كانت ذات نزعة عربية متمسكة ، جعلت الخلفاء الأمويين حريصين على حفظ التراث الشعري ، وأقبلوا على الرواة ، وتبعوا وفود القبائل يسألونهم عن بعض الشعراء توطيداً لسلطانهم على تلك القبائل

ونجدهم مرة ثالثة مرتبطين بوحدة سلوكية تضم أطرانهم ، وتجمع بين أبادهم ، كما نرى من بعض الصماليك ، حيث يأوى الشاعر الصماليك إلى مثيله الذي ضمعه من نفسه موضع الأستاذ في الصماليك وفي الشعر ، فيقوم على رواية شعره ، ويأخذ نفسه بأسلوبه في الصماليك ، ليكون من غير شعور حلقة في تلك للسلسلة الممتدة ، فقد كان الشفري يتلفذ على تأبط شعرا ويصحبه في كثير من غاراته وما زال إلى حواره حتى أتم تدريبه ، وأصبح له في ذلك الميدان شأن (١) .

وكما نرى من الشعراء المرسان ، حيث يلازم أحدهم الآخر افتناناً بفروسية وجودة شعره ، فيأخذ نفسه بمنهجه وأسلوبه في حياته ، ويروي عنه ما يقول ، مثلما صنع زيد الحبل مع أبي دؤاد الإباري .

ويلاحظ الدارس أن رواية الشعر لم تسكن رقفاً على الشعراء وحدهم ، فقد كان يشارك الشعراء في ذلك - في كثير من القبائل - أفراد القبيلة عامة ، إذ كان الشاعر هو المتحدث بلسان القبيلة ، لما يقوله إنما هو تعبير عن القبيلة وإعلان عن مكانتها من تسجيل لمفاخر أبنائها وانتصاراتهم ، ومريرهم بأعدائهم ، وإبرار لما يشيرون من نقائص ومعايب .

واستمرت الرواية حتى ظهر الإسلام ، فلم يكن عائقاً ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يستنشدون الشعراء والرواة ويصفون إلى ما ينشدون ، قال الشريد ابن سويد الثقفي استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصمات فأثدته فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول هيه هيه ، حتى أثدته مأه قافيه (٢) . وكان

(١) راجع الاغانى ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وحرارة الادب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٧٦ ، وخزانة الادب ج ١ ص ٢٧٧ والمزهر

كثير من الصحابة بروون الشعر ويحفظون أنساب العرب وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق الذي كان يتمثل بالشعر في مص خطبه كما صنع في خطبته يوم السقيفة . أما عمر بن الخطاب فكان حريصا على أن يلم بأخبار الشعراء ، فكان يسأل الوافدين من شتى مناحي الجزيرة عن شعرائهم ويستقصي أخبارهم ويردد أشعارهم حتى قال فيه ابن سلام : كان لا يكاد يمرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر (١) .

ومن ثم أصبح من مفاحر الشعراء في عصر صدر الإسلام وما تلاه أن يشتر الواحد منهم برواية الشعر ، فلم يكن هناك شاعر مبرر إلا وهو يتمدد على شعر الجاهليين راية وإنشادا ونائرا ، حتى سمعنا صوت الفerezدي منتخرا بما ناله من هذا الشعر في قوله (٢) .

وهاب التنائيد لي النوابيع إذ مضوا	وأبو يزيد ، وذو القروح ، وجرول (٣)
والفحل عاقمة الذي كانت له	حلل الماوك كلامه لا ينحل (٤)
وأخو بني قيس وهن قتلته	ومهلل الشعراء ذلك الأول (٥)
والأعشيان كلاهما ومرقش	وأخو قضاة قوله يتمثل (٦)
وأخو بني أسد عبيد إذ مضى	وأبو دؤاد فوله يتخجل (٧)
وابننا أبي سلمى زهير وابنه	وابن الفريمة حين جد للقول (٨)

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الديوان ج ٢ ص ١٥٩ طبع بيروت .

(٣) النوابيع : الداعة الندياني والجمدي والشيباني ، وأبو يزيد : المحجل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الخطيئة .

(٤) عاقمة بن عبدة الملقب باللقب بالفحل

(٥) أخو بني قيس : طرنة ، والمهلل بن ريمة ، أخو كليب وائل ، وهن قتلته :

يريد القرافي ، لأنه قتل بسبب أهليه .

(٦) الأعشيان : أعشى قيس ، وأعشى باهله ، والمرقش الأكبر ، وأخو قضاة :

أبو الطامحان القيني .

(٧) عبيد بن الأبرص ، وأبو دؤاد : جارية بن حمران الإباضي .

(٨) ابن الفريمة : حسان بن ثابت .

والجعفرى وكان بشر قبله لى من فمائه الكتاب المجلد (١)
ولقد ورثت لآل أوس منطلقا كالم خالط جانبيه الخنظل (٢)
والخاتى أخو الحماس ورثته صدعا كما صدع الصفاة الممول (٣)

ولم يكن الاهتمام برواية الشعر فى تلك الفترة وقفا على العرب ، ولا مقصورا على الشعراء ، فقد شارك فى هذا الميدان كثير من السلمين غير العرب ، كما حرص على رواية الشعر من غير الشعراء كثير من أبناء هذا العصر ، خصوصا أولئك الذين كانوا يروون الشعر فى ثايات قصص صيغت من أخبار الجاهليين تقدم للطلاب فى حلقات الدرس المتأمة فى المساجد الجامعة ، بقصد التعريف بالحدث التاريخى أو الكشف عن المدلول اللغوى لبعض الالفاظ

ومن ثم حرص هؤلاء الرواة على تتبع الشعر وأخبار العرب فى البيئات البدوية طلبا للدقة فى الرواية، وحرصا على الاخذ من المبع فأبدى هؤلاء فى عملهم هذا مهارة وتفوقا لم يهد من قبل فى غيرهم

وإذا كانت الرواية نيا قبل الإسلام راجعة إلى حاجة القبيلة من الدعاية الإعلامية فإنها نيا بمد الإسلام كانت ترجع إلى دوافع أخرى من أبرزها حفظ اللمة، والوقوف على معنى الفاظها طرائق استعمالها فى سبيلهم إلى تفسير القرآن الكريم ، والوقوف على مقاصده، كما صنع ابن عباس ومن مسار مساره من بمدة فى تفسير القرآن الكريم . والاستشهاد بالشعر الجاهلى على ما يرى .

لقد حمل الشعر الجاهلى إلى الاحيال التالية رواية كثير من مختلفو الاغراض والوسائل متباينسو النزعات والمواطن ، برز من بينهم فى أواخر العصر الإسلامى طائفة الرواة المحترفين ، الذين ترددت مبيشتم بين الكوفة والبصرة غالبا ، فكانوا نواة اتجاهين فى الرواية مختلفين ومتصارعين ، مرواه الكوفة فى الجملة متساهلون ، اشهر من بينهم كثير من الناحلين والوضاعين ، وعلى رأسهم حماد . ولكن كان من بينهم رواية ثقات مثل الفضلى بن يعلى الصبي ورواة البصرة فى الجملة متحفظون متشددون وعلى

(١) الجعفرى : لبيد بن ربيعة ، وبشر : هو بشر بن أبى خازم .

(٢) أوس : هو أوس بن حجر .

(٣) الخاتى : هو أخو الحماس النجاشى .

راسهم أبو عمرو ابن العلاء (١) المشهور له بالامانة والورع ، وهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم ، وأحد مؤسسى مدرسة البصرة النحوية ، ولكن كان من بينهم الرواة للتممون ، مثل حنف الاجر الذى أقر على نفسه فى زعمه بأنه كان يخطى حمادا للمتحول من الشعر ، وزيف عليه ميزويه : يقول أبو الطيب اللوى : « والشعر بالكوبة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومدرب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم » (٢) .

وفى هذا الجو المتلاطم بمختلف الاتجاهات والزرعات نشأت طائفة ثالثة أحلصت نفسها وجهدها لاختل ما يروى والتصدى لكل رواية يزيف أو ينحل كما كان شأن الأصمعى وأبي ريد الأنصارى .

هإذا كان بمص الرواة قد أدخل على الجاهيلين ما ليس لهم من الشعر ، ورور فى الرواية فنسب إلى بعض الشعراء ما ليس لهم . . .

إذ كان هذا حال بمص الرواة ، فقد أتيح للأمة العربية من أبنائها من وقف نفسه على تحقيق الشعر المروى وتحصيصة ، فكتبوا للرواة بالمرصاد .

ومن ثم المسمى فى حاجة إلى الشك فيما وصلنا من الشعر الجاهلى - على ما دعا إليه الدكتور طه حسين - لأن سلفنا سبقونا إلى ذلك فى فترة التحول من الرواية إلى التدوين ، وقاموا - عن قرب بمصوّر الشعراء - بما يريدنا الدكتور طه حسين تأثرا بفلسفة (ديكارت) أن نقوم به اليوم ، على بمد نحو خمسة عشر قرنا من الزمان

(١) ولد سنة ٧٠ هـ ، وتوفى سنة ١٥٤ ، وقيل ١٥٩ ، قال الجاحظ : « وكان أعلم الناس بالقرىب والعربية وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيئنا له إلى قرىب من السقف . . . ثم إنه قرأ - أى تنسك - فأحرقها » البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢١

(٢) مرآب النحويين ص ٧٤

٣ التدوين :

واضح مما بين أيدينا من المراجع الأدبية والعامية أن تدوين الشعر - عموما - لم يبدأ إلا في أواخر العصر الأموي ، وأن التدوين بدأ في أول الأمر تدوينا من التلاميذ لما يعلية عليهم شيوهم في الأدب أو في النحو أو في التفسير . ثم تلاه هؤلاء طائفة من الرواة المدونين حرصوا على أن يكون عملهم منهجيا قائما على أصول وقوانين ثابتة ، فألزموا أنفسهم بتمحيص ما يسمعون عن طريق المقابلة والموازنة ، كما ألزموا بالارتحال إلى الصحراء طلبا للعرب الخاص ليوثقوا ما يدونونه على ما اشتهر من أمر الأصمى للتوفى نحو سنة ٢١٥ هـ وأبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ هـ .

أما فيما قبل العصر الأموي ، فقد كان اعتمادهم بالدرجة الأولى على الحافظة ؛ إذ لم يثبت أن الجاهليين اعتمدوا في حفظ شعرهم وغيره من الفنون الأدبية على الكتابة والتدوين .

وما روى من أن بعض المنطوقات الشعرية كانت مكتوبة لا يعنى - على فرض التسليم بصحته - أكثر من أن ذلك كان بقصد الإبلاغ ، وليس بقصد الحفظ والتدوين .

ولا ريب في أن الفسارق كبير بين ما كتب إبلاغا وما كتب تدوينا ؛ إذ الأول نوع من الرسائل والمسكاتبات توحه من شخص إلى آخر أو من قبيلة إلى أخرى أو إلى بعض أمرائها للابناء بما وقع أو سيقع من أحداث على نحو ما روى من رسالة لقيط بن يمر الإبادي وهو في أرض دارس إلى قومه ينبئهم بما يعد لهم كسرى ، ويحذرهم من الفعلة ، تلك الرسالة التي ضمنها قصيدته الميمنية ، ومطلماها يقول :

أبلغ إيادا وحلال في سراهم أي أرى الرأي إن لم أعص قد نصما

ولقد قرر الجاحظ ذلك في قوله : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . . . فما هو إلا أن يصرف - يعني العربي - وهم إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالا ، وتمثال عليه الألفاظ اثمالا ، ثم لا يقبده على نفسه (١)

ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزل عليه القرآن الكريم بدأت حاجة المسلمين إلى تعلم الكتابة تظهر، واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم من بين المسلمين من يقوم بالكتابة له، وخص من بينهم طائفة بتدوين ما ينزل من القرآن الكريم، وطائفة بكتابة الرسائل والمهادت التي تدعو حاج - الدولة الناشئة إليها . . . فكان ذلك تمهيدا وتأسيسا لحركة التدوين التي وضعت معالمها في العصر الأموي، وإذا امتدت في جهات متعددة، وتناولت موضوعات شتى، ولم تقف عند الحد الذي بدأت فيه في عصر صدر الإسلام .

أما الشعر فقد استمر العرب في نقله وترديده على ما كان عليه أسلافهم في العصر الجاهلي، ولم يؤثر عنهم تقييده إلا في القليل الدار - على اختلاف الداعي إلى ذلك - فإذا كان في الجاهلية صارفهم عن التدوين الجهل بالكتابة وندرة الكتّابين والقارئین، فإن صارفهم عنه في صدر الإسلام قلة اهتمامهم بالشعر، وإكبابهم على القرآن الكريم وكل ما يتصل بالدين الحديدي .



كما يتضح من النظر في المدونات التي ظهرت منذ العصر الأموي أن مدونى الأدب اختلفوا عن مدونى اللغة والنحو، فام يهتموا بالتدوين الشامل المستقصى، ولكنهم لجأوا إلى الاختيار والانتقاء، ولكل منهجه في اختياراته، كما صنع حماد في (السموط) أو (الملقات)، وكما صنع الفضل بن محمد يعلى الضبي في مجموعته التي سماها (الاختيارات) والتي سميت فيما بعد بالفصليات، وكما صنع الأصمعي في الأصمعيات، وكما صنع في جمهرة أشعار العرب الذي ينسب إلى ابن أبي ريد محمد بن أبي الخطاب القرشي، إلى غير ذلك .

ويلاحظ أن الذين كانوا يقومون بالتدوين في هذه الفترة لم يكتبوا - في الغالب - هم أصحاب المدونات، وإنما هم تلاميذهم الذين كانوا يدونون ما يتلقون عنهم من مختلف العمون البيانية شعرا وشرا، أدبا كان أو علما

وستطبع أن نرى في ذلك مرحلة انتقال تقوم بين عهدى الرواية الخالصة والتدوين الكامل . فهو مسار طبعي يرينا التدرج من الرواية إلى التدوين؛ فقد ذكر صاحب

الفهرست أنه « لم ير لحمد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصفت الكتب
بمده » (١) .

ولم يقتصر هذا على الشعر والأدب، وإنما كان هو المنهج العام الذي شمل كل فروع
المعرفة والفن المطوق ، فالذي دون أخبار محمد بن السائب الكاكي هو ابن هشام ،
ولم يعرف أن الخليل بن أحمد دون كتابا في النحو ، ولكنه أملى إملاءات جمع منها
سيبويه كتابه المشهور .

كما يلاحظ أن تدوين الشعر واجه في أول أسره مقاومة ؛ لما قد ينشأ عن ذلك
من تحريف وتصحيف لاشك يسلم منها الشعر المروي مشاهرة ؛ إذ الشعر يحتاج إلى
تلقين وسماع حتى يسلم من اللحن ، ولذلك صنف ابن سلام رواية من يعتمدون على
الكتب ، حيث يقول : « وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » (٢) .

ومعنى هذا أن تدوين الشعر في تلك المرحلة لم يقم على منهج محدد العالم ، واضح
الإنجازات ، وإنما كان عملا تلقائيا ، يصدر عن صاحبه دون إعداد مسبق .

* * *

ولكن التدوين بعد ذلك يتخذ سمنا محتلما عن هذا السمات ، حيث يقترب به
المدونون من التأليف على نحو ما صنع أبو تمام في حماسته ، والجاحظ في البيان والتبيين ،
والبردي الكامل ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، وكما صنع
أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني الذي يقع في واحد وعشرين مجلدا فقد حرص
على أن يقدم الشعر الجاهلي - أو غيره - مصحوبا بالأسانيد التاريخية ، معتددا على
الأسانيد التي توضح المصدر ، مع تقييم رواته ، والتلبيه إلى ما اشتهروا به من صدق

(١) الفهرست لابن النديم ج ٣ ص ٣٠٣ طبع الرحمانية .

(٢) الصحفى - بضم الصاد والحاء - الذى يأخذ عن صحيفة ، لم يعرض على
الملاء ، ولم يتناق على بالرواية . راجع طبقات حوال الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق
وشرح محمود محمد شاكر .

أو كذب . وهو في ذلك كله يستند إلى ما قدمه رواة القرنين الثاني والثالث
الهجريين .

ومن ثم توسع المدارسون العرب في دراساتهم ، وتفننوا في تلويحها ، فكثر
التأليف ، وتمددت أشكاله واتجاهاته ، لكنه في الغالب لم يخرج على منهج الأصمعي
من الالتزام بذكر الأسانيد وتسلسلها ، كما فعل ابن دريد وابن الأباري ، وأبو علي
القالي ، والمرزباني .

قضية نحل الشعر وامتحاله

هذه القضية من أخطر القضايا التي تصادف دارس تاريخ الأدب - على وجه العموم - إذ لا يكاد عمل أدبي يسلم من دخيل يضاف إليه - سواء في ذلك الأدب العربي والأدب غير العربي ؛ لأن لعامل الزمن ، ووسائل النقل من الأجيال والأعصر النابرة أثرها في إحداث مثل هذه الإضافات والتغييرات .

وليس حتماً أن حدوث هذه الإضافات يتم بدافع من سوء المقصد المقدم يحدث هذا عن قصد ، وقد يحدث عن غير قصد .

وموطن الخطورة هو في نحل ما بين يدي دارس الأدب من نتاج أدبي للتعرف على الأصيل منه والدخيل ، ولا ريب في أن مثل ذلك من أعقق الأعمال التي تواجه الناقد في النتاج الأدبي المعاصر الذي يمايش أصحابه بظروفهم البيئية على اختلافها ، فإذا تباين زمان المدارس وزمان العمل الأدبي تضاعفت المشكلات التي يواجهها في البحث ؛ لاحتفاء بعض معالم الحياة السابقة بين طوايا الزمن . أما إذا اختفت جل معالم تلك الحياة ، فإن الباحث عندئذ يصبح كمن يبحث عن مخيط في صحراء

فإذا اجتمع إلى هذا وذاك خلو الأجيال المجاورة لهذه الأعصر النابرة من دارس يقوم بتحصيص ونحل النتاج الأدبي لمن تقدمه من الأدباء والشعراء . . . فإن الوصول إلى حكم على ما بين أيدينا اليوم بما هو منسوب إليهم يصبح ضرباً من الحدس والتخمين ، يفتح أمام كل مدقق باب التشكك والمحذر الشديد في قبول أو رفض ما ينسب إلى أبناء تلك العصور السالفة .

أما إذا وجد من علماء العصور المتأخرة لهذه العصور من تحمل عبء المسؤولية ، وقام بفحص ما حله الرواة منسوباً إليهم، مستعيناً في ذلك بالحدس والتحصيص بالوسائل العلمية المتقدمة . . . إذن فلا مكان للتشكك ، ولا مجال لإعادة البحث .

لا أقصد بذلك مصادرة الرأي الآخر ، ولا أريد أن أضغ بين يدي الباحث المجدد .

عوائق أو موانع ، إنما أنا أقرر بذلك حقيقة واقعة ماثلة يدهسها كل باحث موضوعي ، مجرد عن الغرس .

وذلك لأنني أرى أن من يتشكك فيما بين يدينا اليوم من شعر الجاهليين على مدى نحو ألف وخمسمائة عام إنما هو منكر لذلك كله يتستر خلف أسلوب علمي ليخلص منه إلى تقرير ماهر لديه باسم العلم ، والعلم ومناهجه من مثل ذلك براء ؛ لأن الشك لا يصح إلا فيما يمكننا أن نستقل بالتعرف عليه إقراراً أو إنكاراً لقربنا من مثاليه ، وتمكننا من التعرف على طبائهم ، وطبائع بيئاتهم الرمانية والمكانية والاحتماوية واللغوية عندئذ يستطيع الدارس أن يتشكك فيما وصله عن مثل هؤلاء ، ويقسه بمقاييس تلك الطبائع ويخلص من ذلك بما يصل إليه تقريراً أو إنكاراً

أما فيما انقطعت دونه السبل فهو إما عائد في تشككه ذلك إلى الشك في روايته أو إلى الشك في دارسيه الجاورين ولا ريب في أن هذا وذاك يعني من أول الأمر إنكار كل ما ينسب إلى أسلافنا من أدب وعلم باسم للمهج العلمي أو الشك الديكارتي ، وذلك لأن من يعطى نفسه الحق في أن يشك في رواية الأدب الجاهلي شكاً مطافاً هكذا ، ويقوم هو - على هذا البعد الزماني والمكاني - بتقييمهم ذاتياً وموضوعياً دون اعتماد على معلومات الأسلاف من الدارسين والباحثين والملاء . أقول إن من يعطى نفسه هذه الحق يريد أن يومم الآخرين بأن مآثرهم مسبقاً في هذا الشأن من غير حجة ولا بينة إنما هو نعمة - واردة وبمحت علمي مجرد ؛ إذ الذي يشك في أمر هو في الحقيقة يشك فيمن نقل هذا الشيء ، كما يشك في كل ما قيل في شأنه من إقرار أو إنكار ، ولا يثق إلا فيما يصل إليه هو . بعقله . . وعندئذ أسأل - مدهشاً - عن وسائله إلى ذلك . أليس في كل ذلك يعتمد على ما وصله من تاريخ العرب عن هؤلاء الرواة ومن جاء بعدهم من الدارسين ؟

أنه إذا لحاجة في نفسه يقبل بعض ما روى عن هؤلاء ليتشكك في بعض ما روى عنهم وبتعبير أوضح يقبل من روايتهم ما يحقق غايته ، ويؤمن ببعض السكتاب ويكفر ببعضه ، مغفلاً أن النهج العلمي الحق يقول بأن من يتقبل البعض لابد من أن يتقبل البعض الآخر فيما أن أرفض كل ما جاءنا عن هؤلاء الدارسين ، وإما أن أتحرك بقلي وعلمي بين المختلف من آرائهم لأحتار منه ما يقبله عقلي من خلال المآثور عنهم في مجمله أما ما أجمعوا عليه فلا مجال لأن أشكك فيه من جديد على هذا البعد ، لأن هذا لا يبيّن

سوى الإنكار والرفض لكل ما روى وينسب إليهم في شق المجالات فما ينطبق على الشعر لابد من أن ينطبق على اللغة والتاريخ وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة .



إن علماء العرب وأدباءهم قد بكروا بتمحيص ما نقله الرواة من أشعار ووقائع ، وتزودوا في ذلك السبيل بأساليب علمية لا تقبل في قوتها ودقتها عن أسلوب للشك الديكارتي ، إن لم يكن هذا الأسلوب واحداً من أساليبهم في تلك العصور المتقدمة ، من كل ما يمنح الثقة لمجموع ماضته كتبهم من آراء في هذا الصدد وغيره ؛ فهم على قربهم القريب من الأعصر التي تنسب إليها تلك الرويات ، كانوا من الحرص على الوصول إلى الحقيقة بالدرجة التي تفوق حرصنا نحن في هذا العصر على بمد ألف وخمسة مائة عام .

بل لا أبعد عن الحقيقة إذا قررت أن هؤلاء العلماء والدارسين هم الذين أوقفونا على ما أدخل على الشعر الجاهلي من نحل وتزييف ، ولولا ما ذكره في ذلك الشأن لما تلته إلى ذلك مناصر من الغربيين المستشرقين ، أو من الشرقيين المستقرين فلقد طمناهم بها وألحوا في التنبيه - الذي ضمنوه كتبهم - إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي قد دخله التزييف والاتحال ، ووصموا بين أيدينا قوائم بأسماء هؤلاء الرضاعين الزيفين حتى نحذر في التلقي عنهم ، وقاموا هم بنحل كل ما وصل إليهم من الشعر قبل أن يدونوه ، ولم يسكتوا إلا عما اطمأنوا إليه ، ولم يذكروا شيئاً مشكوكاً فيه إلا وأشاروا إلى ما يساورهم في شأنه مقررون بما يفهمهم إلى هذا الشك ، فهو ليس شكاً قائماً على العاطفة أو العصبية كما يتوهم البعض .

إن الناهر فيما بين أيدينا من كتب علمائنا هؤلاء يلاحظ أن الحرص بلغ بهم درجة أهملوا معها كل ما روى عن الرواة المنتهين من أمثال خلف وحامد . وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الأدباء الدار - بن المفضل الضبي^(١) المتوفى سنة ٧٨٠ م والأصمعي^(٢) المتوفى

(١) المفضل نحوي وشاعر من أبناء الكوفة ، كان يكتب المصاحف تكثيراً عما كتبه بيده من أهاجي الناس . له « المفضليات » . و « أمثال العرب » .

(٢) عبد الملك الأصمعي ٧٤٠ - ٨٢٨ م ولد في البصرة وتعلم فيها على الخليل وعيسى ابن عمر ، وأبي عمر بن الأهلبي ، وعليه تعلم أبو الفضل الرياشي ، وأبو عبيدة السكري

سنة ٨٢٨ م . وعهد بن سلام الجعفي (١) المتوفى سنة ٢٣١ هـ

ونظرة إلى ما ذكره ابن سلام في مقدمة كتابه (طبقات خول الشعراء) يتأكد ما أقرر هنا من ذلك قوله : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقنع ، ولا نثر معجب ، ولا نسيب مستطرف وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحيفي (٢) .

« وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه » (٣) .

فابن سلام - على قربه من العصر الجاهلي - يسير في كتابه وفق منهج واضح محدد أملاء عليه دقة العالم الورع ، وبصر الأديب الشاعر ، حيث يملن في صراحة عما يراه في بعض الشعر العربي - في ذلك الوقت - من دحيل منحول ، دون أن يكنفي في ذلك بمجرد الإعلان ، ولكنه يمزج ذلك بالقرائن الفنية والعملية التي تثبت دعواه ؛ إذ هو شعر لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا فائدة أدبية في مضمونه ، ولا يحتوي على معنى أو مثل يضرب .. الخ ذلك ثم ينبه إلى مصدر ذلك الدخيل ، وسبب اختلاطه

حفظ لثة البدو ولهجاتها ، فأصبح من مشاهير لغوي العرب من مؤلفاته «الفرس ، و «الإراجيز» ، و «الميسر» ، و «الأصمعيات» .

(١) أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجعفي البصري ولد بالبصرة سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ٢٣١ هـ وسمع شيوخ العلم والحديث والأدب ، وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب ، من شيوخه الأصمعي ، والمفضل ، وبشار بن برد ، وصروان ابن حفصة الشاعر ، والمسيب بن سميد ، وسيبويه . ومن تلمذ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وأبو حاتم ، والرباشي ، والمالزي ، وأحمد بن حنبل ، وابنه عبد الله بن أحمد وغيرهم كثير .

(٢) الصحفي - بضم الصاد والحاء - الذي يأخذ عن صحيفة ، لم يعرض على العلماء ولم يتلق علمه بالرواية .

(٣) الطبقات ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

بثيره ، وذهول بعض الدارسين عن حقيقته ، حيث يقدر أن السر في هذا الخلط إنما جاء من تداول الشعر مكتوبا ، دون مشافهة وسماع من أهل الثقة - وهم في الأدب واللغة في ذلك الوقت أهل البادية - ودون عرضه على العلماء المتخصصين الذين يقومون بدور الناقد البصير ، والناضى المادل

ولا يفوته في هذا المجال أن ينبه إلى أن أهل العلم والرواية الصحيحة إذا أجموا على إبطال شيء من الشعر فليس لاحد أن يقبل منه ما يجده معطوطا في صحيفة ، ولا يرويه عن يأخذ عن صحيفة .

أى أن الشعر يواجه العديد من نقاط التفتيش والفحص لا بد له من أن يجتازها قبل أن يعتمد ويوثق . . حيث ينتقل إلى الأجيال اللاحقة .

وإن سلام لا يرى في هذا ما يببب الشعر العربي أو يمس قيمته الفنية من قريب أو من بعيد ؛ إذ الشك في بعضه ، ورد بعضه ليس خاصا به ، ولكن كل شيء لا يخلو من أن نثار حوله الشكوك مع مرور الأيام واختلاف الأماكن .

وهذا لا يفي - في رأى ابن سلام - التجرؤ على رفض ما اتفق عليه - من الشعر وغيره - وإنكاره

ومن هذا المنطلق لم يجد ابن سلام حرجا في أن يضع بين أيدينا أنواعا من الشعر المردود ، لكنه - وهو العالم الحريص على النهج العلمي - لا يضع ذلك خاليا من التمهيل والتفسير .

يمهد لذلك أولا ، فيقرر أن الشعر - كغيره من صنوف العلم والصناعات - له أدوات ومقاييس تمكن العالم من وزنه وتقييمه ، ومعرفة صحبته من زائفه ، وذلك قوله : « وللشعر صناعة وثقافة ، يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما تثقفه اللسان » (١) ثم يأخذ في ضرب أمثلة من أصناف العلوم والمعارف ، قارنا كل صنف بمقاييسه وطرق نفيه ، ينتهي إلى الشعر بقوله : « فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به » (٢) .

ولا يفوته في هذا الصدد أن ينقل حوارا دار بين واحد من العلماء بالشعر ، وأحد رواة للشكوك في روايتهم ، وذلك قوله :

(١) الطبقات ج ١ ص ٥ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٧ .

وقال خلاد بن يزيد الباهلي (١) لحاف بن حيان أبي محرر (٢) - وكان خلاد حسن العلم بالشعر ، يرويه ويقول - : بأي شيء ترده الأسماء التي تروى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا حير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم قال : ولا تنسك أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت ، (٣) .

ولم يقف ابن سلام عند حد التصريح بما أدخل على الشعر العربي من نخل ، كما لم يقف عند حد الإشارة إلى جهود العلماء ومناهجهم في بحث ما روى من الشعر وتخصيصه ، ورد ما نشور حوله شكوكهم لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد أسهم بالفعل في هذا المجال ، فرد نخل الشعر إلى عاملين هما :

(أ) حرص بعض القبائل على التفوق والصدارة فاجأ طائفة من الشعراء إلى صنع شعر نسبوه إلى غيرهم ليسكون حجة بما ضمن من وقائع ومآثرهم ومنابهم .

(ب) وحرص طائفة من الرواة على وضع الشعر والإضافة إلى مروياتهم إرضاء لرغبات تلك القبائل أو لتبذير ذلك من الدوافع . وفي ذلك يقول : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض المشائخ شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائهم وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على السن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأسماء التي قيات » (٤) .

ولم يكن التزبد مقصورا على القبائل - كما صنعت قريش في شعر حساز (٥) - بل كان الأبراد يقومون بذلك من ذوات أنفسهم بحيث يخفي أمرهم عن معاصريهم . كما صنع ابن داود بن متهم بن نويرة في شعر أبيه ، قال ابن سلام : أح - برني أبو عبيدة أن

(١) خلاد بن الأرقط ، بصرى مات سنة ٢٣٠ هـ .

(٢) هو خاف الأحمر ، توفي سنة ١٨٠ هـ تقريبا .

(٣) الطليقات ج ١ ص ٧ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

(٥) أنظر ذلك في ابن سلام ج ١ ص ٢١٥ .

ابن دارد بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة فنزل النخيت^(١) فأثبته أنا وابن نوح المطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقبلا له بمحاجته وكفياها ضيقه ، فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأضمار ويصنمها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يمتدنى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، وإذا هو يمتدنى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يقتله^(٢) ، وكان تمحيص هذا أشق على العلماء من تريد القبيلة كلها في شعر الشاعر ، لقربه من الشاعر . وفي ذلك يقول ابن سلام : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشمراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال ، »^(٣) .

ويضيف ابن سلام طائفة أخرى لم يوثق بآروت من الشعر ، بل لقد اشتهرت بإفساد الشعر بما أضافت إليه دون نظر وتمحيص فيقول : « وكان بمن أسد الشعر وهجته وحمل كل غناء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخزومه بن المطلب بن عبدمناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، قال الزهري : لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخزومة وكان أكثر علمه بالمنازي والسير وغير ذلك ، وقيل الناس عنه الأضمار ، وكان يعتذر منها ، ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب في السير أضرار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأضمار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أضرارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف . . »^(٤) .

فلم يكن الانتحال في الشعر العربي راحما إلى سوء المقصد في كل أحواله ، بل كان هناك من يندنه إلى السحل قصد الوضع والتزييف كما كان شأن الرواة الوضاعين

-
- (١) الجلب : ما يأتي به البدوي من الإبل والغنم في الأمصار . والميرة : الطعام ، والنخيت : من قرى البصرة الصغيرة الدانية .
(٢) طبقات الشمراء ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٧ ، ٨ .

الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصوغه مثل حماد وجناد وحاف كما كان هناك من لا يحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولسكنها كانت تحمل كل عشاء وزيف في أثناء مروياتها من الأخبار والسير ، مثل ابن إسحاق راوى السيرة النبوية ، فقد اتخذ بعض آخر أداة لإذاعة ما يصنعون من الشعر فيدخله في أخباره دون تحرز أو تحفظ .

وكان موقف العلماء بالشعر ورواته الذين وقفوا أنفسهم على فحص وتمحيص مروياتهم قبل إداعتها - من أمثال هؤلاء الرواة واضحا جليا ، فقد رفضوا كل ما روى عن أى من هاتين الطائفتين ، إلا أن يأتيهم من مصادر أخرى موثقة ، وإلا أن يتخلوه بمقاييسهم الشعرية التي استطاعوا بها كشف كل زيف

بل لقد لجئوا إلى التحرز ففضلوا إسقاط بعض الشعر الذي يخالفهم فيه شك على روايته يقول ابن سلام : « ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يتوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نمد ما يروى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا . ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم » (١) .



هذا ابن سلام أحد رواة الشعر العربي الثقات يكشف عن منهجه هو وصرباؤه - من مثل الفضل الصبي والأصمعي وأبي عمرو بن الملاء - في رواية الشعر وتوثيقه منذ القرن الثاني الهجري ، مهل بمد ذلك يجد باحث أو دارس محالا لقول يشكك باقيا رواء هؤلاء أو يتشكك به ؟ !

يبد أن طائفة من المستشرقين أناروا هذه القضية حين اتصلوا بالشعر الجاهلي . . وليس بمبيد أن يكون ذلك منهم تكرارا للمثل ما صادوا من كلام ابن سلام اعتمادا على جهل المحيطين بهم بما قاله علماء العرب الأقدمون ، كما لا أستبعد أن يكون ذلك منهم ابتداء على غير علم منهم بما جاء على لسان العلماء العرب ، وأنهم بمقاييسهم تشككوا فيما بين أيديهم من شعر الجاهليين .

(١) طبقات الشعراء ج ١ ص ٢٤٧

وكان في مقدمة من أثار قضية النحل تلك نولده سنة ١٨٦٤ ثم آلورد حين قام على نشر ديوان امرى القيس ، والذابنة و طرفة وزهير وعمرة وعلامة ، فأبدى تشككه في صحة الشعر الجاهلي في عمومه ، وحلص من ذلك إلى أن قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته على شيء من الشك كذلك في ترتيب أبيات كل منها والفاظها . وتابع آلورد في ذلك طائفة من المستشرقين منهم موير ، وباسيه ، وبروكلان ، ومرحليوث (١) وعلى منهج هؤلاء المستشرقين سارت طائفة من العرب المستقرين ، وكان في مقدمتهم الدكتور طه حسين الذي ردد ما كتبه هؤلاء - خصوصا مرحليوث - دون روية أو تمحيص أو مراجعة في كتابه « الشعر الجاهلي » سنة ١٩٢٧ م .

وإذا كان للمستشرقين عذرهم فيما قد ينزلقون إليه من آراء - إذ هم مهمابنوا من الاتصال بالعربية غرباء عليها لا يستطيعون تعمق أسرارها ، ولا بحث أغوارها - فإنني لا أجد عذر العربي بل به القدم فيردد ما ردد غيره ، وبين يديه من أشباب الفحص والتحصيص ما يمكن أن يضمه في مصاف النضاة المدول .

ولقد سبقه في هذا الميدان مصطفى صادق الرافعي فمرض القضية بشيء من التفصيل والاستقصاء في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذي نشره سنة ١٩١٩ .

والمعجب من أمر الدكتور طه حسين الذي يكشف عن انزلاقه ومتابعته فيما كتب آراء المستشرقين - أنه بنى شكه في الشعر الجاهلي ورفضه للكثير منه على مدى تمثيل الشعر الجاهلي لحياة الجاهليين الدينية والعائلية والسياسية والاقتصادية والاقنوية .



أما الحياة الدينية فيرى أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلي برىء أو كابرء من الشور الديني القوي والماطفة المنسلطة على النفس ، والذي يمثلها من جميع جوانبها تمثيلا قويا إذا هو القرآن الكريم ، حيث أرانا مسجده اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وحادلهم وهاجمهم كما هاجم الوثنيين ، مظهرا في ثنايا ذلك معتقداتهم (٢) .

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ٣٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر في الأدب الجاهلي ص ٧٧ وما بعدها الطبعة الرابعة .

ولا ريب في أن هـ - ذا يكشف - من أول الأمر - خطأ طه حسين في اتجاهه ،
ويقتضيه عليه ما يقول ؛ إذ كيف يتأتى لإباحث مفكر أو أديب متذوق أن يقيس الشعر
على القرآن الكريم ، مهذا من وادٍ وذاك من وادٍ آخر ، ولا يمكن بحال أن يجتمعا .
ولا عذر له في ذلك بعد أن قرأ قوله تعالى في سورة الشعراء تمييزاً للقرآن عن الشعر :
« وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين
بلسان عربي مبين » (١) . وقوله بعد ذلك في السورة نفسها : « وما ننزل به الشياطين
وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع اعزلون » إلى قوله عز وجل : « هل
أبشركم على من ننزل الشياطين نزل على كل أنثى أنثى . يلقون السمع وأكثروا
كاذبون . والشعراء يقبهم الناوون . ألم تراهم في كل وادٍ يهيمون وأهم يقولون
مألا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد
ما ظلموا » (٢)

فالقرآن كتاب سماوي له رسالته وأسلوبه ومنهجه الذي لا يمكن لعاقل أن يقيس
به أو عليه كلاماً آخر إلا أن يكون كتاباً مثله . فليس غريباً أن يمرض لـ كل ، ما يتصل
بديانات من أوحى به إليهم لهدايتهم ومجادلتهم ، إنما الغريب الذي لم يكن ليقبله عقل
ناقد أديب أن يرى في الشعر الجاهلي شيئاً من ذلك ، إلا أن نقدر أن نقائله رسلاً
أو أنبياء مصابين رصداً وشعرهم لهذا المرض .

إن الدكتور طه حسين لا يريد أن يكتفي بما جاء في شعر الجاهليين من إشارات
دينية ، ويرى أن قلة ذلك أو ندرته في شعرهم دليل على ريب نسبة هذا الشعر إليهم .
والأمر على العكس مما يرى ؛ ولو أن ما نسب إلى الجاهليين من شعر تضمن تفصيلاً
دينية أكثر مما جاء لسكان دليلاً على زيفه ومحلّه ؛ لأنه عندئذ يكون من صنع مغرض
صاحب غاية دينية جاء بعدهم .

* * *

وكذلك طلب في الشعر الجاهلي بسطاً للحياة العقلية التي كان عليها عرب الجاهلية ،
فلما لم يجد ما يطلب أنكر أن يكون ذلك الشعر ممثلاً للعصر وتشكك في نسبته
إلى الجاهليين

ولا أدري ماذا يقصد الدكتور طه بذلك ؟ أيطاب من الشاعر الجاهلي أن يحول
شعره إلى كتاب أو بحث علمي يكشف به عن حياة عقلية منظمة يفترض وجودها في
ذلك العصر ؟

ليس من شك في أن العرب في هذا العصر لم يكونوا ذوى فكر عقلى راقٍ
أو معقد بالصورة التي يطلب الدكتور طه أن يراها في شعرهم ، ولو أن شعرهم ضمن
شيئا من ذلك لكان دليلا قاطعا على نمله وتزييفه ؛ فقد كانوا في مجموعهم يعيشون أحد
أطوار الحياة البدائية التي لا تقوم على فكر معقد منظم .

* * *

كما رأى أن الحياة السياسية للعرب لا تبدو في شعرهم صورتها كما أوضحها القرآن
الكريم ، حين أظهر أن العرب في العصر الجاهلي انقسموا فريقين ، فريق يناصر الروم ،
وآخر يناصر الفرس ، على ما جاء في سورة الروم .

وفاته أن هذا التقسيم والتوزيع السياسى لم يكن شاملا للعرب جميعا ، وإنما كان
مقصورا على قريش التي كانت على صلة دائمة بالفرس والروم لارتباط تجارتها في
رحلتها بهاتين الدولتين .

كما فاته أن يذنبه لما تضمنه شعرهم من تهديد وتوعد حين نشبت الحرب بين بكر
وفارس ، أو أن يتلبه لما غص به شعر طائفة منهم في مدح الفساسنة أتباع الروم وللناذرة
أتباع الفرس ، وما في ذلك من إشارات لتلك العلاقات .

* * *

وعلى الورث نفسه قدم دعواه من الجانب الاقتصادى ؛ فقد بحث في شعرهم عن
اتجاهاتهم الاقتصادية فلم يظفر منه بما يفيد ، كل ظفر من القرآن الكريم الذى قدم
لنا العرب أغنياء يستأثرون بالثروة ، وفقراء لا يملكون شيئا .

وكان بالدكتور قد غفل عن شعر طرفة بن العبد الغنى المتلاف ، وشعر الصامليك
الثأرين على ما فى المجتمع من ظلم ، والمنصبين أنفسهم موارد لإقامة العدل الاجتماعى
بالسطور على الأغنياء ومساعدة الفقراء .

وإعجب ما فى هذا أن الدكتور يزعم أن شعر العرب لا يتضمن إلا ما يفيد أن العرب
جميعا كرام أجواد ، وفاته أنهم إلى جوار ذلك يذمون البخل والبخلاء ، ويتصلون من

الشع . . ولا يتصور أن يذم شاعر صفة غير موجودة في قومه ، إذ لو لم تكن موجودة لما كان لذمها من داع .

* * *

ثم يجلس الدكتور طه حسين من ذلك كله إلى الحديث عن أمة العرب ، فيقرر أن البحث الحديث أنات خلافا جوهريا بين أمة الجوبيين وأمة الشماليين ، ثم ينظر ويرى أن الشعر المأثور حميمه جاءنا بلغة الشماليين . . . مما يحظر عليه اليسليم بصحة الكثرة المطلقة منه .

وهو بهذا يفعل المحجرات التي نمت من الجنوب إلى الشمال في عصور ما قبل العصر النجاشي كما كان شأن قبيلة كعدة اليمنية ، كما يفعل سيادة لهجة قريش سائر اللهجات الشمالية واتخاذها لغة أدبية يخضع لها الجميع ليشكك في صحة ما روى من أشعار هذه اللهجات بلهجة قريش .

إن الناظر فيما كتبه الدكتور طه حسين لينا أكد لديه أنه ما كتبه بروح العالم المذوق البعيد عن التحيز والمصيبة ، وإنما كتبه بروح المستشرق البصير الذي يبيت لغة العربية وآدابها والقرآن الكريم ما يبيت ، مما يضيق بجحشنا هنا عن تناوله بالتفصيل والتفديد .

الفصل الرابع

المقصود بالبادية والحاضرة

معلوم أن البادية - في مفهومها العام - تعنى السكان ذا الفضاء الواسع ، والمرعى والماء ، أو البيئة التي لم تغير من أصل وجودها يد السكان المخلوق ، فهي على هيئتها التي صادها عليها ساكنوها منذ القدم . وتوارثوها جيلا بعد جيل دون أن تمتد يدا لتعديل شيء فيها ؛ فهي من البدء كما هي اليوم على ما بدت في أعين أبنائها أرض مفتوحة لا حدود فيها تقيد حركة ساكنيها ، ولا حواجز تمنع عنها من طواهر السكون شيئا ، تستوى في ذلك الحدود والحواجز المادية والمنوية ؛ مساكن البادية لا تقيد حركته الحدود المادية من منازل منقطة وقلاع محصنة ، كما لا تقيد حركته الحدود المنوية من نظم وقوانين وحكومات .

فساكنو البادية هم ناس يمشون فوق أرض لم تخضع لصنعة المخلوق ، وإنما هي أرض ما زالت على هيئتها الأولى التي خلقها الله تعالى عليها من أودية وجبال وكشبان ، وحيوانات ووحوش ، ومفاوز وقفار ، تظلمها السماء بما نحوى من كائنات دون حجاب أو ستار ، فتستوى النفوس بجبالها ولها أن نجومها ، وسطوع بدرها وإشراق شمسها ، وتخلع القلوب بأهوالها وتوارثها ، وتغنى الأجسام بقائظ حرها بموقر بردها وجفاف أرض ، ووعورة مسالكها ، وخشونة الحياة فيها .

هذه البادية بجبالها الطبيعي الذي لا يكدره وسائل من صنعة المخلوق ، وبينها وقة - وتها التي تهون إزاء ما تقدمه لساكنها من شعور بالذات ؛ فبيننا الهدوء يسود كل شيء فيها إذا بالسما تتلبد بالغيوم ، وصوت الرعد يدوي في آفاقها ، وومض البرق ينتشر في ضاحيها ، وأزيز الرياح يلهث الرعب بينها ، وسقوط الأمطار يغمم أوديتها ويطنى غدرانها وإذا بالحياة تعود من جديد كما كانت عليه من هدوء وسكون يخيم على كل البقاع .

هذه البادية بطبيعتها القاسية المتقلبة هي التي تضم البدوي وتستوى دؤاده ، حق

لتسكاد تستعبده ، فهو لا يرضى بها بديلا ، ولا يجد في سواها راحة البال وأنس النفس ،
فهى بالنسبة له كالسوء للسكك يموت إذا خرج منها .

والتصاق اليدوى ببيئته على هذا المستوى . وحرصه عليها هذا الحرص ، جعل منه
صراة مجلوة تبدو على سطحها صورة البادية بكل ما فيها من تقلبات ، فأنت ترى هذه
البادية وفي علائق الناس بها ، وأخلاقهم ومعارفهم وتقاليدهم ، ونظام حياتهم ؛ فإذا
كانت الطبيعة فيها مكشوفة واضحة ، فالناس الذين يقطنونها صرحاء واضحو المقاصد
دون التواء . وإذا كانت الطبيعة فيها متفردة العناصر يتضح كيان كل عنصر منها على
الرغم مما بين عناصرها مجتمعة من روابط ، فإن الفرد أيها يشعر بذاته أكثر مما يشعر
بمجتمعه ، فذاته أولا ثم بعد ذلك يأتي الآخرون . وإذا كانت الطبيعة في البادية ثائرة
هادئة . عابسة باسمة جانية رقيقة ، واجمة ناطقة ، غاضبة راضية ، مشرقة متجهمة ،
منيرة مظلمة . إن ساكنيها على هذا المثال يجتمع فيهم البقيضان ، ويلقون على الضدين
ولذلك فهم يتسمون بالطبع الحاد ، تستثيرهم الكلمة فتفيض بسببها السماء ويستخفهم
العطش فيندفون دون أناء أو تعقل ، ويستفهم آتفه الأسباب فتشتمل الحروب أعواما
بين الأخ وأخيه .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى ، وحرصه عليها هذا الحرص جعله
لا يبسن إلا تبسن له البادية مثل سقوط الأمطار ، وهدوء الرياح ، وكألا يضيق إلا
بما تضيق به البادية من حر قائلظ وبرد قارس .

إنه في بيئته تلك يدور في محور حاجاته البدوية ؛ هي التي تلفت نظره ، وتغذب
انتباهه ، فيقبل عليها واصفا ، ويميش معها متفاعلا ، حتى يحيل إلينا أنه جعل منها
إنسانا يشارك الحياة ، ويتألمه أهوالها ومتاعها .

وحاجاته البدوية قصرت نظره إلى تلك الأشياء ، فلم يتمد السطح المبادئ . ولم
يتجاوز النظرة المعجلى . اللحظة الحاطمة . دون تعمق في دوائر هذه المظاهر الكونية
أو محاولة للكشف عن أسرارها . . وأنى له ذلك وتكوينه البيئى . واستمداده
الفطرى لا يترع به إلى ما دون السطح من مثل عليا تقوم عليها تلك الظواهر ؟

ففي البيئة البدوية صفات توارثها ساكنوها ووقفوا أنفسهم للحفاظ عليها وضحوها

بالفيس والعال في سبيل الإبقاء عليها ، دون أن يقدموا تمليلاً لا عترارهم بهذه الصفة أو تلك ، بل إنهم قيا بينهم وبين أنفسهم لا يدركون تفسيراً لا احتفالهم بها ، سوى أنها من الصفات المحمودة التي توارثوها عن الأسلاف ، فالجود ، والسجدة ، والشهامة ، والجراه ، والهمة صفات يتمدحون بها ويتفاخرون باحتيازاها ، ويتهاجون باستلابها ، فإذا سألت واحدا منهم عن السر في ذلك لم تجد لديه جواباً شادياً يعمق وراء الأسرار ، يعصل ويفسر ، ولكن قصارى ما تجده لديهم - في ذلك الصدد - أنها صفات محمودة ، وخالق كريمة يعتر بها البدوي حلماً عن سلف ؛ فهم لا يميون بالأسرار والعال قدر عنايتهم الآثار والمظاهر .



يبد أن ساكنى البادية لم يكونوا حميماً على مستوى واحد في النظر إلى ما يحيط بهم ، وانتأثر بيئتهم ، وذلك لأن الإقامة وحدها في البادية لا تسكى لتصبغ الإنسان بطابع البادية ؛ فقد يكون مقامه بالبادية لكنه يصح لنفسه داخل البادية بيئته أخرى تعتمد على المقومات الحضرية بكل طبائرها وأعرافها وسجاياها ، كأولئك البدر الذين أنشأوا الإمارات في داخل البادية وشيدوا القصور وجمروا إليها من أسباب الحياة الحضرية مانقاهم من بيئتهم ، وإن كانوا مقيمين داخل الصحراء ، محاطين بأطرها ، خاضعين لأخلاقها ومتاييس الحياة فيها ، مثلما رأينا من قبيلة كندة حين أنشأ أنائها إمارة كددة في مقابلة إمارة الحيرة والشام .

وليس من شك في أن مثل هذا الوسط - مع أن ساكنيه لم يخرجوا من البادية - لا يمكن أن يوفر لساكنيه مآثوره البادية الخالصة لساكنها من طبائع وسجايا ؛ لأن للقعود بالبادية ليس هو الأرض لذاتها ، ولكن للقعود بها الأرض ذات الظروف والطبائع والأعراف البدوية الخالصة من الصنعة ، الخالية من التهذيب .

ومن ثم فإن القعود بالأديب البدوي ذلك الأديب الذي يعيش داخل إطار العطرة الساذجة في - لوكة وثقافته وتفكيره ، وأخلاقه ، وتراثه ، بحيث لا يتعارض في شيء من ذلك مع مآثمه به الأرض التي يدرج عليها ، بكل ما يصدر عنه من سلوك أو فكر يدور في هذا المحور البدوي ، كما أن كل ما يمر به عن مكدون نفسه ، ويض مشاعره لا يشد عن مكوناته النفسية ، ومقوماته الخلقية ،

وإذا كنا لا نقصد بالأديب البدوي ذلك الأديب القدي يحيط نفسه داخل البادية بجوحضاري من ثقافة وفكر وعلم وعرف ، فإننا - على عكس ذلك تماما - نقصد بالأديب البدوي ذلك الأديب القدي يعيش داخل الإطار البدوي سواء كان يقطن البادية بالمل ، أو كان يقطن الحاضرة ، لكنه بأبي إلا أن يعيش في الحاضرة عيشة البدوي في أعماق البادية .

ليس المقصود إذن بأدب البادية ذلك الأدب الصادر عن أدباء يقطنون البادية بحسب ؛ فقد يكون أدبا حضريا ما يصدر عن أديب يقيم في البادية، وقد يكون أدبا بدويا ما يصدر عن أديب يقيم في الحاضرة ؛ فليس الاعتداد في هذا المجال بمقام الأديب بحسب ، بل الاعتداد بمقامه وما يحيطه من مؤثرات ومقومات .

إن أدباء البادية الذين نتحدث عنهم هنا ، ونبحث أدبهم ، ونتبع خصائصه هم أولئك الأدباء الذين كتبهم البيئـة البدوية بخشوتها وجفافها وقضاياها ومشكلاتها ، فأملت عليهم من الظروف ما يرمم عن ساكني الحضر - سواء الحضر الطبيعي أو الحضر المصنوع - وواجهتهم قضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيأت لهم من الأساليب والوسائل في معالجة أمورهم ما يلبغ منها وما يتصل بمقوماتها . . . بل وفرضت عليهم معجرا لنوعيا ، وتصورا للأحداث والمواقف منكمسا من طبيعتها بكل ما فيها من خصائص ومميزات .

ولا ريب في أن الطريق مختلف ؛ وبدا الحاضرة تفرض على ساكنيها أن يتزبوا بزى تسوده الأناة والنزوى والانتقاء والظن العميق في تفهم الأشياء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تسكن أربابهم شاعة عما في نفوسهم دون خفاء ، صريحة في الإنباء عن ضاهمهم دون اتواء ، بسيطة في النظره إلى القضايا دون تميق أو تمايل أو تفسير ؛ إذ لا يجدون ما يدعوا إلى التخفي والستر ؛ أو ما يقتضى المواربة والالتزام ؛ كما لا تعلمهم ظروف الحياة إلى البحث وراء الظواهر والتمايل والتفسير .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تعيش في جو حربي فإن العصر الجاهلي ، فإن البيئـة البدوية كانت تتحمل في ذلك المهب الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم في إمداد هذه الحروب بالفرسان المهيئين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اشتعالا ، وأحمى سمارا منها بين البيئات المنحصرة أو المتصلة بالحضر ، فلم

يكن لإبناء البادية من شاغل يصرفهم عن الحروب انتقاما أو نارا أو عدوانا ، إلى غير ذلك من دوافع الحرب التي كانوا ينزعون إليها نزوعا ، وينتهيون لها بكل ما أوتوا من الوسائل

وكان الأدب — خصوصا الشعر — عندهؤلاء هو التوأم الملازم للفروسية ، فهو الوجه الثاني لها ، أو المرآة التي تمكس صديح الفارس ، ويتراوى على سطحها أدواته ربية وطرق إعداده ، وكيفية هجومه كرا وفرا .

بيد أن هذه البيئة البدوية لم تسكن على مستوى واحد ، بل كانت — في مجملها — متوزعة بين مستويين يتباينان أشد التباين — وإن لم يخرججا عن البداوة — ويختلفان أوسع الاختلاف في تمثل البيئة البدوية ، وذلك لأن ساكني البادية كان منهم السادة المستقرون في أرضهم ، الخاضعون لما أقروه — على مدى الأجيال — من أعراف وقوانين غير مكتوبة ، القائمون على حياة يسودها نوع من النظام يتلاءم مع ظروف الحياة وكان مهم الشواذ الخارجون على النظم والأعراف ، الفارون من وجه العدالة والمحاسبة إلى شعاب الجبال ، يباشرون حياتهم كما يحلو لهم ، أو كما يتصورونه المسلك الأصلح وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم (الصماليك) .

ولا ريب في أن لسلك من الوسطين خصائصه التي تميز تكوين ساكنيه من ساكني الوسط الآخر ، وتفرض عليه من المشاعر والانفعالات والأفكار ما يختلف عما يفرضه الوسط الآخر على ساكنيه ، أي أن لسلك من الوسطين آثاره التي تنتجها بكل وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها ؛ فتميز أدب هؤلاء عن أدب أولئك .

* * *

إذا حددنا مقصودنا بالبادية بأنها الوسط الذي يقوم على أخلاقيات البادية سواء كان في محيط البادية ذاتها أو خارج إطارها ، فإن باستطاعتنا أن نحدد المتصوفا بالحاضرة — كذلك — بأنها الوسط الحضري الذي يقوم على أخلاقيات الحاضرة ، وأساليبها في السلوك والتفكير ؛ وما يفرضه ذلك الوسط على أبنائه من الفاظ يتسكون منها المعجم القوي لهم ، ونسور تبرز في أشكاله معانيهم ومدركاتهم للأشياء والأحداث وللواقف وفنون تتلفق بها مشاعرهم وعواطفهم ، ويدور حولها بيانهم وتعبيرهم .

وليس حتماً أن يكون هذا الوسط الحضري خارج البادية ، فقد تشتمل البادية على مقومات الحضارة دون الخروج عن حدودها المسكونة كما أن الحضارة قد تضم المقومات البدوية بكل مؤثراتها على معنى أن البيئة الحضرية ليست مكاناً يطلق عليه ذلك وإنما هي وسط ذو سمات ومقومات خاصة تلعب من السكان أو يضيفها عليه الرومان وما يحمل من أحداث ، بحيث يمكن أن نرى الحضارة بهذا المفهوم . في أعماق الصحراء ، مائة في وسط مخصوص يحاط بمجموعة من الناس ذوي اتجاهات وميول وثقافات تقطنهم عما يحيط بهم في الصحراء .

والناظر في الشعر العربي منذ الجاهلية يلاحظ أن هذا الوسط قد استحوذ . بما يحويه من مظاهر الترف ووسائل النعيم وأسباب التدهور . على طائفة من شعراء العرب في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور ، فشكل حياتهم بما ميزهم عن أبناء عموماتهم القديين يضمهم الوسط البدوي ، واتجه بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تباين وجهات أترابهم ومناصريهم في البيئة البدوية ، وصيغ أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والنعيم ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلبي حاجاتهم ، وداروا بمآثرهم وأخيلتهم في محيط هذا الوسط الحضري وما يضيفه على أنسكاهم وخيالهم من انطباعات . حتى بدافنهم الشعرى غريباً . أو كالتغريب على مقاييس الشعر البدوي ، فكان مدعاة للمؤين من شأنهم أو الطمن في صفة ما ينسب إليهم ، أو عدم الالتزام بمنهجهم والمظاهر ، أو حيرة الرواة في نقيته من التخيل لاختلاطه به وقربه منه .. الأمر الذي دفع ببعض الدارسين من أمثال الدكتور طه حسين إلى إنكار هذا الشعر والطمن في روايته ورواياته ، بل وفي وجود المنسوب إليهم ، بحجة أنه خارج على المنهج الشعري . مصموناً وأسلوباً والمناظراً . المعروف للعرب البادين ، على تقدير أن هؤلاء البدو وحدهم هم يمثلوا الأدياء العرب شعراء ونأرين .

* * *

حقاً لم يكن أبناء الوسط الحضري جميعاً على مستوى واحد في التأثير به ، والاستجابة لمتطلبات الحضارة ، بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتاً بيننا ، ويتبايزون تيزاً واضحاً . وإن لم يخرجوا عن الإطار العام للحضارة . وفقاً لمكان الوسط من الحضارة ، ومكان الأديب ذاته من ذلك الوسط ، وتبعاً لطبيعة صلة الأديب بالوسط الحضري

وملاسته به ؛ إذ ليس من المقول أن يكون تأمير هذا الوسط فيمن ولد فيه ودرج بين أهله مماثل لتأثيره فيمن نزع إليه - بعد أن نمت البذور الفنية لديه في ظلال البادية - طمعا فما يتوفر فيه من أسباب الترف والنمى ، ومخلفا وراءه البادية وما فيها ومن فيها . كما أنه ليس من المقول أن يكون الوسط الحضري القائم في الحاضرة على المستوى التأثيرى نفسه الذى يشتمل عليه الوسط الحضري المصنوع في البادية مهما تطاول به الزمان ، كما كان الحال بين إمارة الحيرة التى أصبحت قطعة من الأرض الفارسية وبين إمارة كندة القائمة في الجزيرة العربية تحيطها الصحراء العربية من كل جهة ، والوطن العربى فى عمومه حين شمله الإسلام بمبادئه وأفكاره الحضارية .

الباب الثاني

الشعر البدوي

الفصل الأول

أعلام من شعراء البادية

أقصد بشعراء البادية أولئك الشعراء الذين كسفتهم البيئة البدوية ، بنحوتها وجفافها ، فأملت عليهم من الظروف ما مبرم عن ساكني الحاضرة ، وواجهتهم قضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيأت لهم من الأساليب والوسائل في معالجة أمورهم ما يذيع منها ويتصل بمقوماتها .

ولا ريب في أن الطريق مختلف ، فبينما الحاضرة تفرض على ساكني الحضر أو المتحضرين أن يتربوا بزى تسوده الأناة والثروى والانتقاء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تكون أزياءهم شامة عما في نفوسهم ، صريحة في الإنباء عن ضآئهم ؛ إذ لا يجدون ما يدعوا إلى التخفي والنستر والمواربة .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تعيش في جو حربي فإن العصر الجاهلي ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل في ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم في إمداد هذه الحروب بالفرسان الممدين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اشتعالاً ، وأحمى سماراً منها بين البيئات المتحضرة أو القرية من العصر ؛ فلم يكن لأبناء البادية من شاغل يعصرفهم عن الحروب انتقاماً أو ثأراً ، أو عدواناً إلى غير ذلك من دوافع الحروب التي كانوا ينزفون إليها نزوعاً ، وينتهيون لها نكل ما أوتوا من الوسائل .

وكان الشعر عند هؤلاء هو القوام الملائم للفروسية ، وهو الوجه الثاني لها أو الرأة التي تمسك صنيع الفارس ، ويتراءى على سطحها أدواته الحربية وطرق إهداده ، وكيفية هجومه كراً ومراً .

* * *

ودارس الحياة الجاهلية يلاحظ أن أبناء البادية لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد في الخضوع لقيم البادية وطبائنها ؛ فقد كان من أبناء البادية من تردد على الحاضرة ،

وخرج إلى المدينة ليقضى فيها بعض فترات حياته بعد أن تسكنت أحاسيسه وشاعره بين أهله في أحضان البادية ، فأثرت الحاضرة بمظاهرها المادية فيه ، فأصبح خاضعا لمؤثرين أحدهما بدأ معه منذ نمومة أظفاره فتغلغلت آثاره في ذات نفسه مكونة أخيلته وممانيه ، والآخر بدأ معه بعد أن وضع فكره ونمت مداركاته ، فطنت آثاره على سطح نفسه منعكسة على الشكل والضمون .

وكان من أبناء البادية من ظل على نشأته مقبلا في البادية ، لا يعرف إلا ما عليه عليه ، لكنه استجاب للإسلام حين جاء بأفكاره ومبادئه ، واندفع إليه بقوة وإخلاص ، فتغيرت مفاهيمه ، وتبدلت أفكاره ، وهذبت ألفاظه ، لكنه لم ينسلخ تماما من بيئته الأصلية ، على الرغم من تغير المعارف والأخيلة والشكل والمضمون لديه ؛ لأن الإسلام وكتابه الكريم لم يخرج في بعض تلك النواحي وللظاهر على البيئة البدوية الخالصة التي تمثلها البادية أدق تمثيل .

ولا ريب في أن هذا ودك أصبح بدويا متحضرا ، يجمع بين مؤثرات البادية والحاضرة ؛ فضمه إلى شعراء الحاضرة أولى ليتضح الفارق بينه وبين الحضري بمولده ونشأته .

إذن الشاعر البدوي الذي تقصد إليه في بحثنا هذا هو الشاعر الذي لم يخرج على البادية بحسبه ولا بمقله وفكره ؛ فهو البدوي الخالص في أفكاره ، وفي ممانيه ، وفي أخيلته ، وفي ألفاظه ، وفي قوالبه الفنية ، سواء كان مقامه ظاهرا القري وأطراف الحضر أو كان مقامه في أعماق الصحراء .

بيد أن هذه البيئة البدوية الخالصة كانت تضم وسطين مختلفين ، إلى جوار السادة والفرسان البدويين الذين لم يشذوا على أعراف قبائلهم ، وقيم عشائرم ، وجد الصعاليك الثأرون الخارجون على عرف القبيلة ، وقيم العشيرة ، أنارون بما اعتنقوا من وجه للأخذة والحاسبة ، بعيدا عن مواطن القبيلة ومستقرها ، متخذين من الجبال والفلوات مكانا لهم ومنازل .

فالمقصود بالصعاليك إذن أولئك الأصوص من كانوا يتجردون في الجاهلية للفنارات وقطع الطرق ، بقصد الثأر أو السلب والنهب ، فهم جميعا - على اختلاف مواطنهم

وأزمانهم - خاضعون لظروف قريبة الشبه من بعضها أرت في منازعهم وتفكيرهم ، فوجهتهم إلى مسالك متميزة اختصوا بها من دون غيرهم في معالجة الأمور ، وفي التعبير عما يحيش بصدورهم ، وفي تقويم المواقف . . إلى غير ذلك من محلتب شئون الحياة .
والمتابع لشوء الصلابة في المجتمعات الجاهلية يلاحظ أن الدوافع لها تختلف من جماعة لأخرى ، وإن اتفقت في نتائجها .

فهناك رأى في الصلابة السبيل الأيسر لتحقيق مآربه ، والوصول إلى السكسب من غير حاجة إلى عمل ، فالصلابة في رأى هؤلاء حرفة تدر عليهم ما يواجهون به .
متطلبات الحياة ، هذه النظرة يشترك فيه الأفراد والجماعات ، فقد عرفت شبه الحرية قبائل تحترف الصلابة لهذه الساية مثل قبيلتي هذيل ومهم ، كما عرفت أفرادا مثل عروة بن الورد العمسي .

وهناك من رأى في الصلابة مجالا يشبعون فيه رغباتهم ، ويستجيبون فيه لوزواتهم .
لن تتماز مع نظام القبيلة ، مثل أبي الطمجان القيني ، وحاجز الأردى ، وقيس ابن الحدادية ، وغيرهم ممن لفظتهم قبائلهم لشذوذ سلوكهم ، وانحراف تفكيرهم .
وهناك طائفة ثالثة رأت في الصلابة متناسلهم وميدانا تحقق فيه ذاتها ، حين يذم عمتهم لأسباب لا يد لهم فيها مثل سواد أمهاتهم وغربتها عن الديئة العربية ، فقد كان الآباء يحدون في إلحاق مثل هؤلاء الأبناء بنسبهم عارا ومساءة . وكان لا بد لهؤلاء الأبناء من مخرج ، إما أن هتبل الأحداث فيصطر آناه إلى إلحائه كما فعل عترة ، وإما أن يخرج على القبيلة ويأجأ إلى الصلابة كما فعل تأبط شرا ، والسليك ابن السليكة .

وأيا ما كان دافع الصلابة فقد كان الجميع يلتقون في الثورة الجارية على الأغنياء والأشحاء فيرددون دائما ما يملون به مسلكهم من صيحات الجرع والفرع ، كما كان الجميع يتاز بالقدرة للدائفة على تحمل المشاق ، والمشجاعة النادرة في مواجهة الأخطار ؛
ولذلك لم يخلصوا أنفسهم للوسائل التقليدية في ارتحالهم وانتقالاتهم وغاراتهم ، فاعتمدوا على أرحلهم كما اعتمدوا على خيولهم ، فامتازوا بالمدو حتى أطلق عليهم اسم المدائين ،
وحق ضربت بينهم الأمثال في سرعة المدو فقول : أهدى من السليك ، وذكر الرواة عنهم في ذلك أقاصيص تصور خصائصهم البدنية ، من ذلك ماروى عن تأبط من أنه كان أعدهو ذى رجلين وذى ساقين وذى عيليين ، وكان إذا جاع لم تقم

له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينتقى على نظره اسمها ، ثم يجري خافه ، فلا يفوته بد
حق يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه ميا كله (١) .

وطبيعي أن يركز هؤلاء نشاطهم في الاطراف القريبة من طرق القوافل الدينية
والتجارية ، فسكانوا ينتشرون في جبال السمراء المحيطة بالطرق للوصول إلى مكة مقصد
الحجاج والتجار ، كما كانوا ينتشرون بالقرب من شمال اليمن ، وبالقرب من
الطائف والمدينة .

كما كان طبيعيا أن يتبنى هؤلاء في أثمارهم بأرقى مناخر العربي من حراة وكرم
وترفع عما يروونه حسيما دنيئا .

أى أن كلا من هذين الوسطين اللذين ضمنتهما البادية العربية كان له آثاره التي
ميزت شعر أبنائه عن شعر الآخرين ، واتجهت بكل فريق وجهة تتسق مع أباداهة
وظروف الحياة فيها .

ولقد قدمت البادية بشعبتها شعراء كثيرين لا يمكن لدارس أن يلم بهم على
وجه العصر والاستقصاء . وكل ما يمكن تقديمه في ذلك هو طائفة منهم تمثل الاتجاه
الفني العام ، وليس لدافع آخر غير ذلك .

ومن بين هؤلاء الكثرين وقع اختياري في هذا البحث على خمسة شعراء
هم عنترة ، والحارث بن حلزة ، وزهير بن أبي سلمى ، والشنفرى ، وعروة ، رأيت أنهم
يمثلون اتجاهات الشعر البدوي في العصر الجاهلي المتصل بمحضرة الإسلام

١ عنتره

نشأته وحياته :

هو عنتره بن شداد بن عمرو، وقيل : عنتره ابن عمرو بن شداد بن معاوية العبسي .
قال ابن السكيت : شداد جده أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه فنسب إليه وقال غيره :
شداد عمه ، وكان عنتره نشأ في حجره ، ونسب إليه دون أبيه (١) . أما أمه فكانت
حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها السواد ، فكان أحد أعربة العرب المشهورين
في الجاهلية اسوادهم ، وهم ثلاثة : عنتره ، وخفاف بن ندبة السلمي ، والسليك
ابن السلكة . وكان عنتره يلقب بمنتره الفوارس لشجاعته ، وعنتره الفاحاء (٢) لشقيق
شفته السفلى . ويكنى بأبي الفليس لماراته في الفليس .

ولأن أمه أمة لم يلقه أبوه بنسبه - على عادة العرب في ذلك - إلى أن أغار بعض
أحياء العرب على بني عيس فأصابوا منهم ، وتبهم المبيسون بلحقوم فقاتلهم عما منهم ،
وعنتره فيهم ، فقال له أبوه : كر يا عنتره ، فقال عنتره : المبد لا يحسن السكر ، إنما
يحسن الحلاب والصر ، فقال : كر وأنت حر ، وكر وهو يقول :

أنا المهجين عنتره كل امرئ يحمره
أسوده وأحمره والشعرات المشعره
الواردات مشعره

وفانل يومئذ قتالا حسا ، واستنقد ما كان بأيدي عدوم من الغنيمه ، فادعاه
أبوه بهد ذلك ، وألحق به نسبه

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٠ ، وطبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٥٢ ،
والأغانى ج ٨ ص ٢٣٧ وما بعدها ، والخزانة ج ١ ص ٥٩
(٢) الفاحاء مؤنث الأملح : المشقوق الشفة السفلى .

واجتمع إليه صفات شتى ؛ وكان أحرأ معاصريه فؤاداً ، وأقواماً تحملاً ، وأستخدام
يبدأ ، وأسرعهم إلى مواجهة الأخطار إقداماً ، ولكنه مع ذلك كله كان حليماً ، دمث
الخلق ، لين الطبع ، سميع الخالقة ، عنما عن الدنيا .

روى صاحب الأغانى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول عنتره :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنا به كريم المسأكل

فقال صلى الله عليه وسلم : « ما وصف لى أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنتره » :
ويبدو أن موقف أبيه وعشيرته منه كان له أثر فى إعداده وتكوينه ، فلم وبسلم
نفسه إلى الحقد على عشيرته ، ولكنه انصرف إلى بناء نفسه وإعدادها الإعداد القدى
يلفت الأنظار إليه ، ويفرض على الجميع احترامه وتقديره ، فكان الفارس ، والشاعر ،
والنبيل (١) .

وروى عن عمرو بن معد يكرب - وكان معاصراً له - أنه قال : لو سرت بظعينة
وحدى على مياء معد كلها ما حقت أن أعلب عليها ما لم يلقى حراها أو عبداها . فأما
الحران فعاشر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بن عيسى
(يعنى عنتره) والسليك بن السليكة ، وكلمهم لاقبت ، فأما عامر بن الطفيل فسرير الطعن
على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت ، وآخرها إذا آبت ، وأما عنتره
فقليل الكبوة ، شديد الجلب ، وأما السليك فبمعد القارة كالكهيت الضارى .

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنتره : أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ قال : لا . قيل :
فماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا
رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضماً إلا أرى لى منه مخرجاً ، وكنت أعتمد
الضعيف الجبان فأضربه الضربة المائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأنتفى عليه فأقتله .

ولقد أصبح عنتره - بعد أن ألحقه أبوه بنسبه - فارس عبس ، وشهد كثيراً من
المعارك المشهورة مثل حرب داحس والغبراء التى أبلى فيها أحسن البلاء ، وهما قتل
ضمضها المرى أبا حصين وهرم ، وفى ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم ندر للحرب دائرة على ابني ضمضم

الشامى عرضى ولم أشتمهما والباذرين إذا لم ألقاهما دى (١)
إن يفعلنا لقد تركت أباهما جزر السباع وكل سر قشعم (٢)

وعزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنزة ، ولحقهم كبسكة من الخيل فخاض عنزة عن الناس فلم يصب مدبر . وكان قيس بن زهير سيدهم ، فسأه ما صنع عنزة يومئذ ، فقال حين رجع : والله ما سمى الناس إلا ابن السوداء .

وأحب عبلة ابنة عمه مالك بن قراد ، ونظم فيها شعراً من أوراق الغزل الجاهلى ، ولكن أباها عمه أنكرها عليه هدا ، وأبوا أن يستجيبوا لرغبته ، وأصر على أن ينالها وغامر من أجلها ، وبدل الكثير حق الحقة أبوه بنسبه ، ولكن دون حدود .

وهكذا توفر لمنزلة دافعين من أهم دوافع الشعر ، هما الفروسية التي كان يمتيرها سبب تحريره وإلحاقه بنسب أبيه ، والحب العفيف لابنة عمه التي أبى أهلها عليه التزوج منها ، فاردادها ملقاً وهيأها ، وأخذ يثبها لواعج شوقه ، وآلام نفسه .

وما زال الفارس المرموق في ميدان الحرب وفي ميدان الحب حتى مات عن تسعين عاماً تقرباً ، وانتقلت أخباره ، فتزيد فيها الرواة ، وأضيف إليه من المواقف الحربية ما ليس له ، ونسب إليه من الشعر ما لم يقله ، حتى أشدبه الصحيح بالموضوع

وقد اختلف الرواة في سبب وفاته ، فقيل : إنه قتل وهو شيخ كبير في غارة له على بنى نهبان من طيء ، وقيل : إنه كان قد أسن وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له على رجل من قحطان بدير ، فخرج يتقاضاه إياه ، مهاجت عليه ربيع من سيف وهو بين شرح وباطرة ، فأصابته وقتلته .

شعره :

لقد كان لبشاة عنزة وظروف يئته أثر بالغ في ارتباطه بالفروسية المربية على اختلاف مظاهرها وكان للفروسية أثرها في البناء الجسمى والنفسى والخلقى لعنزة ،

(١) يريد أنهما يتوعدانه بالقتل في عينيه ، وإذا حضر لم يحرقوا على الكلام .
(٢) جزر السباع : فرستها . القشعم : الدسر اللسن ، يقول : إن يتوعدانى أو يشتمانى في غبتي ، فلقد قتلت أباهما فليريانى ماذا هما فاعلان .

فقد أنامت نفسه على التسامح والترفع عن الدنيا ، والشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية
فارتبط في حياته بطائفة من الأخلاق الحميدة ، والحصال الطيبة ، ظلت له مصاحبة وظل
هو لها ملازماً فانبعث منها سلوكه ، وانظم فيها شعره ، فإذا هو عقد حياته الشجاعة
والكرم ، والوفاء ، والحلم ، والأنفة ، والعزة ، والصر على الشدائد ، وتحمل المشاق
والحفاظ على المهدي ، وحماية الجار ، والعفة . . إلى غير ذلك .

وهكذا تحولت الفروسية عند عنزة من مدلولها المحدود إلى معناها الشامل لكل
ما فيه تفوق وتميز من حميد الحاصل .

ومن ثم أصبحت الفروسية بهذا المعنى الإطار الشعري لعنزة ، يدور بداحله ولا
يشد عنه ، تنصفح ما وصلنا من شعره فتجدده واصفاً للمركه ، أو مقتخراً بانتصار ، أو
مصوراً حبه الطاهر العفيف . مثال ذلك ما قاله مفتخرأ ، يجيب قيس بن رهيرس دعبس
حين أراد محقره بسواده على ما تقدم ذكره ؛ إذ يحكى أن صاحبه بادرته نحووه بما يمرض
له نفسه من السكره بسبب تهافته على الحروب ، ولكنه يكر عليها ذلك مفنداً حاجتها
موضحاً أن السكره ليست وقفاً على من يشارك في الحرب ، وأن الموت كأس لا بد من
تجرعه موتاً أو قتلاً ، طالباً إليها أن تستحي مما تحاوله معه ، وأن يفضل الموت ماصلاً
شريفاً مدافعاً عن حماه وحمى عشيرته ، من لا ين يمتدى عليهم الدمار والفناء ، بحيث
لو أمكن إبراز الموت في صورة مادية جسدية لكان على صورة عنزة . ويمهد بذلك
للنخر شجاعته وفروسيته ، مشيراً إلى كرم أصله الأبوي ، لكنه لا يقف عند الموروث
بل هو ينطى بماله ماقد يماب من أصل أمه عبد العربية فهو المقدم حين تحجم السكتينية
حتى أصبح أفضل من عمه وخاله عربي سيد ؛ إذ لا يعنى القبيلة أحد غمامه ، ولا يقوم
أحد لها بمثل ما يقوم به ، ويكفي أن تسأل الخيل والموارس عما أوقمه بالإعداد فهو
لا يكون في أول المهزمين ، بل إنه حاميتهم ومقذهم في وقت الشدة ، ويقتمهم الصوف
والخيل صامره متميرة من هول الحرب قد كلح فوارسها لشدة الحرب وأهوالها .
وقد عر عليه الآلية والووم دون أن يطعم ما يسد حاجته حتى يطعم ما لا يماب به . فهو
كريم النفس ، نميل الخلق .

بكرت مخسوفى المحتوف كأنفى أصبحت عن عرض المحتوف بمزل (١)

(١) المحتوف : المهالك ، عن عرض : أى ما يمرض منها .

وأجبتها إن النية منهل فأتقني حياءك - لا أبالك - واعلمى
 إن النية لو تمثل مثلت إلى امرؤ من حير عيس منصبا
 فأتقني حياءك - لا أبالك - واعلمى إلى امرؤ من حير عيس منصبا
 إن النية لو تمثل مثلت وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت
 إلى امرؤ من حير عيس منصبا والخيل تعلم والفوارس أتى
 وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت وإذا لا أبادر في اللغز فوارسى
 مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل (٣) إن ياحقروا أكرر ، وإن يستلحموا
 شطرى ، واحمى سائرى بالانصل (٤) ح- ين النزول يكون غاية مثلنا
 ألنيت خيرا من معم مخول (٥) والخيل ساهمة الوجوه كأنما
 فرقت جمعهم بضربة فيصل (٦) واقعد آيدت على الطوى وأظه
 أولا أو كل بالرغيل الأول (٧) حق أنال به كريم المأكل
 أشدد وإن يلغوا بضنك أنزل (٨) ويهر كل مضال مستوهل (٩)
 تسقى فوارسها تتبع الخمطل (١٠)

أما غزله فهو فيه العفيف الذى يقدم المروة ويقدم المروسية على إشباع عريضة،
 أو تلبية رغبة ، ونظرة إلى ما قدمناه من شعره فى فن الغزل توضح ذلك ؛ فهو فى غزله
 الفارس العربى الذى يتسامى فى حبه كما يتسامى فى خلقه . وله فى ذلك الميدان شعر
 كثير ، حتى لقد ربط بين حبه ومعاركه ، فكان يقدم لقصائده الحربية بحديث يثبت فيه
 شكواه ولواعجه ؛ فذكره لها لا ينقطع ، ولا يشغله عنها شغل فى حرب أو سلم ، بل
 إن تذكرها فى معاركه لتجمله الأسد الضارى المستهين بالأهول .

- (١) المهمل : المورد
 (٢) فأتقني حياءك : احفظيه .
 (٣) الضنك : الضيق . يقول : إن النية لو حلقت مثالا لكانت فى مثل صورتى .
 (٤) النصب بكسر الصاد : الأصل . والمهمل بهم وسكون فضم : السيف
 (٥) الكتبية : الجماعات إذا اجتمعت ولم تنتشر تلاحظت : نظرت من قد . على المدو .
 (٦) الفصل : الذى يفصل بين الناس .
 (٧) لا أبادر فى المصيق فوارسى : لا أكون أول منمزم ولكنى أكرر حاميتهم .
 الرهيل : اللطمة من كل شىء
 (٨) يستلحموا بضم الياء وفتح الحاء : يدركوا .
 (٩) المستوهل بكسر الحاء : الضميف الفزع . (١٠) ساهمة : ضامرة متميرة .

ومن ثم نجد عترة في شعره الموحه لآية عمه عبلة حريصا على الفخر بقيمه وأخلاقه ومثله العليا التي يدين بها؛ وفي ميميته يفخر باتصافه بكل خلق كريم ، فهو - إلى شجاعته ولسانه وجرأته في الدفاع عن قومه - سمح الأخلاق وسهل المحالطة والمعاشره ، لا يقبل أن يظلم أحدا كما لا يقبل أن يظلمه أحد ، فإذا اعتدى عليه أحد وباله بظلم أصبح نارا مؤحجة تحرق من اعتدى عليه ، وإذا اكتنفته السلام فهو في سلوكه على وعى دائم بما يحفظ عليه كيانه وقد يشرب الخمر ولكن بالقدر الذي لا يفسد مروءته ولا يصيب عرضه بأذى ، ومع هذا فهو لا يقصر عن المعطاء ، ولا يتردد في مساعدة المحتاج ؛ فهو يوجد بما يملك عن طيب نفس ، وذلك قوله :

أثى على بما علمت إننى	سمح مخالفتى إذا لم أظلم
وإذا ظلمت فإن ظلمي بأسل	مر مذاقته كطعم الملقم (١)
وإذا شربت فإننى مستهلك	مالي ، وعرضى وادرم يكلم (٢)
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلى وتكرمى

ويواصل الحديث إليها عن مفاحره ؛ من مروءية ، وشجاعة ، وإقدام وسالة ، ويصف لها كيف يواجه الأعداء الشداد في المعركة كأنه القصاء النازل . ثم يعود إلى الحديث عن سجاياها الخلقية ، من عمه وكرم وشرف ، وهو لا يقصد بحروبه كسبا ماديا يجرى وراءه :

يحرك من شهد الوقائع أننى أعشى الوعى وأعب عبد المنعم

ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستعرض طرفا من قيمه البدوية التي تمرز مكانته بين قومه ، من ذلك موقفه بإزاء النساء - عموما سبيات وغير سبيات - ومحافظته على حرمانهن ، ولا يمس واحدة - مهما كانت - إلا إذا قدم صداقها لأهلها إذا لم تكن زوجة لغيره ، كما أنه قوى العزيمة يتحكم في عواطفه ومشاعره :

ما اسمت أننى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاه (٣)

(١) بأسل : كريبه .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها ، والمواطن هنا : موطن القتال .

أغشى فتاة الحى عند خيلها وإذا غزا في الحرب لأعشاها (١)
وأغض طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى ما وأها
إنى امرؤ صبح الخليفة ماجد لا أتبع - النفسى العجوج هواها

شعر عترة موسوعة لأخلاقيات البدو وقيمهم التي يمترون بها ، ويحرصون عليها في كل تصرفاتهم ؛ لأنه حرص على أن يتجه إلى عبلة في كل مناسبة مفتخرا بما تعرف عنه من أخلاقيات البادية ، فكلما التقينا بشعره التقينا ببعض المعاني النبيلة التي يقوم عليها سلوكه وتفكيره ، بحيث يستطيع المدارس أن يرسم له صورة واضحة المعالم ، دقيقة التعبير ، تكشف عن حوالب نفسه ، وطوايا فكره ، ومكارم حنقه ، ولعل من أطرف ما نتعرف عليه من أخلاقيات عترة الفارس المقاتل ومشاعره أنه ينطوى على مشاعر الرحمة والحنان حتى على خصمه ، فهو - في نظره - الكريم ذو القدر والمسكنة الذي يتحرج عترة ويألم حين طمسه الرمح ، ويذكر أن ما صنمه به ليس محرما وإن يكن كريما :

شككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكرم على القنا محرم (٢)

كما يألم لفروسه الذي أجهده في المركة وأصابه رماح الأعداء فكان يميل من طريقهما :

أزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بهمة وتحمحم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى وكان لو علم الكلام مكلمى

وبذلك يمكن أن يرى المدارس شعر عترة ذا وحين : أحدها غمائي وجداني يصور فيه أحاسيسه ومشاعره ويحسم معاناته وآلامه لبعده عبلة عنه وحرمانه منها ، كما يحسم فرحته وسعادته حين تقع عليها عيابه . والوجه الثاني قصصى ملحمى ، يصور فيه وقائمه ومفاحره وبطولاته ، بيد أن أحد الوجهين لا يكاد يفصل عن الوجه الآخر ، فهما وجهان ممتزجان ، لا يقوم أحدهما بدون الآخر .

من ثم يتضح لنا مدى تأثير بيئته فيه وفي شعره . واتجاهها به متجها يختلف تماما عما كان عليه الشعراء الجاهليون في البيئات الأخرى

(١) أغشى : أروى

(٢) يكى بالثياب عن الجسد والبدن .

(٣) أزور : مال وانحرف ، واللبان - بفتح اللام - الصدر ، والتحمحم : بهيل

فيه شبه الأئين .

٢ الحارث بن حلزة

نشأته وحياته :

هو أبو ظلم الحارث بن حلزة بن مكروه بن يشكر البكري ، لا نجد شيئاً بينه
أيدينا من مرويات التاريخ ما يكشف عنه سوى الحادثة التي حرت وقائمتها في حضرة
عمرو بن هند ملك الحيرة ، وذلك أن عمرو بن هند أراد التوسط للإصلاح بين بكر
وتغلب بمد حرب البسوس حينه أهم التغلبيون في بكر بأهم تسبوا في قتال بعض
أبائهم وغضبوا لذلك وطلبوا الدييات من بكر ، فخرقهم ما ماهدوا عليه على عهد للذئذ
والد عمرو بن هند . ولكن البكريين أبوا الاستجابة لمطالب التغلبين واحتكموا
إلى عمرو بن هند . ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها
عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشراها النعمان بن هرم . وكان عمرو
ابن هند يميل إلى التغلبين ، فخرى بينه وبين النعمان جدال غضب له عمرو بن هند
وطرده من حضرته . ولما أنشد عمرو بن كلثوم التملبي قصيدته المطولة ، تقدم الحارث
ابن حلزة وأنشد مطولته كذلك وكان لها في نفس الملك وقع حسن جمه يعجب بها ،
ويدي الحارث منه ، ويقصى للبكرين .

شعره :

لم يصل إلينا من شعر الحارث غير القليل ، وفي مقدمة هذا القليل مطولته التي
أنشدها في مجلس التقاضي أمام عمرو بن هند . ويبالغ بعض الرواة فيذكرون أنه
ارتجالها ارتجالاً ، كما يزعمون أن عمرو بن كلثوم ارتجل قصيدته ، ولكن الناظر في
انتقالات الحارث يتقرر لديه أن ارتجالها غير ممكن عقلاً ، لما فيها من إعمال وروية
يبدو أن هي ترتيب أمسكارها ترتيباً منسقاً ، والبراعة في التعريض بالخصوم بطريقة
تم عن دهاء وحسكة ، وسرد الحوادث التاريخية سرداً يحمل من الدلالات ما يجعل
تقطع بأن قائلها أعدها وأتم أدواتها .

وإذا رددنا نظرنا في هذه القصيدة تبين لنا أننا أمام شاعر على قدر كبير من

للشجاعة النفسية ، والدهاء السياسي ، وحدة العقول ، وقوة المارضة ، ورباطة الجأش . . فقد واجه بقصيدته تلك ميل الملك إلى التغلبين القدي قواه ماحدث من التمهين بمحضرتة .

هذا إلى أن في اشتمزاز الملك من رؤية الحارث ، وقيامه ممشدا من حاف ستور ما يكتفي لأن يفقده توازنه ولكن الحارث الفارس تماكك نفسه وتماكك حتى تمكن من أن يستحوز على الملك ويستل من نفسه الغضب على البكريين ، ويستميله إليهم .
والشاعر في مملقته يتندىء - على ما عليه شعراء الجاهلية - بالفزل وذكر الفراق ولكنه لا يطيل فيه ، ثم ينتقل إلى ناقته التي يستعين بها فيذكر من أوصافها - في إبحاز - ما يمهده به إلى غايته التي يقصدها .

فيصور أُر الدعوى التي افترها التغلبيون عليهم إذ زعموا أن البكريين تقضوا أهدم ، ويوضح أن هذا الزعم أصابهم بالساء وأساء إليهم ، ثم يذكر أن إخوانهم التغلبيين بهذا الزعم يظلمونهم ويبالغون في ظلمهم ، مهم مازالوا يطوون نفوسهم على هداوتهم . ولا يكتفي بذلك التعميم ، ولكنه يمرض لأوهامهم التي يؤسسون عليها دهوام ، مهم لا يفرقون بين برىء ومذنب ، ويخلطون هذا بذلك ، بزعمهم أن كل من أساء إليهم تابع لنا فيحملونا تيمة ماقدم ، ومن ذلك المنطلق في تصورهم قرروا تقض عهدنا ، وأخذوا في الإعداد للاقتنا فأصبحوا مستمدين لحرينا ، متأهين لقتالنا ، يحتلوا الجوبما يصدر عن المقاتلين وحيولهم من أصوات وضوءاء .

وفي هذا القسم يبدأ الشاعر باستعراض ما ادعته تغلب على بكر واستعدادها:
للحرب وذلك قوله :

واتانا من الحوادث والأنـ بآء خطب نمى به ونساء (١)
أن إخواننا الأرقام يفلو ن علينا ، في قيلهم إحقاء (٢)
يخلطون البرىء منا بذى القذ ب ولا ينفع الخلى الخلاء

(١) نعى به ونساء : يصيينا بسببه عناء وسوء .

(٢) الأرقام : بطون من تغلب ، يفلون . يجاوزون الحد ، الإحقاء : شدة الإلحاح والاستقصاء .

زعموا أن كل من ضرب العيب ر موال لنا ، وأنا الولاء
أحموا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ، ومن عجب ، ومن تصه هال حيل حلال ذلك رغاء

ثم ينتقل من تسفيه شكوى التغليبين إلى تهديدهم مايقا بذلك تبعمة الحرب
وويلاتها عليهم .

فيقول : أيها الناطق عند الملك الذي يرب القبول ، ويفترى علينا الكذب لاثمسينا
جازعين لإغرائك الملك بنا ، فإن ذلك لن يقدح في أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه ،
فبقينا - طي بنضك لنا - في عزة ثابتة وحصون منيعة تحمينا من أذاكم ومكركم ، ولقد
أعمت عزتنا قبل يومنا الذي نحن فيه عيون أعدائنا ، فنحن في منعة تجعل الدهر إذا
ومانا بأحداثه لا يؤثر فينا ولا ينال منا كأنما يرى جبلا عاليا بعيد المثال . فلتكونوا
واضحى المقاصد ، واكشفوا عن مرادكم ، وأى طريقة تجرون عليها في خصومتنا
فوضوا فيها سادنكم وصفراءكم وليأتوا إلينا لتباحث فيها ، فإن أردتم أن تثيروا ما كان
بيننا وبينكم من القتل والأسر في المارك التي كانت بين أهل ملحة وأهل الصاقب
ظهر لكم ماتكروهون ، وإن دققتم في البحث والاستقصاء في تلك الأحداث ، فإن ذلك
مع ما فيه من المشقة والكلفة يفضي بنا إلى صلاح أمورنا ، إن سكتكم عن ذلك فإننا
نصت كذلك ونتناسى ما كان على ما فيه من مرارة لأن الحق في جانبنا ، أما إن رفضتم
مأسألون فيه من الصلح والتراضي ظنا مسكم أن بمقدوركم إهانتنا فأنتم مخطئون فقد
علمتم مماننا وحفظنا لأنفسنا أيام كان الناس ينهب بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض
وفي كل حى صيلح ، ولتذكروا ما فعلنا حين طويما ما بين البحرين والحساء إغارة على
القبائل وأسرا النساءهم واتهابا لأموالهم ، فلم ينبج أحد منا ولم يوقفنا عن ذلك إلا
دخولنا في الأشهر الحرم :

أيها الناطق المرقض عنا عند عمرو ، وهلى لذلك بقاء (١)
لا تخاننا على غرائك إنا قبل ماقد وشى بنا الأعداء (٢)

(١) المرقض بكسر القاف المشددة : الزين للقول بالباطل .

(٢) الغرات بفتح التين والراء : اسم مصدر من الإغراء .

فبقينا على الشنأة تنميه نلحصون وعزة قساة (١).
قبل ما اليوم بيضت بيون ال ناس فيها تميظ وإباء (٢).
وكان للنون تردى بنا أر عن جونا يجاب عنه القاء (٣)
مكفرا على الحوادث لآثر توه للدهر مؤيد صباء (٤)
أبما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشي بها الإملاء (٥).
إن نبشتم ما بين ملحاة فالصا قبه الأموات والأحياء (٦)
أو نقشتم فالتقش يحشمه النا س، وفيه الصلاح والإبراء (٧)
أو سكتم عنا: فسكنا كمن أء مض عينا في جفنها أقداء
أو منتم ما تسألون فن حد تموه له علينا للملاء (٨)
هل علمت أيام ينتهب النا س غوارا، لكل حتى عواء (٨)
إذا رفنا من سقف البع رين سيرا حتى نهاها الحساء (٩)
ثم ملنا على تيم فأحرره نا وفينا بنات مر إماء (١٠)

- (١) الشنأة: البيض، تنمينا: ترفنا، التقصاء: الثابتة .
(٢) ما: زائدة، بيضت بيون الناس: بيضتها أي أعمتها، والتميط - بفتح الميم
وضيم الياء المشددة - الترفع والإباء .
(٣) للنون: الدهر، تردى - بكسر الهمزة - قرى، والأرعن: الجبل الذي له حدود
وأطراف تخرج عن مظهره، والجون الأسود، يجاب عنه: ينشق عنه، الماء: السحاب الأبيض .
(٤) المكفر: النفيظ المتركب بعضه على بعض، لا ترقوه: لا تنقضه، والمؤيد بضم
فكسكون فكسر: الشديد الأيد أي القوة، ويسى به الهامية .
(٥) الخطة: الأمر يقع بين القوم، الأملاء جمع ملأ: الأشراف والرؤساء .
(٦) ملحاة بكسر الميم: مكان، المقاب: جبل، إن نبشتم: إن أنزتم ما كان بيننا .
(٧) نقشتم: استقصيتم، يحشمه بفتح الشين: يتسكفه على مشقة .
(٨) غوار بكسر الغين: مغاورة بعض على بعض .
(٩) رفنا الجمال في السير: سرنا سيراً رفيعاً، والحساء جمع حسي: الرمل يكون
الماء تحته قريباً، ويريد به مياه لبني فرارة .
(١٠) أحرمتنا: دخلنا في الأشهر الحرم فامتنعنا عن قتالهم، مر: أبو تميم .

لا يقيم العزيز بانهـ السهم ل ، ولا ينفع القليل النجاء (١)
ليس ينجى موائل من حذار رأس طود وحره رجلاء (٢)

ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن النذر بين ماء السماء وتعاونهم معه ، منتقلا إلى استعراض مواقف التغليبين التي تحسب عليهم ، مذكرا بين الحين والحين بما كان لهم من مواقف في مؤازرة النذر وعمرو بن هند ، موضحا بذلك صورة للتغليبين والبسكريين التي تكشف عن غدر التغليبين وسوء مقصدهم وعداوتهم للملك ، في حين تكشف عن وفاء البسكريين وحسن نواياهم وإخلاصهم للملك . وبذلك بلغ إلى ما يريد من نفس عمرو بن هند ، وتمكن من تحويله من جانب التغليبين إلى جانب قومه ، فكان الحامي البارح الذي عرف من ابن توكل الكنف ، وسار في قصيدته بخطوات ثابتة على طريق واضح ، معتمدا على الحقائق والأحداث الواقعية في إقامة حججه وتقنيده آراء خصومه وتمداد مفاخره ومفاخر قومه ، والوصول إلى قلب وعقل عمرو بن هند .



نعم كانت خلائق الفروسية البدوية هي التي واجه بها الحارث بن حازمة الموقف هنا فحق النصر وعاد مرفوع الرأس معززا مكرما . بيد أن مظاهر الفروسية لم تقتصر لديه على ذلك ؛ إذ نراه في موطن آخر فارس الصيد والحرب والجد ، وذلك في قوله :

طرق الحيال ولا كلية مدلج سدا بأرحلنا ولم يتمرج (٣)
أنى اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم قد قطعوا مئان السجسج (٤)

(١) النجاء : الإسراع والفرار .

(٢) الموائل : الذي يطلب موئلا يهرب إليه ، الحره : كل موضع فيه حجارة سوداء ، والرجلاء : الصلبة الشديدة .

(٣) أدلج القوم : ساروا ليلا ، سدا بفتح فسكسر : ملازما ، لم يتمرج : لم يعمل .

(٤) الرجيلة : اللقوية على المشي ، مئان بكسر الميم : ظهر ، السجسج : الأرض

الواسمة ليست بسهولة ولا صلبة .

والقوم قد آنوا وكل مطبم	إلا مواشكة الدجا بالهودج (١)
ومسدامة قرعتها بمسدامة	وظباء محنية ذعرت بسمحج (٢)
فسكرأنهن لآلىء وكأنه	صقر يلوذ حمامه بالعوسج (٣)
صقر يصيد بظفره وجناحه	فإذا أصاب حمامة لم تدرج
ولئن سألت إذا الكنية أجمعت	وتبينت رعة الجبان الأهوج (٤)
وحسبت وقع سيوفنا برءوسهم	وقع السحاب على الأطراف المشرج (٥)
وإذا اللقاح تروحت بمشية	رتك النعام إلى كنيف المرفج (٦)
الفيئنا للضيف خير عمارة	إن لم يكن لبن فمطف الدمج (٧)

والبيئة البدوية لا تظهر آثارها في أخلاقيات الحارث فحسب، بل هي إلى ذلك تظهر في صورة التي جمع فيها بين الصور الابتكارية من حيث العرض المستقوى للحدث ، وتقديم الموقف متحركا حيا ، كما رأينا. في معلقته يمرض الأحداث والمواقف التي نشأت بين قومه وخصومهم - وبين الصور التفسيرية التي اعتمد فيها على التشبيه والاستمارة المنتزعة من البيئة البدوية ، وتظهر في ألفاظه الجزلة للقوية التي تتردد بين الحشونة والسهولة ، وفقا لما يتطلبه الموقف ، ولعل ذلك يتضح من ألفاظه في المعلقة وألفاظه في

- (١) آن القوم يئنونوا : تعبوا ، والمطى جمع مطيه : ما يركب من الدواب ، مواشكة مسرعة السير ، والنجا بفتح النون : الإسراع .
- (٢) قرعتها : نثيت كأسها بأخرى ، الحنية : منمطف الوادى ، السمعحج : الفرس الطويل .
- (٣) العوسج : شجر شائك .
- (٤) أجمعت : أقدم على الحرب ، الرعة : الخوف ، الأهوج : الأحق الطائش .
- (٥) الأطراف بكسر الطاء : بيت من آدم وهو من بيوت الأعراب . شرح الجباء أو الثوب وأشرجه : أدخل بعض عراها في بعض وشدها .
- (٦) اللقاح جمع لقحة : الناقة الحلوب ، رتك النعام بفتح الراء وسكون التاء : خطو النعام ، وهو خطو متقارب ، الكنيف : السار ، والمرفج : شجر .
- (٧) المارة بكسر الميم : الشعبة من القبيلة ، الدمج بضم فسكون ففتح : القدح بكسر القاف وسكون الهال ، يعني إذا لم يكن لبن فميل إلى القدح تجال على الجزور لتتحر للضيف .

جيميته التي يفخر فيها ، كما تظهر في إيجازه الذي كان من أبرز خواص شعره ، وبكفي أن نردد النظر في شعره لنتأكد من ذلك ؛ إذ قلما نجد بيتا لا يحتاج إلى شرح مستفيض حتى إن علماء البيان يستشهدون بأحد أبياته على الإيجاز الخلل ، وهو قوله :

والعيش خير في ظلال النوك ممن عاش كدا^(١)

يريد أن يقول : « والعيش الناعم في ظلال الخلق خير من العيش الشاق في ظلال العقل » ، وواضح أن ألفاظ البيت لا تنفي بالمعنى المراد .

(١) النوك بفتح فسكون : الخلق ، السكد : التعمب .

٣ زهير بن أبي سلمى

نشأته وحياته :

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني نسبا ، الفطفاي مولدا وموطنا ، فأبوه ربيعة من قبيلة مزينة ، وروى أن ربيعة هذا خرج وخاله في ناس من بني مرة بن عوف يغيرون على طيء ، فأصابوا نمرا كثيرة وأمولا ، فرجموا حتى اتهموا إلى أرضهم ، فقال أبو سلمى لخاله وابنه : أفردا لي سهمي ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فتأصبههم وخرج بأمه إلى بني مزينة ، فلبث فيهم حيناً ، ثم أقبل في جماعة من مزينة منيرا على بني ذبيان ، ولكنهم ما كادوا يتوسطون ديارهم حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل في بني عبد الله بن غطفان ، ومن ثم ولد له زهير وأولاده في بني غطفان (١) . ولعل في هذا تفسيراً لاضطراب الروايات في نسب زهير .

وكانت مزينة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية ، بين وادي القرى الواقع غربي نجد وبين نهامة الحجاز ، أي في الشمال الغربي من المدينة ، على مقربة من البحر الأحمر ، شرقي مدينة ينبع

أما غطفان فكانت في الجزء الشمالي من نجد في مكان يسمى العاجر (٢) .

ولا نستطيع أن نجزم بشيء عن مولد زهير وحياته الأولى ، وكل ما نستطيعه أن نتعرف على ميلاده على سبيل التقريب من بيت له في مملته يقول فيه :

سمنت تكاليف الحياة ومن يمش ثمانين حولا - لا أبالك - بسأم

فذلك يدل على أنه حين قال مملته تلك كان في نحو الثمانين من عمره ، فإذا لاحظنا أنه قالها في مدح من سميا في الصلح بين عيس وذبيان ، في أواخر حرب

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة دار الكتب .

(٢) راجع كتاب الأصنام لابن السكبي .

داحس والنبراء التي يرجح أنها انتهت بين سنتي ٦٠٨ ، ٦١٠ م . كان باستطاعتنا أن نتقدر ميلاد زهير في سنة ٥٣٠ م . وهذا يعني أنه نشأ في أخريات العصر الجاهلي .

وقد أقام زهير في بني مرة سيديا مكرما مسموع السكامة ، وكان كثير المال ، ومع ذلك فلم يؤثر عنه شيء يعاب به في خلقه ومسلكه ، فلم يعرف عنه أنه قامر ، أو شرب خمرًا ، أو صاحب طائشا فارغا ، بل كان عيوظا عن كل ما يفتقص خلقه ، أو يعاب به إلى حد المبالغة في الجد والتوقر .

ونبحث عن السر في ذلك ، ونقلب صفحات حياته ، فلا يستوقفنا منها في هذا الصدد إلا تلمذته على أوس بن حجر زوج أمه ، الذي يقول عنه الرواة بأنه كان كثير الوصف لمكارم الأخلاق^(١) . وإلا نشأته في ظل خاله بشامة بن الغدير الذي كان مقعدا ناضج الرأي ، حازما . يرجع إليه في المضلات ، ويؤخذ برأيه في الشدائد ، من هذين منبع زهير خلقه المحمود ، فلم يؤثر فيه تراؤه ، ولم يخدمه عن واقعه مكانه من أهله وعشيرته .

ويبدو أنه إلى ذلك عاش مستقرا هادئا ، فلم ينقص عليه حياته منقص ، ولم يخرج عن أخلاقياته مؤثرا ، وكما اختلف في تاريخ ميلاده ، اختلف في تاريخ وفاته ، فقد تضاربت الروايات في ذلك ، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه » فالأك بيتنا حتى مات^(٢) . وهذا يعني أنه أدرك سنة ٦٣٠ م الموافقة للسنة التاسعة للهجرة ، وذكر ابن قتيبة أنه كان جاهليا لم يدرك الإسلام^(٣) . وذكر البغدادي أنه مات قبل البعث بسنة ، والمرجح أنه لم يدرك الإسلام .

شعره :

أتبع زهير في ميدان الشعر ما لم يتبع لغيره ، مما كان له أبعد الأثر في طبعه على الشعر وصقله فنيا ؛ فقد أحيط في بيته بأسرة شاعرة حركت فيه نوازع الشعر ، وعملت

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٤١ .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ .

على غرس موهبة الشعر فيه منذ طفولته، فقد كان أبوه شاعرا، وخاله بشامة بن الغدير النطفاني شاعرا، وكان أخناه سلمى والخنساء شاعرتين . وكما أتبع له أن ينشأ تلك للنشأ الفنية أتبع له أن يمتثل تلك الموهبة ويهذبها ، فقد تزوجت أمه من أوس بن حجر ، فكان لزهير أستاذا موحها ، وكان زهير له تلميذا وراويه ، فلم يكن مجرد راويه ، بل كان التلميذ الناقد المتأثر المحتذى .

ولم يقف أمره عند ذلك الحد ، فقد أتجه إبناه كعب ويحجر إلى الشعر ، وانتقل منهما إلى حفيده عقبه بن كعب المعروف بالضرب ، الذى أخذ عنه ابنه العوام ، فتحقق بذلك لزهير اتصال الشعر فى بيته على مدى خمسة أجيال متوالية ، قال ابن قتيبة : يقال إنه لم يصل الشعر فى ولد أحد من النعمان فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير (١) .

ومعنى هذا أننا مع شاعر عاش للشعر ، بدأ حياته معه تلميذا ، وختمها أستاذا معلما ؟ كان من أبرز تلاميذها - غير ابنه - الحطيئة .



وطى الرغم من أن زهيراً نشأ وعاش فى بيئة بدوية إلا أن تراءه وفر له بيئة مترفعة منعمة جمعت منه الإنسان الملمن المادى . الوداع التوقر ، فلم يفلت من يده زمام لسانه ليقول ما يصبغ وما لا يصبغ ، أو ليقول ما قد قال ، ولكنه كان المتروى فيما يقول ، ينظر فيه ويسيد النظر ، ويرجع إليه بالتنقيح والتهديب حتى لكأنه يتمدد فى محرابه ، الأس الذى جعل النقاد يطلقون عليه وطى أمثاله لقب (عبيد الشعر) ، يقصدون بذلك البطء فى قول الشعر ، ومماردة صقله ، وإطالة التفتيش فيه ، قبل أن يظهر للناس ويذمه بهم ؛ ولذلك قال القدماء عنه : إنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين فكانت كسمى حوليات زهير ؛ لأنه كان يحمك القصيدة فى سنة (٢) . ونسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فقال : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولى المحكك ، وقال الأصمى :

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٢٤ طبع دار الكتب المصرية .

زهير بن أبي سلمة والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جـ - ودفى شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات التصيدة كلها مستوية في الجودة (١) .

وهذا المسالك من زهير في شعره يعنى أنه إنسان يشمر بمسئوليته مما يندب إليه ، فهو يقدر المسئولية قدرها ، ويعمل كل ما وسعه العمل لينخرج عمله مجيداً مستقيماً .

* * *

ولم يكن منهج زهير في شعره هو كل ما أرتنه بيئته الخاصة فيه ، فقد ، وضع أثر بيئته كذلك في فنونه الشعرية ، فلم يقل إلا في الأغراض التي تلائم مع ذوقه الخاص ، فسكاد يقصرها على الديدع والوصف والحكمة .

وهو في مدحه يختلف عن غيره ، فهو لا يمدح إلا على مسلك محمود ، أو خلق كريم ، أو موقف فيه بطولة ؛ ولذا لم يخرج بمدائحه عن موطنه العربي ، فلم يتصل بلوك المراق أو الشام ، ولم يمدح إلا من وجه خيره إلى صالح قبياته ، ولذلك كانت أكثر مدائحه وأفضلها في هرم بن سنان ، لأنه كان يحبه ويحمله ، وكان هرم يبره ويجزل له العطاء . وكذلك كان شأنه في مدح الحارث بن عوف حين آزر هرمًا وسمياً في الصلح بين عيسى وذيان ، وإنهاء الحرب التي طال مداها بينهما ، فأعلنا نهمهما ديات القتلى من التبتلين حتى تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الشائرة . وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحصين بن ضمضم عسياً ليثأر لأخيه هرم بن ضمضم الذي كان قد قتله ورد بن حابس العبسي ، فنارت عبس من جديد ، وشهرت سيوفها ، ولكن الحارث بن عوف أسرع إليهم وقدم مائة من الإبل مع ابنه ليختاروا إما الهدية وإما قتل ابنه ثأراً لقتيلهم ، فقبلوا الهدية ، وواصلوا إتمام الصلح ، حتى أخدمت النيران السمرة ، ويملك هذا الموقف على زهير حسه ، فينطلق لسانه بمملكته مشيداً بذلك المسلك النبيل ، لا هجاً بالثناء على السيدين لما قدما للقبيلة من فمال تذكر لها ، مستعرضاً للحرب وأخطارها ، كاشفاً عما تنطوى عليه من كوارث لكلا الطرفين المتحاربين :

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

سعى ساعيا غيظ بن مرة يدها تبزل ما بين المشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بوه من قریش وجرم
يمينا نعم السيدان . وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم (٢)
تدار كما عبسا وذيان بسدا فانوا ودقوا بينهم عطر مئثم (٣)
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسما عبال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتا منها على خير موطن بيدين فهما من عقوق ومأثم (٤)
عظيمين في عليا معد هديتا ومن يستبح كرامن المجد يمطم (٥)
فأصبح يجري بينهم من نلادكم منانم شقى من إفال المرسم (٦)
تفى السكوم بالئين فأصبحت ينجها من ليس فيها بمجرم (٧)
يجها قوم لقوم نرامة ولم يهريقوا بينهم ماء محجم

ثم يحض الأحلاف (أسد وغطقان وطىء) على الإخلاص في الصلح ، والتوفيق بين باطمهم وظاهرهم ، واصنا الحرب وما تجره عليهم ما مبرزا إياها في صورة مرعجة مخيلة ، تبدو في صورة وحش مفترس ، وفي هيئة نار مشتملة ، وفي صورة رحنى تمرك الاس ، ثم في صورة امرأة ولود ، ولسكها لا تلبد إلا الشؤم الذين يجرون على القبيلة الحسار والبوار .

(١) الساعيان الحارث بن عسوف ، وهرم بن سنان ، سعيان في الجملة ، وغيظ ابن مرة : حى من غطقان ، وتبرل بالدم : تشقق .

(٢) السحيل : غير المبروم .

(٣) مئثم : قيل هي امرأة عطارة من حزاغة يغمس قوم أيديهم في عطرها وتماهدوا على القتال حق يموتوا ، نصار هؤلاء مثل أولئك في شدة الأمر .

(٤) خير موطن : خير منزلة ، والعموق : قطعة الرحم .

(٥) عليا معد : رؤساؤها وأشرافها ، ويمطم بضم الياء وكسر الظاء : يجيء

بأمر عظيم ، وروى ويمطم بفتح وضم : يصير عظيما .

(٦) الإفال جمع أفيل : اللصلان . والمزئم : المعلم .

(٧) تمعى : تمعى ، السكوم : التجراحات ، والمئين : الإبل .

ثُمَّ مِيلَاجِ الْأَحْلَافِ عَلَى رِسَالَةٍ وَذِيانٍ : هَلْ أَقْتَمْتُمْ كُلَّ مَقْسَمٍ
فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ بِهِ لَمْ
يُؤَخَّرْ مِيوَضِعٌ فِي كِتَابٍ نِيدُخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَجْعَلَ فِيْنَقِمِ
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ (١)
مَنْ تَبِعْتُمْهَا تَبِعْتُمْهَا ذَمِيمَةٌ وَتَصْرٍ إِذَا ضَرِيَتْ مَوْهَا فَتَضْرِمُ (٢)
فَتَمْرُكِكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِقَالِهَا وَتَلْقَحُ كَشَافًا ثُمَّ تَحْمَلُ فَتَنْتُمُ (٣)
هَتَبِجٌ لَكُمْ عَلْدَانُ أَشْأَمٌ ، كَلِكُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضَعُ فَتَقْطَعُمُ (٤)
وَتَتَلُّ لَكُمْ مَا لَا تَنْتَلُ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالرَّاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدَرَمُ (٥)

ولا يقف الشاعر عند ذلك الحد من التصوير المنهز من الحرب ، الكشاف عن
فصل هذين السيدين فيما صما ، ولكنه ينتقل إلى الحديث عن ذلك الشاد الخارج عن
الجماعة مبينا ما سيجر إليه قومه من وحم العاقبة

تم يخلص من ذلك إلى الحديث الصريح عن ممدوحيه ثانية ، مظهرا ما لهم من
فضل على القبيلتين فيما قدموا ، دون أن يكون لهم في الأمر سبب أو نشب ، فهم
متطوعون متبرعون .

وهي سيبله إلى التأثير على سامعه ، والوصول بما قرر إلى أعماق نفوسهم ، يحتم
مطلوبته بالكشف عن وصوله إلى سن الحكمة ، والتجربة ، باثرا في أثناء ذلك طائفة
من حكمة التي تجمع خلاصة آرائه وأفكاره وتجاربه :

سَمَتْ تَكَايِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَدِشْ ثَمَانِينَ حَوْلَا - لَا أَبَالِكَ - يَسْأَمُ

(١) المرجم : المطون .

(٢) تبعتموها : تبعتموها ، تضر : من صرى الأسد إذا تهبأ الفريسة ، تضرم : كشتل .

(٣) تمر ككم : تطحسكم ، الثفال بكسر الثاء : جلد يجعل تحت الرحى حين تطحن

تلقح كشافا : تحمل كل عام ، تنتم : تلد تروأما .

١٧

(٤) أهأم : مشوم .

(٥) القفير : مكيال عراقي .

رأيت المايا خبط عشواء من تصب
وأعلم مافي اليوم والأمس قبله
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن لا يند عن حوضه بسلاحه
ومن هاب أسباب المنايا ينلها
ومن بهص أطراف الرجاج فإنه
ومن يوف لا يذمهم ومن يفض قلبه
ومن يفترب يحسب عدوا صديقه
ومهما تـسكن عد امرىء من خليقة
ومن لا يزال يستعمل الناس نفسه

تمته ومن تحطىء يمر ميمرم (١)
لـكنفى عن علم مافي غـدم عم
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (٢)
على قومه يستغن عنه ويذمم
بفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (٣)
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ولو نال أسباب السماء يسلم
يطيع الموالي ركبت كل لهدم (٤)
إلى مطائن البر لا يتجمعجم (٥)
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
وإن خالها تخفى على الناس تمام (٦)
ولم يفنمها يوطأ من الناس يسأم (٧)

لقد كان زهير في مدائح السيد الشريف السرى القدى لا يمدح إلا على شريف ؛
فهو في مدحه لا ينافق ، وإنما هو يخدم مبدأ يؤمن به ، ويحرص على ذبوعه وانتشاره
أى أنه يمدح سلوكا مثلا فيمن يقوم به حاضا بذلك من يقوم بهذا المسلك على الاستمرار
عليه ، وحاتا غيره على التقليد فيه ؛ فهو صاحب رسالة أكثر منه تاجرا يتكسب بمناقفه
من يستحق المدح ومن لا يستحقه .

(١) خبط عشواء : تأنى على غير بصيرة .

(٢) يضرس بتشديد الراء المفتوحة : يضعف ، والنسم بفتح الليم وكسر السين :
للبيمر مثل الظفر للانسان .

(٣) يفره مضارع وفر عرضه : حماه وصانه

(٤) الرج بضم الزاى : مالا يطمئن به من الرمح ، واللهزم : بفتح اللام والذال ،
الماضى ، يقول : من عصى الأمر الضمير صار إلى الأمر الكبير .

(٥) البر : الصلاح ، والتجمعجم : التردد .

(٦) الخليقة : الطبيعة والسليقة .

(٧) يريد : من لا يزل يثقل على الناس ويستحملهم أموره استثقلوه وشموه .

ومن ثم فهو في مديحه حريص على الاعتدال في ثنائه ، دقيق في التعبير عما في نفسه ، واضح في إبراز ما يرضيه وما يسخطه ، مقتصد في القول فلا يسرف ولا يخلو . وهذا ملاحظه قديما عمر بن الخطاب فقال : هو أشعر الشعراء لأنه كان لا يماطل (١) في السلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، وام يمدح أحدا إلا بما فيه (٢) .

وكذلك كن في وصفه الدقيق المتمكن من لفته ، البصير بأبعاد ما يصف الذى يقع من الصفات على ما يتطلبه الموقف ، فيقدمه في عبارات مصورة تجمع بين الخيال الابتكاري والخيال الوصفي أو الإضافي ، ونظرة إلى وصفه للحرب في مطولته التي سبق ذكر أبياتهم - اترك الشاعر في هذا المنهج الوصفي ، كما تراه في وصف بعض مظاهر الطبيعة .

حيث يصف مطرا تساقط على بعض المرتفعات ، بينما هو مقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، شديد قوى لم يصبه مرض يحوجه إلى علاج البيطرى . ويتقلنا في حركة قصصية إلى مشهد الصيد ، فيصور كيف جاء الغلام الذى كلف باستطلاع الحيوانات متخفيا مستترا ليلىء بالصيد الذى رآه ، ومن ذلك يأخذ في وصف الصيد الذى رآه الغلام غير بعيد : ثلاث أتن وحشية ، ضامرة كأقواس السراء ، ومهما حمارها الذى أقبل على الطعام من الثبات حتى اخضرت مشامره . ثم ينتقل من ذلك إلى وصف رفاقه معه قبل مواجهة الصيد في دقة دقيقة لا تنقل هاجسة من هواجسهم في هذا الموقف المتأهب المتحفز التخفي ، فهم منذ أجبرهم الغلام يسيطر عليهم الحرس على اقتناص الصيد ، وقد أحس الفرس بذلك منهم فانتقل إليه منهم ما هم فيه فأصابه الاضطراب كذلك وأخذوا يجاهدونه وهو يجاهدهم حتى تمكنوا منه وأخضعوه ، فبدأ من هيئته الجسدية - معطمنا ، لكنه ما زال يستحود عليه الفزع والخوف الشديد؛ فاصلا بذلك بين الهيئات الجسدية والأحوال النفسية وكما صور أحوالهم وأحوال جوادهم ، صور حال الغلام وكشف ما يتمل في نفسه فيشله عن وصاته له في مطاردة الصيد ،

(١) يماطل السلام : يحمل بضمه على بعض ، ويتسكلم بالرحيغ من القول ، ويكزور اللفظ والمعنى ، أو يعقده ويوالى بضمه على بعض ، وكل شيء ركب شيئا فقد عاظله .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٨٩

ثم يربنا صودرته وهو منصب على الآئن وحارها انصباب الشؤبوب ، ولكن الآئن
تثير الحمى في وجهه فرارا منه ، غير أن ذلك لا يموق عن اللعاق بها وتمكنه من
إفراء الحمار من صواحيبه ، وعوده به جريحا ينزف دمه :

وغيث من الوسمى حو تلاءه	أجابت روايته للنجاء هو اطلة (١)
صبحت بمسود النواشر سابح	بمر أسيل الخند نهد مراكله (٢)
أمين شظاه لم يخرق صفاه	بنقبه ولم تقطع أباجله (٣)
قليلًا علفناه فأكل صنمه	فتم وعزته يداه وكاهله (٤)
إذا ما غدوننا نبتنى للصيد مرة	متى نره فإننا لا نحائله (٥)
فبيننا نبقى الوحش حاء غلامنا	يدب ويخفي شخصه ويضائله (٦)
فقال : شياه راتيمات بقفرة	بمأسد القرينان حومسايه (٧)
ثلاث كأقواس السراء ومسجل	فدا حضر من لس الفمير جحائله (٨)

(١) الوسمى - أول المطر ، حو بضم الحاء : تضرب إلى السواد من شدة خضرة
نبتنا ، والتلاع : مسيل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادى ، النجاء بكسر الون
جمع بجوة : المسكان المرتفع ؛ الموائل جمع ها طلة : المواطر .
(٢) صبحت : أنبت غدوة ، المسود : شديد القتل ، النواشر جمع ناشرة : عروق
باطن الذراع ، ممسر : شديد القتل ، أسيل : ناعم أو طويل ، نهد : ضخم ، المراكل
جمع مركل : جنبا الفرس حيث يركله الفارس بركله .
(٣) الشظى : عظم مازق بالذراع ، الصفاق بكسر الصاد : الجملدة السفلى تحت
الجلد الذى عليه الشعر ، والمنقبة : حديدة ينقب بها البيطار ، الأباجل جمع أبجل :
عروق نى اليد .

(٤) عزته : قوته ، الكاهل : مجتمع السكتين فى أصل العنق .
(٥) نحائله : نخدمه (٦) نبقى بضم الون وفتح الباء : نبتنى ، يضائل : يصغر .
(٧) الشياه هنا : الحمير ، الميت المستأسد . الذى طال وتم ، والقرينان بضم القاف
جمع قرى بفتح القاف وكسر الراء : مجارى الماء إلى الرياض ، الحدو : الضارب إلى السواد .
(٨) السراء بفتح السين : شجر تصنع منه القسمى ، ناشط : يخرج من بلد إلى بلد ،
الضمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر فيخرج تحته نبت أحضر ويكون غميرا لهذا الطويل
أى منمورا ، والس بفتح اللام : الأخذ بمقدم الفم .

وقد خرم الطراد عنه جحاشه	فلم يبق إلا نفسه وحالته (١)
وقال أميري: ما ترى رأى ما ترى	أختله عن نفسه أم نساوله (٢)
فبتنا عراة عند رأس جوادنا	يزاولنا عن نفسه ونزاوله (٣)
منضربه حق اطمأن قداله	ولم يطمئن قلبه وخصائله (٤)
وما جئنا ما إن ينال قداله	ولا قدماه الأرض إلا أنامله
فلاأيا بلأى ما حملنا وليدنا	على ظهر محبوبك ظماء مفاصله (٥)
عقلت له : سدد وأبصر طريقه	وما هو فيه عن وصاتي شاغله (٦)
وقلت : تعلم أن للصيد غرة	وإلا تضيعه فإنك قاتله (٧)
فأتبع آثار الشياهم وليدنا	كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله (٨)
نظرت إليه نظرة قرأيته	على كل حال مرة هو حامله (٩)
يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق	سراع تواليه ، صياب أوائله (١٠)
فرد علينا المير من دون إلهه	على رعه يدهى نساء وفائله (١١)

- (١) حرم : فرق . الطراد : الميادون ، حالته : زوجانه من الآن .
(٢) أميري : الذي يؤمرني ويستشيرني . نساوله : نجاهره .
(٣) عراة : متجردين للفرس من صبوبة ، يزاولنا : يجذبنا .
(٤) القذال بفتح القاف : موضع العذار وهو أرفع مكان في رأسه ، والخصائل جمع خصيلة بفتح الخاء .
(٥) محبوبك : مدمج ، ظماء مفاصله : ليست مترهلة .
(٦) سدد : قوم صدره لا تمل عينه ولا يسرة .
(٧) غرة : عقلة .
(٨) الشؤبوب : الدفعة الأولى من المطر ، يحفش : يسيل ما فيها ويخرجه .
(٩) يقول : نظرت إلى الفرس قرأيته والنسلاهم يحمله من السير على كل حال مما أحب أو كره .
(١٠) التوالي : الأواخر يريد رجليه وعجزه ، والأوائل : يدها وصدره وصياب جمع صائب : قاصدة .
(١١) رد المير : قطعة من إلهه ، نساء : عرق في رجله ، والفائل : عرق في الفم .

وهو كما ترى وصف قصصى ، يتمد فيه الشاعر على حس دقيق ، ونظر متفحص .
فيقدم لوحة حية ، ترى فيها الحركات ومشاهد الطبيعة بألوانها ، وتسمع المحس كما تسمع
الصياح ، بل تسمع حديث النفس وتلمح الأحاسيس والمشاعر بادية على الوجوه ،
ظاهرة في التحركات .

والناظر في هذه اللوحة يرى دقة الشاعر وبراعته في ملاحظة للمشاهد والأحداث .
والوقوف على المواقف ، وإدراك الأحوال النفسية ، وحشد ذلك كله مستخدما في ذلك
كل وسائل التصوير التي كانت تسلف بها قريحة فنية متيقظة ، وذهن متوقد لماح يهديه
إلى مكونات الصورة ، ونظمه في سلك واحد فيرسمها كما يراها ، أو يبرزها من خلال
نظيرها وغيبتها .

ولعل أناة زهير ورويته لها دخل كبير في تميزه في ذلك السبيل .
كما أعانته ظروف البيتية على هذا المسار الوصفي ، مكنته كذلك من تحويل المعنويات
إلى مادة تلمس وترى . فيمش لها أو ينفر منها ، كما بدا ذلك في حكمة التي لا تسكاد
تخلو منها قصيدة من قصائده ، والتي استطاع بما أوتيته من مقدرة فنية أن ينفث
مخبراته الكثيرة المتنوعة في الكلمات المحدودة فإذا بها حبة تركزت فيها كل
عناصر الملاج .

* * *

تلك كانت أم فنون زهير الشعرية ، أو بتعبير أدق : كانت الفنون التي قال فيها عن
طبع وسجية ، بيد أنه إلى ذلك اضطر إلى الهجاء فانبعث يسه على تردد وتوافر ، وسلم
يلجج باب الهجاء إلا دائما لمتد ينوشه .

من ذلك ما روى أن الحارث بن ورفاء الصيغطوى من بني أسد أغار هو وقومه
على بني عبيد الله بن غطفان وأخذوا إبل زهير وراعيه يسارا ، فأندبهم زهير في
شيء غير قليل من اللين وضبط النفس ، وضمن إنذاره ذلك كإنيته المشهوره التي
يقول فيها :

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يأمها سوقة قسلى ولا سقى
فأردد يسارا ، ولا تمنف على ولا تمك برضائك ~~النادر الملك~~ (١)

(١) الملك بسكون الميم : المثل ، وبكسرهما : المطول .

ولا تكونن كأقوام علمتهم يلوون ما عندهم حتى إذا نهكوا (١)
 طابت نفوسهم عن حق خصمهم عافاة الشر فارتدوا لما تركوا (٢)
 تملأها لعمري الله ذا قسما فأقصد بذرعك وانظر أين تسلك (٣)
 لئن حملت بحمري في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذاك (٤)
 ليأتينك مني منطلق قدع باق ، كادس القبطية الودك (٥)

وكا كان في مديحه واقميا لا يمدح إلا بما هو كأئن في الشخص ، كان كذلك في هجائه لا يتعرض إلا لما يعبه في مهجو ، وهجاء من أجله ، فهو ليس إلا وسيلة لمحقق بها غرضا شريفا ومقصدا نبيلاً ، كما رأينا في موقفه من الحارث ، وكما صنع مع بني عليم أحد أحياء كلب ، فقد روى أن رجلا من بني عبد الله بن غطفان نزل بهم وكان مولما بالقار ، فهو عاهه فأبى إلا المقامرة ففقر مرتين ، فردوا عليه ، ثم فمر الثالثة ، فلم يردوا عليه ، فانطلق إلى قومه زاعما أنهم أغاروا عليه ، فقال زهير وبهم همزيتة المشهورة في هجائهم وفيها يستخف بهم ويتوعدم في مثل قوله :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
 فإن قالوا للنساء مخبآت غرق لكل حصنة هـداء

قال الأصمعي : فلما بانهم قول زهير بعثوا الإبل إليه ، وأرسلوا إلى زهير يخبرونه بخبر صاحبه ، ويمتدرون إليه ، ولاموه على ما فرط منه ، فأرسل إليهم زهير : والله لقد فعلت ومخبات ، وأيم الله لا أجهو أهل بيت من العرب أبدا .

-
- (١) نهك بضم فسكسر : شتم وبلغ منه في الهجاء .
 (٢) لما أودوا بالهجاء دفنوا الحق إلى صاحبه وارتدوا إلى إعطاء ما كانوا تركوه .
 (٣) تملأ منونة : اعلمنا لعمري الله ذا قسما ، وما : للتنبية ، الدرع : الاستطاعة ، والأنسلاك : الدخول في الأمر ، كأنه يقول : أقصد الأمر بما تملكه أنت لا بما يملكه غيرك .
 (٤) جو : وادي بني أسد ، وعمرو : ابن هند بن النذر بن ماء السماء ، ودين عمرو : طاعته ، فذاك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة بسير الإبل .
 (٥) القدع : التبييض ، والقبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم ، يريد : لئن حملت بحيث لا أدركك تحت راية هذا الملك العظيم ليردن عليك حمري ، ولأدس من مرضك كما يدس الودك القبطية .

وهكذا يتقرر لدينا بما لا يدع مجالاً للشك . أن زهيراً جـهـل من شعره وسيلة لإثبات السلام والحق والخير ، كما جعله ممرضاً للذوق الرفيع ، والجمال الساحر .

* * *

وبماودة النظر في شعر زهير ، يتبين لنا أن شاعرنا كما كان متناسقاً في فنونه وأفكاره مع طبيعته وسجيته وبيئته ، كان متناسقاً في أساليبه وألفاظه وصوره وموسيقاه . وفي سبيله إلى ذلك وجدنا الشاعر متمكناً من لغته ، مسيطراً عليها ، يلتقي منها أنسب اللفظ والعبارة ، حتى تصبح عباراته منسقة منسدة ، تترامى أخاذة رائمة . وكما كان متمكناً من لغته كان متمكناً من موسيقاه ، فاستوفى من ضروبها ما يتلاءم مع موضوعه ، فلا تجدد في موسيقاه اشاراً من إقواء ، ولا نحس فيها إكراهاً يصيب الشعر بالجمود أو الاضطراب .

ومن ثم يجد الدارس في شعر زهير كثيراً من التناسق اللفظي الذي عرّفه علماء البيان فيما بعد باسم البديع من جناس وطباق كما في قوله :

هم يفرّبون حبيك البيض إذ لحقوا لا ينكسون إذا ما استلحموا وحموا^(١)

حيث جناس بين كلمتي (استلحموا) ، و (حموا) ، وكما في قوله :

كأن عيني وقد سال السليل بهم وجيرة ما هم لو أنهم أمم

فقد جناس بين (سال) ، و (السليل) ، وكما في قوله :

تقى نقي لم يكثر عنيمة بنهكة ذي القربى ولا بحفلة^(٢)

وقوله: وقد قلنا : إن ندرك السلم واسما

وقوله: رأى الله بالإحسان ما فعلنا بكم

وقوله: متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وتضر إذا صريرتموها فتضرم

(١) الحبيك - بفتح الحاء - الطرائق ، والبيض : الخردة المستعملة في الحرب .

استلحموا : من التلاحم والمخالطة في القتال ، وحموا : اشتد غضبهم .

(٢) النهكة : الإضرار ، والحفلة - بفتح الحاء والقاف - البخيل الشيء الخلق .

يقول : إنه لا ينمى ماله بإضرار أقربائه وظلمهم ، وليس ببخيل لثيم .

وحيث طابق وقابل في قوله :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
وقوله: رأيت المناياخبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطى يعمر فيهرم
وقوله: يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
وقوله: وقد كنت من سلمى سئينا ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يجلو (١)

بيد أن ذلك كله في شعر زهير لا يشعر بأنه هناك إكراها للفظ ، ولا شذوذا
عن مألوف في التعبير ، فأنت مع زهير تشعر بالعموية في التصوير أو التجميل .
وفي الحق : أن شعر زهير يحتاج إلى دراسة مستوعبة فاحصة ، ليرى أسرار التفوق
التي لديه ، وتعرف على مظاهر ذلك في دقة واستقصاء .

(١) صير الأمر : منتهاه وما يسير إليه .

الشنفري

نشأته وحياته :

هو ثابت بن أوس الأزدي ، ولقب بالشنفري لعظم شفتيه ، وهو من عشيرة الإواس بن الحجر بن المنء بن الأزدي اليمنية ، وقيل إنه لم ينشأ عنيا ، فقد وقع أسيرا وهو صبي في بني شبابة بن فهم ، فانتسب إليهم ، ولم يزل فيهم حتى أسر بنو سلامان ابن مفرج - من الأزدي - رجلا من بني شبابة ، فلبت بنو شبابة هذا الرجل بالشنفري ، وكان في بني سلامان لا تحسبه إلا واحدا منهم ، حتى أساء إليه رجل كان الشنفري يخطب إليه ابنته ، فثار عليهم ، ورجع إلى بني فهم ، وواصل إغاراته على بني سلامان حتى قتل منهم كثير .

وقيل إن سبب ثورته على بني سلامان أنهم قتلوا أباه ، فقرر أن يثأر له منهم ، وما زال على ذلك الحال حتى قتل منهم تسعة وتسعين ، فرصدوا له كميناً وقع فيه فقتل ومثلوا به .

وكان يصاحبه في كثير من غاراته تأبط شرا ، حتى قبل إنه هو الذي درب الشنفري على الصلابة وقطع الطريق ، وما زال إلى جواره حتى أصبح له شأنه في ذلك الميدان (١) وتكاد الروايات التي بين أيدينا تتفق في عدم تحديد زمن ولادته وزمن وفاته ، بل الجبل الذي عاش فيه ، بيد أن هناك من الشواهد التاريخية ما يرجع أنه عاش في الفترة القريبة من مجيء الإسلام في العصر الجاهلي .

ويردد الباحث نظره في منشأ الشنفري فيجد أن المنشأ السكاني له كان في المنطقة

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسي ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١٤ ، وذيل الأمالي ص ٢٥٨ وما بعدها ، وشرح الفضليات لابن الأنباري ص ١٩٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربي لبر وكران ج ١ ص ١٥٥ ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار .

الجبلية الواقعة بين مكة والمدينة ، والمعروفة ببجبال السراة . ويجد أن اللدشأ الاجتماعيه كان بين قوم لا تعرفون به واحدا منهم ، فكان مكانه منهم نايبا ؛ فهو منذ طفولته تضطره ظروفه ثم مجتمعه إلى أن يتقلب بين الحرمان والامتهان ، فأحس بمسرات الحياة ، وقسوة الليل منذ صباه .

وهكذا تتجمع المؤثرات التي تفرض على الشنفرى تفكيره وقيمه وساوكة ، وتفرض عليه أسلوبه في معالجة الأمور ، وأسلوبه في التعبير عما يجيش بصدرة ، وما يضطرب على حسه وشموره .

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه صادف من ألوان القسوة وضروب الحشونة ما جعله يأوى إلى الجبال ، ويشذ على حياة الجماعة ، ويأنس إلى الصخر الأصم فرارا من صخر القلوب الى لفظته ، ويرتاح إلى القرب من وحوش اللامرات ؛ فهو ثورة عارمة على كل ما ورث وتعلم في صباه ليس في منهج الحياة فحسب، بل في منهج التعبير . من ثم يلاحظ الناظر في شعره أنه أمام شعر ذى سمات وخصائص تختلف كثيرا عن شعر معاصريه .

فهو شعر بدوى خشن غليظ الطباع ، يستمد معانيه وخيالاته من طباعه وأخلاقه ومن بيئة الحشنة الموحشة التي آثر الحياة الحرة فيها على حياة اللد والحرمان في مجتمع مستأنس .

وهو شعر فرد حر جرىء ، لا بهاب أحدا ، ولا يخضع لقانون جماعة ، ولا يلتزم إلا بما تمليه عليه حياته هو من قيود وعادات ، فهو في ألفاظه ساذج لا يلجأ إلى التهذيب ، ولا يضطر إلى الانتقاء ، وهو في عباراته فطري لا يتمدد بالتنسيق أو الزين .

وهو شعر نأثر خارج على ما اعتاده الناس من تقاليد مأثورة ، وعادات متوارثة ، فهو في أسلوبه الشعري متجاوز ما الرمه الآخرون من مطالع يبدأون بها معاندهم ، أو أفكار بنتنون بواسطتها إلى غرضهم الأصيل . . . ولكنه بتأثير ثورته وفطريته لا يجد ما يدعوه إلى التمهيد والتقديم ، بل هو - في الغالب - يواجهك بموضوعه صريحا في غير موارد ، واضحا في غير عمل أو تصنع .

ثم هو شعر صملوك فانك ، يقتل ويموت ، فهو لا يفخر إلا بما يمارس ، ولا يمتز
إلا بما تقوم عليه حياته ، فهو إن وصف حياته ، وما يتصل بجزءه من غارات ومفاجآت
وقتل وتشريد وتأيم نساء ، وتبثيم أطفال . وهو إن خسر ، خسر بقية وعما ارتضاه
لنفسه من ألوان السلوك ؛ فهو يفخر بفقره وجوعه ، وحربته وإبائه وعزة نفسه ، وعما
اضطرت له حياته من إهمال لظافة جسمه حتى أصبح مشعث للشعر تعلق به الأوساخ
وأبمار الإبل .

وقد تناولت كتب الأدب أشعارا متفرقة له في الفخر والحماة ، ومن أشهرها
قصيدته اللامية المروءة بلامية العرب ، وفي سببها إليه شك فقد نقل أبو علي الغالي
عن ابن دريد أنها من صنع حلف الأحمر (١) ، وقد كلف بشرحها كثير من الدارسين
العرب مثل اللبرد ، وثعلب ، والزمخشري ، والنيريزي ، والملكبرى ، وفيها يقدم
صورة حية ترى فيها حياته البدوية الوحشية ، تشعر أنك تصاحبها في مزامراته ومفاجآته ،
وليست اللامية هي القصيدة الوحيدة التي تقدم هذه الصورة من بين شعره ، بل هكذا
شعره كله ، مثال ذلك ما قاله في تائيته الطويلة التي جاءت في المفضليات يصف إحدى
غاراته التي قام بها في جمع من الصماليك على سلامان :

وباضمة حمر القسى بعثها ومن يفرز يفرز مرة ويشمت (٢)
خرجا من الوادى الذى بين مشمل وبين الجبا، هيهات أنشأت سرىتى (٣)
أمشى على الأرض التي لن تضرنى لأنسكى قوما ، أو أصادف حتى (٤)
أمشى على ابن الغزاة وبمسدها يقربنى منها رواحى وغدوتى (٥)

(١) الأملى ج ١ ص ١٥٧

- (٢) الباضمة : القاطمة . ويريد بها رفاقه ، بعثها : غزوت بها ، حمر القسى : يقال
إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس : يتحقق .
(٣) أنشأت : أظهرت من مكان بعيد ، السرية بهم السين وسكون الراء : الجماعة .
(٤) أسكى السدو يفتح فسكون مكسر : أهرمه ، الحمة بضم الحاء : المية .
(٥) الأبن : التعب :

يشير في مبتدأ حديثه إلى أنه كان يقود الجماعة ويعرفهم الطريق الذي سلكوه ، كما يشير إلى أنهم كانوا في تلك الغارة راجلين . ولا يجد غصاصة في أن يمتزف بأن الغارة مرة له وأخرى عليه ، فهذا من السلطات ، ولذلك فإخفاقهم في غزوة لا يفي إحجامهم عن معاودتها ، بل إن ذلك يدهمهم إلى إعادة الغارة ، لتحقيق المراد ، دون أن يكون لمشتات الطريق ولا لتوقع للوت أثر ، ثم يصف بعض ألوان الحياة التي تلتزم جماعتهم في أثناء تحركهم للغارة في صورة تكشف عن ترابطهم الأسرى بحيث يقوم أحدهم وهو تأبط شرا بدور الأم في البيت :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم	إذا أطعمتهم أو تحت وأثلت (١)
تخاف عليا الميل إن هي أكثرت	ونحن جياع ، أي آل نألت (٢)
مصمكة لا يقصر الستر دونها	ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت (٣)
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً	إذا آنت أولى العدى اقشمرت (٤)
وتأني العدى بارزا نصف ساقها	تجول كعير العانة التالفت (٥)
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم	ورامت بما في جفها ثم سلت (٦)
حسام كلون الملح صاف حديده	جراز كأقطاع الندير المنست (٧)

- (١) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، ارتحمت : قترت وأثلت .
 (٢) الميل بالفتح : الفقر ، أي آل نألت : أي سياسة ساست ، من آله بمعنى : ساسه .
 (٣) مصمكة بكسر اللام : صاحبة صماليك . لا يقصر الستر دونها : لا يفتى أمرها .
 (٤) الوفضة بفتح فسكون : الجعبة ، السحدف بفتح السين والحاء : السهم عريض النصل ، العدى بفتح فكسر : العداون ، وأولى العدى : طلائع الأعداء ، اقشمرت : تهيأت للقتال .
 (٥) بارزا نصف ساقها : كناية عن الجبد في الأمر ، عير العانة : حمار الوحش في الأذن .
 (٦) الجفر بفتح فسكون : الجعبة ، رامت بما في الجعبة : أي بسهامها .
 (٧) جراز بضم الجيم : قاطع ، أقطاع الندير : الماء فيه .

تراها كأذنان الحسيل - سودارا وقد نهات من الدماء وعلت (١)

يذكر أنهم في أئناس معامراتهم يخضعون لنظام قاس تفرضه ظروف معيشتهم ، فيصور مايقوم به تأبط شرا - الذي كفى عنه بأمر العيال مداعبة - من توريح الطعام بقدر خشية أن تطول بهم أيام النسارة فينضب زادهم ، وينتقل من ذلك إلى توضيح حقيقة تلك الأم ، فيبين أنها ليست أما حقيقية تستر وتبيت في الحيام ، بل هي صاحبة صماليك ، لها جبية سهام - تواجه بها المعتدين - في جد وعدة .

ويواصل الشغرى حديثه ، فيقفنا على مقصدهم من تلك النارة ، وهو الأثر لأبيه من بني سلامان :

جزينا سلامان بن مفرج قرضا	بما قدمت أيديهم وأزلت (٢)
وهيء بي قوم وما إن هنأتهم	وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتى (٣)
عفيننا ببعد الله بمض غليلنا	وعوف لدى الممدى أوان استهات (٤)
إذا ما أتتني ميتي لم أبالها	ولم تذر خالاتي الدموع وعمي
وإني لحلو إن أريدت حلواتي	ومر إذا نفس المزوف استمرت (٥)
أبي لما آبي سريع ميساتي	إلى كل نفس تلتحي في مسرتي (٦)

يفخر بأنه قام على رأس جماعته فثار لأبيه من بني سلامان ، ورد لهم دينهم ، وذلك بقتل رجلين من أهم رجالهم هما عبد الله وعوف ، فشق بمض غايله . ثم يوضح

(١) الحسيل جمع حسيطة : أولاد البقر ، النهل : الشرب الأول ، والعمل الشرب المكرر .

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) يعني أن قومي الأزدي مهشون بشجاعتي ، بينما أنا لا أهنتهم لأنهم لا ينتقمون بي ،

فأنا أعيش بين قوم ليسوا أهلي ، إشارة إلى نزوله في بني قهم .

(٤) الغليل : العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل ، الممدى : موضع المدو ،

ويريد به : ساحة المعركة ، أوان استهات : في وقت ابتدائها .

(٥) العروف : المنصرف عن الشيء ، استمرت : من المراجعة .

(٦) الباءة : الرجوع ، تلتحي في مسرتي : تجدد في سروري .

آنه لا يهاب الموت ، ولا يشفق على من يبكيه من خاله أو عمه ، لأن أحدا من هؤلاء لن يبكيه ، وأنه ليس بفطرة محبا للقتل ، وإنما هو على حسب من ياملونه ، يحاولون يريد حلاوته فلا يمتدى عليه ، ويعر إذا أهين أو مست كرامته ، لا يقبل ما يكره ، ولكنه سريع الرجوع إلى من يسمي بجد في مسرته .

وهكذا سار الشنفرى فيما وصلنا من شعره يصور غاراته ، ويفخر بما ارتضاه الصالحين من قيم ، وما تخلقوا به من خلال ، معبرا عن ثورة نفسه على مجتمعه ، مصورا ما يمتاز به من صفات جسمية اكتسبها من نظام حياته ، وتطلبها ما ارتبط به فيها .

٥ عروة بن الورد

شأته وحياته :

هو عروة بن الورد بن ريد العنسي ، لقب بعروة الصماليك لجمعه إيام ، وقيامه بأمرهم إذا أحفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم مماش ولا مغزى . وقيل : بل لقب بذلك لقوله :

لحى الله صملوكا إذا جن ليلته مصافى المشاش آلا كل مجزر (١)
يمد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر (٢)
و لله صملوك صنيحة وجهه كضوء شهاب القابس المنثور (٣)

كان لآبيه دور كبير في نشوب الحرب بين عبس وفزارة (حرب داحس والغبراء) فهو الذى راهن حذيفة (٤) أما أمه فكانت من نهد من قضاة ، وكانت عشيرة وضيفة ، لم تعرف بشرف ولا خطر ، فأذى ذلك عروة ، وأحس بأن عاراً يلحقه من قبلها ، فقار (٥) :

ومابى من عار إخال علمته سوى أن أحوالى - إذا نسبوا - نهد

ونبحث عن السر الذى دفع عروة إلى الصمالة ، فلا نعثر على ما يشفى ، إذ نلاحظ أن أباه كان من أشرف قبيلته ، فهو لم يكن الصملوك عن فقر واحتياج ، ولا كان عن شذوذ فى الخلق والسلوك ، ولا كان عن غربة من قبيلته يدم بها وبماب . ولكنه - على ما يبدو - اتجه إلى الصمالة استجابة لثوره فى نفسه على مسلك بعض الأعياء

-
- (١) لحى الله فلانا : قبجه ولمنه ، المصافى بضم الميم : الملازم المؤلف المشاش بضم الميم وتحت الشين : كل عظم هش دسم .
(٢) يسر الرجل بفتح السين الضمقة : سمات ولادة إبله وعنمه .
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ .
(٤) للرجع السابق ج ٣ ص ٨٨ .
(٥) الديوان ص ١٥٧ .

في مجتمعه ، فاحترف الصلصلة باعتبارها وسيلة لداية هي في ذاتها أبرز مظاهر البطولة والهرسية ، فيما يزال من مال الذي ما يابي مطالبه ومطالب ذوى الحاجة عن تقصر أيديهم عن الوصول إليها ، وكان يجمع الفقراء الصماليك ويتقوم بشأنهم ، يصحب القادر منهم في غاراته ، ويؤوى الآخرين في مأمن يهود إليهم فيسه بتصميمهم من مقاماته (١) .

وهكذا قضى عروة حياه في حماية الفقراء والمرضى والمستضعفين من غائلة الفقر وعناء الحاجة ، متخيرا مريسته - في أغلب الأحيان - من بين من عرفوا بالشح والبخل والقسوة ؛ فالصلصلة في رأيه وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي ، يأخذ بواسطتها ممن لا يفكر إلا في نفسه حقوق الضعفاء والمحتاجين ، وبهذا فارق غيره من الصماليك .

شعره :

يتضح من شعر عروة مذهبه في صلصكته ؛ فهو دائم التردد لمبادئه ، حريص على الإشارة إلى عايشه من غاراته ، حتى نال إعجاب من جاءوا بمسده ، كما نال إعجاب معاصريه ؛ سمعنا معاوية (٢) : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وسمعنا عبد الملك بن مروان يقول : ما يسرى أن أحدا من العرب ولدى بمن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله

إنى امرؤ عافى إنأنى شركة وأنت امرؤ عافى إنأناك واحد (٣)
أتهزأ منى إن سممت وأن ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أمرق جسسى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٤)

فهو إنسان كريم يؤثر على نفسه ، ويشترك معه غيره في طعامه بل قد يكتفى بشرب للماء الخالص ، مؤثرا غيره بكل طعامه حتى أصبح كمن يفرق جسسه على أجسام الآخرين

(١) الأغانى ج ٣ ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٧٥

(٣) المافى : طالب للمروف، وأنت امرؤ عافى إنأناك واحد كناية عن أ كله وحده .

(٤) أحسو : أشرب شيئا بمد شىء ، القراح بفتح القاف : الخالص الذى لا يخالطه

لبن ولا غيره .

ومن جيد شعره رائبته التي رواها له الأصمعي (١) ، يحكى فيها ما دار بينه وبين امرأته سلمى ، ليصور في أثناء ذلك همته ونبل خلقه :

تقول : لك الولايات هل أنت تارك ضبوءا برجل تارة وبمسر (٢)

يقول إن سلمى تستحى على ترك الصلابة والكف عن الفارات ، وتملن عن ضيقها باستمرارى في ذلك ، وخوها من أن ألقى حتفى في إحدى تلك الفارات . فأجيبها بقولى .

أبى الحفص من يشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تمترى (٣)
ومستهىء ، زيد أبوه ، فلا أرى له مدماء ، فاقى حياءك واصبرى (٤)

إن روجك لا يرضى بلين العيش والدعة لشموره بأن عايه لأقربائه المحتاجين واجبات لا بد له من أدائها لهم ، فالزمى حياءك واصبرى على ما أحمل ، لآنى لا أعزو إلا وفاء بحق هؤلاء ، فأنا لست من هؤلاء الصماليك الذين لا يهمهم من مجتمعهم أحد ، محمدا بذلك لتقديم صورتين لتموذجين مختلفين من الصماليك .

أولها صيف الهمة ، يرمى بالهدون ، حامل ذليل ، يemis عالة على الآخرين .

لحى الله صملوكا إذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجرر
بمدائق من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء تم يصبح قاعدا يحث الحصا عن جنبه المتعفر (٥)
يمين نساء الحسى ما يستمنه ويصحى طليحا كالبعير المحسر (٦)

(١) الأصمعيات ص ٣٥ طبع دار المعارف .

(٢) الضبوء بضم الصاد . التزو ، والرجل بفتح الراء جمع راجل . ضد الراكب ، المنسر كرجلس ومنبر . الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الحفص . الدعة ولين العيش ، سوداء المعاصم يريد به التى أحمرها الجوع والهزال ، تمترى . تنشى .

(٤) مستهىء . طالب المنزء وهو المعطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه ،

اقنى حياءك . الرمية . (٥) يحث . يحرك .

(٦) الطليح . المعى ، ومثله المحسر بضم الميم وفتح الحاء

والصورة الثانية ترى الصلوك الشريف القى بموجب به عروة ، أعماله مجيدة ،
يظفر من أهدائه بكل ما يريد ، على الرعم من صياحهم به ، وبدمه عنه . . . ومثل
هذا الصلوك محمود الذكرى ، جدير بأن يشجمه الآخرون ويثنوا عليه :

ولله صلوك صديفة وجهه كضوء شهاب القابس التنسور
مطلا على أهدائه يحرره بساحتهم زجر الميخ الشهر (١)
وإن يمدوا ليامنون اقتراه تشوف أهل العائب المنتظر (٢)
وذلك إن يلقى الميسة ياقها حميدا ، وإن يستنن يوما أجدر

ثم يقرر أنه من الصنف الثانى ، فهو لا يقبل أن يرى عشيرتى معتم وزيد تهلك
ولا يخاطر من أجلهما ، لذلك هو ينتحم مع بعض رفاقه حمى بعض القبائل ليسوقوا
منها ما يقومون به على حاجة الأضياف والمحتاجين :

أيهلك معتم وزيد ولم أقم على نذب يوما لى نفس مخطر (٣)
ستفرع بعد اليأس من لا يخافا كواسع فى أحرى السوام المفر (٤)
بطاعن عنها أول القوم بالقنا ويض حفاف ذات لون مشهور
ويوما على غارات نجد وأهله ويوما بأرض ذات شت وعرعر (٥)
يريح على الليل أضياف ماجد آريم ومالى سارحا مال مقدر (٦)

وصفة القول كان عروة صلوكا شريفا ، جعل من الصلوك سبيلا للسادة والمروءة ،

(١) المطل : المشرف ، يجرونه . يصيحون به ، الميخ بفتح الميم ، قدح سريع
الخروج ولا نصيب له الشهر : المهور .

(٢) التشوف : التطلع ، المنتظر بفتح الظاء : المنتظر قدومه .

(٣) معتم وريد : بطنان من بطون عبس النذب : بفتح النون والحدال : الخطر .

(٤) الكواسع : الخيول تطرد الإبل وتسكسها ، السوام : الإبل السائمة ، المقدر

بفتح الفاء : المذهور .

(٥) الشت بفتح الشين ، والمرعر فتح العيين : من أشجار البادية .

(٦) يريح . يرد ، ويكى بالماجد الكريم عن نفسه ، السارح : السائم فى المرعى ،

المقتر : المقير القل .

ومظهر من مظاهر الدروسية ، حقق بها ما كان يصبو إليه من ارتفاع بمستوى
الثقراء ، وما كان يفتوى عليه من إنباط للأهل والمشيرة ، وما كان ينزع إليه من حياة
اجتماعية تقوم على التكافل والتعاون . ولقد استطاع عروة أن يقرر كل ذلك في
شعره ، إذ كان وسيلته التي يصور فيها مبادئه ومغامراته . بحيث تكاد لا تمثر في شعره
على غير ذلك من فنون الشعر . كما كان صريحاً في الكشف عن مكثون نفسه ، واضحا
في عرض أفكاره ، دون التواء أو إبهام ؛ فشعره نموذج للأدب الإنساني في قيمه
وأخلاقياته ، وفي منهجه في عرض أفكاره ، وبناء صورته ، وتركيب عباراته ؛ فشعره
مرآة صادقة تمكس صورة نفسه وأسلوب حياته .

الفصل الثاني

فنون الشعر البدوي

الناظر في الشعر البدوي يلاحظ أن الشعراء استجابوا فيه لمتطلبات البادية وأخلاقياتها ، بحيث لا تجد حروجا من الشاعر على وسطه الذي يخاطبه ، أو يستجيب لمؤثراته ؛ فهو ملتصق تماما بمن يردد شعره على آذانهم ، حريص كل الحرص على أن يكون متلائما مع ما يرضيهم .

والناظر في متطلبات البادية وأخلاقياتها يلاحظ أن ظروف الحياة في العصر الجاهلي فرضت عليها أن تعيش في جو حربي شبه دائم ، فالقبيلة لا تخرج من حرب إلا لتقع في أخرى ، إن لم يكن لدفع عدو فهي لفرض سلطان ، أو انتقاما من معتد إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت وراء اتصال الحرب بين ساكني البادية في تلك الفترة؛ فالحرب وما يتصل بها هي الشغل الشاغل للبدوي ، حتى في وقت السلم - على ضيقه - هو في استعداد وتأهب ، يقتنص السيف الماضي ، ويسعى للحصول على الرمح القوي ، ويمتز بالجواد المدرب . فإذا خرج من ذلك الإطار لم يجد لإقيم قبيلته وأعرافها مأخذ يدور حولها ، يستمرضا ويفخر بها ، ويصف أبنائها . وأقصى ما يخرج به شاعر البادية عن جو الحرب أن يصطحب امرأة يميل إليها ليجعل منها مثالا يتبدي في محرابه ، ويدور في فلسكه ، فهي سماء يتطلع إليها . وهي طهر يحمية من أي دنس يمسها ، وهي رمز بندقة بسره إلى الموت غير مبال ولا هيباب ، وإذا غابت عنه أو ارتحلت استوقف الذوق أمام ديارها ليمتع النفس بالحياة في كنف منازلها تمويضا لما أصابها من فرائها .

ولقد نظر الأقدمون في الشعر العربي للتعرف على فؤونه وموضوعاته وتسميتها ووضع كل منها تحت العنوان الذي يناسبه فاحتلوا اختلافا كبيرا لاختلاف المنهج .

فأبو تمام - مثلا - يقدم الشعر العربي من خلال عشرة موضوعات هي الحماسة ، والرأى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومهم المديح ، والصفات ، والسير والبماس ، والملح ، ومذمة النساء .

وصاحب البرهان يقدمه في أصناف أربعة هي : المديح ، والمهجاء ، والحكمة ،
واللمو ، ثم يفرع عن كل صنف منها فنونا (١) .

أما صاحب العمدة فينقل عن بعض العلماء أن أركان الشعر أربعة هي : المدح
والمهجاء والنسب والثناء (٢) . وجعل أبو هلال العسكري أبرزها ستة هي المدح ،
والمهجاء ، والوصف ، والنسيب والمرأى ، والفخر (٣) .

بيد أن الناظر في مظاهر ذلك الاختلاف يدرك أنه اختلاف شكلي يرجع إلى
الإجمال والتفصيل ، وليس مرجسه إلى إنكار غرض نسب إليهم ، أو إضافة غرض
أيس لهم . حتى إن باستطاعتنا أن نرجع كل هذه الفنون إلى غرضين اثنين هما :
المديح والمهجاء ، على عد الحماسة والنسيب والمرأى وبعض الوصف وبعض الاعتذار
صديحا ، وعد بعض الوصف وبعض الاعتذار هجاء لسكن إذا كان التفصيل المبسوط
غير مقبول لما فيه من التصنيع والترديد ، فإن الإجمال كذلك غير مقبول لما فيه من
الإخلال بصورة الشعر ، والطريق الأمثل فيما أرى هو أن نراعى في التقسيم مبث
الشعر ومسار الشاعر فيه وغايته التي يريد أن يصل إليها من تعبير . ومن هذا المطلق
وبالنظر فيما أتيتح لي من الشعر البدوي أستطيع أن أقرر أن فنون الشعر البدوي فد
المعصر الجاهلي هي الفخر . والمهجاء ، والمدح ، والثناء ، والعتزل ، والوصف وذلك
لأن باعت الشاعر البدوي إلى قول الشعر لا يكاد يخرج عن هذه الفنون الستة ؛ حيث
ينطلق لسانه مادحا قومه ونمسه متفخرا عما فيهم من شمائل وصفات ومالهم من مكانة
وعزة بين غيرهم من قبائل البادية ، والشاعر في أثناء ذلك يحمس مرسان قومه ويختمهم
على الانتفاض في وجه عدو أو لئجدة مظلوم ، أو للثأر من ممتد . أو هاجيا خصما
تعداد مثالبه وعبوبه ، أو باكيا عزيزا مات أو قتل ، أو باسطا القول في امرأة نشأت
يفنه ريبها روابط عاطفية ، أو مقبلا على ما يلفت النظر ويجتذب الانتباه بالوصف .
والشاعر البدوي في تناول كل من أسلوبه الذي يتناسب مع وسطه الفني ، ويحقق له
اللازم الفني ، على اختلاف بين الشعراء في ذلك .

(١) البرهان في رجوه البيان لابن وهب السكاكيب ص ١٣٥ بتحقيق الدكتور حفي شرف

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

(٣) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٣٧ بتحقيق علي محمد البجاوي .

الفخر :

الفخر تعداد مايشتمل عليه الإنسان من الفضائل والمحامد ، والتباهى بتميزه بين أفراد قبيلته أو مجتمعه بذلك . وميدان الفخر أمام الشاعر أرحب ، وخوض الشاعر فيه أسره إذ هو فيه متابع للصفات التي يمجب بها ماصروه ليفخر باتصافه بها أو انصاف قومه ، مستقص للشمائل التي يحتفل بها مجتمعه ليفخر باشتغالها عليها أو باشتغال قومه :

من ثم كان الفخر مرآة تمكس على صفحتها قيم الشاعر ومجتمعه ، وأبرز الصفات السائدة ، والفضائل التي يسمى القوم إلى كسبها والمحامد التي يودون الانصاف بها . فإذا نظرنا في شعر الفخر البدوي ، وجدنا من أبرز الصفات التي يحرص كل شاعر بدوي على الفخر باتصافه بها هو وقيلته :

١ - الفروسية وما يتصل بها من إقدام وشجاعة وقوة وتمكن من الأساليب الحربية ؛ وذلك لأن ظروف الحياة في البادية فرضت على ساكنيها لونا من الصراع الدائم مع الوحش ، ومع الطبيعة ، ومع الإنسان ، فهو لا يخرج من معركة إلا ليدخل في أخرى .

ولارب في أن الصفة المثلى التي تسود مثل هذه البيئة هي الصفة التي يمسكها هذا اللون من الحياة :

ولارب في أن كل فرد في هذه البيئة متعلق منذ الطفولة بكل صفة تتطلبها تلك الصراعات والحروب ، والتي تجتمع في صفة الفروسية والإقدام .

فهذا عمرو بن كلثوم يفخر بشجاعة قومه - في قصيدته المعلقة - ويعجد فرسان قبيلته ، فيصف ما يحدثه هؤلاء الفرسان الأبطال في حصومهم من دمار وهلاك ، ويقرر أن مثل هذا ليس بفريب على قوم مدربين على الحرب أحسن تدريب ، حياتهم سلسلة من الحروب لا تتوقف ، وأسلحتهم من أجود الأسلحة .

وفي سبيله إلى ذلك يذكر الشاعر لنا أحداث معركة وقعت بين قومه وبين خصومهم

في قالب قصصي يكشف فيه عن شجاعتهم في مواجهه خصمهم العنيد المدحج بالسلاح،
مثل قوله فيها :

أيا هسد فلا تمجّل علينا وأنظرنّا تخميرك اليقينّا
بأنّا نورد الرايات بيضّا ونصدر هن حمرّا قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينّا
وسيد معشر قد توجهه بتاج الملك يحمى المجرينا^(١)
تركنا الخيل تا كفة عليه مقلدة أعنتها صفونا^(٢)

* * *

متى نقتل إلى قوم رحانا يكونوا في القاء طحينّا^(٣)
يكون نفسا لها شرق نجد ولهوتها قضاة أجمينا^(٤)
زلتم منزل الأضياف منا فأعلمنا القرى أن تشتمونا
قريناكم فمجلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طعونّا^(٥)
نعم أناسنا ونمف عنهم ونحمل عنهم ما حملونا
وطاعن مآراخي الناس عنا ونضرب بالسيف إذا غشينا
بسر من قنا الخطى لدن ذوابل أو ببيض يمتلينا
كان جهاجم الأبطال فيها وسوق بالأماعز يرتمينا^(٦)
نشق بها رؤوس القوم شقا ونختلب الرقاب فتخليّا^(٧)

-
- (١) المجر - بضم الميم وفتح الجيم - الملجأ ، يقال : أحجرته إذا ألجأته .
(٢) المكوف : الإقامة ، والصفون جمع صافن : الفرس إذا قام على ثلاث قوائم
وثني سلبكه الرابع .
(٣) الرحى : أراد بها الحرب .
(٤) الثفال : خرة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق ، المهوة : القبضة من الحب
تلقى في فم الرحى .
(٥) المرادة - بكسر الميم - الصخرة التي يكسر بها الصخور .
(٦) الوسوق جمع وسق : حمل البعير ، والأماعز جمع أمعز : السكان كثير الحجارة
(٧) تختلب : تقطع بالخلاب .

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفيننا
كأن سيوفنا مينا وفيهم غزاريق بأيدي لا عيننا
كأن ثيابنا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينا

والناظر في هذه الآيات يلاحظ أن الشاعر يمتد في عرض مفاخره ومفاخر
قومه على الأسلوب الوصفي والأسلوب القصصي ، فهي قصة وصفية ، يميل الشاعر في
تقديم أحداثها إلى الإيجاز النسبي القائم على الإيجاءات والاستدعاءات ، والتذكير
بالمضى المشهور ، فيكفي أن يوجه إلى أحداث الماضي في قوله : (وأيام لنا غر
طوال . . الخ) ليستحضر الخاطب أحداث تلك الأيام ووقائعها ، ويقف على ما كان
فيها من فرسان قوم الشاعر .

* * *

وهذا دريد بن الصمة يملن في قصيدته البالية بصوت جهورى أنه ثار لأخيه
عبد الله ، فانزاح الكابوس الذى طالما كتم أنفاسه ، ولكنه لم يسترح تماما ، فما زال
في نفسه أشياء لا يشفيها إلا مواصلة الانتقام .

فالشاعر يذكر أنه وجمع من قبيلته ظفروا بأعدائه من مرارة ، فأعملوا فيهم
السيف من كل جهة ، وبكل كيفية ، حتى ثار لأخيه عبد الله بقتل أفضل رجل يقاربه
في السن ، وأوقعوا بخصومهم جميعا ، حتى أشبهوا الوحوش الجائعة من جشتم ، ولا يكتفى
بما صنع ، بل يواصل بعد ذلك تهديده ويملن أن سوف يعيد الكرة عليهم متى سنحت
الفرصة ، وذلك في قوله :

ويارا كبا إما عرضت فباثن أبا غالب أن ثارنا بفـالب (١)
قتلت ببسد الله خير له انه ذؤاب بن أسماء بن ريد بن قارب (٢)
فليوم سميتم فزارة فاصبروا لوقع القنا تزون نزوالجنادب (٣)

(١) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .

(٢) اللدات جمع لدة : من ولد معك في وقت واحد .

(٣) النزو : اللوثب . والجنادب جمع جنذب : ضرب صنير من الجراد

تسکر عليهم رجلى وفوارسى وأكره فيهم صمدتى غيرنا كعب^(١)
 فإن تدبروا يأخذنكم فى ظهوركم وإن تقبلوا يأخذنكم فى الترائب
 وإن تسهلوا للخيل تسهل عليكم بطعن كبايزاغ الخاض الضوارب^(٢)
 ومرة قد أخرجهم فتركهم بروغون بالصلعاء روغ الثمالب^(٣)
 وأشجع قد أدر كنهم فتركهم يخاقون خطف الطير من كل جانب
 وتعلبة الخبثى تركنا شر يدهم تملة لاه فى البلاد ولاعب
 فليت قبورا بالمخاضة أحسرت فتخبر عنا الخضر خضر محارب^(٤)
 رد سنام بالخيل حتى تملاّت عوافى الضباع والذئاب السواغب^(٥)
 خربنى أطوف فى البلاد لعانى ألقى بإثر تلة من محارب

* * *

ومثل قول عترة مفتخرا بنفسه ، معترزا بقوته وجراته وشجاعته ؛ مقرر أنه من أفضل قبائمه ، وكأنه يرد بذلك احتقارهم إياه لسواد لونه :

إنى امرؤ من خير عبس^(٦) منصبا شطرى ، وأحمى سائرى بالمنصل^(٦)
 وإذا السكتبة أحجمت وتلاحظت ألبيت خيرا من مهم محول^(٧)
 والخيل تعلم وللفوارس أنى مرقت جمعهم بضربة فيصل^(٨)

(١) الرحلة جمع راجل : المشاة ، والصددة : القناة ، وغير ذاكب : غير عادل عنهم .
 (٢) أسهل : نزل السهل من الأرض ، والخاض : الحوامل من النوق ، والضوارب :
 الواقع ، وإيزاغها : أن ترمى بيولها ، شبه رشاش المدم من الطعنة برشاش بولها .
 (٣) يرغون : يذهبون هنا وهناك * والصلعاء : مكان معركة مع مرة .
 (٤) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب - بضم الحاء وسكون
 الضاد قبيلة .

(٥) رد سنام : رميناهم ، والضباع العوافى : الجوائع ، وكذلك الذئاب السواغب .
 (٦) المنصب - تكسر الصاد - الأصل ، والمنصل - بضم فسكون بضم - السيف .
 (٧) السكتبية : الجماعة إذا اجتمعت ولم تنتشر ، وتلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .
 (٨) الفيصل : الذى يفصل بين الناس .

وكثيرا ماتحولوا بشعرهم الفخري فخصصوه لوصف آلات الحرب ، من رماح
وسيوف وحياد ، على نحو ما صنع أوس بن حجر في لاميته المشهورة ، وسوف نعرض
لذلك في دراستنا لنن الوصف إن شاء الله تعالى .

* * *

٢ - السكرم ، وعفة النفس ، والجدة ، وفي الغالب يجمعون هذه الصفات أو
بعضها إلى الفروسية ، حيث لا يفرقون بين الفخر بالفروسية وهذه الشئائل ؛ إذ كل
هذه الشئائل في تصورهم مظاهر للفروسية لانفصل عنها .

والشاعر البدوي كما يخص نفسه بفخر بهذه الصفات ، يفخر بانصاف قومه جميعا
بها ، فهو لا يقطع نفسه من قبيلته ، وإذا شئ بنفسه فهو إنما يفخر بفرد من قبيلة ، وإذا
شئ بقبيلته فهو إنما يفخر بأصل نبت هو منه . ولم يشذ من ذلك سوى عترة في الفترة
التي أنكر سبته فيها قومه وأبوه ، فقد ركر فيها شئره بنفسه فروسية وعفة نفس
وسخاء ومجدة إلى غير ذلك . كما في قوله يخاطب ابنة عمه مالك ، ممددا مفاخره ،
مباهايا بما التسم به من شجاعة وعفة نفس ، وذلك قوله :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقائع أنفي	أغشى الأوعى وأعف عند المنعم
لما رأيت القوم أقبيل جمعهم	يتدامرون كررت غير مدمم (١)
يدعون عنتر والرماح كأنها	أشطان بسئر في لسان الأدمم (٢)
مازلت أرميهم بنيرة وجهه	ولبسانه حق تسربل بالدم
هازور من وقع القسا بلبانه	وشكا إلى بمسيرة وتحمحم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى	ولسكان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وأبرا سقمها	قبل الفوارس: ويك عنتر أقدم (٤)

(١) يتدامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) الأشطان جمع شطن - بفتحين - جبل البئر شبه الرمح به لطوله ، واللبان

- بفتح الهم - الصدر ، والأدمم : الفرس الأسود .

(٣) ازور : مال ، والتحمحم : الصوت المقطع دون الصهيل

(٤) ويل : كلمة يقولها المتدمم إذا ندم على ما فرط منه ، ولما كثرة استعمالها انحلت

بها الكاف . وقيل : (وى) بمعنى أعجب أو عجباً لك يا عنتر .

ويلاحظ أن الشاعر في تصوير فروسيته بما دقق الحس ، يقظ الشاعر ، متمكن من مادته الشعرية ؛ إذ يستخدم من أساليب التصوير ما ضمن للصورة الحياة والصدق ، ويحقق لها السطوة والقدرة على جذب الأنظار ؛ فقد استخدم فيها الحركة المختلفة على حسب الأشخاص الصادرة عنهم ، وأرانا قوة أعدائه في رماحهم الطويلة التي بلغت صدر فرسه . ثم أرانا كذلك مواجهته لأعدائه وقسوته على حصانه الذي تتبعهم به حتى اكتسى بالدم ، ومال بمنقه من شدة ما أصابه ، واتجه إليه شاكيا ما يعاني بصوت الحال . وماهدأت نفسه وارتاحت إلا حين سمع الدوارس يملنون - في عجب ودهشة - عن إقدامه وحسن بلائه .

فإذا كان عنتره يمدد مفاخره الشخصية على هذا النحو - لظرومه الخاصة - فإن عمرو بن الإطناية يفخر بقومه وما يقومون عليه من أخلاق ، وما يعترفون به من شمائل ، حيث يتجهون وجهة إنسانية في سلوكهم ، وذلك قوله :

إني من القوم الذين إذا انتدوا	بدأوا بحق الله ثم النائل (١)
المانعين من الحنا جارائهم	والحاشدين على طعام النار (٢)
والخالطين فقيرهم بنعيم	والباذلين عطاءهم للسائل
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم	إن المنية من وراء الوائل (٣)

وعلى هذا النحو يسير ربيعة بن مكرم في ميميته التي يتتقن بها بصفاته وصفات قومه من كرم ، وإباء ، وفروسية ، ووفاء ونجدة ، كما في قوله (٤) :

وإن لسألني فإني امرؤ	أهين اللثيم وأحبو الكريما
وأبني المعالي بالمكرمات	وأرضى الخليل وأروى الديما

(١) انتدى القوم : جلسوا في النادي ، والنائل : كثرة العطية ، يريد أنهم يؤدون الواجب ثم النقل .

(٢) الحنا : الفحش من الكلام ، يعنى أنهم يحفظون جارائهم ويوفون بحق الضيف .

(٣) وأل : لجأ ورجع ، يريد الفار من الحرب ، يعنى إن الفرار من الحرب

لا ينجي من الموت .

(٤) المفضليات ص ١٨٢ .

ويحمد بذلى له متمف إذا ذم من يمتيه اللثما (١)
وأجزى القروض وماء بها ببؤسى ببؤسى ونعمى نعميا (٢)
وقوى وإن أنت كذبتى بقسولى فأسأل بقوى علما
يهينون فى الحق أموالهم إذا اللزبات انتحين المسما (٣)
طوال الرماح غداة الصباح ذو نجدة يمنعون الحرما

وكذلك سار الحارث بن حازة فى جيمته التى ذكرنا جزءا منها فى ترجمته .

وصفة القول أن الشعراء البدويين فى العصر الجاهلى عكسوا لنا صورة محتهم
البدوى فى أخلاقياته التى يمتز بها وينفى باتصافهم بها وقيامهم عليها ، دون تكاف
أو مفالاة ، ودون تخرج أو تردد ؛ إذ الفخر فى البيئة البدوية كان أسلوبا من أساليب
الحياة التى تقررت فى ذلك العصر ، أو أصبحت عرفا سائدا يمثل أعاط الحياة لديهم .

(١) المعنى : السائل فى غير طالب .

(٢) البؤسى والبؤسى بمعنى واحد ، يقول إنه يجزى بالسبيئة مثلها ، وكذلك

الحسنة والنعمى .

(٣) اللزبات : الشدايد ، وانتحين : قصدن ، والمسما : الكثير الإبل والافهم .

الهجاء :

الهجاء مصدر هجا بهجو : يعنى السب وتمديد المايب ، واستئلال المفاخر ، فهو على النقيض من الفخر والمدح ، وكل هذه الفنون تضرب بمعوق في النفس البشرية ، وترجع إلى الصفات الطيية فيها ؛ إذ هي استجابة لماطق الرضا والسخط لدى الإنسان الفطرى ومن ثم كان فن الهجاء واحدا من فنون الشعر العربى البدوى فى العصر الجاهلى .

والناظر فيما أُر من شعر البدويين فى هذا الفن يلاحظ أنهم كانوا يتمدون على سلب الفضائل البدوية ، والرعى بالقائص البدوية ، والرعى بالقائص المتعارف عليها بين أهل البادية من الجبن والبخل والتعاس عن مجددة اللأند ، والامتناع عن حماية للضعيف ، والتعدى على المحارم ، والتعرض للنساء . . إلى غير ذلك مما يأنف منه البدوى ، وتأباه الفطرة الساذجة .

لقد كان الهجاء سلاحا يضارع أسلحة الحرب الأخرى مضاء وقوة ، وكانت القبائل فى البادية تحرص على أن توفر لنفسها منه ما تذود به عن محارمها وأبنائها كما تحرص على أن توفر من أسلحة الحرب التقليدية ما يمكنها من الدفاع عن محارمها وأبنائها . يوضع ذلك عهد قيس بن خفاف البرجمى فى أبياته التى يفخر فيها بأسلحته التى أعدها لمواجهة الحصرم والأعداء ، من لسان ماض ، ورمح طويل القناة ، ودروع سائفة جيدة تحمى من صرب السيوف (١) :

وأصبحت أعددت للنائبات	عرضاً بريثاً وعضباصقيلا (٢)
ووقع لسان كعبد السنان	ورمحا طويل القناة عسولا (٣)
وسائفة من جيساد الدرو	ع لسمع للسيف فيها صليلا

(١) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٢) العضب : السيف للقاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .

(٣) المسول : اللين المعوى .

كاه الفدير زفته الديور بحر المدحج منها فضولا (١)

وكانوا يتعدون خصومهم بالهجماء في ميادين القبول كما يتعدونه بالضراب في ميادين الحرب ، وكانت ميادين القبول عندهم تتمثل في الأسواق وغيرها من أماكن الاجماع التي يلتقي فيها القوم ، وإلى ذلك أشار راشد بن شهاب اليشكري في قوله لقيس ابن مسعود الشيباني (٢) :

ولا توعدي إنني إن تلاقيني مسمى مشرفي في مضاربة نغم (٣)
وذم ينشئ للرم خزيا ورهطه لدى السرحة المشاه في ظلمها الأدم (٤)

كما يلاحظ أن شعراء البادية في هذا العصر لم يكونوا يبالغون بهذا الفن إلا في معرض الفخر بالفروسية ، حيث يتناولون خصومهم بالطمع والدم ، كأنهم يمتدنون موازنة بين سما ما يتقنون به من شمائل ، وما عليه هؤلاء الخصوم من ضعة وحجارة وحسة . ونظرة مما قدمنا من شعر عمرو بن كاثوم ، ودريد بن الصمة في الفخر بالفروسية تكشف طائفة من الصفات الهجائية التي يحرص الشاعر على أن يلمسها بجمجوه أو ينتمتها . ويقرر ذلك قصيدة ربيعة بن قروم التي يتغنى فيها بأجداد قبيلته وما صنموه في أيام بزاحة واللسار وطخفة والكلاب وذات السليم ، وفيها يقول :

وكذلك بشر بن أبي حازم الأسدي في قصائده التي يتحدث فيها عن حروب قومه مع بني عامر في يوم اللسار ، ومعهم ومع أحبالهم من تميم في يوم الجفار ، والتي يتغنى فيها بانتصارات قومه على كثير من القبائل مثل جرم ، والرباب ، وجدام ، وبني سليم ، وبني كلاب ، وبني أشجع ، ومرة بن ذبيان . مثل قوله :

(١) زفته - بفتحين - حركته ، والدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، والمدحج : قام السلاح ، ويجر منها فضولا : كناية عن أن هذه الدروع سابعة تنطى الفارس وتفضل عن أطرافه .

(٢) المفصليات ص ٣٠٨ .

(٣) المشرفي : السيف ، والقضم - بالتحريك - الملول من كثرة الطعن مصدر فضمق السن فضمم بفتح الصاد .

(٤) السرحة : الشجرة ، وهو يشير بذلك إلى شجرة عظيمة كانت بمكاط والمشاو الحليفة . يبحث عن معنى المشاء يناسب المقام غير الحليفة .

على أن من هؤلاء البدو من كان يسخره موقف قومه منه في بعض الأحداث أو في بعض الأحيان ، فينبغي في حدة البدوى ها جيا قومه ، كما فعل قريظ بن أنيف العنبرى حين لم ينهض قومه لنجدته ومعاونتته في استنقاذ إبله من أيدي الشيبانيين ، حيث عرض بمدح أمعاء قومه وهم بنو مازن ، فقال إنه لو كان من بنى مازن هؤلاء لحاهم هؤلاء الشيبانيون ولما استباحوا إبله ، وإلا لقام فرسانهم الأشداء الأقوياء بمعاونتي في استرداد مالي ، دون أن يطلبوا منى برهانا على ما أقول كما طلب قومي منى :

لو كنت من مازن لم تستبح إبله	بو القبيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بعصرى معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لونة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أحامم حين يندبهم	في الدائبات على ما قال برهاا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
كأن ربك لم يخاق لحشيتته	سوامم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدرا الإغارة مرسانا وركبانا

وكأنه بذلك يضمن على قومه حتى ينصروا لنجدته ومعاونتته ، أو يحاسبهم على ما كان منهم .

ظالم جاء - كما ترى - يكاد لا ينفك عن الفخر والحماسة في شعر البدو الجاهلين ، والشاعر فيه يعتمد على مقومات قريية من مقومات الفخر - التي سبق الإشارة إليها - ومقومات المدح التي ستعرف عليها عند الحديث عن فن المدح .

المدح :

برر من فنون الشعر البدوى فى العصر الجاهلى - طى تحمظ - فن المدح . والمدح إبراز نصائل إنسان آخر ، وتمعداد مفاقيه ومحامده .

وإنما قلت إن هذا الفن برز فى الشعر البدوى طى تحمظ ؛ لأن البدوى بطبيعته الفطرية خاضع لشعور بالمزة والأنفة يجعله دائماً يتأبى على الخضوع للغير ، ويرفض الاعتراف بالقصور أو النقص ؛ فهو دائماً يرى نفسه فى المسكان الأرفع . من ثم كان من الصعب عليه أن يتحول من تلك الطبيعة إلى إنسان يقر لغيره بالسبق إلى المكرمات ، بله الإفصاح عنها فى شعره ، وإخلاص النفس لتمدادها والتغنى بها .

من ثم حرص البدوى فى هذا الفن أن يلائم بين هاتين الوجهتين المتقابلتين - الرغبة فى ذكر مآلفته من الفضائل فى مسلك الآخرين ، والرغبة فى الحفاظ على الأنفة والمظمة للشخصية - فلم يتجه بعدأئمه لشخص مفرد ، ولكنه كاد يقصر مدحه على الجماعات من قبائل وعشائر - التى اشتهرت بمحمدة من الحامد من حصال كريمة ، وأخلاق رفيعة ، وقيم سامية ، ومبادئ عظيمة كالسكرم والشجاعة والمزة والأنفة أو التى قامت بعمل تحمد عليه من رعاية للجار ، أو نجدة لمستفيت ، أو حماية لمظلوم ، طى نحو مائة له ابن دارة - أحد بنى عبد الله بن غطفان - فى مدح طىء (١) :

جزى الله خيراً طيئاً من عشيرة ومن ناصر تلقى بهم كل جمع
هم خلطونى بالنفوس ودانموا ورأى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : تعلم أن مالك إن يصب فعدك ، وإن محبس ترك ونشفع

فإذا اضطر إلى مدح فرد فلأه أحد السادة الذين يقومون طى مثل تلك القبيلة المظلمة ، ويرعون شئونها ، ويحافظون على أخلاقها ؛ فهو يمدح القبيلة ممثلة فى هذا السيد الذى مارس السلوك الخلقى الحميد ، أو هو يمدح إنساناً قدم ما يمدح عليه من

(١) الوحشيات لأبى تمام ص ٢٤٩ بتحقيق عبد الميرز الميضى .

طيب الأعمال ، طي نحو مقال الثقب العبدى فى مدح خالد بن أنمار الذى اتك شاسا
ابن أخت الثقب (١) :

إنما جاء بشاس خالد بعد ما حافت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسين به يتدرون الزول من لحم ودم (٢)
مترع الجفنة ربهى للنسدى حسن مجلسه عـير لطم (٣)
يجمل المال عطايا جمـة إن بعض المال فى العرض أمم (٤)
لايالى - طيب النفس به - تلف المال إذا العرض سلم

وقد يمدح الفرد لعمـل كبير يحقق ما يشده الشاعر من قيم ، وما يصبو إليه من
مسلك محمود أو حاق كريم ، أو موقف بطولى ، كما صنع زهير بن أبى سلمى مع هرم بن
سان والحارث بن عوف حين تعاونا فى المسمى الحميد ليصلحا بين عيس وذبيان ،
وينها الحرب التى طال مداها بينهما ، فأعلنا تحملهما ديات القتلى من القميتين ، حتى
تضع الحرب أوزارها ، وتهدا النفوس الشائرة ، وكان ثمرة ذلك من رهـير مملقته
الشهيرة والى يقول وبها :

سمى ساهيا غيظ بن مرة بعد ما تبرز ما بين العشرة بالدم (٥)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رحال ببوه من قريش وجرم
يمينا لنعم السيدان . وحسبنا طلى كل حال من سحيل ومبرم (٦)

-
- (١) المنصايات ص ١٤١ بشرح حسن السدوى .
(٢) يتخاسين : يترامين ، الزول : الشجاع الداهى .
(٣) مترع الجملة : تمتلىء القدر ، ربهى الندى : باكره .
(٤) الأمم : القصد .

- (٥) الساعيان : هرم بن سان ، والحارث بن عوف ، وغيظ بن مرة من ولده
عبد الله بن غطفان ، وتبرل : تشقق .
(٦) السحيل : حيط واحد لا يضم إليه آخره ، والمبرم : حيطان يفتلان حتى بصيرا
خيطا واحدا ، طلى : طلى كل حال من شدة الأمر وسهولته .

نداركنا عسا ودياز. بعد ما قفانوا ودقوا بينهم عطر مدشم
وقد قلنا : إن ندرك السلم واسما عال ومروف من القول نسلم

هو مدح لسلك - وإن كان موحا لشخص - يعلن به الشاعر عن إعجابيه بما
صدر عن هذين الشخصين من مكررات ، وأيس مدحا لذات المدح ، ولا رعية في
تحقيق كسب ، أو الحصول على بوال ا

من ثم تبرت مدائح زهير تتجنب المبالغات المقوتة ، والتزام الحقائق الواقعة في
اعتدال بين ، فهو يظن في صنائع الشخص ، ويتفحصها بحس الشاعر المهذب ،
ويلتقي منها الصفات التي يمتاز بها البدوي ويحتفل بمن ينعت بها ، ليقدم الصورة المثالية لها
من خلال رؤيته تلك .

ويشهد لذلك أن الشاعر لما رأى بنى حارثة قوم هرم لا يقلون عن هرم في مسلك
عמוד قال فيهم :

هنالك إن يستخبوا للسال يخيلوا وإن يسألوا يعطوا، وإن ييسروا يبنلوا(١)
وفيهم مقامات حسان وجورها وأندية يلتابها القول والعمل(٢)

قال صاحب الصاعيتين(٣): لما استتم وصفهم بحسن المقال ، وتصديق القول بالفعل،
وصفهم بحسن الوجوه ، ثم قال :

طى مكثرهم حق من يمتريهم وعند المقلين الساحة والبدل
فلم يحل مكثرها ولا مقلا منهم من بر وفضل ثم قال :

لإن جثنتم ألفت حول بوتهم محالس قد يشقى بأحلامها الجهل
وإن قام منهم قائم قال قاعد : رشدت فإلاغرم عليك ولا حدل

(١) الاستخجال : أن يسألهم شيئا فيملكوهم إياه ، وييسروا : يقامروا باليسر ،
ويبنلوا : يقامروا على غوالي الجزر .

(٢) المقامات المجالس ، وينتابها القول والعمل : يقال فيها الجليل ويعمل

(٣) كتاب الصاعيتين ص ١٠٧ بتحقيق البجاوى وأبو الفضل إبراهيم ، وانظر

للمعدة ج ٢ ص ١٣٤ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين .

(١٠ - الأدب العربي)

فوصفهم بالحلم وبالتضافر والتماون ، فلما آتاهم هذه الصفات النفسية ذكر فضل آباءهم فقال :

ومايك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل يثبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في مناقبها النخل^(١)

فالدح - في الشعر البدوي - لا يخرج عن الوظيفة الاجتماعية ، شأنه شأن الفنون التي سبق الحديث عنها ، يستجيب الشاعر البدوي به لحاجة قومية ، ويسير فيه وفق ما تمليه عاينه البيئة ، دون انحراف أو تجاوز .

(١) الخطى : الرماح الخطية، نسبة إلى الخط وهي جزيرة بالبحرين، والوشيح: القنا.

الرثاء :

ومن الفنون التي تشغل جانبا عظيما من شعر البادية في العصر الجاهلي فن الرثاء . والرثاء من الفنون الشعرية التي تميزت فيها البادية عن الحاضرة ، سواء في شيوعه أوفى منهجه ، وذلك لأن الرثاء - في عمومه - بكاء الميت ، والتفجع عليه ، والالتئاع لرفاقه ، وذلك بتمداد مناقبه ، والإشادة بمخلاته الكريمة ، بيد أن الجو النفسي للشاعر ، والموقف الاجتماعي الذي تقوم عليه العلاقة بينه وبين الميت يؤثر في مسار الشاعر في رثائه ، من ثم صبغت الرثية بألوان ثلاثة تمكن من تمييز كل منها عن غيرها ؛ فالرثاء يتردد بين الندب والتأبين والنزاء ؛ ولكل مقوماته التي يعتمد عليها ؛ إذ الندب يقوم على تجميع الشاعر وتحسره لفقد الميت ، والتأبين يقوم على تعداد مآثره وأفضاله على القبيلة أو الأسرة أو المحيطين به ، والعزاء يقوم على التسلى والتهمزى والنظرة التأبية التأملية في الكون ونظام الحياة .

ولا ريب في أن الشاعر المطبوع يقع في مجالته فن الرثاء على اللون الملائم مع الموقف الذي يضمه ، دون قصد إلى لون قدامه :

والناظر في مرثيى البدو الجاهليين يلاحظ أن أكثر مرثيئهم كانت ندبا وتأبينا . كما يلاحظ أن صوت الشعراء إنما يملو ويمتد بالرثاء في الثالب إذا كان المرثى مقتولا ؛ وهم في البادية إنما يتخذون من الرثاء وسيلة إنارة وتحسيس للثأر والانتقام .

ومن ثم شارك في هذا الفن نساء كثيرات ، وكان لهن دور واضح ملموس في إنارة الحروب وإشمال نارها ، ونفرة الجيوش للملاقاة خصومهم والانتقام لمن قتل منهم ، فما تزال المرأة تنوح على القتيل ، وتبكي فيه الشجاعة والنجدة والفروسية ، حتى تنهض القبيلة وتتأثر له وما صنيع الحنساء شاعرة بفي سليم بخاف على أحد ، ومادامها إلى هذا البكاء المتواصل بمجهول لأحد ؛ فقد كانت تخرج إلى عكاظ تندب أخويها صخرًا ومبارية وتمدد مآزها ، وتبحث بين سامميا عن فارس مقدم بشقي نفسها بالثأر لها . وحاكنها في ذلك هند بنت عتبة في بكاء أبيها (١) .

(١) راجع الأغاني ج ٤ ص ٢١٠ طبع دار السكتب .

ولم تكن المرأة تسكتني بىكاء ميتها يوما أو أياما ، بلى قد يمتد بها الزمان أعواما .
تظل طى ، حالها ، حتى يتحقق لها ما تهفو إليه من الثأر والانتقام .

وكان للنساء فى ذلك ومائلهن اللاتى يقصدن بها إثارة المشاعر ، واستنقار الهمم ؛
فكهن يملقن شموهمن ، ويقفن على القبر ، ويدرن على مجالس التقيية ، ويشهدن
المواسم والأسواق ، يلطمن خدودهن بأيديهن وبالجمال والجلود . وقد تحصل من
هوائى الخنساء دبان شعر يدور كله حول رثاء إخويها . وبما قالته فى ندى
صخر وبقائه :

قذى بمينيك أم بالمين عوار أم ذرقت إذ خانت من أهلها الدار (١)
كأن عبنى لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الحدين مدرار (٢)
فالمين تيسكى على صخر ، وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار (٣)
بسكى حناس ، وما تمك ما عمرت لها عليه رنين وهى مقتار (٤)
بىكاء والهمة ضلت اليتمها لها حينان : إسفار وإكبار (٥)
ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت بماعما هى إقبال وإدبار
وان صخرنا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار (٦)

ومن ذلك ما قالته جلييلة بنت مرة - أخت جساس وامرأة كليب - حين تلى
أخوها جساس زوجها كليباً (٧) :

يا بنة القوم إن مات هلا تهبلى بالوم حتى تسألى
ماذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم هوى واعذلى
إن تسكن أخت امرىء ليمت على شفق منها عليه فاعذلى

(١) العوار : الرمد ، ذرقت : فطرت قطرا متتابعا .

(٢) المدرار : الكثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وفى قولها : جديد الأرض كناية عن حداثة موته .

(٤) مقتار : ضئيلة . (٥) الإسفار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجبل . (٧) الوحشيات لأبى عامر ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتحقيق عبدالعريز للبيه فى

جل عندي هل جساس ، فيا حسرتي عما أنجأت أو تنجلى
فصل جساس على وجدى به قاطع ظهري ومـدن أحلى
يا قتيلا قوضت صرعتـه ستف يبق جيبا من عل
قوضت يبق الذى استحدثته واثنت فى هدم يبق الأول
خصنى قتل كليب بلظى من ورأى ولظى مستقبل
درك الثأر يشفيه وى دركى نأرى نكل المشكل
إننى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

والشاعرة تدرك أن نكاهها زوجها يعنى استنهاض قومها للثأر من قاتله ، وتدرك
ماذا يعنى الثأر من قاتل زوجها هى ملتاعة حائرة لا حصاصها من دون الرائيات
بهذه الحالة .

ومن ذلك أيضا مقاله دريد بن الصمة فى رثاء أخته :

دعاني أختى ، والخيال بينى وبينه فلما دعانى ، لم يجدى بقمدد
أخ أرضعتنى أمه من لبانها بشدى صفاء بيننا لم يحدد
جئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياحى فى النسيج الممدد
إن يك عبد الله حلى مكانه فما كان وقاما ، ولا طامش اليد
فليل التشكى للمصيات ذا كر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
تراه خيمس البطن والزااد حاصر عتيد ، ويندو فى التميمص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهـد زاده سماحا وإتلافا لما كان فى اليد
صبا ما صبا حتى علا للشيب رأسه فلما علاه قال للباطل : أبعد
وطيب نفسى أننى لم أفو له كدبت، ولم أبخل بما ملكت يدي

ولعل أوضح مثال لذلك مقاله العباس بن مرداس فى رثاء أخته عمارة ، حين قتل
فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بميدا عن موطنه ، فقام برثيه ويتهدد قاتليه ويتوعدهم بالثأر
صنهم ، ومنها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندي حصان خمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله

فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويملى بن سعد من تؤول يرأسه
بأنى سأرمى الحقل يوما بنارة لها منسكب حاب تدوى زلازله

فالرثاء البدوى يكاد يكون أسلوبا تميميا ، يشير به الشاعر سامعيه أو يهين نفسه
للاقدام على عمل حربي يثار به لقتيله الذى يبكيه ، ويلتقم بمن اعتدى على الأخلاق
والقيم والصفات الحميدة التى كان يمثلها القاتل أدق تمثيل .

من ثم يلاحظ أن الرثاء فى البادية كان أكثره مصروما إلى سادات المشيرة
وفرسانها الذين لهم عليها اليد الطولى فى حمايتها وقيادتها والقيام على مصالحها؛ فهم الذين
يستحقون البكاء بهذا الصوت العالى؛ شجذا لهمم الأحياء ، وتحريكا للقبيلة حتى
تثار لهم .

ولعل هذا يسر لنا قلة رثاء من يموت حتف أنفه فى الشعر البدوى . وهو على
قلته يدور حول الملاصقين من الأهل والأصدقاء - خصوصا الأبناء - ويتلب عليه
التفجع والتحسر المصحوب بالمواساة والنمزية والتسلى ، فهو فى التالِب يقوم عليه عصرى
للندب والمزاء . من ذلك ما قاله أبو ذؤيب الهذلى فى ابنة الخثمة الذين فقدتم فى
عام واحد (١) :

أمن المنون ورييها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع (٢)
قالت أميمة : ما لجسمك شاجبا منذ ابتذات ومثل مالك يفع (٣)
أم ما لجيبك لا يلائم مضجعا إلا أقص عليك ذاك المضجع (٤)
فأجبتها أن ما لجسسى أنه أودى بى من البلاد فودعوا (٥)
أودى بى وأعقبونى غصبة بعد الرقاء وعسيرة لا تقلع (٦)

-
- (١) ديوان الهذليين ص ١ طبع دار للكتب المصرية .
(٢) المنون : النية ، ورييها : حوادثها ، ليس بمعتب ؛ ليس بمرض .
(٣) ابتذل : امتحن نفسه فى الأعمال لموت من كان يكفيه .
(٤) أقص المضجع : صار كأن به حجارة صغيرة . (٥) أودى : هلك .
(٦) يشير بقوله « بعد الرقاد » إلى أن حزنه يمنعه النوم حين ينام الناس .

سبقوا هوى وأعتقوا لهوام متخرموا ولكل جنب مصرع (١)
فغرت بدمعهم بيمش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع (٢)
ولقد حرصت بأن أدامع عنهم وإذا المية أقبلت لا تدمع
وإذا المية أنشبت أظفارها ألقيت كل تيممة لا تنفع
فالمين بدمعهم كأن حدائقها سملت بشوك فهي عور تدمع (٣)
لا بد من تلف مقيم فانتظر أبأرض قومك أم بأخرى المصرع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكاء من يفجع
وليأتين عليك يوم مرة يبيكي عليك مقنما لا تسمع (٤)
كم من جميع الشمل ملتئم الهوى باتوا بيمش ناعم فتصدعوا
فلئن بهم جع الزمان وريبه إني بأهمل مودتى لمفجع

والشاعر البدوي أمام ميتة غيره أمام تتيهه ؛ إذ الدافع إلى الرثاء هنا غيره هناك ، وهو في كلتا الحالتين يعبر عن مكنون نفسه في صدق ، غير أنه في رثاء القتلى يدرك أن لثرائه وظيفة اجتهادية تتمثل في الإثارة والتحميس ، ويضمن رثاءه ما يحقق ذلك ، ويدرك أنه في بكاء اللوتى حثف أنوفهم إنما يصور مشاعره الذاتية ، وانفعالاته الوجدانية .

(١) أعتقوا : أسرعوا ، فتخرموا : أخذوا واحدا .

(٢) غبرت : قببت ، ناصب : ذى تعب ، مستتبع - بفتح الباء - مستلحق ، يقال : استتبع فلان ذهب به .

(٣) الحدائق . جمع حدقة ، وسملت : فقتت ، وعور - بضم معين - جمع عوراء من العوار بضم أوله وكشديد ثانية وهو ما يصيب للمين من رمد أو قذى .

(٤) مقنما : ملففا بأكفانك .

الغزل :

حديث الشاعر عن المرأة يطلق عليه (غزل) ، وهذا الحديث يتنوع ويختلف من شاعر إلى شاعر ومن بيئة إلى بيئة ، فتارة يقف الشاعر بحديثه عن المرأة عند حد اجترار ذكرياته الماضية في علاقاته بالمرأة ، وتارة يخلص حديثه لوصف محاسن المرأة ، ويبيان مغانها التي استهوته ، ومرة أخرى تراه يخاطب المرأة مستمطفاً ، يكشف لها عن حبه لها ، وافتتانه بها ، ويذكر ما يفعله فيه بمداهعته من لو اعج الشوق، وما يكابده من جراء ذلك . والشاعر أمام هذه الأحوال الثلاثة خاضع لظروف بيئته وأخلاقها مجتمعة بحيث لا يستطيع أن يتجاوز أعراف قومه وقيمهم ؛ إذ المرأة عند العربي تمثل الحرم الذي يجب على الصنير والكبير أن يبذل حياته في حمايته والإبقاء عليه نظيفاً من كل ما يشين ؛ فليس الشاعر مطلق الحرية في الحديث عن المرأة ، إنما هو - على خلاف الفنون الأخرى - ما ملتزم الالتزام التام بما تقره القبيلة من ذلك .

والناظر في الشعر البدوي في العصر الجاهلي يلاحظ أن الشاعر البدوي - في الجملة - يتحفظ في الحديث عن المرأة دائماً ؛ فهي في نظره أمل مقدس لا يحق له أن يكشف من مغانها إلا الأشياء العامة التي تليء عن سر تعلقه بها دون أن يمس حرمانها المقررة ، إلا أن تكون أمة لا حرمة لها .

فالغزل البدوي - في جملة - غزل عفيف ، لا يخرج على إطار القيم البدوية ، حتى لقد أطلق رواة الأدب العربي على هؤلاء الغزليين البدويين اسم (المتيمين) تمييزاً لهم من المشاق الماديين ، وأصبح قرين كل اسم منهم فتاة عرفت به وعرف بها كالمركش الأكبر وأسماء ، وللمركش الأصغر وداطمة ، والحبل وميلاء ، وعبد الله بن المعجلان وهند ، ومالك بن الصمصامة وجبوب ، وقيس بن الخدادية ونعم ، وعبد الله بن علقمة وحييشة ، وعمرو بن كعب وعقيلة . وكان أشهر هؤلاء جميعاً عنزة وعيلة .

* * *

ومن نماذج الشعر التي توضح ذلك ما قاله المركش الأكبر مصوراً حيرته النفسية ،

وصراعه الحاد ، وما يمانيه من قلق وعذاب ؛ إذ يسأل نفسه عن مدى صموده أمام
صبوات قلبه وهيامه بأسماء التي أصبحت كل شيء في حياته ، فهي الأمل الذي ينجيه ،
ونجوى الفؤاد التي يمشي معها ، كلما ذكرها اضطرب جسده وتعلّكته الرعدة كأما
صسته حمى شديدة :

أغلبك القلب اللجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهم ولا يعبأ بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه (١)
وأسماء هم النفس إن كنت عالماً وبأدى أحاديث الفؤاد وغالبه
إذا ذكرتها النفس طلت كأنى يزعر عنى قفقاف ورد وصالبه (٢)

وما قاله عمرو بن كعب يصور فيه إقبال الليل عليه بميدا عن محبوبته ، وما يمانيه
فيه من أحزان تذيب مهجته ، وتسيل دموعه ، وتنتزع الزهرات الحارة من صدره :

إذا جن ليلى فاضت العين أدما على الحد كالغدران أو كالسحاب
وما أسفى إلا على ذوب مهجتي ولم أدر يوما كيف حال الحباب

وما قاله ابن المجلان مصورا استسلامه - على الرغم من شدة نأسه وعلو همته -
أمام لحاظها التي ترسل سهامها لتصيب قلبه ، دون أن يستطيع لها دوما :

لقد كنت دأ بأس شديد وهمة إذا شئت لمتا للسماء لمستها
أتقى سهام من لحاظ فأرشتت بقلبي ، ولو أستطيع ردا رددتها

وما قاله قيس بن الحدادية مصورا للضمم للتلاطم من الأحزان الذي يطويه حين
تبعده عنه ، حتى يفضل الموت العاجل على الحياة وحيدا مع أحراه وهمومه .

فليت المنايا صبحتى عدية بدع ولم أسمع لبين مناديا
وود أقيمت نفسى عشية مارقوا بأسئل وادى الموح أن لا تلاقيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك فشان للمنايا القاصدات وشانيا

(١) إمرار الهوى : مرارته أو شدته .

(٢) الورد - بكسر الواو - الحمى ، والقفقاف : الرعشة ، والصالب : شدة

الحرارة مع رعدة .

وما قاله عنتره مصورا لواعج نفسه ، كاشفا عن الأهواء المتدفقة فيها ، وما يمانى
من الفراق ومرارة الحرمان ، حين ارتحل أهل عبلة إلى بنى شيدان :

يا طائر البان قد هيجت أحزاني وزدني طربا يا طائر البان (١)
إن كنت تندب إلما قد فجمت به فقد شجاك الذي بالبين أشجاني
زدني من الفرح واسعدني على حزني حق ترى عجبا من فيض أجهاني
وقف لتنظر ما بي لا تكن عجلا واحذر لنفسك من أنفاس نيراني
وطر لملك في أرض الحجاز ترى ركبا على عاجل أو دون نماني (٢)
يسرى بجارية تمهل أدمعها شوقا إلى وطن ناء وجيران
ناشدتك الله يا طير الحمام إذا رأيت يوما حول القوم فانماني (٣)
وقل : طربحا تركناه ، وقد فثيت دموعه وهو يبكي بالهم القاني

بيد أن الناظر في شعر عنتره يلاحظ أنه - على الإجمال - يمزج فيه بين النزل
والفخر ووصف معاركه الحربية ودروسيته وإقدامه ، وكأنه جعل من كل ذلك وسيلة
إلى قلب عبلة يصل إليه عن طريقها ، أو كأنه جعل من حب عبلة دافعا إلى جلائل الأعمال
وحافزا إلى محمود القمال من عفة ونجدة وشجاعة وتضحية ، يوضح ذلك قوله :

سلى يا عبيل قومك عن معالي ومن حضر الواقعة والطراد (٤)
وردت الحرب والأبطال حولي تهز أ كفها السمير الصماد (٥)
وخضت بمهجتي بحر المنيايا ونار الحرب تنقد اتقاد
وعدت مخضيا بدم الأعداى وكر الحرب قد حضب الجوادا

وقوله غازيا لعبلة الفضل في لقائه الصماب ، وصموده أمام عمرات الحروب ،

(١) البان : اسم شجر يشبه الصفصاف .

(٢) عاجل ونمان : مكانان .

(٣) حمولة - بضم الحاء - جمع حمل : الهودج أو البعير الذي عليه الهودج .

فانماني أصلها فانني ، وهو تجوز للشعر .

(٤) الواقعة : القتال ، وجمع على وقائع . والطراد : المطاردة .

(٥) السمير : الرماح ، والصماد - بكسر الصاد - جمع صعدة وهي القناة المستوية ،

يريد بها الرماح

مفتخرا بأنه لم يهزم في أية معركة خاضها بقوة دمها التي رجو من ورأها النظر إليه
بمعنى الرضا :

ياعبل لولا أن أراك بنساظري ما كنت ألقى كل صعب منك
ياعبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القوائم أسر
ياعبل هل بلغت يوما أنفى وليت مهزما هزيمة مدبر
ياعبل دونك كل حى فاسألى إن كان عندك شبهة فى عنتر

* * *

غير أن الغزل البدوى لم يكن وفقا لهذا الاتجاه العاطف المفيف . فقد كان
من شعراء البادية من أباح لنفسه أن يتحدث عن خلال المرأة الخبيثة ، وصفاتها
السكرية ، ناظيا بنفسه عن أن يمس جسدها ومايتصل به لأن لهذا الجسد حرمة أن
ترعى وتضان ، كقول الشنفرى فى امرأته أميمة :

لقد أعجبتنى لاسقوطا قناعها إذا مامشت ، ولا بذات تالفت
تميت- بميد النوم- تهدى غبوقها لجاراتها إذا الهدية قات (١)
تحمل بمنجاة من اللوم بيتها إذا مايسوت بالذمة حات
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه طى أمها وإن تكلمك تبت (٢)
أميمة لا يحزى نناها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجات (٣)

لقد نال من الغزل عناية الشعراء البدويين ، وشده اهتمامهم ، وأقبلوا عليه يصبون
فيه مشاعرهم ، ويعرضون من خلاله رؤيتهم للمرأة ، حق فرضوه على فنون الشعر
المتنوعة ، وجملوه تمهيدا ينقلون به سامعيهم من حياتهم العامة إلى مايقصدون إليه ؛
فأصبح من أعرافهم الفنية أن يلتقنا الشاعر مع مطلع القصيدة متنزلا بيكى ديار أحبابه

(١) التيقق : اللبن الذى يشرب فى المشى .

(٢) النسى : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتمعب أثره ، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبت : - بفتح فسكون - أوجزت .

(٣) نناها : ذكرها وماذاع عنها .

الذين ارتحلوا ، ويقف على أطلالهم العارسة بمد أن تركوها ، مستعيدا في هذا الوقوف ذكريات الشباب وأحلام الصبا ، ثم ينتقل من ذلك إلى غرضه الأصيل من مدح أو رثاء أو غر . . الخ .

ولا ريب في أن هذه المقدمة الغزلية لأعد المدارس برؤية ذاتية للمرأة بقدر ما عده برؤية عامة لها ، فلولا احتفال المجتمع الفنى بالمرأة وبالحديث عنها لما أفر هذا المنهج الشمري ، الذى أصبح تقليدا يستعين به الشاعر على الوصول إلى غرضه ، وإن لم يتم على واقع حقيقى . إنما الذى يمد المدارس برؤية الشاعر للمرأة هو الشعر الذاتى الذى يصور لواعجه وأحزانه ، وأفراحه فى البعد عن المرأة أو القرب منها .

الوصف :

تسكاد فنون الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - تقوم على الوصف؛ فالوصف هو الوسيلة المثلى لدى شعراء البادية، حتى إنهم اعتمدوا عليه في أعمالهم القصصية، وأسسوا عليه نمو الأحداث فيها، وتطور المواقف، وبنوا عليه الحركة القصصية (الدرامية)، مما دعا كثيرا من المدارس إلى أن ينفوا عن الشعر الجاهلي من القصة، متوهمين أن هذا الوصف جميعه نائيه من تغنى الشاعر وميله إلى القذاتية .

وفي الحق أن دارس الشعر البدوي في هذه الفترة يجد فيه وصفا للذاتيات، كما يجد فيه وصفا للموضوعيات على اختلاف أجناسها وأنواعها، وتباين أشكالها وهيئاتها. ويجد فيه وصفا للمعنويات وللدركات العقلية والخيالية، كما يجد فيه وصفا للماديات والدركات البصرية والحسية

ترى الوصف القذاتي في نحو قول المرقيش الأكبر يصف ما يعتدل في داخله، وما شعر به حين مر به طيف محبوبته سليمى ليلا، فأبرز هذه الانفعالات النفسية في صورة مادية تعكس ما اضطرب به نفسه، معتمدا على المقابلة بين مظهره الخارجى ومظهر أصحابه الذين لا يمانون مثل معاناته (١) .

سرى ليلا خبال من سليمى	فأرقنى وأصحابى هجود
مبت أدير أمرى كل حال	وأرغب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار	يشب لها بذى الأرقطى وقود (٢)
حواليها سما جم التراقي	وأرآم وغزلان رقود (٣)

(١) المنضليات ص ١٠٤ بشرح السندوبى .

(٢) الأرقطى جمع أرقطة : نبات شجيرى ينبت في الرمل، ويخرج من أصله واحد، ورقة دقيق، وغره كالغراب .

(٣) المها جمع مهاة : بقرة الوحش . وأرآم جمع رثم : ولد الظبي أو الظبي خالص البياض .

نواعم لا تالج بؤس عيش أواس لا تروح ولا ترود
 يرحن مما بطاء المشى بدا عليهن الهامد والبرود (١)
 سكن يبلدة وسكنت أخرى وقطعت المواقق والمعمود
 لما بالى أوى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد ١

وترى وصف الموضوعيات في نحو نائية الشنفرى الى يصف فيها عارته في جمع من الصماليك على سلامان ، يقدم صورة حية واقعية ترى فيها تحركه ومن معه بأسلحتهم للانتقام من سلامان ، حتى يجعلك تصاحبهم وتميش معهم أدق تحركاتهم وحياتهم ، وفيها يقول واصفا طرفا من حياتهم الاجتماعية في أثناء تحركهم للفتارة ، وكيف أن رابطة أسرية قوية تشدهم إلى بعض ، بحيث يقوم على خدمتهم واحد منهم - وهو تأبط شرا - فيقدمه في صورة الأم التي تقوم على رعاية أبنائها، ويخضعهم لطعام قاس ، تفرضه ظروف معيشتهم حتى لا ينضب زادهم :

وأم عيال - قد شهدت - تقوتهم إذا أطعمتهم ، أو تحت وأقلت (٢)
 يخاف علينا للميل إن هي أكثرت ونحن جياع ، أى آل تألت (٣)
 مصمكة لا يقهر الستردونها ولا ترعى للبيت إن لم تبيت (٤)
 لها وعصه فيها ثلاثون سيحما إذا آستأولى المدى اقشمرت (٥)

وترى الوصف المعنوى التجريدى في كثير من الحكم التي امتلأ بها شعرهم، والتي يمثلها قول رهير في معلقته عارضا رأيه في الحياة وحلاصة تجاربه فيها، ووصاياه ونصائحه المتزعة من هذه المعرفة الجريفة :

(١) الهامد جمع مجسد - بكسر الميم - الثوب الملامس للجسد ، والبرود جمع برد : كساء مخطط يلتحف به .

(٢) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أو تحت : قترت وأقلت

(٣) الميل - بفتح الميم وسكون الياء - الفقير ، أى آل تألت : أى سياسة تسوسنا ، يقال : آله : ساسه .

(٤) مصمكة - بكسر اللام - صاحبة صماليك ، لا يقهر الستردونها : لا ينطى أمرها .

(٥) الوصلة - بفتح فسكون - الجمية ، والسيحف - بفتح السين والحاء - السهم عريض النصل ، وأولى المدى : طلائع الأعداء ، واقشمرت : تهيأت للقتال .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تحطىء يعمر فيهم - برم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يفتس بأنسياب ويوطأ بمنس
ومن هاب أسباب المنايا يمله وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يقترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يزل يستحمل الناس أمره ولا يفتها يوماً من الدهر يسأم

هذه طائفة من الحقائق المردة تراى أمام عقل زهير فقدمها في ثوب مادي من
الشعر لتصبح أمام متلقي شعره ماثلة ، لا تتحوج إلى مساواة فكرية ، ولا إلى جهد
عقلي ، بل تصل إلى نفس التلقي في يسر ؛ لو ضرحها ودقة وصفها .

وترى الوصف المادي الذي يصور فيه الشاعر ما تقع عليه عينه من أسباب الحياة
التي كشملة عليها البادية ، من مفاوز بعيدة يجوبونها لها فيها من انقطاع عن أسباب
الحياة ، وإبل يقطنون بها تلك الياي ، وجياد يواجهون بها الخصوم في حروبهم بين
كروفر ، وأدوات حرب من سيوف ورماح ودروع ؛ فهذا الشنفرى يصف سلاح تأبط
شرا أحد أصحابه وقد شبهه بالأم في إدارة شئون الجماعة ، فالسيف أبيض صارم يشبه
الملح في لونه ، حديده صاف كأنه الماء الصافي :

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفرها ثم سلنت (١)
حسام كلون الملح صاف حديده جرار كأقطع المدير المنمت (٢)

وهذا زهير يصور رحلة صواحيبه في الصحراء ، يلفت الأنظار إليهم وهن راحلات
يصعدن الروابي ، وهبطن الوديان ، في هودج مكحلة وردية الحواشي كأنها الدم ،
فإذا كن في وادي السويان من ديار تميم ثنين أرجلهم للراحة بادية علمهن آثار النعمة
والترف . بدان الرحلة في الصباح ، ورحلن في السحر ، دون أن يخطئن وادي الرس

(١) فزعوا : دهمهم محاربون وتمأوا لقتالهم ، وأبيض صارم : سيف قاطع ، الجفرة :
الجببة ، رامت بما فيه أى بسهامه ، سلنت السيف . شهرته .
(٢) جراز ، بضم الجيم وفتح الراء - ناطع ، أقطع : التقدير : قطع الماء فيه ، شبه
السيف بها في اللعنان والبريق .

الذى تصدن ، فقد حملن جبل القمان ومن أرضه الصمبة عن يمينهن قطن هذه الرحلة
من وادى السويان على رحل جديد واسع رحب ، وكلا زان بأرض للاستراحة خلفن
وراءهن قتات الصوف التى تشبه عنب الثعلب ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه
للإقامة القين عصا الرحال ونزلن به :

تبصر حيلى هلى ترى من ظمائن تحملن بالعلباء من فوق حرثم^(١)
علون بأنماط عتاق وكلة وراذ حواشها مشا كبه الدم^(٢)
وركن فى السويان يعلون متته عليهن دل الناعم المتهم^(٣)
ويهن ملهى للصديق ومنظر أذيق لعين المناظر المتوسم^(٤)
بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للقم^(٥)
حملن القمان عن يمين وحزنه ومن بالقمان من محل ومحرم^(٦)
ظهرن من السويان ثم جزعنه على كل قيفى قشيب ومأم^(٧)
كأن قتات المهن فى كل منزل نزلن به حب القما لم يحطم^(٨)
لما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم^(٩)

- (١) الظمائن : النساء الراحلات فى الهوادج ، والعلباء : اسم موضع ، وجر ثم ،
- بضم الجيم - ماء لبنى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : السائر على الهوادج ، وراذ - بكسر الواو - حجر ، ومشا كبه : مشابهة ،
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة ، والسويان : واد فى ديار بنى تميم والبن :
الظهر ، ودل الناعم : أثر العمة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن . رحلن فى الصباح الباكر ، واستحرن : رحلن سحر ، كاليد للقم :
أى إن ما تصدنه لا يحطئه كما لا تخطىء اليد القم .
(٦) القمان - متج القاف - جبل لبنى أسد ، والحزن : الأرض المصيبة المليظة ،
والمحل - بضم الميم - الحليب صد المحرم .
(٧) جزعنه : قطعته ، والقيفى : الرحل ، والمأم - بضم الميم - الواسع الرحب .
(٨) المهن : الصوف ، وحب القما : عنب الثعلب .
(٩) الحمام - بكسر الجيم - السطح والمجتمع ، ووضع المصى كناية عن الإقامة

وزهير في استقصائه وصف رحلة صواحيبه هما قريب الشبه بأستاذه أوس بن حجر
في وصف القوس، حيث تتبع القوس مذكان غصنا في شجرة بعيدة اللثال وذلك قوله :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظم—ر صفوان كأن متونه علقن بدهن يراق المنزلا
يطيف بها راع يحشم نفسه ليكلاً فيها طرهه متأملا
على حير ما أبصرتها من بضاعة للتمس بيما بها أو تبيكلا
فويق جبيل شامخ الرأس لم تسكن لتبامه حتى تسكل وتمملا

إلى آخر القصيدة ، ولنا لقاء بها في موطن آخر من بحثنا هذا إن شاء الله .

وترى الوصف المادى لما يحيط بالشاعر في يئنه مائلا - كذلك - في وصف البقرة
الوحشية التي شبهه به ليبيد بن ربيعة المامري ناقته ، تلك البقرة التي افترس السبع ولدها
لما خذلتها وذهبت ترعى مع صواحيها ، وأخذت تبحث عنه طائفة صائحة بين الرمال ،
فلما لم تجده اشتد حزنها وبانت في مكانها تبحث عنه وقد أسبل مطر واكف علاظها
في تلك الليلة التي احتفت فيها النجوم ، فاشتد الظلام ، فحاولت الاستتار من البرد وللطر
بأغصان الشجر ، ولكنها كانت تنقلص وتنال كشيان الرمل عليها فلا تحميها من البرد
والمطر ، وتمدو في قاق فتبدو في الظلام كأنها لؤلؤة سل نظامها ، حتى إذا انكشف
ظلام الليل بكرت البقرة من مأواها تبحث عن إينها ، ولكنها قوامها نزل عن التراب
للندى لكثرة المطر الذي أصابه ليلا ، تتمن في الجرع ، وتردد بتحيرة في وهاد هذا
الموضع ومواضع عدرانه سبع ليال بأيامها ، حتى إذا يئست البقرة من العثور على ولدها
وصار ضرعها الممتلىء لبنا خلقا لا تقطع الابن لمدم إرضاعها ، سمعت صوتا ولم تر صاحبه
فخافت ، فقدت فزعة مذعورة لا تعرف منجهاها من مهلكها . عندئذ يئس الرماة من
وصولهم لها ، فأرسلوا كلابهم في طلبها ، ولحققت بها ، ولكن البقرة تصدت لتلك
الكلاب وطمنتها بقرها الذي يشبه الرمح دفعا عن نفسها :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها(١)

(١) مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ، والصوار: القطيع من بقر الوحش .

خلساء ضيقت الفرير فلم يرم	عرض الشقائق طوفها وبغامها (١)
لمفسر قهقد تنازع علوه	غس كواسب لايمن طامها (٢)
صادين منها غرة فأصبنا	إن المنايا لانطيش سهامها
باتت وأسبل واكف من ديمة	يروى الخائل دائماً تسجامها (٣)
يعلو طريقة متنها متواتر	في ليلة كفر النجوم ظلامها (٤)
تجتاف أسلا قالصا متبذبا	بمعجوب أنقاء يميل هيامها (٥)
وتنحى في وجه الطلام مفسرة	كجياة البحرى سل نظامها (٦)
حق إذا حسر الظلام وأسفرت	بكرت تزل عن الثرى أرقامها (٧)
علمت تردد في نهـاء صمائد	سبعا تؤاما كاملا أيامها (٨)
حق إذا يئست وأسحق حالق	لم ييله إرضاعها وطمامها (٩)
فتوجست رر الأيس فراعها	عن ظهر غيب والأيس مقامها (١٠)
فقدت كلا الفرجين تحسب أنه	مولى الحافة خلفها وأمامها (١١)

- (١) الفرير : ولد البقرة الوحشية ، فلم يرم : فلم يبرح ، والشقائق جمع شقيقة : الأرض الصلبة بين رملتين ، والبغام - بضم الباء - صوت رقيق .
- (٢) القهقد - بفتح القاف - الأبيض ، والشلو : العضو ، والنيس - بضم النين - جمع أعبس : لون كالرماد .
- (٣) الواكف : القطر ، والديمة : السحابة التي يدوم مطرها مالا يقل عن نصف يوم .
- (٤) المن : الظهر ، كفر النجوم : سترها .
- (٥) الاجتياف : الدخول في جوف الشيء ، والتنحى : التنعى ، والمعجوب جمع عجب : أصل الدنب ، وهو هنا أصل الدقا ، والنقا : كثبان الرمل ، والهيام : مالاتماسك به من الرمل .
- (٦) الجياة : درة مصوغة من الفضة .
- (٧) الأزلام : القوائم .
- (٨) العلة والحلع : الانهماك في الجزع ، والنهـاء - بضم النون - جمع نهى : التدير ، وصمائد - بضم الصاد - موضع ، والتؤام جمع تؤم .
- (٩) أسحق : حاق ، والحالق : الضرع المتلىء لبنا .
- (١٠) الرز - بكسر الراء - للصوت الخفي . (١١) تفرج : الواسع من الأرض ، أخبر أنها خائفة من كلا جيبها ، مولى الحافة : للوضع الذى فيه الحافة .

حق إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قانلا أعصامها(١)
فلحقن واعتسكرت لها مدرية كالسهرية حدها وتامها(٢)
لتسذودهن وأيقنت إن لم تزد أن قد أحرم من الحقوف حمامها(٣)
تقصدت منها كساب فصرجت بدم وعودر في المسكر سخامها(٤)

وصفة القول ، لقد وصف البديون في أشعارهم كل شيء وقمت عليه أعينهم
أو مرجحاً لهم ، أو أحسوا به من خلال مشاعرهم في براعة فنية ودقة ، كما توجهوا
بنظرم الفاحص إلى دخائل نفوسهم ومحصول عقولهم فمكسوه على مرآة شعرهم في
صدق وبساطة .

-
- (١) الكلاب النضف: المسترحية الآذان ، والدواجن : الملمات، والقول: اليبس،
والأعصام : البطون .
(٢) اعتسكرت : عطف ، والمدرية : طرف قرننها ، والسهرية من الرماح : الرماح
المنسوبة إلى سهم رجل اشتهر بمحذق صنمها من قرية خطا بالبحرين .
(٣) الدود : السكف ، والإحمام : القرب ، والحقوف : قضاء الموت ، والحمام :
تقدير الموت .
(٤) كساب : اسم كلبة ، وكذلك سخام .

الباب الثالث

الشعر الحضري

الفصل الأول

أعلام من شعراء الحاضرة

أقصد بشعراء الحاضرة أولئك الشعراء الذين مرضت عليهم ظروف حياتهم أن يسبشوا في الحاضرة فترة من الزمان مكنت لقيمها وأخلاقياتها ومظاهرها وعاداتها أو لبعض ذلك من نفوسهم، جعلت منهم عربا غير العرب المجاورين لهم في للبادية حسا وهمورا، ومسكرا واعتقادا، وأسلوبا في الحياة، وتصورا وخيالا... إلى غير ذلك من الآثار التي تفرسها الحاضرة على قاطنيتها أو من ينزلون بها.

ولمنا نذكر مما قدمنا أننا نرى شاعر الحضر واحدا من ثلاثة هم الذين تصورهم واقعين تحت سطوة الحاضرة بمؤثراتها وقيمها.

أولهم: ذلك الشاعر العربي القدي ولد في كنف الحاضرة سواء كانت حاضرة عربية خالصة، وهي التي كستق حضاراتها من بقايا الحضارة العربية القديمة المزوجة بما يصلها من الحضارات المجاورة عن طريق الرحلات التجارية، والجاليات الأجنبية الوافدة إلى أرض العرب، والجماعات العربية الزائرة لبلاد فارس والروم والحبشة ومصر على اختلاف الدوام إلى ذلك - مثل يثرب، والطائف ومكة، وما بين النهرين، وهمان، والبحرين، واليمن، وكندة، أو كانت حاضرة عربية تكاد تذوب في جيرانها من غير العرب - وهي التي تقتبس حضارتها من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية من فارسية، ورومية، ومصرية، وحبشية... الخ - مثل الحيرة والشام.

وثانيهم: ذلك الشاعر البدوي القدي خرج من باديته إلى إحدى الحواضر العربية بعد أن هب ونما حسه وتكونت أفكاره ومشاعره، غلبت مظاهر الحضارة الطارئة ليه، لكنه لم يستطع أن يتلاءم إيمها تماما، ولم تتمكن آثارها منه تمكنا يصلحه من ييشته الاصلية، فوقف في تأثره بالحضارة الجديدة عند حد الشكل والضمون، أما المعارف والأخيلة والماني فظلت عربية بدوية خالصة.

ثالثهم : ذلك الشاعر العربي الذي أدرك الإسلام - بدوياً كان أو حضرياً - فاستجاب له ، واندفع إليه بقوة وإخلاص ، مؤمناً بأفكاره ، مكياً على كتابه ، أو ممرضاً رافضاً ، فاندفع في مقاومته متأثراً بمنهج شعرائه ، فإذا مفاهيم غير المفاهيم ، وأمكار غير الأمكار ، وأساليب غير الأساليب ، والألفاظ غير الألفاظ ، وأخيلة غير الأخيلة ، ومعان غير المعاني ، وإن لم تسكن غريبة عن سابقتها ؛ لأن الجديد عربي هذبته حضارة الإسلام ، التي اعتزت بالمرئية المهذبة سواء كانت بدوية أو حضرية .

* * *

لقد كان حياة الحاضرة وماتحتويه من مظاهر الترف ، ووسائل النعيم ، وأسباب التحضر للمادية والفكرية - أكر الأثر في الشعر الجاهلي ؛ فقد استحوذت هذه الحياة على طائفة من شعراء هذا العصر - على امتداده - فشككت حياتهم بشكل يختلف عن طبيعة الحياة في البيئة الجاهلية عامة ، وأجهت بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تتأير وجهات أقرابهم وإخوانهم في البيئات العربية الأخرى ، وصبغت أذواقهم الفنية بالأصاغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والتنعم في الحضارة المادية ، وحياة التسامى والترقى في الحضارة الإسلامية ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلى حاجاتهم ، وداروا بمغانيهم وأحليتهم في محيط الحضارة التي تضمهم وماتنضميه على أمكارهم وخيالاتهم من انطباعات .

فلم يكن شعراء الحضارة هؤلاء على مستوى واحد في درجة تأثرهم تلك البيئة ، بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً - وإن لم يخرج عن إطار البيئة - يرجع إلى صلة الشاعر بالحضر وطبيعة تلك الصلة وملابساتها وطبيعة الحضارة وأبمادها ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير البيئة فيمن ولد ودرج بين أهلها مماثلاً لتأثيرها فيمن نزع إليها ، طمما فيما تقدم له من أسباب الترف والتنعم ، مخلفاً وراءه بيئته الأصلية ومافيا ومن فيها ، وليس من المعقول أن يكون تأثير الحضارة المادية مساوياً لتأثير الحضارة الفكرية والمقيدية .

وكان من أشهر شعراء هذه البيئة عدى بن ريد ، وأبو داود الإبدي وامرؤ القيس وطرفة بن العبد ، والنايئة الندياني ، والأعشى ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص والعباس بن مرداس ، والمثقف المبدى ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وأمّية بن أبي الصّات ، والسّمواأل بن عادياء ، وكعب بن الأشرف . . الح غير أننا سنتناول بالمرض ستة شعراء من هؤلاء يمثلون الاتجاهات المختلفة التي وضحت في شعرهم تأثراً بظروفهم البيئية الخاصة ، وهؤلاء الشعراء الستة هم عدي بن زيد ، وامرؤ القيس ، والنابغة ، والعباس بن مرداس ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

لقد جاء الإسلام فبدأ اثره واضحا على عقل العربي وسلوكه ، بحيث أصبح كل دارس متخصص يرى تأثيره من وجهة تخصصه أبرز التأثيرات ؛ مدارس الديانات يرى في الإسلام مؤثرا عمالا في الحياة الدينية حول العرب من الشرك إلى التوحيد ، ومن الوثنية المادية إلى التجريد . ودارس الاجتماع يرى الرؤية نفسها في المجال الاجتماعي ؛ فقد تحول به العرب من القبلية إلى الدولية ، ومن العصبية الأسرية إلى العصبية الروحية ، ودارس الثقافة يلمس التأثير ذاته ؛ فقد تنازل العربي بالإسلام عن الخيال الممنهج في تمبيراته وأسكاره وانتقل إلى أسلوب آخر في التمييز والتفكير يمتزج فيه الخيال بالواقع ، والمحافظة بالفكر ، والشعور بالعقل . وقد رأينا مظاهر ذلك التأثير في النثر العربي على اختلاف فونه .

والناظر في القرآن الكريم ، وشعر صدر الإسلام ، يخيل إليه أنه أمام مخاصمة من القرآن للشعر ، خصوصا حين يقرأ قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (١) . حتى لقد بلغ الوهم بمص الدارسين أن قرروا أن الإسلام يحرم الشعر أو يكرهه ، مغفلين ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم من تقدير للشعر إلى حد جملة يخالع برده على الشاعر كعب بن زهير أثر إنشاده قصيدته (بابت سعاد) ، قائلا : « إن من الشعر لحكمة » (٢) ، وما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا بقتل الضمر بن العنزة أحد أسرى بدر الذين طالما آذوا الرسول ، فلما قتل عرضت ابنته (قتيلة) لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بطوف ، فاستوقفته وحذت رداءه حتى انكشف منكبه ، فأشدته أيباتا جاء في آخرها :

(١) الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٢) الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٥ .

أحمد ولأنت ضنء نجيبية في قومها ، والفحل فحل معرق
ماكان ضر لومنت ورعا من اللفق وهو المفيظ المحقق
والضر أقرب من أخذت برلة واحقهم إن كان عنق يدق
لو كنت قابل هدية لهديته بأعز مايفدى به من ينفق

فلما مرغت قال صلى الله عليه وسلم : لو سميت هذا قبل أن أتله ماقتلته إلى غير ذلك من اللرويات التي تكشف عن احتمائه صلى الله عليه وسلم بالشمر والشمرء ، ولو كان ماجاء به القرآن الكريم حصومة للشمر وتحريعاله أو كراهية لما قابل الرسول الأمين الشمر والشمرء بهذا الاحتفاء .

ومن يتأمل الآيات الكريمة يحد القضية التي يعرضها القرآن تبدأ قبل ذلك حيث يلفيه تعالى إلى الفرق بين الشمر والقرآن ، ردا على زعم المشركين وادعائهم بأن ماجاء به محمدشمرأ أو كهانة أو سحرأ تنزلت به الشياطين ، وقال جل شأنه معرفا بالقرآن الكريم : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » (١) . ثم قال تعالى : « وما أنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمزولون » (٢) . إلى أن يقول موضحا الفرق بين القرآن والشمر : « هل أنبشكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أئيم . يلقون السمع وأكثرم كاذبون . والشمرء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » فالوارنة صريحة بين القرآن والشمر ، أجاب بها تعالى على دعوى أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من قبيل الشعر الذي يلعب بالمواطف ، ويستحوذ على المشاعر . وضح فيها أن القرآن ليس من ذلك الضرب الخادع ، القائم على الناطفة ، وإنما هو كلام صبيغ بلسان عربي لبيين الحقيقة ، ويكشف الطريق لدوى العقول التي تقدر على وزن الأمور ، وتسعى لاختيار الحق منها ، فهو وسيلة إنذار وتبيين ، لا استحواذ وتأثير . كما وضح فيها الفرق بين طائفتين من الناس ، إحداهما تهيم وراء ما يامب بمشاعرهما وعواطفها ، أم سماتها النواية والخيال المنح حيث يقولون

(١) سورة الشعراء آية ٣١٠ ، ٣١٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١ ، ٢٢٧ .

مالا يفعلون ، والثانية تقف على أرض صلبة تنطلق منها في تفكيرها ، وتسير عليها في سلوكها ، هي أقرب إلى الواقع ، والصق بالحقيقة ، فهم مؤمنون ، يعملون الصالحات ، ويذكرون الله ، وابتصرون من بمد ظلم ، ليسوا محدرين ولا مستسلمين لأوهام الخيال .

فالقضية ليست قضية الشعر ، بحيث ندين منها موقف الإسلام من الشعر ، ولكنها قضية الإبداع بأن ماحاه به محمد شعرا ، ففرق سبحانه بين الشعر وآثاره والقرآن ورسالته وآثاره ، وفرق بين الشعراء المستسلمين لخيالات الشعر واتجاهاته ، وبين الشعراء المؤمنين الذين لا ييعددهم الخيال الشعري عن الواقع .

ويقرر هذا أنهم كانوا حريصين على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالشاعر، إيماء إلى أن دعوته تلك رهن بحياته ، فإذا مات خبا سلطانه على النفوس وضمف حتى أصبح أترا لا تأثير له ، ومن ثم فهم يتوقعون أن الموقف سيتغير حين يموت محمد ، ولا يكون ثمة ذلك التأثير الشعري الساحر : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر تتربص به ريب للنون . قل تبصروا فإني معكم من المتربصين » (١) هذا وهم المشركين بنوه على حسب تصورهم في القرآن واعتقادهم أنه نعط من الشعر لا يابث أن تنطفيء جذوته ؛ فإنهم لما رأوا للقرآن ذلك التأثير البالغ على السامع والناظر - ومادروا أن هناك قولا غير الشعر يباغ في التأثير هذا المبالغ - لم يكن أمامهم إلا أن يصفوا على القرآن صفة الشعر وإن كان غير مطابق في الشكل لما عهدوا وعرفوا من الشعر ، فهو في وهمهم شعر بتأثيره وليس بسانه وشكله . ولو كانوا - في ذلك - يريدونه شعرا من كل الوجوه لما كانوا في حاجة إلى ذلك الإعلان المتكرر ؛ إذا لكل يعرف فيه تلك الصفة ، إنما هم فكروا وقدروا فلم يصلوا إلى غير ذلك .

من هذا المنطلق الواحي بمقاصد القرآن الكريم احتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء دون أن يجسد في ذلك عضاضة أو كراهية ، واحتفل معه الصحابة وسائر المسلمين شعراء وغير شعراء .

فالشعر في ظلال الإسلام وسيلة من وسائل التعبير يخضع لما خضع له سائر الوسائل

التعبيرية من مبادئ الإسلام وقيمه وأحاديثه . والشعراء في ظلال الإسلام كالشعراء في كل عصر وبيئة متهيبون للتأثر بما يظلمهم من موجبات المواطنين والتفكير والخيال .

* * *

لا ريب في أن العصر الإسلامي إمتداد زماني للعصر الجاهلي ، فما كان عليه الشعر في العصر الجاهلي لا يمكن أن يتغير طرفة ، وإنما هو خاضع لقوانين الفطرة التي تقوم على التدرج في الانتقال والتغير فالعرب - حين بدأت الدعوة الإسلامية - هم عرب الجاهلية شعرا وحلقا وسلوكا . إلى غير ذلك وإنما بدأ أثر الإسلام في شعرهم حين ذاعت دعوته : خلقت في السماء .

العربية مبادئ غير للبادئ ، وقيم غير القيم ، وجدت على الأرض العربية ظروف وملابسات غيرت شكلها أو كادت . وقد وضع ذلك كله بمد الهجرة إلى المدينة ، حيث اشتعلت نار الحرب بين مشركي مكة ومسلمي المدينة ، وكما شرعت الرياح واستلقت السيوف في هذه الحرب ، سلت الألسنة ، وأذيت القصائد من الجانبين . وقد لمع في هذه الحرب من حارب مكة أسماء شعراء كثيرين لم يكن لهم قبل ذلك ذكر - مثل صرار بن الخطاب الفهري ، وعبدالله بن الزبير ، وأبي عزة الحمصي ، وأبي سفيان ابن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب المخرومي - وجها شعرا لمجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وللصد عن الدين الجديد ، موقف من شعراء المدينة حسان بن ثابت يرد عليهم ، مدافعا عن الرسول وعن الإسلام ، ومعه كعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وكانت معركة حامية الوطيس قدمت كثيرا من الشعر ، بيد أن الذي وصلنا منه قليل مشكوك في صحته ، لأن رواية ابن إسحاق لم يكن دقيقا في الرواية والنقل ، وقد نبه إلى ذلك ابن سلام في قوله عنه : وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غناء منه (١) ،

وتضامن جماعة من شعراء اليهود مع شعراء مكة هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبايته ودعوا العرب إلى الإعراض عنهم ، وكان في مقدمتهم كعب بن الأشرف ، الذي بكى قتلى بدر ، واشتط في عداوته وشبب بدعاء الرسول وساء المسلمين ، مما دفع

محمد بن مسلمة إلى قتله^(١) وإلى جرار هؤلاء وأولئك وقف كثير من شعراء العرب مع قريش ليكون قتلاهم ، وبهجون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويحرضون قريشا على مواصلة الحرب ، ومكافحة هذه الدعوة ، مثل أمية بن أبي الصلت الذي رثى قتلى بدر من قريش^(٢) ، والأسود بن يفر بن عبد الأسود الذي مدح قريشا وأشاد بانتصارهم في أحد^(٣) .

ولما فتحت مكة أقبل كثير من شعراء العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين معتذرين عما بدر منهم . طالبين العفو عما قالوا ، مثل كعب بن زهير ، وأس بن زهير وأبو سفيان بن الحارث ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضيمه ، وكان شديد المداوة لرسول الله ، ثم أسلم عام الفتح ، وشهد حديبا فأبى فيها بلاء حسنا ، وما قاله بعد إسلامه^(٤) :

لمـمـرك إنى يوم أحمل راية لتغلب حيل اللات خيل محمد
لسكالك لـج الحيران أظلم ليله فهذا أو انجبنا أهدي وأهتدى

* * *

واستمرت الحرب بلونها العسكرية والكلامى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اختلاف الخصوم ، وفي عهد الصديق كانت بين المسلمين المرتدين من قبائل العرب مثل أسد وغطفان رعيمة وحنيفة ، وفي عهد عمر كانت الحرب بين المسلمين ، وبين الفرس والروم ، حيث أقبل المسلمون جميعا على تلك الحروب . وكان من يتخلف عن الحرب لضرورة يحس في نفسه بأثم وضيق ، فخرج كثير من الشبان تاركين وراءهم آباء شيوخا يمولونهم ، مما دعا عمر إلى أن يسترجع أمثال هؤلاء ، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني أن الخليل السعدي جزع حزعا شديدا حين خرج ابنه شيبان مع سعد ابن أبي وقاص ، وكان قد أش وصنف ، فمضى إلى عمر وأنشده أبياتا منها :

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٢) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٦٣

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧

أيها الكفى شيبان في كل ليلة
وإن يك عصي أصبح اليوم ذأوباً
فإني حنت ظهري حطوب تنابت
إذا قال صهي : ياربيع ألا ترى ؟
ومخبرني شيبان أن لن يعقني
فلا تدخلن الدهر فمرك حوبة
لقل من خوف الفراق وجيب
وغصنك من ماء الشباب رطيب
فمضى ضعيف في الرجال ديب
أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
تمسق إذا هارقتني ونحوب (١)
يقوم بها يوماً عليك حبيب

بكي عمر ورق له وكتب إلى سعد يأمره برد شيبان على أبيه ، معاد إليه مكرها ،
ولم يزل عنده حتى مات (٢) . وذكر ابن سلام أن أمية ابن حرثان بن الأسكر هاجر
إبناه كلاب وأخوه إلى البصرة بعد ما كبر وكف بصره فقال لعمر :

لمن شيخان قد شددا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتاب (٣)
إذا هنت حمامة بطن وج طي بيضاتها ذكرا كلابا (٤)
ترك أباك مرعشة يدها وأمك مالمسيغ لها شرابا

فكتب عمر إلى أبي موسى بإعضاضه إلى أبيه (٥) . وقال النابغة الجعدي لامرأته
حين أظهرت تأثرها لخروجه في حرب الفرس (٦) :

باتت تذكري بالله قاعدة والدمع ينهل من شأنهما شبلا
يا ابنة عمي كتاب الله أخرجي كرها ، وهل أمنن الله ما مالا
فإن رجعت رب الناس يرجيني وإن لحقت بربي فابتنى بدلا
ما كنت أخرج أو أعمى فيعذرنى أو ضارعا من ضني لم يستطع حولا

(١) محبوب : تأثم

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) لمن شيخان : يعني لمن ترك شيخين كبيرين ، نشدا كلابا كتاب الله : استعمل

كلابا بكتاب الله ، حفظ الكتاب : رعى له حرمة وأطاعه .

(٤) وج - بفتح الواو - اللطائف .

(٥) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٦) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٩٣ .

ولما تولى عثمان الخلافة راصل سياسة عمر ، بأنم فتح إيران وإفريقية ، وفي أثناء ذلك اندلعت الثورة ضده ، وكانت فتنة راح الخليفة ضعيتها ، فبكاه كثير من شعراء المسلمين ، وتولى على رضى الله عنه الخلافة من بعده ، ولم يقر له قرار ، إذ خرج عليه طلحة والزبير ومماوية ، وآرتهم السيدة عائشة أم المؤمنين ، واشتدت اللتن وتولت ، والتقى المسلمون فى عدة ممارك طاحمة ، لم تتوقف حتى قتل على فبكاه أصحابه وقد كانت هذه الحرب ميدانا لتداول الشعراء ، وتفننهم فى إسقاط المسلمين على الطرف الآخر ، واستثارتهم ضده ، وكل طائفة تحاول أن تقيم الحججة على الآخر .

(١)

إمرؤ القيس

نشأة :

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو السكندی . ذكرت كتب الأدب له أكثر من إسم ، فاسمه حنّج - بضم فسكون - وعدي ، ومليكة - بضم مفتح - وكا تعددت أسماءه تعددت كناه ، مقبل : أبو وهب ؛ وأبو زيد ، وأبو الحارث . ولقب بامرؤ القيس ، ودي القروح ، والملك الضليل . ولقد اتخذ بعض الدارسين هذا التمدد سبيلا إلى التشكيك في وجوده . مغفلين أن ذلك من طبيعة العرب ، إذ يطلقون على الشخص من الأسماء والسكنى والألقاب ما يتناسب مع الأحداث والمواقف التي يمر بها ، والصفات التي يكون عليها . هذا إلى أن كثيرا من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان للواحد منهم من الأسماء والسكنى والألقاب ما يفوق القدي أثر لامرؤ القيس بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى بعشرات الأسماء .

لم تعرف سنة مولده ، ويقدر أنه ولد مع مطلع القرن السادس للميلادى .

ولد في بيت الملك مآبوه وأجداده ملكوا كندة النجدية ، تلك الإمارة العربية التي أقيمت في مقابلة إمارة المناذرة في الحيرة الخاصة لسلطان الفرس ، وإمارة الغساسنة في الشام الخاضعة لسلطان الروم .

ويعتبر الحارث جد امرؤ القيس أهم أمراء الأسرة ، فقد كان حريصا على الساع نفوذها ، فأكثر من الإمارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته أبناء حجر ومعد يكرب ، ومن بين غاراته تلك غارتان على فلسطين الخاضعة للدولة الرومانية في عامي ٤٩٧ ، ٥٠١ للميلاديين (١) .

وسنحت له فرصة التوسع حين غضب (قباذ) ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة لرفضه مذهب الزدكية ، فعزله وولى الحارث مكانه ، الذي حرص بدوره

(١) راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ٣ ص ٢٤٥

على أن يحمى نفسه ، وينشر سلطانه ، فولى ابنائه على القبائل ، فجعل حجرا على أسد وغطفان ، وشرحيل على بكر وحظلة والرناب ، ومعد يكرب على تغلب والبرين فاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية قوم كانوا يكونون مع اللوك ، وسلمة على قيس (١) ولسكن الحارث لم يهاجها وصل إليه طويلا ، فقد توفى قياد وخلفه كسرى أنو شروان الذي كان يكبره المزدكية : فعزل الحارث . وأعاد المنذر إلى الحيرة ، مدارت بينه وبين الحارث حروب طاحنة انتهت بمقتل الحارث وتتبع المنذر أبناءه بالإيقاع بينهم والهدس ، وتآلب القبائل عليهم ، فسقط شرحبيل في معركة بينه وبين أخيه سلمة ، وسقط معد يكرب وسلمة في معركة تعرف بيوم أواره الأول (٢) أما حجر فقتلته قبيلة بني أسد ، على اختلاف في أسباب ذلك وكيفية ، فقد ذكر صاحب الأغاني في ذلك أربع روايات مختلفات ، روى الأولى عن هشام بن السكلي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وبها يرجع مقتله إلى أن كان له على بني أسد إتاوة ، فلما اتل أبوه منعوها وضربوا جياته ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكساعة ، فاستسلموا له ، ولسكه أساء إلى ساداتهم وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي الرمة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدي ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص فاستمطاه عبيد بصيدة يقول فيها :

يا عين فابكي ما بنى أسد فهم أهل الدمامة
أهل القباب الحمر والذ سقم المؤبل والدمامة (٣)
حلا أبيت اللمن حـ لا إن فيما قلت آمه (٤)
إما تركت تركت عـ وا أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأغاني ج ٩ ص ٩٠ وما بعدها
طبعة دار المكتبة المصرية .

(٢) نقائص جرير والفرزدق ص ٨٨٧ طبعة بignan ، وابن الأثير ج ١ ص ٢٢٨

(٣) المؤبل بضم الميم وفتح الهمزة : المقتنى .

(٤) حلا : أى تحال من يمينك ، والآمة : العيب

ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامه (١)

فاستجاب حاجر لهم ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضروا له الانتقام ، ولما سمحت لهم
للمرصة قتلوه ، واشتهبوا أمواله .

وروى الثانية عن أبي عمرو الشيباني للتوفي سنة ٤١٣ هـ ، وتناخص في أن حجرا
لما حاف من بني أسد استجار بعوير بن شجنة التيمي لبنته هند وأهلها ، ثم مال على
بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدي وغاله وقتله .

وروى الثالثة عن أبي الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وبها أن حجرا لما
استجار بعوير بن شجنة تحول عن بني أسد وأقام في كندة مدة ، جمع منهم حمما
عظيما سار به إلى بني أسد ، فتمآمرت بنو أسد بيها ، وقررت مساجلتها ، وساروا لقتائه ،
فأقتلوا قتالا عييفا ، فحل صاحب أمرهم علباء ابن الحارث على حجر فقتله ، وانهمزمت
كندة ، وهيم يومئذ امرؤ القيس ، مهرب على مرص له أشقر ، ولكنهم قتلوا من
أهل بيته طائفة ، وأسروا أخرى ، ونهبوا أموالهم .

ونقل أبو الفرج الرواية الرابعة عن ابن السكيت للتوفي سنة ٤٤٤ هـ ، وتقول إن
حجرا رجع بمد موت أبيه إلى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم فاجتمع أمر بني أسد على
محاربتة والخروج عليه ، فخرج إليه بعض شجعانهم ، وقتلوا من كان يقدم ركبه من
غلمانة وسبوا جواريه ، ولما علم حاجر بما صنعوا قاتلهم مهزموه وأسروه ، ووثب بقى
منهم كان له عندئذ ثأر فقتله (٢) .

* * *

ولقد كثرت الروايات والأقاصيص التي تناولت حياته بالوصف والتعليل ، ولكننا
لأن نجد رواية منها أسلم من الطعن أو الشك فيها ، وبما ساعد على ذلك تشابه اسمه مع
غيره من شعراء الجاهلية ، فقد روى أنه كان في الجاهلية ستة عشر شاعرا كلهم يسمى
امرؤ القيس .

-
- (١) الأشيقر تصغير الأشقر : الأحمر من الدواب ؛ والخزامة حلقة من شعر تجمل
في وترة أنف البعير يشد بها الزمام ، فإن كانت من صقر فهي برة .
(٢) الأعاني ج ٩ ص ٨٣ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية .
(١٤ - الأدب العربي)

وتسكاد تلتقى الروايات على أنه لم ينشأ في كنف أبيه ، فابن قتيبة يروي (١) أنه رأى من أبيه جفوة ملحق بعمه شر حبيب ، فأقام في بني دارم حيناً ، ويذكر مرة أخرى أن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقا ، فطلبها زمانا فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان معها يوم الغدير بدارة حلجل ما كان فقال : (فما نبتك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ حجرا أتاه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس واقتل بمينيه ، مذبح جوذرا وأتاه بمينيه ، مندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إني لم أقتله ، قال : فأمتى فانطلق فإذا هو قد قال شعرا في رأس جبل ، فرده إلى أبيه . فنهاه عن قول ، الشعر ، ثم إنه قال : (ألا أنعم صياحا أيها اللطال البالي) فبلغ ذلك أباه فطرده ، قبلته مقتل أبيه وهو يتمون

وصاحب الأغاني يروي عن ابن السكلي أن حجرا كان طرد امرأ القيس وآلى إلا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت للوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طي ، وكلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام مذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقام ، وغنته قيانة ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، وظل على هذا الحال إلى أن بلغه مقتل أبيه (٢) :

وكان لشأنه هكذا بعيدا عن رعاية أبيه أثر بالغ في انحراف سلوكه ، وحلوده إلى اللهو والنبت ، وبعده عن مسؤوليات الحكم والحياة ، حتى إنه حين بلغه مقتل أبيه وجه إليه اللوم على ما كان منه في شأنه ، إذ أهمل إعداده وإشراكه في معالجة للمشكلات فافتقد الحرة بالحياة ، والتجربة ، فقال : ضيحي صغيرا ، وحملي دمة كبيرا (٣) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، أو لم تصح واحدة منها ، فإن حياته تشير إلى أنه حرم التوجيه والإعداد ، وترك حبله على غاربه دون رعاية أو تقويم ، فاطلق يحر يد مستندا إلى حاهه وراء أسرته الذي يجد فيه للمعين الثر ، فسار ومن خلفه طائفة من الشذاذ يتلقفون للثمة من حوله ، ويتسقطون الدمع في جواره .

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ ، ص ١٢٢ بتحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ٨٨ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ .

ومارال طى هذا الحال إلى أن قتل أبوه ، فأسقط في يده ، وحال أن يجد لنفسه
سيلا يثأر لآبيه أو يحتفظ بكيانه وسلطانه ، فكأنح في سبيل ذلك وجاهد ، وظل
ينتقل بين القبائل يطلب منها العون على بنى أسد ، ولكن دون جدوى إلى أن مات ،
ويغاب على الظن أن موته كان في الفترة بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ م

شعره :

على الرغم مما أحاط بشعر امرئ القيس من ملاسات تشكك فيه، وتشير إلى أن
من بيده الكثير المنحول . فإن فيما نظمنا إلى سبته إليه من ذلك الشعر ما يعكس حياة
صاحبه ، ويبين ما كان عليه قبل مقتل أبيه ، وما آل إليه أمره بعد ذلك : فإنه تقسم
شعره قسمين ترى في أحدهما العبث واللهو ، وترى في الآخر الحزن والجسد
والحيرة والتلق

ومع هذا التنوير الطارئ على حياة الشاعر ؛ تنظر في شعره فلا تكاد تجد فيه
خروجا على مؤثرات بيئته الحضرية المترفة الفارغة ، التي وقفت بخبراته عند حد معين
ضيق لا يكاد يتجاوز .

يتمثل ذلك في معانيه وأخيلته المكررة العادة من قصيدة لأخرى ، حتى كأنه
فقد القدرة الشعرية ، أو نصب فكره فلم يمد يده على الجديد من المعاني، وفي الحقيقة
أنه ما كان هذا ولا ذاك ، بل إنه كسل المترى المنصرف عما دون لتأنيده عن تحريك
عقله وإعمال فكره اعتادا منه على ما سبق له . مثال ذلك قوله في معلقته :

وقد اعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وقوله في مطولته الثانية اللامية .

وقد اعتدى والطير في وكناتها لنيث من الوسمى رائده خال
وقوله في بائته :

وقد اعتدى والطير في كنانها وماء الندى يجرى على كل مذنب
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوى كل شأ ومزب

وقوله في ضاديته :

وقد أعتدى والعلير في وكرانها بمجرد عبل اليبدين قبيض (١)
ومثال ذلك - كدلك - قوله في مملته :

فمادى عدا بين ثور ونمجة درا كا ولم ينضج بماء فيفسل
وقوله في مطولته اللامية :

فمادى عدا بين ثور ونمجة وكان عدا الوحش منى طى بال
وقوله في البائية :

فمادى عدا بين ثور ونمجة وبين شبوب كالقضية قرهب (٢)
ومثال ذلك قوله في مملته :

فمن لنا سرب كأن نجاه عدارى دوار فى المساء المديل
وقوله في لاميته :

ذمرت بها سربا نقياً جلوده وأكرعه وشى البرود من الخال
وقوله في بائيته :

فبيننا نماج يرتمين خيالة كفى المذارى فى الملاء المهذب
وقوله فى ضاديته :

ذمرت به سرباً نقياً جلوده كما ذعر السرحان جنب الربيض (٣)
ومثال ذلك قوله فى المعلقة فى وصف فرسه :

له أبطلا ظبي وساقا نمامة وإرخاء سرحان وتقريب تنقل
وقوله فى البائية :

له أبطلا ظبي وساقا نمامة وصهوة غير قائم فوق مرقب

* * *

وتتراوى محدودية امرى القيس فى موهبة الشعرية التى وقف بها عند حد

(١) اللبل : الضخم ، والقبيض : الشديد ، وقيل : السريع .

(٢) الشبوب : الشباب ، والقضية : الصحيفة البيضاء ، والقرهب : بفتح فسكون

فلفتح : المسن

(٣) السرحان بكسر السين : الدئب ، والربيض : الغنم .

الاستعدادات الحيوية ، فأنت في المرحلة اللاهية من حياته لا تكاد تعثر في شعره إلا على صورة اللاهى العابت المهرود من مجتمعه القدي لا يشارك عشيرته مشاكلها ، بل ولا يحس بما يدور حوله ، فهو في شمر تلك المرحلة مقصور على مطاردة امرأة يستعطفها ويستميلها بشق الوسائل ، فتارة يلجأ إلى وصف مقاماته النسائية وطورا يلجأ إلى الحديث عن اشتغاله بها ، والسهر معها ، والتفكير الدائم فيها ، وثالثة يستمر من ملاحيه وسياحاته العابثة وما يحدث فيها من لهو وإمتاع جسمي ؛ فكان بحق السابق إلى هذا النزول الفاضح صريح الذي دار بالبطولة في نطاق المرأة وتمتع الجسم وغير ذلك من الماديات .

ومطولته الشهورة بالمعلقة خير ما يمثل شعر تلك المرحلة وقد سار فيها مسارا خاصا . فقد بدأها بمطلع عده القدماء من مبتكراته ، استوقف فيه من معه ليستعيدوا ذكريات الأحباب ومنازلهم ، ومستعرضا هذه المنازل وما آلت إليه بعد ارتحال أهلها ، متذكرا حاله يوم ارتحلوا ، متقلبا من ذلك إلى تمداد مواقفه النسائية الماثلة ، مستثيرا بذلك عيرة صاحبتة فاطمة لملها تستجيب له .

فقا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل^(١)
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل^(٢)
ترى بمر الآرام في عرساتها وقيمانها كأنه حب فلفل^(٣)
كأنى غسدة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحمى ناقب حنظل^(٤)

(١) السقط : منقطع الرمل ، واللوى بكسر اللام : حيث يلتوى ويرقى ، وإنما خص منقطع الرمل والرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض ليسكون ذلك أثبت لأوتاد الأبنية ، وأمسكن لحفر النوى . والدخول وحومل : موضمان .

(٢) توضح والمقراة : موضمان ، لم يعف : لم يدرس ، والرسم : الأثر ، والجنوب : الريح القبلية نسبة إلى القبلة ، والشمال : الريح الجوفية نسبة إلى الجوف في شمال مكة .
(٣) الآرام : الطباء البيض : وعروسة للدار ساحتها ، والقيمان جمع قاع : المستوى من الأرض .

(٤) السمرات جمع سمرة بضم الميم : شجر الصمغ العربي . والناقب : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حراره تدمع منها المين .

وقوفا بها صحى على مطيمهم يقولون : لانهك أسى وتجمل
وإن شقائي عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من مهول (١)
كديتك من أم الحويرث قبلها وحارثها أم الرباب بمأسل (٢)
ففاضت دموع السنين من صبابة على النحر حتى بل دمعى عملى (٣)

ويواصل الشاعر فى ذلك السبيل ، فيذكر ما كان فى دارة جلجل بينه وبين عزيزة
وصواجها ، ثم يخلص من ذلك ليتجه إلى صاحبه معانبا فى رقة ، مذكرا بما يكنه لها
من هوى ، متقربا منها بشئى الوسائل معتبرا بصبواته ومافى سلوكه من ضعف أمام
النساء ، طالبا منها قبوله على علاقته ، وذلك فى قوله :

أفأظم مهلا بعض هذا التمدل وإن كنت قد أزممت صرعى فأجملى (٤)
وإن كنت قد ساءت لك مى حلقة سلى ثيابى من ثيابك تنسل (٥)
أعرك منى أن حبك قاتلى وأبك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتقدحى سهميك فى أعشار قلب مقتل (٦)
وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمنمت من لهورها غير معجل (٧)

(١) المول : العتمد ، من التعويل على الشئ ؛ أى إن البكاء عند رسم دارس
لا يجدى شيئا .

(٢) الدين بكسر الهمزة : للدأب والعادة ، مأسل بفتح السين : اسم جبل ، وبكسر
السين اسم ماء .

(٣) الحمل : سبر يحمل به السيف .

(٤) بعض هذا التمدل : كفى عن بفضه ، وأزممت : عزمتم والصرم : القطع
والفراق ، فأجملى : من التجمل وهو ترك ما يبيع .

(٥) سلى ثيابى من ثيابك : أخرجى أمرى من أمرى ، وتنسل : تسقط .

(٦) ذرفت : سال دمعها ، ولتقدحى : الحرق والتأثير فى الشئ ، والأعشار جمع
عشر بكسر العين : القطع والأجزاء .

(٧) شبه صاحبه بالبيضة لبياضها ورقتها ، وأضافها إلى الخدر لأنها مكنونة غير
متبدلة . غير معجل : لم أهمل عنها بنيرها .

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشرون مقتلى (١)
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٢)
نجت وقد نضت لوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفصل (٣)

وبواصل حديثه ، يذكّر خوفها عليه وعلى نفسها الفضيحة وانكشاف الأمر ، وكيف حرج بها من الليوت منتحيا مكانا مأمونا ، ويفصل ما كان بينه وبينها في تلك النجوة ، واصفا محاسنها ، ومصادر الإثارة فيها ، ومظاهر جمالها ، ومفاتيح جسمها وأطرافها ، وبمخلص من ذلك إلى أن تلك التي أذكر لا تستطيع أن تنزعى من حبك والاشتغال بك ، إني على الرعم مما أسممه عنك من الخصوم ، لا أنقطع عن التفكير بك ، والاهتمام بأمرك ، فليلى مظلم ثقيل محتوي بأنواع الموم ويمتدني فلا أكاد أجد ما ينشئ عن نهايته ، وما طرأ على الليل طول ولا ثقل ، ولكنها هموم الحب وشقوته تجلجلى أشمر بما لا يشمر به غيري وهكذا أظل ليلي قلعا أرقب زوالة وهو لا يتحرك ، حتى حبل إلى أن نجومه شدت إلى الجبال والأحجار الكبيرة فأصبحت بمنوعة من الحركة والزوال :

الأرب خصم فيك ألوى رددته نصيبح على تمذاله غير مؤتل (٤)
وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم ليبتلى (٥)
مقات له لما تغطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل (٦)
إلا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصيبح وما الإصباح منك بأمثل

-
- (١) يشرون بكسر الشين وتشديد الزاء : يظهرون .
(٢) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للنيب فأرتك حانبا منها
مثلا ترى من جانب الوشاح حين يتلماك بناحية مه ، والمفصل : الذي حمل بين كل خرزتين وبه لؤلؤة .
(٣) نضت : نزع ، لبسة بكسر اللام : هيئة اللبس ، والمتفضل : من بلبس ثوبا واحدا .
(٤) الألوى : شديد الخصومة ، واللؤلؤى : المقصر .
(٥) السدول : الستور
(٦) تغطى : امتد ، والصلب : الظهر ، وناء بكل كل : نهض بصدرة .

يـالـك من لـيـل كـأن نـجـومـه بـكـل مـنـار الفـتـل شـدـت يـيـذـبـل (١)
كـأن الـثـريا عـلـقـت فـي مـصـامـها بـأـمـراس كـتـان إـلى صـم جـنـدـل (٢)

ومع هذا السهر الطويل المضي ، ومع هذا الألم الممعن ، فإنني قد أباكر الصيد قبل خروج الطير من أعشاشها بفرس قوى عنيف ، لا يملك زمامه إلا فارس مدرب ، فلا يتصور من يراني على هذا الحال أني قضيت ليلي مؤرقا مسهدا ؛ وأنا مع ما أعاني قوى هي :

وقـد اغـتـدى و الـطـير فـي و كـمـاتـها بـمـنـجـرد قـيـد الأـوـابـد هـيـكـل (٣)
مـكـر مـفـر مـقـبـل مـدـبـر مـمـا كـجـلـمـود صـخـر حـطـه الـسـيـل مـن عـل (٤)
كـيـت يـرل الـبـد عـن حـال مـتـنـه كـما رـلـت الصـفـواء بـالـمـنـزل (٥)
مـسـح إـذا مـا الـسـابـجـات طـى الـونـى أـرن عـبـاراً بـالـسـكـديـد المـركـل (٦)
طـى العـقـب حـيـاش كـأن اهـتـزـامـه إـدا جـاش فـيـه حـمـيه طـى صـرـجـل (٧)

- (١) المنار : شديد الفتل ، ويدبل : اسم جبل .
(٢) المصام : مكانها الذي لا تبرحه . والأمراس جمع مرص بفتحين : الحبل ، والجنادل : الحجارة الكبيرة ، والصم جمع أصم : الصلب الشديد .
(٣) الوكنات جمع وكمة بضم الواو : مواقع الطير ، والمنجرد : المرص قـصـير الشعر ، والأوابد جمع آبدة : الوحوش ، والهيكـل : الضخم .
(٤) الجلود : الحجر العظيم الصلب ، حطه : أسقطه .
(٥) السكيت : الفرس الأحمر في سواد ، يرل : يسقط ، المتن : الظهر ، الصفواء : الصخرة المساء ، المنزل : الازل عليها .
(٦) مسح : يسح المدو مثل سح المطر ، السابجات : الخيل المسرعة ، الونى : الفتور ، السكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الدلى ركلته الخيل بجوارها . يعنى أنه في جريه لا يثير غبارا كما تصنع السابجات لأن حوافره لا تسكاد تلمس الأرض .
(٧) المقب بفتح العين وسكون القاف : جرى بمد جرى ، حياش : يحيش في جريه كما تحيش القدر على النار ، الاحترام : صوت الجوف عند الجرى ، والحمى بفتح الحاء وسكون الميم : الغلى ، والمرجل : القدر .

يطير الغلام الخف عن صهواته	ويلوى بأثواب المنيف المنقل (١)
درير كخذروف الوليد أمره	تقلب كفيه بخيط موصل (٢)
له أبطلاطى وساقا زمامة	وإرخاء سرحان وتقريب تنقل (٣)
كأن طي الكتفين منه إذا انحى	مدالك عروس أو صراية حنظل (٤)
فمن لنا سرب كأن زمامه	عذارى دوار فى الملاء المذيل (٥)
فأدبرن كالجزع للفصل بينه	يجيد معم فى المشيرة محول (٦)
فالخطا بالمهاديات ودوبه	جواحرها فى صرة لم تزيل (٧)

ويصف مشهد الصيد وما يشتمله من صراع بين فرسه هذا وبين جماعة البقر ينتهى بصيد ثور ونعجة يقوم الطهاة بإعداد لحومهما لقطعان .

ثم ينتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألت بهم فى رحلمهم تلك ، وكيف بدأ وبيض البرق الذى يشبه انتشاره وتشعبه فى السحاب المتراكم حركته اليبدين

(١) يعاير : يسقط ، والصهوات جمع صهوة : موضع اللبد من ظهره ، يلوى بأثواب المنيف : يذهب بها ، والمنيف : الأخرق ، والمثلث : الثقيل الذى لا يحسن الركوب .
(٢) درير : سريع ، الخذروف : حصاة مثقوبة يحمل الصبيان فيها خيطا يديرها ، وجمل حيط الخذروف موصلا لانه قد لب به كثيرا حتى حب وأخلق وتقطع خيطه فوصل ، فذلك أسرع لدورانه .
(٣) الأبطل : الحاضرة ، والسرحان : الذئب ، تغفل : الثملب ، والارحاء : الدو ، والتقريب : القفز .

(٤) مدالك العروس بفتح الميم : حجر تسحق عليه طيبها فيرق . والصراية : بفتح الصاد : الحنظلة الصفراء البراقة . شبه حارك الدرر إذا اعترض بهدين فى الملاسة والبريق .
(٥) عن : ظهر ، دوار بضم الدال : صنم يدورون حوله ، الملاء الملاحف ، المذيل : الطويل المهذب .

(٦) الجزع : الحرز الجمانى ، الجيد : العنق ، معم مخول : كريم العم والحال ، شبه بقر الوحش فى بريقتين وما يقين من البياض والسواد بالحرز المنصل بالؤلؤ النفيس فى عنق صبي كرم أعمامه وأخواله .

(٧) الهاديات : المتقدّمات من البقر ، الجواحر : المتخلفات منها ، والعرة : الجماعة للتريل : لتفرق .

وتقليهما أو يشبه مصاييح راهب متقطع في الصحراء يتوهج نورها في الظلام الدامس بما يمدّها من زيت . وكيف قعد هو وأصحابه ضارج والمذيب يتأملون ، وميض البرق وثألقه في السحاب متمججين من بمد ما يتأملون . ثم كيف أضحي هذا السحاب يسح الماء للرة بعد المرة في غزارة ويقتلع الأشجار العظام ويسقطها على رؤوسها ، ولم يدع هذا السيل بقرية تباء شيئا من جذوع النخل ولا شيئا من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعا بالصخور أو محصا . والتفت السيول وما تحمل من عثاء بجبل المجير في أرض فزارة فبدأ كأنه فلسكة مغزل ، أما الجبل آنان فبدأ من هذا السيل والثناء كشيخ ماتت في كساء محطط ، وألقى هذا المطر ثقله بصحراء النيبط فأثبت السكلاً وضروب الأرها مبدت من خرفة زاهية كأنها الثياب التي ينشر التاجر البماني حين يعرضها للبيع . وأصبح الناس فوجدوا السباع غرقى في المياه تبدورء وسها فيها من بعيد كأنها جذور البصل البرى . وقد راك السحاب وأحاط بنا من كل جانب ، حتى يمتد من يتأمله أن أيمنه على الجبل قطن في ديار بن أسد ، وأن أيسره على جبل الستار ويذبل بما يلي بلاد البحرين . ولقد عم المطر جبل بسبان حتى اضطر الأوعال المستقرة فيه إلى النزول منه :

أحار ترى برقا كأن وميضه	كلمع اليدين في حى مكلل (١)
يضوء سناه أو مصاييح راهب	أهان السليط في النبال المقتل (٢)
قعدت له ومجنى بين حامر	وبين إكام بمد ما متأمل (٣)
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة	يكب على الأذقان دوح الكنهيل (٤)
وتباء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أظما إلا مشيدا بمجدل (٥)

- (١) حار : رخيم حارث ، يعنى يا حارث ، الوبيض : لمع البرق ، الحى : ما عرس من السحاب وارتفع ، والمككل : السحاب في جوانب السماء يشبه الإكليل .
- (٢) السا : الضوء ، السليط : الزيت ، والذبال : الفتائل : وأهان السليط : كثر منه
- (٣) حامر ، وإكام : موضعان ، بمد ما متأمل : يرضى بمد ما تأملته ، أى تأملته من مكان بعيد .
- (٤) الفيقة بكسر الفاء : ما بين الحلبتين ، الكنهيل : ما عظم من شجر العضاء ، والدوح جمع دوحه : الشجرة كثيرة الورد والأغصان .
- (٥) الأظم بضمين : البيت المسطح .

كأن طمية الجحيم غدوة	من السيل والمثاء فلكة منزل (١)
كأن أنا في أفانين ودقه	كبير أناس في يجاد زمزل (٢)
والقي بصحراء النبيط بماعه	نزول اليماني ذي العياب الخول (٣)
كأن سباعا فيه غرقى غندية	بأرجائه القصوى أنا يبش عنمل (٤)
على قطن بالشيم أين صوبه	وأيسره على الستار فيذبل (٥)
والقي ببسيان مع الليل بركة	فأنزل منه المعصم من كل منزل (٦)

* * *

كما تراءى تلك المحدودية في صورته البيانية التي قامت على التفسير والإضافة في أكثر شعره ، بحيث أصبح التشبيه من معالم امرئ القيس الميرة له عن غيره من معاصريه ، فكان - على ما قال ابن سلام - أحسن طبقة تشبيها (٧) . ففي شعر امرئ القيس نجد التشبيهات متلاحقة متوالية ، حتى يخيل إليك أنه ما قال الشعر إلى لية - دم هذه التشبيهات المتراكمة .

(١) طمية : اسم جبل ، والجحيم : أرض لبني فرارة ، التثاء : ما حمله السيل ، وملكه المعزل بفتح الفاء : ما استدار فوق رأسه .

(٢) أبان : اسم جبل ، أفانين : الودق : ضروب المطر ، الججاد : كساء مخطط ، وزمزل : نعت لكبير أناس ، يعنى هو ملتف ببيابه .

(٣) النبيط : موضع ، البماع بفتح الباء : الثقل واستعاره لكثرة المطر ، العياب بكسر الميم : الحقائق ، الخول بالواو المشددة المفتوحة : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٤) غندية بضم الغين وفتح الدال : حين يصبح الناس ، الأنايبش جمع أنبوش : أصول البت ، والعنصل بضم العين والصاد : البصل البرى .

(٥) قطن : جبل في ديار بني أسد ، الشيم بفتح الشين المشددة : النظر إلى البرق والمطر ، والستار ويذبل : جيلان مما يلي البحرين .

(٦) بسيان بضم الباء : جبل ، والبرك بفتح الباء وسكون الراء : الصدر : المعصم بضم العين وسكون الصاد : الأوعال .

(٧) راجع طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٥٥ بتحقيق شاكر .

وقد لفتت كثرة التشبيهات في شعر امرئ القيس وجودتها أنظار الباحثين القدماء ، حتى لقد أفرد ابن سلام للمستحسن منها فصلا في طبقاته (١) ، بيد أنه لم يبين نواحي الحسن فيها ذكر ، وإنما اكتفى بسردها ، على نحو يشير إلى كثرتها في شعره كثرة ملفنة ، والذي أداه في تلك الكثرة التشبيهية أنها أمانة من أمارات محدودة امرئ القيس ، فقد رأى فيما لديه من موارف بيئته ما يكفي لاستقلاله في تفسير أخيلته وتقديمها إلى الآخرين ، ومن ثم ركز عليها ، ودار في محورها ، حتى لا يرهق نفسه بكد الخواطر في التصوير والابتكار وما يتطلبه من نظر عصب مستقص متابع ليرسم الصورة من مكنها الحقيقي .

ويلاحظ أن امرأ القيس يستمد تشبيهاته من واقعه المادى المزرف ، ومن بيئته العربية المتحضرة ، بحيث تجرد في تشبيهاته البدوى للفتح إلى جوار الحضري الطارىء فالمرأة عنده تشبه البقرة الوحشية في جمال عيونها ، وتشبه البضة في رعنها ولونها ، وشعرها يشبه عذق النخلة للتداخل في غزارته ، وحصرها كالزمام في اللين ، ورأبها كالمرآة ، وساقها كالبردى في بياضه ، وأصابها كساويك شجر الإسحل . والفرس عنده يشبه مداك المروس ، والصخرة للمساء تسقط من علل ، وحذروف الوليد ، وصراية الحنظل والمقاب وحاصرتاه تشبه خاصرة الطي ، وسالاه تشبه النمامة . ولم يقف في تشبيهاته عند حد المرأة والفرس فقد شبه دم الوحش الذي لطم صدر فرسه حين صاده بمصارة حناء صبغ بها شيب في قوله :

كأن دماء الهاديات بحجره عمارة حناء بشيب مرجل

شبه قلوب الطير الرطبة بالمناب وقلوبها للياسة بالتمر الرديء الجاف ، مطروحة أمام وكر المناب بمد أن يأكل لحم الطيور التي يصيدها .

كأن قلوب الطير رطبا وبابسا لدى وكرها المناب والحشف البالى

* * *

هذا ويلاحظ الدارس أن امرأ القيس لم يقصر صورته على التشبيه ، فقد استعار وجانس وطابق كما في قوله .

فقلت له لما تمطى بصدبه وأردف أعجازا وناء بكلاكل
وقوله مجازيا :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وقوله : وإن كنت قد ساءتلك مني خليفة فسلى ثيابي من ثيابك تنسل
وكقوله مطابقا :

مكر مقر مقبل مدبر معا كجدود صخر حطه السيل من عل
وقوله : غداؤه مستشزرات إلى الملا تشمل المدارى فى مثنى ومرسل

* * *

وفى المرحلة الثانية بمد مقتل أبيه تجدد فيه الحزين المهموم الحائر القدى لا يجد من خبراته ما يعده بمخرج لازمته لى فوجىء بها على غير توقع ؟ فهو طالب للنار ، يسعى بين القبائل فى تجنيد قوة يحقق بها غايته ، يمدح هذا لأنه استجاب لمطلبه ، ويهجو ذلك لأنه سخر منه ، ويفخر بأعباده وفروسيته لإصراره على النار لأبيه . مثل قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطام وبالشراب (١)
عصاير وذبان ودود وأجرا من مجلحة القذاب (٢)
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همق وبه اكتسابى
فبعض اللوم عاذلقى فإنى ستكفينى للتجارب واتسبابى

(١) موضعين بكسر الضاد والعين : مسرعين ، لأمر غيب : يريد به الموت ، ونسحر : نلهم ونخدع .

(٢) القذاب المجلحة : السممة على الشيء التى لا ترجع عما تريد . يعنى : نحن فى الضعف مثل هذه الخلوقات ، وفى ركوب الآثام أجرا من مجلحة القذاب .

إلى عرق الزرى وشجت عروقي وهذا الموت يسلمني تيباني (١)
ونفسى سوف يسلمها وحرى يلمحني وشيكاً بالستراب (٢)
ألم أعض المطى بكل خرق أمق الطول لماع السراب (٣)
وأركب في اللهم المحرق أنال ما كل القمحم الرغاب (٤)
وقد طوقت في الآفاق حتى رصيت من القنيسة بالإياب (٥)
أبهد الحارث الملك بن عمرو وبعد الحير حجر دى القاب
أرجى من صروف الدهر لينا ولم تعقل دن الصم الهضاب (٦)
وأعلم أنى عما قليل سأنشب في شبا ظفر وناب (٧)
كما لاقى أبى حجر وحدى ولا أسى قتيلاً بالكلاب (٨)

يضاف إلى هذا ما يتضح في شعر امرئ القيس من ميله إلى الصورة التفسيرية أو الإصائية وهي القائمة على ربط شيء بشيء، في هيئة تشبيه أو استعارة؛ إذ ذلك يتلاءم مع ظروف حياته وما فيها من ترف يدعو إلى اللذة والراحة ولا ريب في أن الصورة المسيرية أبسر من الصورة الابدكارية التي يضطر معها المصور على الرجوع إلى العناصر المحترمة في الدهن ليكون منها مجموعة ويلها من شتات ليصنع منها صورة تكشف عن إحساسه الداخلى تجاه الموقف أو المشهد .

حقيقة هذه السمة التصويرية تكاد تلازم أكثر شعراء الجاهلية، ولكن كل شاعر يحيط به من الظروف ما يبتعثه على سلوك هذا الطريق دون غيره والذي أراه دوع

(١) وشجت عروقي : اشتبكت وانصت ، يقول : إن أصله في حسبه ثابت راسخ

(٢) الجرم : البدن ، والشيك : السريع .

(٣) أعض المطى : أهزلها ، الخرق : العلاء ، الأمق : واسع الطول .

(٤) اللهم بضم اللام الجيش الكثير الذى يسير كل شيء لكثرة فكأنه يلهمه ويبتلمه ، والمجر : الكثير ، والقمحم بضم القاف وفتح الحاء جمع قمحه دومة من شرف ومنزلة ينالها وهي من الانتعاش وهو التزاحم في شدة ، والرغاب : الواسعة المكينة .

(٥) طرقت . أكثرت الطواف ، والمشى فى نواحي الأرض حتى شق على ذلك .

(٦) الصم . جبال ليسب بالشوامح ، والهضاب : الصلبة .

(٧) شبا كل شيء حده ، سأنشب . أى أعلق وأثبت بأظفار المنية .

(٨) الكلاب بضم الكاف . اسم واد كانت فيه رقعة قل فيها عمه شر حبيب .

امراً القيس إلى هذا المسلك التصويرى بالإضافة إلى الدوافع العامة ، هو ميله إلى السهل الميسور الذى يحقق له التفوق والامتياز .

وإذا ذكرنا أن امرأ القيس من أوائل شعراء العصر ، وذكرنا ما كان عليه فى مساره الشعرى ، اتضح لنا أنه تسنم كرسى الأستاذية لمن أتى بعده من الشعراء ، فسلكوا مسلكه ، فأصبحوا مقتدين به فى الأغراض ، أو فى التصوير . وفى ذلك يقول ابن سلام : «سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعتها ، استحسنتها العرب واتبعتها فيها الشعراء ، منها استيقاف محبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة اللب وقرب المأخذ ، وشبه للنساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالمقبان والمعصى ، وقيد الأوابد وأحادى التشبيه ، ووصل بين النسب وبين المعنى ، وكان أحسن أهل طبقاته تشبيهاً » (١)

وصفة القول أن امرأ القيس على الرغم من محدوديته التى اضطرتة إليها ظروف بيئته كان شاعراً أوتى من أسباب التعبير والتصوير ما جمهه فى مقدمة شعراء الجاهلية .

(١) طبقات فحول الشعراء - ١ ص ٥٥ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١١٠

عدي بن زيد

عدي بن زيد العبادي التيمي ، وهو إنما يشتهر بالنسبة الأولى ، وهي نسبة دينية لا عرقية أطلقت على طائفة من العرب - على اختلاف قبائلهم - اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فسموا عباداً لأنهم عباد الله تمييزاً لهم من الوثنيين أو أئمة من أن يطلق عليهم « عبيد » إلى غير ذلك من التعليلات التي زخرت بها كتب الأدب القديمة والحديثة (١) .

أما النسب الثانية فهي نسبة عرقية قبلية تشير إلى أنه من تميم ، وبعض المؤرخين يتف به عمد ذلك ، والبعض الآخر يصل منها إلى مضر بن نزار .

ولد ونشأ بالحيرة في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي في أسرة ذات علاقات وطيدة بالأكاسرة ملوك فارس والمأذرة عمالمهم على الحيرة فقد تولى جده حماد الكتابة للنممان الأكبر ، واستطاع أبوه زيد بن حماد أن يحدق الكتابة العربية في حياة أبيه ، فلما توفي حماد انتقل زيد إلى رعاية صديق والده من الدهاقين المرازبة العظماء (٢) معلمه الفارسية ، وممكن له من أن يكون على البريد لكسرى ، فكثرت يتولى ذلك زماناً .

ولما مات النممان الأكبر والى كسرى على الحيرة واحتلف أهل الحيرة حول من يملكونه عليهم حتى يختار كسرى ملكاً آخر ، أشار عليهم الدهقان أن يختاروا زيد ابن حماد ، فملكوه عليهم إلى أن عقد كسرى للسذر بن ماء السماء .

(١) راجع في ذلك الأغاني ص ١٥٦ ج ١١ ، وممجم البكري ج ١ ص ٢٣ وما بعدها وسخط اللالي للبكري ص ٢٢١ والاشتقاق لابن دريد ص ١١ والمعصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ١٠٠ الطبعة السابعة .

(٢) الدهقان فارسي يعنى التاجر ، والمرازبة جمع مردبان وهو المارس الشجاع .

ملكه ويريه عطته ، وكان من بين البلاد التي طاف بها بلاد الشام ، ولكنه لم يجد فيها ما يشغله عن الحيرة فقال مواربا بين دمشق والحيرة مفضلا الأخيرة على الأولى :

رب دار بأسفل الجزع من دو مة أشهى إلى من جيرون
ونداى لا يفرحون بما لنا لوا ، ولا يرهبون صرف اللون
قد سقيت الشمول في دار بشر قهوة حزة بماء سخين^(١)

وبينا كان عدى في سفارته بالشام ، تبرم أهل الحيرة بالمدبر حاجتهم من قبل كسرى وعزموا على قتله لجوره وظلمه ، فلما أحس المدبر بالخطر بعث إلى زيد بن حماد والده عدى مستنجدا ، فحدثه بما بلغه وعرض عليه تنازله عن الملك له ، فرفض زيد واستمهله حتى يكشف الحقيقة ، فلما التقى بالناس ووجد منهم الاصرار على التخلص من المدبر هدا من ثأرتهم ، وأشار عليهم برأى يكشف عن دهائه وحسكته السياسية أرضى به الثأرين وطمان الملك إلى احلاصه وحبه له ، فقال لهم : تدعون المدبر على حاله فإنه من أهل بيت ملك ، وأنا آتيه فأخيره أن أهل الحيرة قد احتاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال ، فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور ، فرضى أهل الحيرة بذلك وولوا زيدا على كل شيء سوى اسم الملك ، فإتهم أقروه للسدر ومرح المدبر بذلك الحل لأنه حفظ عليه كيانه ، وشكر زيدا عليه ، واعتبره يدا له عليه أقسم أن يحفظها له في قوله : إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سيد^(٢) .

وكان من أبرر مظاهر حفظ المدبر لهذا الصنيع أنه بعد أن مات زيد وصاحبه الدهقان ورجع عدى إلى المدائن من سفارته إلى الشام استأذن كسرى في الألبان بالحيرة فأذن له ، فتوجه إليها ، ولما بلغ المدبر خبر قدومه خرج في جمع من الناس لاستقباله والترحيب به .

ولما أراد المدبر أن يختار مرييا بعد ابنه الزمان الأصغر ليتوج ملكا بعده لم

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الأغانى ج ٢ ص ١٣٠ وسيد صنم كان لأهل الحيرة

(١٣ - الأدب العربي)

يُجد أفضل من عدى يقوم بهذه المهمة ، لما اجتمع له من العلم والمعرفة والخلق الطيب والدراية بأمر الدولة والسياسة ، ولقربه من قلوب الناس وإدراكه أقرب السبل إليهم ، فكان عدى بذلك أستاذ النعمان بن المنذر وحميه ومؤديه ومعلمه .

حتى إذا مات المنذر وتنافس أبناؤه على خلافة احتال عدى للنعمان فولاه كسرى مكان أبيه ، وضم عدى بذلك فضلا إلى أفضاله على النعمان بن المنذر ، فلم يكن غريبا أن يصبح عدى الأثير عند النعمان ، يجالسه ويناديه ويصحبه في رحلات صباه ، كما لم يكن غريبا أن يوغر بذلك صدور شائبة من يطعمون في المجد والمكانة خصوصا بني حريبا الذين كانوا ياصرون ربيهم ورضيهم الأسود بن المنذر ، ويسمون لتوليته ملك الحيرة خلفا لأبيه فأفسد عدى تدبيره تديريهم ، ففسوا عليه ، وظلوا وراءه حتى أثاروا عليه حقد النعمان وسجنه ثم قتله في سجنه حين علم رسالة كسرى لاطلاق سراحه .

* * *

تلك هي بيته عدى بن ريد وظروف حياته التي أرى أن لها علاقات مؤثرة في اتجاهاته المسية على اجبال لا يحل بما واجهه وبتمبير أوضح أقول : تلك هي مقومات عدى الخارحية .

أما مقوماته الداخلية الذاتية فلا نستطيع - على هذا البعد الزمى والمكاني - إلا أن ننبها في سيرته وأخباره لئلم على قدر الإمكان بصورة قريبة مما كان عليه ، لأن لها علاقة - كذلك - تؤثر في فنه واتجاهاته .

وقال صاحب الأغاني : « كان عدى حسن الوجه » مديد القامة ، حلو العينين ، حسن البسم ، نقي الثغر (١) فإذا قرنت هذه الصفات بما حققه لجسمه ونفسه من مران وتدريب في سبيله لتعلم الفروسية وجمعه بين صروبها العربية والفارسية . . . أمكن أن تدرك ما كان عليه من فتوة وأناة وحمال مما جملة مهوى أئمه اللتيات ، ومحرك قلوب النساء ، وموضع إعجابهن

ويبدو أنه كان يدرك هذه السمات في نفسه ويحس باشتاله على تلك النوعت ، فمال إلى مجالس اللهو والترف ، وهنأ قلبه إلى مباشرة الغيد الحسنان هي ظلال ما أتبع له من شباب ومكانة وحاح وثرأء ، يصور ذلك قوله :

أيها القلب تملأ بدون أن همى في سماع وأذن (١)
وشراب خسروانى إذا ذاقه الشيخ تنفى وارجحن (٢)
وقوله وأصى طباء فى الدمقس خواصما
بنات كرام لم يربن بضره دعى شرفات بالمبير رواوعا (٣)
لهوت لمن بين سر ورشده ولم آل عن عهد الأحية خادعا
يسار بن من الأسفار طرفا مفترا ويررن من تنق الحدور الأصابما

يبد أنه سرعان ما يجذب نفسه من ذلك اللطوق ، ويميدها إلى التوفى والتحمض على
الرغم منها حشية العواقب فيقول :

قد آن أن تصحو أو تقصر وقد أنى لما عهدت عصر
عن مبرقات بالبرين وتبـ دوى الاكعب اللامعات سور (٤)
بض عليهن الدمقس وفى الأ عناق من تحت الأكمة در (٥)
كاليبس فى الروض للنور قد أفضى بها إلى السكثيب نهر
يأرج من أردانهن مع الم سلك الزكى زنبق وقطر (٦)
حارنهم، فى الشباب واد قلبى بأحكام الحوادث غر

ولعل سرعته فى معاودة نفسه ، والنأى عن الانحراف فى تيار اللهم والعبث . .
راجعة إلى ما كان يشمر به الشاعر من أنه عريب يعيش فى غير موطنه وبين ناس ليسوا
أهله وعشيرته ، لهم من الأخلاق والأعراف والمادات ما يدعوا إلى التتحفظ فى
القول والمسالمة .

-
- (١) الدون - بفتح تين - اللهم واللعب : والأذن - بفتح تين - الاستماع .
 - (٢) ارجحن : مال واهتز .
 - (٣) شرفات بالمبير : ممتلكات به . والرواع جمع راعة : المتدهنة بالطيب .
 - (٤) البرين جمع برة : الخللخال ، وسور - بضم تين - جمع سوار .
 - (٥) الاكمة جمع كفاف : وهو من الشئء الحرف الذى يحيط به .
 - (٦) يأرج : يفوح . قطر : العود الذى يتبخر به .

وما كان يدركه من أنه يعيش في جو مليء بالدس والمؤامرات يتطلب التحسين.
والتوجس والتربص والاحتراس في كل حركة وسكنة ، حتى لا يمتطي الفرصة لمن يسعى
لضربه والتخلص منه .

اجتمعت هذه المقومات وتلك إلى عدى بن زيد فصاعت شخصيته الفنية صياغة
ميزتها عن الشخصيات المجاورة له والقريبة منه في الزمان والمكان ، بحيث تفردي في
فنونه الشعرية التي تناولها شعره ، وفي منهجه وأسلوبه ، وفي معانيه وأفكاره ، فلم
يرض بالوقوف عند الحد الذي رأى سابقه من الشعراء العرب الجاهلين عليه ، بل لقد
كان لما صادف من أحداث وماتروديه من ثقافات مختلفة وعلوم ومعارف متعددة ،
وما اطلع عليه من طبائع وعادات شتى تختلف من موطن إلى موطن . . لقد كان لذلك
وغيره أبعاد الأثر في احتلاله عن الشعراء الجاهلين من تقدمه ومن عاصره .

لئن يجهد الباحث نفسه كثيرا في التعرف على مظاهر التميز في فنون الشعر لدى
عدى بن زيد ، إذ يكفي أن يتصفح شعره ليلمس ما فيه من فنون شعرية جديدة أو
فنون شعرية مجددة تكاد تكون جديدة في الشعر العربي الجاهلي .

وأول ما يلتفت نظر الدارس من تلك الفنون الشعر الدينية والوعظي !

وشعر المواعظ والدينيات عند عدى يوحى بأننا أمام صاحب رسالة دينية يستغل
كل سانحة ليقدّم فيها ما يرى أنه ضروري ، فأنت في شعره تجد القصائد الخالصة لهذا
الغرض تماما ، كما تجد القصائد التي لونها الشاعر بالمعزة يشد بها أسماع المتلقين عنه ،
وبدلا من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وقف بالمتلقي على المصائر والمهائيات العامة
للكون ولدت نظره إلى مافي الحياة من أطوار يحمل كل طور منها طابعا خاصا ،
ليبتئى من ذلك إلى عرض ما يريد من مواعظ وحكم . من ذلك ابتدأه بوصف معاناته
وآلامه وأرقه في قوله :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا
شط وصل الذي تريدني مني وصغير الأمور يجي الكبير

وتوجيه حبيته إلى العقل ، والتأني في الاختيار ، لتمييز بين الأعرار والمعتلاء .
فتعسّن الاتجاه في قوله :

ألمنى الفتيان مالكة نصحة منى وأخبارا
أنقى رمت الخطوب فوق وجدت الميش أطوارا
ولفت التلقى إلى نهاية كل حى ، ومصير كل مخلوق فى قوله :
أرواح مـودع أم بكور لك ؟ فاعمد لآى حال نصير

والناظر فى هذا الفن الشعرى يجد أن الشاعر فيه لم يكتب بتأملاته الخاصة ونظراته الشخصية ، ليقم عليها بناءه الفنى ، بل لقد جمع إلى ذلك حصيلته من المعارف الدينية ، والمعلومات التاريخية ، فأصبحت دعائم ثلاثة لشعر المواعظ والدينيات . ولعلنا نذكر أنه جمع فى ذلك الميدان للدين بين المعارف المسيحية التى كان يدينها والمجوسية التى يدين بها حكام البلاد وملوكها ، والوثنية التى يدين بها أكثر العرب . ولا ريب فى أن لكل من هذه الديانات أعرافه وحدوده وقوانينه ، كما أن لكل من هذه الديانات مقوماته وأسسكاته .

وهو فى ذلك يتمدد على التصوير الدقيق .

١ - إمام عن طريق الاستفهام الذى يتقل للماضى إلى الحاضر ليرى التلقى ما وقع فيه من مواطن العبرة والمظة ، ويذكر ما كاد ينسى مثل قوله :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بسدم وعمود
أين آباؤنا وأين بنوم أين آباؤم وأين الجدود
سلكوا مهج المنايا ببادوا وأرانا قد حان مسا ورود

٢ - وإمام عن طريق إبراز الخطوط المنتقاة بحماسة الشاعر من أحداث الماضى لتلك كل منها الصورة التى يريد تقديمها مثل قوله :

فبت أهدى كم أسافت وغيرت وقوع المنون من مسود وسائد^(١)
صرعن قباذا رب فارس كلها وحشت بأيديها بوارق آمد^(٢)

(١) أهدى : أعدد بعد إبدال الدال الأخيرة ياء . وأسافت : أهلكت .

(٢) قباد : ملك من ملوك الفرس . حشت : قطعت . بوارق آمد : أعظم مدن ديار بكر .

وغصن على الحيقار وسط جنوده وبين في لذاته رب مارداً (١)
 وجئن بترك من قرار بلادهم يسير بجمع كالدبا المتساعد (٢)
 وأخرجن يوم الحوض سيد حمير بحربة جنى من الحبش حارداً (٣)
 وملك سليمان بن داود زلزلت ويردان قد ألحقته بالصمائد (٤)
 وخاف بنى الناصور لم يبق منهم بقية مولود ولا ذكر والد
 وكان ملوك الروم يحسى إليهم قناطير مال من خراج وزائد
 ولا تمنطن إنا بشيء يناله من الدهر، لآمال ولا عيش واجد

أو إررار الخطوط المنتهية بحماسة الشاعر من المؤلف الواقع الذي تمود الناس
 رؤيته فنفلوا عما يحمل من عظات مثل قوله :

من رأنا فليحدث نفسه أنه موف على قمرن روال
 وصررف الدهر لا يبق لها ولما تأتي به صم الجبال
 رب ركب قد أناخوا حولنا يمزجون الحجر بالماء الزلال
 والأباريق عليها قدسدم وجياد الخيل تدرى في الجلال
 عمروا دهرا بعيش نضر آفى دهرم غير عجال
 ثم أضعوا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرحال
 وكذلك الدهر يرمى باللقى في طلاب العيش حالا بمدحال

٣ - وإما عن طريق الوقوع على مفارقات الحياة وإبرازها المتلقى ، فإذا بها مرآة
 تنعكس عليها صورة الحياة على الأرض كما يراها الشاعر من خلال تجاربه الشخصية
 ومعارفه الدينية ومعلوماته التاريخية ، مثل قوله :

فأسأل الناس : أين آل قبيس طحطح الدهر قبلهم سابورا (٥)

-
- (١) الحيقار : ملك من ملوك فارس . حصن بدومة الجندل .
 (٢) الدبا بفتح الدال : أصفر الجراد والنحل .
 (٣) الحارداً : للضبان . (٤) ريدان : حصن في قنسرين .
 (٥) آل قبيس : بطن من قبيلة . طحطح : بدد وأهلك . سابور : ملك من
 ملوك الفرس .

ولقد عاش ذا جنود وتاج تهرب الأسد صوته أن تزيروا
خطفته منية فتردى وهو في الملك يأمل التعميرا
وسو الأصفر الملوك كذالم يترك الدهر منهم مذكورا
أين أين الفرار مما سيأتي لا أرى طائرا نجا أن يطيرا

ومثل قوله :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاية ملك جزل مواهبها
رهبها من بني لدى قزع الهـ وزن وتندى مسكا محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الكبي د فـا ترتقى غواربها (١)
يأس فيها صوت النهم إذا حاوبها بالمشى قاصبها (٢)
سأقت إليها الأسباب خند بن الأحمـ رار فرسانها مواكبها (٣)
وكان يوم باقي الحديث وزا لت أمة ثابت مراتبها

حق صنعاء المدينة المامرة بأهلها وخيراتها ، الزاهية بمحاضرتها ومكانتها . أصابتها نوب الرمان وتقلبات الأيام في هيئة جيش فارسي غاز ، هزال عنها مظاهر النعم والخير ، وأصبحت أطلالا . ومثل قوله يقارن بين حالي الإنسان في حياته وبمدناته :

بينما هم على الأسرة والأند ما طأضت إلى التراب الخدود (٤)

٤ - وإما عن طريق البياء القصصي حيث يقدم تأملاته الواعظة في ثنايا قصة تاريخية تنوع مادتها من أحداث التاريخ الكثيرة التي يتراءى على صفحاتها الملوك والسادة مطحونين بين حجري الزمان الذي لا يجامل سيذا ولا ملكا . مثل قوله :

أين كسرى ، كسرى الملوك أنوشـ وان أم ابن قبله سابور (٥)

(١) غواربها : أعاليها .

(٢) النهم - بهم للذنون - ضرب من الطير والقاصب : النافخ في القصب أى الزامرا

(٣) بنو الأحرار : يريد الفرس .

(٤) الانماط جمع نمط : ضرب من البسط .

(٥) سابور الجنود هو ابن أردشير وسابور ذو الأكتاف وهو ابن دردز ، وكلاهما

من ملوك المعجم .

ونو الاصفهـ الكرام، ملوك الر
وأخو الحضـر إذ بناه وإذ ده
شاده مرمرًا وجلاه كل
لم يهبه ريب المتون فباد ال
وتذكر رب الخورنق إذ أش
سره ماله وكثرة مائه
فارعوى قلبه فقال وماغبه
ثم بعد الفلاح والملك والأمة
ثم صاروا كأنهم ورق حـ

وم لم يبق مهم مدكور ا
سلة تحوى إليه والخابور (١)
سأ اللطير في دراه وكور (٢)
ملك عنه فبايه مهجور
رف يوما وللهدى تفكير
لك والبحر مرضا والسدير (٣)
طة حتى إلى المات يصير
ة وارنهم هناك القيور (٤)
ف نألوت به الصبا والدبور (٥)

نماذج من الحياة يقدمها الشاعر في صور حية من خلال أساؤلات منبهة ،
ومفارقات مثيرة ، وقصص منسقة لينفذها إلى المثلث فيذكره بالصبر المحتوم ، ويقف به
على حافة الحياة الدنيا ليرى ما ينتظره في عاجله أو آخله .

* * *

ولم يحقق عدى لنفسه التميز والتفوق في الدينيات وللواعظ حسب ، بل إن له في
ميدان التفوق جولات أخريات ، نرى في مقدمتها ماروى له من اعتذاريات
وخبريات وقصص .

لقد أصبح أقرب إلى المسلمات أن رأس فن الاهداد - وربما مبتكره في الشعر
العربي - نابعة بنى ذبيان أبو امامة زياد بن معاوية . لكن دراسة عدى ، والوقوف

-
- (١) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
(٢) الكلس : الصاروج وهي النورة وأحلاطها التي تصرج (تطلق) بها المنازل ،
وهو بالفارسية جاروف عرب ثقيل : صاروج .
(٣) معرض : متسع ، ومنه أعرض الثوب أى السع وعرض .
(٤) الأمة - بالكسر - النعمة .
(٥) ألوت به : ذهب به ، والصبا - بفتح الصاد - ربيع تهب من المشرق ، والدبور :
رياح تقابلها .

أمام امتدازه للنعمان بن المنذر واستمطائه تفرض على مؤرخ الأدب أن يعيد النظر فيما شاع واشتهر وقارب المسلمات في هذا الصدد . وذلك لأن عديا تقدم لنا ابنة في السن ، وصحبه للنعمان تسبق صحبة النايفة ، وقد أسلفنا أن المنذر والذ النعمان أسند إلى عدى أمر تدشئة إبه النعمان وتزييته وإعداده ليخلفه في حكم البلاد لما رأى في عدى من صلاحيات لذلك ، وأن عدى بن زيد هو الذى وقب وراء النعمان حتى ولاء ملك الحيرة بعد أبيه .

وهذا يعنى أن عدى بن زيد كان في صحبة النعمان قبل أن يلتقى به النايفة الذى لم يلتقى به إلا وهو ملك يمدح ويعطى على مدائح .

كما يضى أن عديا كان يصحب النعمان بشعور المرين ذى الفضل ، في حين كان يصحبه النايفة بشعور المتفتح للتطلع إلى تمطع سيده ورضاه ، وقد كان وسيلة تومه لدى النعمان ليكن لهم .

* * *

والذى أوقف عدى بن زيد في موقف المنذر المستعطف يختلف عن الذى دوع بالنايفة إلى الموقف ذاته على ما سنوضحه في الحديث عنه .

وقد انطلق لسان عدى بالاعتذار للنعمان لما التقى به في السجن حين دس له مناهسه وأثاروا عليه حقد النعمان ، وهكذا رأى عدى نفسه بين لحظة وأخرى ينتقل من حياة الدعة والعميم إلى خشونة السجن وذه وقسوته فكان الألم على نفسه أفسى مما يحتمل من في مثل مكانه وأحس المسئلة والضياح ينهشان في كيانه نهشا فتفجرت بين حناياها أنات الألم ، وترددت في نفسه أصداء الشكوى ، فانطلق لسانه شاكيا في حيرة مما وقع به ، متحسرا متمنيا أن لو سبق الموت إلى اختطافه قبل أن يقع به ما وقع من صديقه وتلميذه .

ويذكر الأصمهانى أن أول ما قاله عدى وهو محبوس من الشعر لا ميتة التي منها (١) :

ليت شعري عن الهمام ويأتيك بخير الأبياء عطف للسؤال

ابن عنا أخطارنا المال والأب - نس إذا هادوا ليوم المحال (١)
ونضالى فى جيبك الناس يرمو - بن وأرمى وكلنا غير آلى (٢)
فأصيب الذى تريد بسلا غش - وأربى عليهم وأوالى
ليت أى أخذت حتى بكف - ولم ألق ميتة الأقتال (٣)
عجلوا محامهم لصرعنا العا - م فقد أوقموا الرحا بالثقال (٤)

وهى قصيدة طويلة ينضح من مطلعها أن الشاعر مارال على شيء من تماسك النفس ورباطة الجأش فى مواجهة ما نزل به، إذا يبدأ تمنيات ولساؤلات متحيرة متألمة، تذكر بما كان منه من عون بالنفس والنفيس حتى حقق للذمان ما أراد من غير حذاع ولا غش، وينتهى من ذلك المقطع بتمنيه أن لو كان قتل نفسه بيده حتى لا يلقى من صديقه الذى ضحى فى سبيله ما لى فيموت فى السجن كما يموت المدو :

ليت أى أخذت حتى بكفى ولم ألق ميتة الأقتال

ويرز مادبر حصومهما لهما من كيد فى صورة بارعة تكشف عن مدى ضيقه وألمه لتنجاحهم فى الوقيعة بهما مما، مشيرا بذلك إلى أن الإقناع به هو فى الحقيقة إيقاع بالذمان كذلك، لأن هى غيبة عدى يسهل عليهم انتراس الذمان والقضاء عليه :

عجلوا محامهم لصرعنا العا م فقد أوقموا الرحا بالثقال

وليست الروعة فى كنياته البدوية عن الوقيعة حسب، بل فى الإيماء بتقاربه مع الذمان ومساواته إياه حيث جعل الوقيعة بينه وبين الذمان إيقاعا بين الرحا وثمالها .

ويستمر على سموحه فى اعتذاراته، ونائها على ما قدم من مساعدات للذمان حتى أقامه على ملك أبيه، ويلسى ميميته التى يستهلها بتصوير ما يعانى من وق، وما أصابه من هموم وأهوال أقضت مضجعه، وأدهبت النوم عنه :

(١) أخطار المال والنفس : بدلها وجملها حطرا والمناهدة فى الحرب : المناهضة والمحال - بكسر الميم - السكبد والمسكر .

(٢) غير آلى : غير مقصر .

(٣) الأقتال جمع قتل - بكسر القاف - المدو .

(٤) محل دلان بصاحبه : سعى به إلى السلطان والثقال : الجهد الذى يبسط تحت

رحا اليد ليقى الطاحين من التراب، وقد يطلق على الحجر الأسفل من الرحا

قد نام صحي وبت الليل لم أتم من غير عشق تمناني ولا سقم
إلا تأوب هم قبل أدغمه والهم يأمر حين الكرب بالأم

وقها يتجه إلى النعمان ملتاعا مسكروبا مما ألم به يتودده ويستعطفه ، مذكرا إياه
بريب الزمان ، وثقابات الأيام ، مشيرا إلى أنها سنة تصيب كل إنسان راس إنسانا بعينه
وأما قد أصابت من قبلنا من الآباء والأمم محاولا بذلك أن يبعث فيه نبض الرحمة
والاشفاق الذي حرص - أبان صحبته - على أن يفرسه في قلبه بمواعظ التي طالما
رددناها على سمعه . وذلك قوله :

أبا شريح فلا تحزبك عقرتنا طارء رهن لريب الدهر والحلم
إن الأسى قبلنا جم ونعلمه فيما أزيل من الأجساد والأمم
منهم رأيت عيانا ، أو تحمدته وما تنبأ عن هاد وعن إرم
وقبل ذلك من ملك ومقطعة نادوا ، فكانوا كحيء الظل والحلم

ولا يكتفى بتلك الايقاعات النفسية التي ييبه بها الناهل من عواطف النعمان تجاهه ،
فيواصل السير على المنهج نفسه ، ويؤمى إلى ما بينهما من أواصر تكاد تعادل الأخوة
حتى لسكنهما ابنا أم واحدة :

إن ابن أمك لم تنظر قفنته لما نوارى ورامى الناس بالكلم (١)

إذا قر لديه أن النعمان هيء نفسيا للسمع منه أخذ يعدد ما يحمل في سبيل توليه الملك
دون إحوته في إخلاص يعلم الله وحده مداه ، مرتكزا على تعداد خلاله وصفاته التي
تأبى عليه أن يخون من اصطفى - ممززا ذلك كله مشهدا الله على ذلك مقسما برب الحل
والحرم على صدقه وبره فيما يقول :

فأله يعلم في رسل وفي أزف والله أعلم بالآلاء والنم (٢)
بل رب عبء تقابل قد نهضت به لما نزل إذا عديته قد هوى

(١) القفية : الكرامه . رامى الناس بالكلم : ظنوا به .

(٢) الأزف : المعجزة

وإرته قد علا كبدي معاقها ليست بفورة مأون ولا برم (١)
وما بدأت خليلاً أو أخانته بخنمة ، لاررب الحل والحرم (٢)
يأبى لى الله خون الأصفياء وإن خانوا ودادى، لأنى حازى كرمى
ولا بخنات بمالى عن مدهبه فى حاجة الرء إن كانت ولا الدم

أنه يمتذر فى عزة ، وبأسف لأخ قبل أن يكون ملسكا ، ويمحرص على ودلا على
عطاء ، ويأمل ألا يبال خصومه منه ويشمتوا به ، فإذا وجد من النعمان إصرارا على
سجنه ، وانصرانا عن النظر فى أمره . فأصم أذنيه عن صرخاته للتوالية المتتعة ،
ولم تحدث قرعته النفسية أثرا ، كرر المحاولة وعاود الشكوى ، وصعد التأمات
والتعسرات ، حريصا على تبرئة نفسه مما ألصق بها فى بائته التى يبتدئها بقوله :

أرتت لسكفمرات فيه بوارق يرتقين رءوس شيب
تلوح الشرفية فى ذراء ويحلو صفح دخدار قشيب (٣)

إذا أعلن عن أرقه ومماناته النفسية أنجه مباشرة إلى الحديث عن أعدائه ومساعدتهم
للإيقاع به حتى يتخلصوا منه وينتقموا لهم يمتهم بتزويج النعمان دون من يناصرون من
إخوته ، حيث يقول :

سمى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب
أرادوا كى تمهل عن عدى ليسجن أو يدهده فى القليب (٤)
وكنت لزار خصمك لم أعرد وقد سلسكوك فى يوم عصيب (٥)
أعالهم وأبطن كل سر كما بين اللحاء إلى العسب (٦)

(١) الإربة : الحاجة . والمعاقم : المفاصل . والمأفون : ضيف الرأى . والبرم :
الثلثم البخيل . (٢) الخنمة : الريية .
(٣) الدخدار - فارسية معربة - الثوب المصون .
(٤) يدهده : يحدرد من علو إلى سفلى تدحرجا .
(٥) لزار خصمك : لا أدته يخالف أو يماند ، والتعريد : الإحجام وسلسكوك : أدحاوك
(٦) اللحاء : ما على العود من القشر ، والمسبب : جريد الدخلى إذا نحى عنه حوصه

ففرزت عليهم لما التقينا بتاجك هوزة القدح الأريب (١)
وما دهري بأن كددرت فضلا ولكن ما لقيت من العجيب (٢)

وبخلص من ذلك فيتمنى أن يصادف من يبلغ النعمان شكواه وتحذيره بمن يكيدون
له ، مستسكرا أن تسكون مكافأته - بعد تضحياته - سلسلة وقيدا وعلا وأمرانا
تحوج إلى طيب . . . ثم إهمالا لاعتدالاته التي تتوالى . وشكواه التي لم تنقطع
حيث يقول :

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهدي النصيحة بالنيب
أحظى كان سلسله وقيدا وعلا ، والبيان لدى الطيب
أناك بأنى قد طال حبسى ولم نسأم بسجون حريب (٣)

ثم يسود الى تحريك نفسه ، فيصف في اسكسار ما آل إليه بيته وآله بعد غيبته
تلك ، أملا في أن يوظف فيه عاطفة الاشفاق بعد أن قسى عليه هذه القسوة التي لم يكن
يتوقمها أو ينتظرها منه فقال :

ويبتي مقفر إلا نساء أراهل قد هلسكن من النحيب
بيادرن الدموع على عدى كشن خانه حرز الريب (٤)

فإذا رحا أن يقبل النعمان عليه ، ويستمع إلى شكواه هدا صوته بمض الشيء ،
وسلك طريق المناشة الجادة المتأنية في منطقية رجو الصفع عما قد يكون أخذ عليه ،
وتعلمن عن تنازله عما قد يكون أصابه من ظلم وصر :

فإن أخطأت أو أهمت أمرا فقد يهيم المصاي بالحبيب
وإن أظلم فقد عاقبتموني وإن أظلم فذلك من نصبي
وإن أهلك نجد فقدي وتحذل إذا التقت للموالى في الحروب

(١) الأريب : ذو الدهاء والفطنة .

(٢) وما دهري : ما إرادتي وغايتي .

(٣) الحريب : الذي سلب ماله وعقاره .

(٤) الشن : الخلق من كل آية صعدت من جلد . والريب : المصلح .

فهل لك أن تدارك ما لدينا ولا تغلب على الرأي العيب
فإنى قد وكلت اليوم أمرى إلى رب قريب مستجيب

وطل هذا المنهج سار عدى فى اعتذاراته إلى السمان بن المنذر، إذ ذكره بما كان له من أباد، وشكا حرارة ما يقاسى فى السجن، وصور قلق نفسه على أهله ونسائه البائحات، ونبهه إلى ما يكيدده المحيطون به له وللسمان، وأقسم له إيماننا بمد إيمان على براءته بما ألقى به وإخلاصه له . . . فتلون أسلوبه بذلك، وبدأ تارة رقيقا هادئا حين يستسلم ويستكين ويستعطف وتارة أخرى يبدو جزلا غمما حين يذكر مكانته وما قدم من تصحيات فى سبيل تولية ملك الحيرة، وحين يتحدث عن نفسه وحلاله التى كان يمر بها وبذلك نرى عديا فى اعتذاراته - كما رأينا فى مواعظه وديوانه - للشاعر للصور البارع فى التصور، الصادق البين الصدق، الأصيل الذى يتحجج من نفس شاعرة .

* * *

وعدى فى خمرياته يقدم لنا لونا جديدا فى هذا الفن يعان به تميزه - كذلك فيه - بيد أن تميزه فى الخمريات ليس فى السبق إليه كما رأينا فى مواضعه واعتذاراته، ولكن فى إيراد القصيدة أو القطعة الشعرية للخمر، وعدم إشراك غرض آخر معها فيه، على ما كان مروها فى الشعر الجاهلى، فقد كان الشاعر يتناول الخمر فى أنشاء القصيدة باعتبارها حزمية من جزئيات موضوعه .

أضف إلى هذا أن خمريات عدى تتميز كذلك عن غيرها بالحديث اللستيفى الذى يتناول فيه كل ما يتصل بالخمر من ألوان وتعتيق، وطعم، وشكل، وهيئة، وأكواب، وزجاج، ومجالس، وندمان، وأجواء وما فيها من أحوال إلى غير ذلك مما يكشف عن حس شاعر، واستقصاء ماهر، وتمكن من العبارة، واقتدار على التصوير والتعبير .

ولعل من أجمل شعر عدى وأرقه وأجوده قابيته الخمرية التى يقول فيها :

بكر الماذنون فى وضع الصب ح يقولون لى ألا تستفيق
ويلومون فيك يا أبة عبد الله والقلب عندكم موهوق

لست أدري إذا كثروا المذل عندي أعدو يلومني أم صديقي
زانها حسنها ووسع عميم وأثيث صلت الجبين أنيق
وثنايا مملجات عذاب لا قصار ترى ولاهن روق
ثم ادوا إلى الصبوح فقامت قينة في يمينها إبريق
قدمته على عقار كمين الد يك صبي سلاتها الراووق
صاحبها التاجر اليهودي حوايـ ن فأركي من نشرها التعميق
روق عليها لا يسأل ذراها يلنب الدر دونها والآروق
مزة قبل مزجها فإذا ما مزجت لده طعمها من يذوق
وظفا دوقها فقايع كاليسا قوت حمر يثيرها التصديق
ثم كان الراج ماء سماء غير ما آجن ولا مطر ووق

مشهد رائع يصوره الشاعر، فتسمع صخب العاذلين مجتهدين حول فراشه يوقظونه من سكره، ثم يبدأ تصوير مجلس الشراب، حيث ترى القيمة تحمل في يمينها إبريق الخمر المتقنة التي اخزنها اليهودي حولين، ليصفي عليها النثر الركي العبق، فإذا مزجت لده طعمها، وطمت الفقانسع على سطح الكأس بلونها الأحمر الذي يشبه لون الباقوت.

ولا يقل عنه روعة ذلك المشهد الذي يقدمه عدى من حلال صادقته التي قال فيها المعري (١) : « إنها بديعة في أشجار الرب ، والتي يبتدئها بالحين إلى مجالس الأوس والشراب التي كان ينهل فيها اللذات في مطلع حياته ، وفيها يقول :

أبلغ حليلي عبد هند مـلا زلت قريبا من سواد الخصوص (٢)
موازي القرة أو دونها غير بيميد من عمير اللصوص (٣)
يحنى لك الكأة ربمية بالخب تندي في أصول القصيص (٤)

(١) رسالة الغفران ص ٧٠ .

(٢) الخصوص : موضع في الحيرة .

(٣) القرة وعمير اللصوص : قريتان من قرى الحيرة .

(٤) الربمية : أول ما يجتنى، والخب — بفتح الخاء — سهل بين حزينين تكون فيه

للشكأة . والقصيص جمع قصيص : شجرة تنبت الشكأة في أصلها .

- تتمسك الخيل وتصطادك للظير ، ولا تسكع لهو القنيس (١)
 تأكل ما شئت ، وتمتلها حمراء من الخص كالون الفصوص (٢)
 غيبت عن عيني في ساعة الكسبر وحنيت أوان العويص (٣)
 لا تسين ذكرى على لذة الكأس وطوف بالخذوف النحوص (٤)
 إنك ذو عهد ودو مسدق محالف عهد الكذب اللدوص (٥)

في هذا الشهد الراحر باللوحات الحية المتحركة يريفا الشاعر الجري وراه الصيد ، والطوف حول الكأس المترعة يمتلها الشارب من الخص حمراء كالون الفصوص ، ويظل الشاعر في رسم لوحات المشهد يريفا في بقية أبيات التصيدة تجمع الشرب في بيت خمارة شيد من الدار العارغة ، وظلل بالخوص والنيذ الحسان فيه يعيشين رويدا في استحيا كآن في أرجلن صدوعا ، وقد حسرن عن سواعدهن البضة ، وتصاعدت من أرداهن روائح المسك والتمر والعود . فيما الكأس يدور على الشرب السامر ملاهي مترعا بالخر الأخضر اللون المروج البارد . في قوله :

- يألت شمري وان دو عجة مق أرى شربا حوالى أبيض (٦)
 بيت جلوف بارد ظله فيه طباء ودواحيل حوص (٧)
 والربرب المكفوف أردانه يمشى رويدا كمشى الرهيص (٨)

- (١) وتمتصك : تصيدك ، ومثلها تصطادك ، على الحذف والايصال مثل : رحبتك الدار أى رحبت بك . ولا تسكع : لا تمنع
 (٢) الخص : حيد الخمر (٣) العويص : الشديد من كل شيء .
 (٤) الخذوف : الأنان الوحشية السمينة والنحوص من الان : القلا ولدلها ولا لبن .
 (٥) اللدوص : الخداع .
 (٦) وأن : وأما ، يوصل همزة القطع ، وحذف الألف التي بعد النون ، والمحة بفتح المين : الحين ، والأبيض : أسهل دون مكسور .
 (٧) الجلوف بصم الجيم جمع جام : الدر الفارغ ، والطباء جمع ظبية ويصدها هنا الأباريق الضخام ، والدواحيل جمع دوحلة : سقية من خوص يوضع فيها التمر والرب .
 (٨) الربرب : القطيع من بقر الوحش وتشبه به النساء ، والرهيص : المددوع .

ينفخ من أردانه المسك ، وال منبر ، والفلوى ، ولبنى قفوص (١)
والشرف الهندى نسقى به أخضر ، مطموثا بماء حريص (٢)

ويبدو من جزالة الألفاظ ، وما تخلل التصيدة من حكم أن الشاعر قالها فى لحظة
اجترار الماضى وهو فى سجنه . ١٠ . أيا ما كان فلقد عرض الشاعر ببحرياته تلك وغيرها
— فما يضيق بذكره البحث — أمثابه لشعراء البحر الذين جاؤوا بعده سواء فى الجاهلية
أو بعد الإسلام مثل الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبى نواس وغيرهم ، ويقرر
هذا ما ذكره صاحب الأغاني (٣) من أن الوليد بن يزيد شاعر البحر الأول فى العصر
الإسلامى كان على صلة بشعر عدى بن زيد من نديه القاسم بن طويل العباضى الذى
كان ينشده شعر عدى ، ويفنيه للمنون فى مجالسه ، وأن مبدأ غنى القافية أمامه ذات
يوم فاستحسنها وأعجب بها ، وجعل يشرب على أنعامها مدسرحا متشيا طربا .

والملاحظ فى خمريات عدى أنها تجمع بين اللوحات التمذدة المشاهد والمراثى .
وبين اللوحة التى تعرض الصورة الجزئية فى سرعة حافلة . . واللونان من الصور
يشهدان لمدى بالدقة فى جمع أطراف الصورة والتركيز منها على الجانب المطلوب ، فى
خفة و شاقة كما ينبى الدارس أنه أمام مصور عربى نشأ وشب فى بيئة حضارية ناعمة ،
ويذكر دائما بأنه فى صحبة رجل مثقف نال من الثقافات المختلفة ما جعله يتميز على
معاصريه فى مختلف الاتجاهات . ونظرة إلى تلك الصورة تبرز ما نقول :

هـذا ورب مسرين سقينهم من خمر بابل لدة للشارب
بكرؤا على بسحرة نصبتهم من ذات كروب مثل قمب الحالب (٤)

(١) الفلوى : أخلاط من الطيب تنلى ، ولبنى : عسود طيب الرائحة ، وقفوص :
بلد يجاب منه هذا المود .

(٢) المشرف : أناء كانوا يشربون به ، والمطموث : المسوس ، وأراد به المزق ،
والحريص : البارد .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٥ ، ٦٦ .

(٤) القمب . القدح الضخم الجافى .

بزحاجة مله اليدىن كأنها قمدبل مصح فى كنية راهب

* * *

زاه - أولا - فى دوران القصة حول موضوع واحد . تسلسل أحداثه ، وترتيب ترتيبها منطقيا فى هيشه تبرر القصة متكاملة ، لتؤدى الغاية منها ، وتصصه - فى العالب - يقدم العبرة والعظة من خلال واقع تاريخى أو ديبى فالقصة فى شعر عدى امتدات لشعره الوعظى أو هى مرعظة فى نوب القصة .

مراه - ثانيا - هى منهجه القصصى الذى اعتمد عليه فى تقديم الحوادث ، فإنه يعتمد فى قصه على مانه من له من معلومات تاريخية ودينية ، وما ناله من ثقافات حضارية عميقة حصل عليها من منابع ثقافية متعددة متباينة جمع فيها بين ثقافات العرب والفرس والروم . هى حين اعتمد سابقوه وما صروه من الشعراء الجاهلين فى شرح القصصى على المشاهد الواقعية ، والملاحظ الحسية ، فأصبحت القصة مجموعة من اللوحات الوصفية والاشارات التاريخية التى يعتمد فيها على ذاكرة التلقى ليتكامل البناء القصصى . ومن أبرز قصصه الديدية قصة الخاق ، التى تناول فيها حاق آدم وحواء وهبوطهما من الجنة ، وفيها يقول :

عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا	أسمع حديثا كما يوما تحدثه
فيا ، وعرفنا آياته الأولا	إن كيف أبدى إله الخلق نعمته
وظلمة لم تدع فتقا ولا حلالا (١)	كانت رياح وماء ذو عرائية
وعزل السماء عما كان قد شتلا	فأمر الظلمة للسوداء فأنكشفت
تحت السماء سواء مثل ما فعللا	وبسط الأرض بسطا ثم قدرها
بين النهار وبين الليل قد فصللا (٢)	وحمل الشمس مصرا لاختفاء
وكان آحرها أن صور الرجالا	قضى لسته أيام حليقتـ

وهكذا فى تسلسل تاريخى - استقاء مما توفر له من كتب ديدية ، ومعارف ثقافية خصوصا التوراة والإنجيل - يحكى قصة خاق آدم وادخاله الجنة هو وزوجه التى خلقها من ضامه ، وكيف أطلق له حرية الاستمتاع باستثناء شجرة واحدة . . . الخ

(١) ماء ذو عرائية - بضم العين والراء المحففة - ماء كثير مرتفع

(٢) المص : الحد .

ولولا ما عرفناه عن عدى بن زيدى نشأته الدينية التي كان لتعمقه فيها أكبر الأثر في نسبه إلى المباد . . . أقول لولا ذلك لما توقعنا منه أن يقص علينا مثل هذه القصة ، أما وقد نشأ هذه النشأة التي توجىء إلى وطيسد اتصاله برجال الدين لليهود والصارى والمجوس وغيرهم ، فلا غرابة فيما قدم .

وله قصيدة أخرى رائية يحكى فيها قصة إبليس مع آدم وسماه لإعرائه وطرده من الجنة متوسلا بهواء .

أما قصصه التاريخية فمن أبرزها قصيدته الرائية التي ذكرنا طرفا منها في الشعر الدينى والتي يقول في مطلعها :

أيها الشامت المبر بالدهر أنت المبر الموفور

وفيها يحكى من قصة ملوك الفرس والروم ما يعظ السامع ويميده إلى الله ، وينأى به عن الاغترار .

ومن قصصه التي ضمنها شعره قصة ابن بختصر الذى تخير لوزارته من رعى شئون مملكته ونصح له وكنم سره فماش مهيبا محبوبا منيما ، ولقد ساق هذه القصة في قصيدة أرسلها إلى السمان من سجنه وفيها يقول :

ألا فى الأول الماضى اعتبار	لدى علة - ل أحى فهم بصير
تخير للوزارة من رعاه	باشفاق ونصح فى الأمور
وحسن سره عملا مهيبا	يمازى القل بالجلم الكثير
وواتاه الزمان فماش دهرا	منيما فى السهول وفى الوهور

* * *

وفى الحق لم يقف عدى فى تميره وسبقه الذى عند ذلك الحد ، فبيما نسب إليه من الشعر ما يشير إلى أن له سبقا كذلك فى الحكمة الشعرية ، تبدو فى ثبايا مودة شعره الدينى والوعظى على الخصوص ، متناثرة هنا وهناك ، شأنه فيما شأن أضرابه من شعراء الحكمة الجاهليين مثل أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى والنابغة .

بيد أننا نجد عديا يبرز سابقيه ومعاصره فى دليته التي خصها للحكمة ، والتي يبدوها

بتساؤل موجه إلى من تمذله وتلومه على كرمه وانفاقه دون أن يعمل للزمن حساباً ،
ومن هذا النطلق ، يأخذ الشاعر في الرد على عاذلته موضحاً نظرتة إلى الدنيا ، وما يترتب
عليها من سلوك ، مما لا اقباله على اتفاق ماله حرصاً على أن يظل الكريم الذي يبذل في
غير حرص ولا تردد بالمصير المحتوم الذي لا يستثنى منه أحد ، وبأن الاتفاق في الحياة
غير من تركه للوارث يستمتع به :

أعاذل : ما يدريك أن منيقي إلى ساعة في اليوم وأنى ضحى الفد
ذريتي هانى إنسى لى ما مضى أ امى من مالى إذا خف عودى
وحمى ليقتانى إلى منبلى وغودرت أن وسدت أولم أوسد
وللوارث الباقى من المال فانركى عتابى لى مصلح غير مفسد

وليس ذلك هو الدافع إلى الاتفاق فحسب ، بل يدفع إلى الاتفاق أيضاً ما يحققه
الكريم للانسان من مراكز مقبول محبوب بين أخلائه وأصدقائه :

ولا تلح إلا من ألام ولا تسلم وبالبدل من شكوى صديقك فأنتد
والضخلى إذلال لمن كان باحلا ضنيا ، ومن يبخل يدل ويهد
وللبخلة الأولى لمن كان ناخلا أعب ، ومن يبخل يلم ويرهد

كما يدفع إليه حرص الإنسان على البعد بنفسه عن النى وتجيبيها مواطن الشبهات .
شئ يكون من الصفوة الذين لا يندم من يقتدى بهم :

فنفسك حافظها عن النى والردى متى تفوها بنو الذى بك يقتدى
وإن كانت الزملاء عندك لأمريء فثسلا بها عاجز المطالب وازدد
ومن هذا يوجه نصحه ، في رسم منهجه الذى ترضيه فى اختيار الأصحاب :
إذا كنت فى قوم صاحب حيارهم ولا تصحب الأردا فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين ما تقارن يقتدى

وعلى هذا للدرب بسير عدى فى داليتة ، حريصاً على أن تكون نفسه هى المدد
الذى يأخذ من تجاربه ليسكون قريباً من سامعيه ، فيضمن أقبالهم عليه ، على الرغم
من طول القسيمة وجفاف معانيها .

وريادة منه فى الاحتياط حفلت القسيمة بتلك الأصباغ والألوان الجذابة المتناسقة

التمثلة في الصيغ المتلوثة المتنوعة من استفهام ، وتمجيب ، وأمر ، ونهى ، ونداء ،
وشرط ، والتفات ، إلى غير ذلك من أسباب الجذب والافتناع العاطفي ، إلى جوار
الافتناع العقلي ، من كل ما تضافر مع صدق الشاعر ، وقربه من النفوس ، ليحقق جمال
الأداء ، ويعمق المعاني رخاوة ، وإيضحي على الأفسكار الانسجام والسلسل .
وليس هذا مقصورا على الدالية الحكمية ، بل أن حكمته المتناثرة في ثنايا موعظه
التي تقدمنا طرفا منها لاتخلو عن بعض ذلك الذي بجدته في داليتها (١) .

(١) لمزيد من الدراسة الناقد راجع المؤلف بحث (عدي بن زيد ظاهرة متميزة
في الشعر الجاهلي) المنشور بمجلة كلية اللغة العربية - العدد الأول .

(٣)

النايعة الذيباني

نشأته وحياته :

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن ربوع ويرتفع نسبه إلى غيظ بن مرة ، ثم إلى ذيبان ، ثم إلى غطفان . لقب بالنايعة واشتهر به قيل : لقوله في بعض شعره : « فقد نبنت لهم مناشون » ، وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كرت سه ، ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله (١) . وقد يكون تلتبيه بذلك راجعا إلى وصفه بالنبوغ في الشعر والتفوق فيه ، ويرشح ذلك أنه قد لقب بذلك اللقب جماعة من الشعراء غيره ، مثل للنايعة الجمدى ، والنايعة الشيباني ، والنايعة التغلي ، وهم ليسوا جميعا جاهلين ، بل منهم المنضرم ومنهم الإسلامي .

ولم يكن النايعة أحسن حالا من أصحابه الجاهلين ؛ إذ لا نكاد نعرف عن نشأته أكثر من أنه عاش في أواخر العصر الجاهلي ، وامتد به العمر حتى قبيل ظهور الإسلام ، فقد قيل إنه توفي سنة ٦٠٤ م .

أما حياته فيخبرنا الرواة كما يخبرنا شعره أنه قضاه في السياحة بين بلاط النعمان بن المنذر أمير الحيرة ، وبلاط عمرو بن الحارث النساني وأخيه النعمان .

ويبدو أن غايته من تلك السياحة كانت لكسب المال ، والسياسة ؛ فقد كان النعمان يجزل له المطاء على مداخحه وكذلك فعل النعمان معه ، وكان يستغل صلته تلك في العمل على رفعة قومه ، والحفاظة على أمنهم وسلامتهم ، ولعل ذلك كان من أسباب انتقاله إلى النعمان ؛ روى أن ذيبان وأحلامهم من بني أسد تمدوا على وادي أقر الخصب الذي كان تحت حماية النعمان ، فنسك هؤلاء بهما تمكيلا عظيما ، وأسروا كثيرا من نساءهما ، مما آلم النايعة ذلك الألم الذي تلمسه في قوله :

(١) الأغاني ج ١١ ، ص ٣ ، الشعر والشعراء ج ١ ، ص ١٥٧ وما بعدها .

- لقد نبيت بي ذبيان عن أقر وعن تربهم في كل أصفار (١)
وقلت : يا قوم إن الليث إمتقبض على برائنه لوثبة الضارى (٢)
لا أعرف من ربها حورا مدامها كأن أبكارها نماج دوار (٣)
ينظرن شذرا إلى من جاء عن عرض بأوجه منكرا الرق أحرار (٤)
يذرين دما على الأشفار منحدرًا يأملن رحلة حصين وابن سيار (٥)

ولم يجد مفرا من أن يقوم بدوره في تخليص قومه من هذا الذى وقعوا فيه ، واسترداد الأسرى ؛ وسمى إلى النساسة مقدما بين يديه مدائحهم ، فزل بهمرو بن الحارث الأصغر ، ومدحه كما مدح أحماء النعمان مدحا رائعا ، فاستجابا لطلبته ، وعموا عن الأسرى ، وكفا عن ملاحقة ذبيان وأحلافهم وأقام في ظلال النسانيين فترة نال فيها منهم الجوائز الثمينة ، وتوجهم فيها من شعره بالقصائد الرائعة ، ولكن ذلك لم يشغله عن هدده الأصيل ، وهو حماية قومه وأحلافهم من بطش النساسة . بل إنه إلى ذلك حرص على أن يبشر خيره على أصدقاء قومه ، كما كان الشأن مع بي حن الذى كانت تنزل عليها بين الحين والحين بنو ربوع عشيرة النابتة . وقد رأى النعمان النسائي بعد العدة لمز بي حن ، فتعرض له النابتة محاولا منعه من ذلك ، خوفا منعتهم ومنعة ديارهم ، ولكن النعمان أصر على غزومهم ، فأرسل النابتة إلى عشيرته يدعوها أن تعد نفسها للجدة حلفائهم بي حن وإعانتهم في رد عادية النسانيين عنهم ، وتحقيق له ما أراد فقد منى جيش النسانيين بالهزيمة ، وفي ذلك يقول النابتة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بي حن بركة صادر (٦)

(١) أقر بضم الهمزة والقاف : واد ، تربهم : إقامتهم وقت الربيع ، أصفار جمع صفر : شهور الربيع .

(٢) البرائن جمع برن : الخالب ، الضارى : الموقع بأكل اللحم .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به ، حورا جمع حوراء : العين

الجميلة واضحة البياض والسواد ، النماج جمع نمجه : إناث البقر ، دوار : أسم صنم .

(٤) النظر الشدر : النظر بمؤخر العين ، عرض بضم العين والراء : جانب .

(٥) الأشفار جمع شفر : هذب العين . (٦) بركة صادر : موضع .

نجيب -ى حن فإن لقضاءهم كرهه وإن لم تلق إلا بصار (١)
عظام الالهى أولاد عدرة إهم لها مم يستلهمونها بالحفاجر (٢)
وهم ممنوا وادى القرى من عد وهم بجمع مبيير للمعدو المسكأثر (٣)

وهذا الموقف يكشف عما كان يسكنه النابغة لقومه وحلفائهم من إحلاص ومحببة وما زال على حاله ذلك ، يرعى مصالح قومه ويوطد العلاقات بينهم وبين القسامين حتى توفي عمرو بن الحارث وأخوه النعمان ، فعاد إلى النعمان ثابئة

كان النابغة أثيرا عند النعمان خاصة به ، وكان من دمائه وأهل أسبه ، إلى أن حدث ما أثار عليه النعمان وتهدهه - على اختلاف الروايات في أسباب ذلك - إلى قومه ثم شخص إلى ملوك عساز، بالشام فأقام بهم يتدحهم ، فانتقل من بلاط ، ثم لما اطمان إلى عمرو النعمان بن المنذر عنه عاد ثابئة إلى الحيرة وأمنه وأذناه حتى قال فيه حسان بن ثابت : وحسدت النابغة على ثلاث لا أدري على أيهن كنت أشد حسدا ؛ على إدناء النعمان له بمد المباددة ومسامرة له وإصفائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة مبيير من عسافيره (٤) أمر له بها (٥) ،

ولقد قدم لمودته إلى الحيرة بتصايد يمتدح بها إلى النعمان، ويمان ندمه على ما سلف منه ؛ ورعبته في المودة إليه مخلصا كما كان ، حتى عفا عنه ، وهو إنما كان راغبا في النعمان طمعا في استمرار عطاياه، واستدامة حياة الترف التي كانت تقمره ، قال أبو عبيدة قبيلا لابي عمرو : أفمن محافته امتدحه وأناه بمد هربه منه أم أغير ذلك ؟ فقال : لا لعمرك الله ما لحافته قمل ، إن كان لآما من أن بوجه النعمان له جيشا ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهله ، ولو سكنه رغب في عطاياه وعسافيره ، وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والنهب عطايا وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك (٦)

(١) صابر : شجاع في الحرب .

(٢) الالهى بضم اللام جمع لهوة : المال الكثير ، اللهمم جمع لهموم بضم اللام ؛ الجيش العظيم . يستلونها ، يتبعونها .

(٣) مبيير ؛ مهلك .

(٤) المصاير ؛ إبل بجائت كانت للموك (٥) الأغاني ج ١١ ص ٢٨

(٦) الأغاني ج ١١ ص ٢٩

وأقام النامة في ظلال النعمان إلى أن غضب كسرى على النعمان فاستدعاه سنة ٦٠٢ م وألقى به في عياض السجن حتى مات ، ورجع النابغة إلى قبيلته وقضى بها أخريات حياته ويبدو أنه مات في الفترة ما بين عودته من الحيرة سنة ٦٠٣ ، ونهاية حروب داحس والقراء سنة ٦٠٨ م ، وقد ذكر لويس شيخو أنه توفي سنة ٦٠٤ م (١) .

ولم تسكن شهرة النابغة وإنما على علاقته بالنساسة والناذرة ، بل كان له إلى ذلك شهرة طومت شبه الجربة مكنت له بين الشعراء ، فكانوا يغمرون له قبضة من آدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، قال الأصمعي : وأول من أنشده الأعمش ، ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صخرًا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آتفا لقات إنك أشعر الجن والإنس ، وقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أيك ، فقال له النابغة : يا ابن أحمى أنت لآتمحن أن تقول :

هايك كالليل الذي هو مدركي وإن حلت أن المتأى عنك واسع

خطاطيب حجون في جبال متينة تمسدها أيسد إليك نوارع (٢)

فخس حسان لقوله (٣) .

شعره :

واصح من نشأة الشاعر وحياته أنه لم يقض منها بين قبيلته قدر ما قضاه في الحيرة والشام في قصور الناذرة والنساسة ، وأنه جمع من ذلك مالا كثيرا ، ووهر لنفسه

(١) شعراء النصرانية ص ٦٤٠

(٢) خطاطيب جمع حطاف بضم الحاء : حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء وغيرها ، حجون بضم حاء جمع أحجون : وهي الموجة ، نوارع : جواذب ، يقول لك خطاطيف هذه صمتها أجرها إليك ، على سبيل التمثيل ، يريد أنه مشدود إليه بأسباب لا يستطيع أن يتخلص منها .

(٣) حلس : انقبض أو رجعت حتى : الأغاني ج ١١ ص ٦

حياة مترفة أدتته من حياة اللوك ؛ إذ كان يأكل ويشرب في صحاف الذهب والفضة .

وواضح - كذلك - بمن تلك النشأة وهذا الارتباط بلاطى آل المنذرو آل غسان أنه أسلم حزا كبيرا من حريته الشخصية لما يفرضه عليه مقامه في تصور الملوك من الالتزام بخلق معين ، والوقوف بشعره عند حد معين ، حمله يدور في محور من يكتنفه منهم ويرعاه ، لا يتجاوزه إلى غيره ، فلا يرى غير ما يدور في محيطه المسكى ، ولا يحس إلا بما يحدث هناك .

ومن ثم ينظر الدارس في شعره فيجد لا يكاد يتجاوز الحديث عن بنى المنذر وبنى غسان ، مدحا أو رثاء أو اعتذارا .

ومن ينظر في شعر النابتة يدس أثر هذا الوسط المتحضر المترف في شعره . إذ يجد نفسه أمام شاعر يدرك أثر السكامة في سامعيه ، فهو لذلك حرص أشد الحرص على انتقاء عباراته والفاظه بما لا يعطى فرصة لطاعن ، يتقرب إلى السمان على حساب النابتة .

ويلاحظ أنه مع شاعر لا يقول كل ما يفد على خاطره ، بل هو المتحفظ الذى يتروى في إراز أفكاره ومعانيه ، وما يرال وراءها بالصقل ومعاودة النظر ، حتى تستقيم له العبارة ، ويصح المعنى ، ويتسق مع متطلبات بيئته .

ويدرك أنه يمايش شاعرا جعل من شعره وسيلة لتحقيق مآربه الفردية أو القبلية فشعره مصنوع بما فيه من مدائح ومرأى واعتذاريات ، إذ قلما تجد فيها تعبيرا ذاتيا عن حس صادق أو شعور أصيل ، ودور العقر فيه أوضح من دور الماطمة ، وهذا لاشك أحد آثار البيئة الحضارية المترفة التى قضى فيها جل سنى عمره ، والتى سلحتته عن الفطرة العربية الخالصة ، ونأت به عن البيئة البدوية بأحلاقياتها رقيها .

ونظرة إلى مدائحه التى خلمها على الملوك المتوجين فى الحيرة والشام تحملك تقطع بأنه شاعر أجاد الصنعة ، وبرع فى الوقوع من القوم على ما يرعى غرورهم ويستجيب لما حرم ؛ وذلك بحشد طائفة من الصفات العامة وتحليلتها بيمص الخصوصيات ، وتبدو كأنها جميعا حلية يختصم بها من دون غيرهم .

مثال : ذلك بائيته التى قالها فى مدح عمرو بن الحارث النسائي وآنائه ؛ فقد بدأها

باستهلال يخاطب فيه ابته ، ويبتها شكواه مما يهتم له ويشجيه ويبتيل ليله ، ليخلص من ذلك إلى الحديث عن مدوحه حديثا مستفيضا يقول به :

إذا ما عزوا بالجيش حلق هوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب (١)
 يصاحبينهم حتى يفرن مضارهم من الصاريات بالدماء الدرارب (٢)
 تراهن خلف القوم حزراعيونها حلوس الشيوخ في ثياب المرانب (٣)
 جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب (٤)
 على عارفات لظلمان عوابس هين كلوم بين دام وجالب (٥)

فالشاعر يمدح النفسانة بالفروسية والشجاعة التي حملت جماعات الطيور المتوحشة . تتبع خطوطهم لإيقانها بأنها حاصلة على برائتها وواقعة على زادها من أعدائهم ، ولتقتها من ذلك ترى جانحة على استمداد للانقراض ، ثم يمضي في إتمام الصورة فيرر شجاعة القوم من حلال تصور حيولهم بما عليها من أثر للظمان وجروح دامية ومتجمدة ، ويظل في انتقالاته تلك حتى تكمل صورة الفروسية ، فينتقل إلى صفات أخرى يمدحهم بها . حيث يقول :

لهم شيمة لم يبطها الله عيرهم من الجود ، والأحلام غير عوارب (٦)
 محلتهم ذات الإله ، وديهم قوم فما يرجون غير الموائب (٧)

(١) عصائب جمع عصاية : جماعات .

(٢) الصاريات : المتمودات ، الدوارب : المدربة .

(٣) حرر بصم الحناء وسكون الزاي جمع آخرر : الذي ينظر بمؤخر عينه ، المرانب .

ثياب سوداء .

(٤) جوانح : مائلات للوقوع .

(٥) عارفات : صابرات ، كلوم : جروح ، دام : سائل دمه ، جالب : متجمد

عليه الدم .

(٦) الأحلام : العقول ، الموائب جمع عازب : الغائب .

(٧) محلتهم : منزلتهم ، ذات الإله : له الله يقصد كائناتهم .

رقاق الفعالم طيب حجراتهم	يحبون بالريحان يوم السبابس (١)
تحميم بيض الولائد بينهم	وأكسية الإضربيج فوق المشاجب (٢)
يصنون أجسادا قديما نيمها	بخالصة الأوذان حضر للمالكب (٣)
ولا يحجون الخير لاشر بده	ولا يحسبون الشر صريرة لازب (٤)
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا	بقوس وإذ أعيت على مذهب (٥)

فيصمهم بالجوود وبالقتل الحاضر ، وبالمسلك بالدين القويم - وكانوا نصارى - والقيام على حلقة ، ثم يرج من ذلك إلى وصف مظاهر الترف والنمى التي تنمى حياتهم فهم رقاق الفعالم ، وهم على عفة ، يعانظون على طقسهم الدينية محبون بالأزهار في يوم السبابس - ولعله يقصد به يوم الشمانين أحد أعياد العارى - تحميم الجوارى والإماء ، ويعفظون أجسادهم الثرة المنة من قديم بتياب مزر كشة من الخبز الخالص خضراء للمالك ، ثم يخلص من ذلك إلى صفة عقلم عقيدته يحرس على مدحهم بها تقرير الاستعظامهم على قومه ، فيقول إن النسانيين متفتحو المقول يدركون أن السلوك البشرى لا يقف عند الخير لا يتجاوز ، ولا يقف عن الشر يتخطاه ، بل لا بد من مجاورة الشر للخير ، ولا بد من نهاية لشر بالخير ، وكأما هيبه ذلك إلى أن يكشف عن حقيقة مقصده ، فيعلم أنه في تلك القصيدة لسان قومه الناطق ، وأنه يقدم هذه المدحة وهو وشيك العودة إلى قومه بعد أن ضاقت السبل أمامه بسبب من أسر من أهله وعشيرته

فأنت أمام مدائح عامة لا تخص واحدا من دون غيره ، ولاتقف على جماعة من

(١) الحجرات جمع حجرة يضم فسكون : موضع شد الإرار من الوسط ، وطيب

الحجزة : كناية عن العفة ، السبابس جمع سبب : للفارة

(٢) الولائد : الجوارى والإماء ، الإضربيج : الحرير الأحمر ، المشاجب جمع

مشجب أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان جمع ردن بفتح الراء والبدال الخبز ، وحلوصها : صفاؤها وزوال

شوبها ، والمالكب جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف : مجتمع رأس المضد والكتف

(٤) لارب : لارم .

(٥) أعيت عليه مذهبه : ضاقت سبله وسرت .

دون الناس ثم هي لا تكشف عن خصوصية في السلوك ، ولكن الشاعر بما كساها
من جرل الألفاظ ، وعجم التعبير ، وجعل الصور قد نثت فيها روحا من عنده ،
وأبرزها في معارض حضارية المعنى ، تكشف عن مظاهر الترف والنميمة التي يرفلون
في ثيابها . . . وهو بذلك حولها من موات حامد إلى صفات تنبض بالحياة .

* * *

ومثال ذلك بأبيته التي يتذمر بها إلى اللذعان من اللذر والتي يقول فيها :

وأبى آيت اللذن أنك لنتى	وتلك التي أهتم منها وأنصب
مبت كأن المائدات فرشن لى	هراسا به يعلى ورائى ويقشب (١)
حلفت فلم أترك لنفسك ربية	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بانث عنى حيانة	لمبانك الوائى أغش وأكذب
ولسكنى كنت امرأ لى جانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب (٢)
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم	أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم	فلم ترم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنك فمس ولللوك كواك	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فلا تتركنى بالوعيد كأنى	إلى الناس مطلى به القار أجرب (٣)
ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب (٤)
ولست بمستبق أخا لآله	على شعث أى الرجال المهذب (٥)
فإن أك مظلوماً فعبدا ظلمته	وإن تك ذا عتبى فملك يعتب (٦)

(١) الرواس بفتحيتين : شجر كثير الشوك ، المائدات : الزائرات في المرض ،
قشب : يجدد .

(٢) جانب من الأرض : متسع ، مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد ، لإعلمه
إلى إكرام الفساسة له .

(٣) القار : الفطران .

(٤) السورة بضم السين : المنزلة ، يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٥) بله : تضمه وتجمعه ، شعث ، فساد .

(٦) العتبى ، الرضا ، بمتب بضم العين وكسر التاء ، مطلى العتبى والرضا .

يقول للثمان إن أبناء لومك إياي على ما بدر مني جعلتني مهموما مكدودا لا يكحل النوم عني ، فأغضى ليلى مؤرقا مسهدا كأني أنام على شوك . ويخاف له بأنه لم يرتكب ذنبا يسيره ، فهو ما زال على عهد الوفي المحاسن ، أما ما بانك عن فهو وشاية الواشين قصدوا به ليهم ما بيني وبينك من هلائق . وكل ما صدر مني أني قصدت ديار المساسمة طالبا منهم عن عشيرتي ، فأزلوني خير منزل ، وأكرموا وفادتي ، وأحسنوا معاملي ، وأحزوا لي العطاء ، فلم يكن مني إلا أن رددت لهم هذا الصنيع بدحهم ، كما يفعل ملك من تهره نوا لك من الشعراء - محتجا بذلك لمساكنة من واقع مدوس لدى الثمان - وليس معنى ذلك أني حرحت عليك ، ولا كفرت نعمتك ، ولا انحرت إلى الفساسة دونك ، وأين هم الفساسة وغيرهم منك ، فأنت بن الملوك كالشمس بين الكواكب ، إذا سطع صرؤها احتفت أضواء الكواكب - موحيا بذلك إلى أنه يرحو منه أن يسطع عليه بالزبد حتى يوارى كل من عداه - ثم يصرح باستعطائه ، فيطلب إليه أن يهفو عنه لأن غضبه عليه جعل الناس يمتارونه كأنه يعبأ أجرب طلي بالقار وأبهدت عنه الإبل صيانة لها منه . وما ذلك إلا لثرائك في نفوس الناس ومكاتبك منهم وتلك إحدى خصوصياتك التي وهبها الله لك . ولكنه بعد إنكاره تهمة الخروج عليه واستقصاء كل ما يزيل آثار تلك الوشاية ينتقل إلى طريق آخر ، ويقول له ، ولو صح أني ارتكبت هذه الهفوة ، فهل يمكن لإنسان أن ينأى عن الخطأ ، ولن يكون لك صديق إذا عزلت من صداقتك كل من يصدر منه هفوة . وأياما كان صميمك مني وإلى راص بكل ما تراه في ، إني ظلمتني فبعد ظلمه سيده ، وإن عفوت عن ذلك أمر طبيعي ؛ إذ مثلك يمتب ويصفح .

ولاشك في أن اليون شاسع بين مدائحه واعتدالياته ؛ إذ هو في اعتدالياته يعتمد على تصوير ضيقه ومعاناته ، وهو فيها مرهف الحس والشعور ، يقطر العقل ، يلمس بها قلب محاطيه ، ويقرع عقله بالحجة الجلية والبرهان القاطع ، حتى تمكن في آخر الأمر من إدارة رأسه واستلال الحقد والنصب من صدره ولقد وصح من هذه الاعتداليات أن النابذة ليس حبيرا بطبائع النفس البشرية حسب بل هو حبير بطبائع الملوك ، ملام بما يؤثر فيهم ، وأقرب شيء إليهم أن تعترف بضعفك أمامهم ، وتقر بسيادتهم عليك .

وواضح أن النابذة لم يحصل على ذلك إلا من مشاكسة القصور ، وممايشة الأمراء

والملك، ومخالطة الحاشية ورجال الدولة والسياسة، شقف بثقاتهم، وتمهـ لم منهم
أساليب محاطة الملك مديحا واستمطافا واعتدار، .

وهكذا اسلخ من طبيعته البدوية، دون أن يحس في ذلك بغضاضة، أو يشعر بما
يشعر به أهله من ضيق، بل كان على العكس من ذلك يرى أن ذلك السبيل حقق له
العبادة بين قومه ـ رضوا بذلك أم كرهوا ـ وهم بحاجة إلى ماله كما هم بحاجة دائما إلى
جاهه ومكانه عند الماذرة والنساسة ولعل من مظاهر ذلك أهم أكبروه وصرخوا له
القبة الحمراء في سوق عكاظ ليحكم في الشعر والشمرء، ويقدم هذا ويؤحر ذلك .

* * *

ومن ثم يتضح الفرق بين النابغة وامرئ القيس، مع اتفاق البيئة الخاصة بهما؛
فامرؤ القيس كان في زفة الأمير ابن الملك الذي يشعر بأصالته فيما هو فيه، وهو مستقل
عن الآخرين، يصنع ما يروقه، ويتحرك من منطلق ذاتي، أما النابغة فيحسن بأنه
ما حقق ذلك الذي هو فيه إلا باستمداده من غيره؛ فالنيمان مصدر نعمته، وهو لذلك
مشدود إليه، لا يستطيع العكك من أسرته الذي يملقه في يدي سيده .

خطاطيف حجن في جبال متيدة تمد بها أيد إليك نوازع

وكان هذا الفارق بين الشعارين أساس اختلافهم في الفنون الشعرية التي تماولاها؛
فهما ـ على الرغم من اتفاقهما في البيئة الخاصة ـ مختلفان فيما يلونها وبشكلها، مختلفان
فيما يحدوها وما يبدأ عنها .

ولم يقف اختلاف النابغة عن امرئ القيس عند حد الاختلاف في الدافع إلى القول
وما نشأ عن ذلك من الاختلاف في الفنون الشعرية . . .

وذلك لأن الناظر في شعر الشعارين نظرة موازنة يلاحظ أن من بين الفوارق
المميزة لكل حرص امرئ القيس في تصويره على الصور التفسيرية المدعمة بالتشبيه
وعيره من ألوان البيان بينما يحرص النابغة في تصويره على الصور البيانية القائمة على
الظرة المحسية المستقصية لأحراء الصورة، والوقوع منها على الجوانب المصورة، كما
رأينا في تصويره جيوش الحارث النسائي وما نحتقه من انتصارات، وتصوير المساسنة
في سلمهم، فيتحدث عن سجاياهم وشيمهم ومعتقداتهم الدينية حديثا يرسم لهم صورة
رائعة في قوله :

لهم شبيبة لم يعطها الله غيرهم من الجود، والإحلام غير عوازم

إلى آخر ما ذكرنا من ذلك آنفا ولا يعنى ذلك أن النابذة لا يستخدم - في تصويرها - الصور التفسيرية ، ولكن الذى أعنيه - ذلك أن النابذة لم يكن يحتفل بهذه الصور احتفال امرى القيس ، ولا كان يعتمد عليها في تصويره اعتماد امرى القيس . من ثم ركز النابذة جهده في الوقوع من ممدوحه على المعاني التي يتمدح بها ، وعرضها في ترتيب متناق أخذ ؛ ورأينا في صوره - لذلك - معاني حصرية جديدة لم تعرف ولا لشاعر الحصر العربي لشاعر البادية الخالص ، تمثل سلوكهم ومعتقداتهم البدئية ، ومظاهر الترف والنعيم في حياتهم .

بيد أن موارنة النابذة بـمـدى بن زيد تكشف عن ما بين الشعارين من علائق تنبئ عما أخذته النابذة من عدى في ذلك ، خصوصا في اعتدالها .

كما يتضح الفرق بينه وبين زهير الذى ارتبط بيئته القباية ، ولم يخرج عليها على الرغم مما أتيح له من أسباب الترف والنعمة ، فانجبه بمدائحها إلى من يقدم الخير لأهله وعشيرته ، فلم يمدح أشخاصا بقدر ما مدح أفعالا ، على عكس النابذة الذى قصد إلى مدح الأشخاص ليدهمهم من وراء ذلك إلى الأعمال . ومن ثم افترق زهير في مدائحها عن النابذة ، فالكسبت مدائح زهير بالصدق الواقعى والنفى ، وكانت نابذة من شعور منسق مع الموقف ، أما مدائح النابذة فكانت معتمدة على الفن المصنوع الذى لا يقوم على تجاوب نفسى ، ولا اساق عاطفى . ولا ريب في أن ذلك أثر من أثار البيئة الحضرية التي ضمت النابذة .

بيد أن بين الشعارين كشابها يتمثل في زوف كل منهما عن الهجاء ، وتحفظه يه إذا اضطر له اضطرار ، وهما في ذلك متأثران بخلق البادية العربية المترفة أو المتحضرة المزوج بالوقار الذى أضفاه على كل منهما مركزه بين عشيرته وتقدمه في السن ، فلما كان زهير يمتنع من الخوض في عرس مهجوه ، والإقذاع في شتمه وسبه ، كان في قوله يهجو عامر بن الطفيل ردا على هجائه إياه :

فإن بك عامر قد قال جهلا فإن مطية الجهل السباب

فكن كأيك أو كأي براء توادتك الحكومة والصواب (١)
ولا تذهب بملك طاميات من الخيلاء ليس لمن باب (٢)
وإنك سوف تحلم أو تنامى إذا ماشيت أو شاب الفراغ (٣)

ولعل هذا الاتجاه للحفاظ في هجائه كان أحد الأسباب التي مكنت له في نفوس
معاصريه من مختلف القبائل والمشائر فحكوه بين الشعراء في أسواقهم الأدبية .

-
- (١) أبو براء : عامر بن مالك ، ملاعب الأسنة ، وهو عم عامر بن الطفيل .
(٢) طاميات : فاضات ومرقعات . ليس لمن باب : ليس لمن محرر .
(٣) أو شاب الفراغ : ضرب النابغة ذلك مثلا لعامر ، وأنه لن يحلم أبدا .
(١٥ - الأدب العربي)

العباس بن مرداس السلمى

مولده ونشأته :

أبو الهيثم^(١) العباس بن مرداس بن أبي عامر ينتهى نسبه - على الخلاف فيه^(٢) - إلى سليم بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، أما مولده ونشأته شأن مولده معاصريه ، لم يكن ميسورا أن يعرف على وجه التحديد متى ولد . وكل ما تحمله كتب التاريخ من مجموع الروايات التى تتناول نشأته أن حياته تورعتها الجاهلية والإسلام . وأنه قضى فى الجاهلية من عمره ما يمكن معه من أن يكون فارسا ذائع الصيت بين قومه ، وأن يكون شاعرا له شأنه ، فهو بحق محصم .

وكان أبوه - مرداس بن أبي عامر - من سادة سليم وعرسانها ، حضر يوم شعب جيلة مع بنى عامر ، وأبلى فيه بلاء حسنا واشتهر - إلى جانب هروسيته - بالكرم حتى لقب بالفيض ، وكان شريكا لحرب بن أمية فى القرية ، التى دفن فيها بعد موته وقد ادعاها كليب بن أبي عهمة السلمى لنفسه ، واستولى عليها^(٣) ، وفى ذلك قال العباس قصيدته النونية يطالب فيها كليبيا بالكف عن الظلم ، وإعادة القرية إلى أصحابها ، وفيها يقول^(٤) :

(١) اختلفت الروايات فى كنيته بين د أبو الهيثم ، ، و د أبو الفضل ، ، راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لأبى عمرو بن يوسف بن عبد الر على هامش الإصابة طبع للتجارية ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء لأبى عبد الله محمد بن عمران للربانى طبع الحلبي ص ١٠٢ (٢) انفتت الروايات على نسبه حتى جسده أبى عامر ، ثم اختلفت فيما بعد ذلك راجع الاستيعاب ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء ص ١٠٢ . والأغاني ج ٤ ص ٣٠٢ ، والإصابة ج ٢ ص ٣٦٢ ، وطبقات بن سعد ج ٤ ص ٢٧١ ، وجمهرة أسباب العرب لابن حزم ص ٢٦٣ . (٣) الأغاني ج ٦ ص ٣٤١ طبع دار الكتب . (٤) انظر ديوان العباس ص ١٠٨ بتحقيق د / يحيى الجبورى طبع بمسجد ١٩٦٨ .

أكلب مالك كل ظالما والنظم أنكد وجهه ملمون
إن القرية قد تبين أمرها إن كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت نخطها لى ظالما وأبو يزيد بجوها ممدون

وقد زوج مرداس أكثر من زوجة ، كان أشهرهن تماضر الخنساء بنت عمرو بن
الشمرید السلية الشاعرة ، وكانت تزوجته بمد زوجها الأول رواحة بن عبيد العزى ،
وبقيت مع مرداس حتى مات فعزنت عليه ورثته .

وكان تعدد زوجات مرداس سببا في احتلاط الأمر على المؤرخين ، حين أرادوا
التعريف بأم العباس بن مرداس ، فقد سبق إلى وهم الكثيرين أن الخنساء هي أم
العباس (١) .

لسكن الذي نبين لى من البحث أن أم العباس هي هند بنت سة بن سنان - وكانت
رنجية سوداء - وهي إحدى النجيات على ما ذكره ابن حبيب (٢) ؛ فالخنساء لم يرد في
شعرها ما يدل على أن العباس ابنها ولم ترد إشارة في شعر العباس تفيد أنها أمه . وقد أيد
الجاحظ ما ورد عن ابن حبيب ، فقد ذكر في رسالة فخر البيضان على السودان ما يشير
إلى أن أم العباس رنجية ، وذلك في أثناء القصيدة التي أوردها لسبيح بن رباح الزنجي
في هجاء جرير بن الخطمي حين انتقص الزنج ، وفيها عدد الشاعر أبناء الرنجيات مقتضرا
بما لهم من مكانة ، ومنهم : حفاف ابن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وابن شداد عترة
الفوارس وأخاه هراسة - وسليك بن السلكة . ومطلع قصيدته تلك :

ما بال كلب من كليب سبنا - إن لم يوارن حاجيا وعقالا (٣)

وقد ولدت الخنساء لمرداس معاوية ويريد وعمرا وعمرة وكانت شاعرة - فكانوا
إحوة العباس لأبيه على الصحيح ، أما عبد الله بن رواحة بن عبد العزى المعروف
بأبي شجره فليس أحبا للعباس بن مرداس ، ولكنه ابن الخنساء زوج أبيه ، وكان

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، والأصميات لعبد الملك بن
قريب الاسمي بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . ودائرة المعارف الإسلامية
ج ١٢ ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ . (٢) انظر المحبر لمحمد بن حبيب ص ٤٥٥ ، ص ٤٥٦
(٣) انظر رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢
طبع الخايجى بالقاهرة .

لقد أسلم مع سليم وارتد مع من ارتد منها، ولحق بطليحة مع صحبه، ويدكر أنه أسلم بعد ذلك ودخل فيها دحل فيه الناس^(١)، ومن إخوة العباس أيضا عمارة بن مرداس الذي قتله بنو خولان في حقل من نواحي صعدة، ورثاه العباس بقصيدة، جاء فيها :

أبمد عمار الخير زجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
ملا وضمت عندي حصان حمارها ولا ظفرت كسفي بقرن أنازله
لأن لم أزر خولان في عقر دارها بأسر عن رجا ف تزجى قنابله^(٢)

وقد تزوج العباس في الجاهلية حبيبة بنت الضحاك بن سفيان السلمي - وكانت شاعرة - ، ولكنها هارقت حين علمت بإسلامه ، وقالت تهجوه وتوعده بما ينتظره إذ فارق دين آباءه :

لمعري لئن تابعت دين محمد وطارقت إحوان الصفا والصنائح
لبدات تلك النفس ذلا بمزة عداة اختلاف المرفقات للقواطع^(٣)

ثم تزوج بعد إسلامه ، لكننا لم نقف على اسمها ، وكان له من الولد : كنانة ، وسعيد ، وعبيد الله ، وجاممة ، وقد أسلم جاممة وكان له محبة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم بعض الحديث ، وكان تواقا للجهاد في سبيل الله فقال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك ، فقال : هل لك من أم؟ قال نعم . قال فآزمها فإن البجة تحت أرجلها^(٤)

* * *

أما حياة العباس فمن ثنايا الأخبار القليلة المتناثرة هنا وهناك نستطيع أن نقرر

-
- (١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦
(٢) الديوان ص ١٣٧ ، وانظر صفة جزيرة العرب لابن محمد الحسن بن أحمد
الهمزاني ص ٢٨٠ ، ص ٢٨١ مطبعة السمادة بمصر ١٩٥٣ ، ومعجم البسلدان ج ٧
ص ٢٨٧ ، ص ٢٧٩ .
(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٣٠٤
(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧٤

أنه كان ذا مكانة مرموقة في قومه ؛ لما ضم من شمائل وصفات ؛ فقد كان عاقلا متزنا حرم على نفسه الخمر في الجاهلية ، ولما قيل له ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد في جرأتك ويقولك ، فقال : أصبح سيد قومي وأمسى سفهم (١) . واعتزازه بمكانته في قومه وزعامة أمته جعل منه فارسا منوارا يشاركون في حروبهم ومدافعنا عنهم ، ومتماطلا مع رغباتهم ؛ ولقد صور ذلك في شعره ، وافتخر بشجاعتهم في مثل قوله :

وكما إذا ما الحرب شبت نشبا ونضرب فيها الألجج والمتعاسا
فأبنا وأبقي طمنا في رماحنا مطاردحطى وحمرا مداعسا (٢)

وحينما أغارت بنو نصر بن معاوية على ناحية من أرض بني سليم نهس العباس لمقاومتهم في جمع من قومه وقائلهم حتى أكثر فيهم القتل (٣) ، وصور ذلك في ميميته التي منها قوله :

وما زال منهم رائف عن سبيلها وآخر يهوى للبيدين وللهم
لئن غدوة حتى استبيحوا عشية وذلوا فكانوا لحة المتاحم (٤)

واشترك في أكثر أيامهم مثل يوم الفيفاء، وبرزة ، والاكديد (٥) ، ويوم تثليث، وفي هذا اليوم تولى العباس زعامة سليم حين غزت مرادا فجمع لهم عمرو بن معد يكرب، ثالثي الجيشان بتثليث ، وصيرا ولم تظهر طائفة منهما بالأخرى ، وفي ذلك قال قصيدته الحسينية ، وهي إحدى القصائد المنصتات (٦) .

كما كان في كثير من شعره الجاهلي اللسان الناطق بأعجاب قومه، المدافع عنهم ، المفتخر ببلاتهم ، وشجاعة مرساتهم . على نحو ما قال في الرد على خصمهم عبد الله بن جندل غداة يوم برزة :

ألا أبانا عن ابن جندل ورهطه فكيف طلبناكم بسكرز ومالك

-
- (١) انظر تهذيب تاريخ ابن عساکر ج ٧ ص ٢٦٥ ، وانظر قطب السمرور في
أوصاف الخمر ص ٤١٦ (٢) الديوان ص ٧١
(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ طبعة ساسي (٤) انظر الديوان ص ١٤٦
(٥) انظر المقدم الفريد ج ٥ ص ١٣٤ ، ص ١٧٤ ، ص ١٧٦
(٦) انظر العمدة لابن رشيقي ج ٢ ص ١٦٨

غداة فجنناكم بمحصن وبابنه وبابن المولى عاصم والمبارك
نذيقكم الموت بيني سرادقا عليكم شباحد للسيوف البوانك
تلوح بأيدينا كالبحر بارق تلالا في داج من الليل حالك
صبحناكم العوج المناجيج بالضحى تمر بنا حر الرياح السواهلك (١)

بيد أننا نلاحظ وجود خصومة بينه وبين ابن عمه خفاف بن ندة من قوله :
وعـل الله يـمكن من خفاف فأسقيه القى عنـما يـجيد (٢)

وترجع هذه الخصومة إلى تنازعهما على زعامة قومهما بعد مقتل صخر بن عمرو بن
الشريد في يوم « ذات الأثل » الذي كان يتولى تلك الزعامة آنذاك (٣) . وقد ولدت
هذه الخصومة معارك شعرية بين الشعارين ، لبست ثوب المناقضات ، وكان للعباس
منها إحدى عشرة قصيدة .

وكما يكشف شعره عن هذه المعركة اللسانية بين الشاعر وابن عمه ، يكشف كذلك
عن معركة أخرى حربية نشبت بينه وبين أحد الصناديد المدودين في عصره ، هو
عمرو بن معد يكرب ، في نحو قوله :

ألا أبلانا عمرا على نأى داره فقد قلت قولاً حائراً غير مهتد
اتهدى الهجاء لامرئ غير مفهم وتهدى الوعيد لامرئ غير موعد
فإن تلقى تلقاً أسراً قد بلونه حديثاً وإن تفجر على تفعد (٤)

وفي الحديث عن تلك الخصومة يذكر ابن عبد ربه أن عمرا قد فر من العباس في
إحدى المعارك ، وأن العباس أسر رجحانة أخت عمرو الذي أشار إلى ذلك الحدث في
مطلع قصيدته البيئية حيث يقول :

(١) الديوان ص ١٣٠

(٢) الديوان ص ٤٢

(٣) راجع أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد وآخر ص ٣٩٩ طبع الحلبي

(٤) الديوان ص ٤٧

أمن ریحانة الداعی السميع یؤرقی وأصحابی هجوع (١)

وكان العباس في جاهليته على علاقة طيبة باليهود - خصوصا يهود حير - الأمر الذي حمله يدافع عنهم ويبيح قتالهم في حربهم مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة مثل قوله في إجلاء بن الضير من ديارهم ، والتحزن لما أصابهم :

لو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملمبا (٢)

وقوله في الرد على حوات بن جبير وما قاله فيهم :

أخوات ادر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم وسكب ارب (٣)

يؤيد هذا ما رواه صاحب الأغاني من تحاور بين العباس بن مرداس وحوات بن جبير أمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ فقد قال حوات : يا عباس أنت الذي رثيت اليهود فقد كان منهم في عداوة رسول الله ما كان ؟ ا فقال عباس : إنهم كانوا أحملا في الجاهلية ، وكانوا أقواما أنزل بهم فيكرموني ، ومثلي يشكر ما صنع إليه من الجليل (٤)

* * *

هذا العباس في الجاهلية وقبل أن يدخل الإسلام كما صورته الأخبار والإشارات المتناثرة هنا وهناك .

أما حياته في الإسلام فكانت أوضح منها قبل ذلك شيئا ما ؛ فقد خرج في قومه عام الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه بتقديد فأسلموا جميعا ، وقالوا اجعلنا في مقدمتك ، واحمل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدم ، فعمل ذلك بهم (٥) ؛ ليفتحوا بذلك صفحة جديدة بعد مقاومة وعباد في مواجهة الدعوة الإسلامية ، وإصرار على عبادة الأصنام وكان لكل صنم يتمعب لعبادته ويكب عليه . روى أنه كان لمرداس وثن يعبده

(١) العقد المرید ج ١ ص ١٤٦

(٢) الديوان ص ٤٠

(٣) الديوان ص ٣٨

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٨ طبع دار المكتبة .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٣٠٧

وهو حجر يقال له « ضار » - فلما حضر مرداس الموت قال العباس : أى بنى أعبد
« ضار » فإنه يهلك ويضرك ، فبينا عباس يوماً عند « ضار » إذ سمع من جوف
« ضار » منادياً يقول :

قل للقبائل من سليم كلها أودى ضار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى بمدابن مريم من قریش مهتدى
أودى « ضار » وكان يهدمه قيل الكتاب إلى النبي محمد (١)

لا ينبغي هنا من القصة وأحداثها أكثر من أن نعرف أن العباس بن مرداس
ورث عن أبيه وثماً ، قام بمبادته قبل أن يعتنق الإسلام ، وأن هذا الوثن كان يسمى
« ضار » ، أما ما عدا ذلك مما يثار حوله الشكوك فليسنا في مجال تحقيقه وبحث مكانه
من الحقيقة .

لقد أسلم العباس بن مرداس بعد هذه الحياة الوثنية ، وحين إسلامه ، حتى أصبح
من جنود الإسلام المدايين عنه ، والداعين إليه في كل مكان ، فشهد مع الرسول
صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، ويوم حنين ، حمل لواء مرداس يوم فتح مكة وخفاف
ابن ندبة تحت قيادة خالد بن الوليد (٢) ، أما في يوم حنين فقد أبلى هو وقومه بلاء
حسناً ، وأشرك شمره في المعركة ، انتهى فيه بأعجاب المسلمين ، وأوضح دور بنى سليم في
المعركة في محو قوله :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضافت بالفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لا يستقرنا قراع الأعدى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخدروف السحابة لامع (٣)

بيد أنه في يوم حنين كان ما يزال خاضعاً لمؤثرات الجاهلية ، ولم تكن مبادته
وسلوكياته وأمكاره قد أخذت منه مكان القيادة والتوجيه ، فقد روى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة من الإبل من غنائم حنين ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) انظر امتاع الأسماع للمقرئى ج ١ ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٣

(٣) الديوان ص ٨١

وأعطى عيينة بن حصن الفزاري مائة من الإبل ، وأعطى العباس دون المائة فسخطها
فقال يما تب الرسول صلى الله عليه وسلم :

كانت نهـ ابا تلافيتها	بكرى طى للمهر فى الأجرع
وإقاضي القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أهجع
بأصبح نهى ونهب العيبـ	د بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذاتد	رىء لم أهط شيئا ولم أمنح
إلا أفابل (١) أعطيتـا	عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس	يفوقان شيخى فى المجمع
وما كنت دون امرىء منه	ما ومن تصع اليوم لا يربع

فقال صلى الله عليه وسلم : أذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حق رضى ،
فكان ذلك قطع لسانه (٢) .

ولم يكن موقفه هذا هو أول مواقفه المادية التى تدل على ما استقر فى نفسه من روح
الجاهلية ولم يتأثر بمد بالخلق الإسلامى فقد سبق هذا موقف آخر شبيه بذلك ، حين
عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رد سبائهم وازن وأموالهم إليهم ، ورد المهاجرون
والأنصار نصيبهم ، وقالوا ما كان لنا فهو لرسول الله ، أما زعماء الأعراب من المؤلفة
قلوبهم فكان لهم غير هذا الشأن ، فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ،
وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا
وبنو سليم فلا ، فقالت نوسليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقال عباس بن مرداس لقومه : وهنتمونى (٣) .

(١) أفابل ؛ الأبليل : المنير من الإبل والنعيم ، وجمعه إفال - بكسر الهمزة -
وجمع الجمع أفابل .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ طبع المطبعة الخيرية بمصر
سنة ١٣٢٩ هـ ، وإمتاع الأسماع للمقرئى ج ١ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، والطبقات الكبرى
ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٢ .

(٣) السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٠٩ الطبعة السابقة .

لكن الإسلام ظل يتنازل في نفس العباس طى مر الأيام حتى أصبح موضع ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقامه على صدقات بنى سليم ويرغبهم في الصدقة استعداداً لنزوة تبوك^(٢) ، وهكذا حتى جاء اليوم الذى كان فيه العباس بن مرداس واحداً من رواة حديث النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان مقلاً - فقد روى أبو دارود وابن ماجه عنه حديثاً في عموم الغفرة للحجاج يوم عرفة^(٣) ، وقال عنه العجلي : هذا حديث غريب ، وليس يروى عن العباس بن مرداس سوى هذا الحديث^(٤) ، غير أن الحافظ ابن حجر العسقلانى تعرض لهذا الحديث بالدفاع والتصحيح ، والرد على ابن الحوزى الذى أوردته في الموضوعات وأشار إلى أن له أحاديث أخرى غير هذا الحديث^(٥) .

* * *

ومع مامرت به حياة العباس بن مرداس من تقلبات وتغيرات - حيث انتقل من الجاهلية إلى الإسلام - لم يغير مقامه ، فقد ظل يقبم ببادية بنى سليم في الجاهلية ولزمها في الإسلام فترة من الزمن يبدو أنها امتدت حتى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان يحضر من بادية بنى سليم ليشارك مع النبي صلى الله عليه وسلم في النزوة ، ثم إذا فرغ من مهمته عاد إلى بلاده ، ولم يبق في مكة ولا في المدينة^(٦) ، ولما انتقل إلى البصرة حين اختطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - كان ينزل في بواديه^(٧) ، مما يتضح مما مدى تعلقه بأرض قومه ، وارتباطه بالحياة البدوية . وإثارة العيش في أكساف البادية على الحياة في المدينة أو الحاضرة .

وكالم تحدثنا المصادر التاريخية عن ميلاد العباس في جاهليته ، لم تحدثنا كذلك عن وفاته في الإسلام إلا الحديث المحتمل الذى لا يدعمه السند القاطع ، وابن حجر

(١) راجع تهذيب تاريخ ابن عساکر ج ٧ ص ٢٥٥ ، وأسباب الأشراف ج ١ ص ٥٣٠

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦ (٣) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٤) القول المسدد في الذب عن مسند الإمام ص ٤٩ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠ . (٦) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٣

(٧) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢٧٢ .

العسقلاني يقدر أنه مات في خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه^(١) ، وصاحب الأغاني ثم يحدد لوفاته سنة بعينها ، ولكنه ذكر أنه مات في الإسلام^(٢) ، أما الزركلي فذكر أنه مات بالشام سنة ١٦هـ^(٣) ، دون أن يشير إلى المصادر التي استقى منها هذا التحديد.

على أى حال المقطوع به أن العباس بن مرداس مات في الإسلام ، وقد أنارت وفاته أشجان أحيه سراقه بن مرداس ، وأخته عمرة بنت الحنساء فرثياه بشعر يفرض أسى وحرنا على فراقه ؟ وكان مما قاله سراقه :

أعين ألا أبكي أبا الهيثم وأدرى الدموع ولا تسمى
وأنتى عليه بآلائه بقول امرىء موجه مؤلم
فما كنت بألمه بامرئىء أراه ييسدو ولا موسم
أشد على رجل ظالم وأدمى لدهاية ميثم^(٤)

وقالت أخته عمرة :

لتبك ابن مرداس على ما عرام عشيرته إذ حم أمس روالها
لدى الخصم إذ عهد الأمير كفام فكان إليه وصلها وجدالها
ويعضه للحاملين كفتها إذا أنهت هوج الرياح طلالها^(٥)

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه بدوى حالص البداوة ؛ فهو مرتبط بقبيلته ، حربص على مكانته معها ؛ لا يرضى بالحياة بين عشيرته ولا فوق أرض سليم بديلا ، حتى حين تيسر له أن يجد متسعا من الحياة خارج حدود باديته لم يقبل أن يستبدل بها أى موطن آخر ، على الرغم مما فى هذا الوطن الجديد من مغريات ، وما يتوفر له من عوامل الجذب - ويكفى أن يكون من بين ذلك ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم -

(١) راجع تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٢) انظر الأغاني ج ٤ ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٣) الأعلام ج ٥ ص ٢٢٥

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٩ طبع دار الكتب .

(٥) المرجع السابق ج ١٤ ص ٣١٩ وشرح الحماسة للمرزوقى القسم الثالث ص ١٠٩٩ .

هو تحت إلحاح الضرورة لا يجد مندوحة من مفادرة البادية حتى إذا أدى ما عليه ، من واجب الجهاد عاد إليها . بل إنه حين فسكر في الخروج إلى البصرة على عهد عمر رضى الله عنه ، أبى أن يكون خروجاً إلى اللدينة ، وأكثر بادية البصرة ، ليستبدل بادية ببادية .

واسنا بمدد البحث عن السمر في إيثار العباس بن مرداس حياة البادية على حياة الحاضرة ؛ فهذا له مجال آخر غير بحسبنا ، إنما الذي يميننا هنا أن نحاول التعرف على أثر ذلك في أدبه .

والذي يطر فيها وصلنا من شعر العباس يلاحظ أثر هذه البيئة البدوية فيه واضحا كل الوضوح ؛ يلاحظ ذلك في منونه الشعرية ، ويلاحظه في أمسكاره ، ويلاحظه في ممانيه وأحليته ، ويلاحظه في أسلوبه ومنهجه الفنى في عرض أمسكاره وممانيه ، ويلاحظه في معجم ألفاظه والأعلام التي ترد فيه .

فالشاعر يكاد يقصر شعره على الفخر والهجاء . ولا ريب في أن هذين الفنين هما أبرز فنون الشعر البدوى الخالص من التيارات الأخرى ، وذلك لأن البدوى الفارس الذى استقرت حياته بين قومه في البادية لا يجرى نفسه إلى قول الشعر إلى موقف يتطلب منه الاعتزاز بنفسه وبقبيلته ، وينطلق معددا مفاحره على اختلاف مظاهرها . أو موقف يتطلب منه الرد على من أساء إليه أو إلى واحد من أبناء قبيلته أو تطاول على حلق من أخلاقهم ، أو شذ عن أحد أعرافهم ، فيطلق لسانه عندئذ بتصوير هذه العيوب ، وإبراز تلك الثائب ، حتى يتحاشاها هو ومن على شاكلته . . . أما ماعدا ذلك من فنون الشعر فيلاحظ أن الشاعر لم يقبل عليها إقباله على هذين الفنين ، ولكنه تناول ما تناوله منها في شعره عرضا وليس باعتبارها فنا مستقلا ، وما استقل منها بالتناول فهو قليل نادر ، على ما سنفصله إن شاء الله تعالى .

* * *

١ - لقد كان الفخر - ومارال - من ألزم الصفات للسان ، بيد أنه يختلف من فرد إلى آخر ، وفقا لظروفه البئية ، فما يفتخر به الإنسان في الحاضرة غير ما يفتخر به في البادية وما يفتخر به في إحدى الحواضر غير ما يفتخر به في حاضرة أخرى ، كما أن لكل بادية مفاحرها التي يمتز بها ساكنوها . بل إن المفاحر في الوطن الواحد تختلف باختلاف مراحل العمر وأطواره ؛ ففي مرحلة قديفتخر الإنسان بالطيش والاندفاع وراء

العاطفة ، لكنه في مرحلة أخرى يمتاز بالحسكة والأناة والبروى . وقد توجه الإنسان
بفخره إلى تعداد مناقب قومه ، وقد يكون ذلك بتعداد مناقبه الشخصية ، وقد يجمع
بين هذا وذلك ثم إن ما يفخر به الشاعر قد يكون صفات عريضة ومحاسن جسمية ،
وقد يكون مضائل نفسية وسجابا خلقية .

ونحن حين نتفحص شعر العباس بن مرداس نلاحظ أنه جمع بين ذاته وقومه ،
فكما اتخز بنفسه افتخر بقومه ، وأنه حرص على التغنى بالفضائل النفسية والسجايا
الخلقية التي قامت عليها نفسه ، وارتكزت عليها قبيلته .

من ذلك ما قاله في الفخر على حفاف بن ندية ، فهو ليث يحمى عربته ، ولا تغلت
من بين برائه مريسة أتجه إلى قنصها (١)

إن تلقى تلق ليثا في عربته من أسد حفاف في أرساغه فدع (٢)
لا يبرح الدهر صيد قد تنصه من الرجال على أشداه القمع (٣)

وقوله حفاف أيضا إنك حين لثمتي لا تنال مني ، لأنك لو تبينت لأمر لدرت أنك .
ترى هضبة صلبة على عرض ناصع طاهر لا يقبل الدم ولا التجريح ، وإنى فارس أرى
من قوم أباة شجيمان (٤) .

ألا أيها المهدي لى الشتم ظالمًا تبين إذا راميت هضبة من ترى
أبى الدم عرضي ، إن عرضي طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم (٥)

(١) الديوان ص ٨٧

(٢) الأرساغ جمع رسغ - بصم الرء - والرسغ مفصل ما بين الساعد والكف ،
والساق والقدم . والهدع - بفتحين - عوج في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها ،
وأكثر ما يكون في رسغ اليد أو القدم .

(٣) القمع - بفتحين - عظم نأى في الحجرة من الخارج ، أو طبق الحلقوم
وهو مجرى النفسى إلى الرئة .

(٤) الديوان ص ١١٠

(٥) الغشم - بفتح فسكون - الظلم ، يقال غشمت الرجل ظلمته أشد الظلم .

وإني من القوم الذين دماؤهم شفاه لطلاب الترات من الرغم (١)
وقوله يهخر على عمرو بن معد يكرب ، حين افتخر عليه عمرو وبجسبه واسمه
وعشيرته ، فقال ناقصا عليه مفاحره ، ومفتحرا بأصوله وأحسابه ؛ فهو إيتى إلى قيس
ابن عيلان المصري ، وأحسابهم وأحاديثهم ذمة لا يسديها الجول (٢) :

وإن تلك من سد المشيرة تلقى إلى الفرع من قيس بن عيلان مولدى
إلى مصر الجراء نعى حدودنا وأحسابنا ومحدثنا عير قعد (٣)
مسائل نسا علينا ريمة إنها أحونا وإن نقصر عن المجد نرد

وفي طلال لإسلام بدأ العباس يتجه بالفخر متجها آخر ، فاعتراه في حربه بقومه
أكثر وصوحا ، وارتكازه في حربه على شجاعة قومه وإقدامهم ، ليس لإشاعة الظلم ،
ومرض اللطان . ولكن لنصرة الإسلام ، والسعى لرضا الله ورسوله ، من ذلك
قوله مفتخرا بما كان من قومه الدين آمدوا جيش المسلمين يوم حنين بألف فارس
لينصروا رسول الله ، فخاصوا العركة حاملين الراية في أهلا الرمح يدعون بها في
ميدان القتال فصبروها بدماء الأعداء (٤) :

نصرنا رسول الله بن عصب له بألف كفى لا تمد حواسره
حماسا له في عامل الرمح راية يدود بها في حومة الموت ناصره (٥)
ونحن حضانها دما فهو لونها عداة حين يوم صفوان شاحره

وهم حاضوا غمار الحرب في حين حاملين أرواحهم على أكرمهم في ثبات وصبر
خلف الصحاك بن سفيان الذى أمره الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بى ذلك اليوم
دون أن يحدوا غضاضة ؛ فهم إنما خرجوا لنصرة الرحمن ودينه (٦) :

(١) الترات جمع ترة - بالكسر - وهى مصدر ونزه يتره إذا قتل حميمه وللقصود
الثأر ، والرعم - تثنية الراء - الكره والذل ، يقال فعل هذا الشيء على رعمه .

(٢) الديوان ص ١٣٠

(٣) القممد - بهم فسكون وضم - الجبان ، الحامل يقعد عن المسكالم .

(٤) الديوان ص ٥٦

(٥) عامل الرمح أهلاه مما يلى السنان بقليل

(٦) الديوان ص ٥٤ ، ص ٥٥

واذكر بلاء سليم في مواطنها وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر
ومحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عرا وعمد الله مدحر
إذ رك الموت محصرا بطائمه والحيل ينجاب عنها ساطع كدر
نحت اللواء مع الصحاك يقدمنا كما مشى الليث في غاباته الخدر (١)

ويطل العباس في شرفه على هذا النهج ، فيكرر إلحاحه على أن قومه وهو الرسول ،
وناصروه ، وداموا عن دين الله ، حتى عرف بهم وتحقق النصر بألف الفارس السلمي
الصادقين المحاصرين ، مثل قوله (٢) :

وأنا مع الهادي الذي محمد وبيننا ولم يستوفها . عشر ألفا
فتان صدق من سليم أعة أطاعوا لما يصون من أمر حرقا
بنا عز دين الله غير تمحل وردنا على الحى الذى قمه صففا
عداة وطشنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

ولا ريب في أن أثر الإسلام - هنا - واضح ، حيث حول العباس في شرفه من الفخر
الشخصي والفخر القبلي إلى الفخر ناشترا كما هو وقومه في معركة من أخطر معارك
المسلمين ، ومساهماتهم في أحداث يوم من أبرز أيام الإسلام الناصلة ، دون غرض شخصي ،
أو دافع قومي ، يوضح ذلك قوله (٣) :

رضا الله نرى لا رضا الناس نبتنى والله ما يبدو جميعا وما ينحى

وقوله مشيدا بقيادة الصحاك بن سفيان السكلاي الذي ولاه الرسول صلى الله عليه
وسلم قيادة بني سليم ، ومفتخرا باستجابتهم له ، كالأسود تأهبت للمراك طاعة لربهم ،
وحبا لرسول الله حسب (٤) .

(١) يقال حدر الأسد لزم عرينه وأقام فيه .

(٢) الديوان ص ٨٩ ، ٩٠

(٣) الديوان ص ٩٠

(٤) الديوان ص ٩٥ ، ٩٦

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضعفا كما
رجلأ به ذرب السلاح كأنه لما تكلفه العدو يرا كما

* * *

وبو سليم ممنقون أمامه ضربا وطعما في العدو درا كما
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد المرين أردن ثم عرا كما
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهو ا كما

ولأن شجر العباس - في الغالب - يدور على شجرة بالشجاعة والإقدام في الحرب ،
والتماني في طاعة الله ورسوله . . . جاء شجرة بمتراجا بالحماسة ، أو قل إن شجرة لون من
ألوان الحماسة ؛ فأنت لا تكاد تثر له على ممتعة يفتخر بها غير مناقب الفارس المقاتل .

هدا إلى أن شجرة أو حماسه ذلك يكاد يدور حول معركة حنين . . . ويبدو أن
لقرب إسلام العباس وقومه من هذه المعركة أثره في إبرازها في شعره ، وشجرة بما كان
من قومه فيها ؛ فهم - إلى ذلك - تكشف عن فرحة كامنة في النفس بالدهول في
الدين الجديد ، ومصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل في هذا تفسيراً لقوله في
يوم حنين وحده سبع قصائد منها قوله (١) :

فجئنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية أسير (٢)
وأم الجمع جمع بن قبيس على حنق نكاد له نظير
وأسم لوهم مكثوا لسرا إليهم بالجنود ولم يمرروا (٣)

* * *

٢ - وإذا كان الفخر من ألزم الصفات للإنسان ، فإن الهجاء - في الغالب - مما
يستلزمه الفخر أو يستدعيه ويتطلبه ، خصوصا في البيئات البدوية ، وذلك لأن الفخر

(١) الديوان ص ٥٠ ، ٥١

(٢) ضحا يضحو ؛ برز للشمس .

(٣) غار الماء يغور ؛ ذهب في الأرض وسفل فيها ، والمقصود : ولم يفروا .

إنما هو امتداح الإنسان نفسه أو قبيلته ، فهو - كالممدح - في مقابلة المهجاء ، أى أن المهجاء يمتدح الفخر والممدح تماما ، فإذا كان الفخر - كما قررنا - يختلف باختلاف الشاعر وبيئته وملابساته ، فإن المهجاء - كذلك - يختلف باختلاف بيئات الشاعر وملابساته وثقافته .

والمهجاء في شعر العباس بن مرداس يثبتك عن أنه دفع إليه دفعا ، فلم يكن بطبعه ميالا إلى هذا الفن الشعري ، وإنما هو به واقع تحت تأثير بعض آرائه ممن كانوا يشيرون غضبه بما يبدوونه نحوه من أحقاد ، وإسبيونه من عنف وضيق ، مثل ابن عمه خفاف بن ندبة ، وعتبة بن الحارث ، وعمرو بن معد يكرب . والشاعر يوضح ذلك بنفسه ويفسر اتجاهه إليه حين يواجه من يلومه في المهجاء بالاستنكار عليهم وذلك في أثناء هجائه سفيان بن عبد يثوث بقوله^(١) :

الأم على المهجاء وكل يوم تلاقي من الجيران غول

ويلاحظ أنه في هجائه اعتمد على سلب الصفات الخلقية ، وللمعاضد النفسية ، يصف مهجوه بعدم الوفاء ، ونكران الجميل كقوله لسفيان ابن عبد يثوث^(٢) :

ألا من مبلغ سفيان عني وظني أن سيلفه الرسول
ومولاه عطية : أن قبلا حلامي وأن قد بات قيل
سئمت ربكم وكفرتهموه وذلكم بأرضكم جميل
ألا توفي كما أوفى شبيب فحمل له الولاية والشمول

أو يصفه بالقدر ويصفه بالخنا والمخافة ، كما في قوله يهجو عتبة بن الحارث^(٣) :

كثر الضجاج وما نيت بقادر كمتيبة بن الحارث بن شهاب
جلت حنظلة المخافة والخنا ودنست آحر هذه الأحقاب^(٤)

(٢١) الديوان ص ١٣٥

(٣) الديوان ص ١٣٦

(٤) المخافة : الخيانة . والخنا - بالفتح - المحش في الكلام .

(١٦ - الأدب العربي)

وقد يكون الهجاء في أثناء الفخر ، فيأبى مزيجاً من الهجاء والفخر والحماسة ، كما في قوله يرد على عمرو بن معد يكرب هجاءه ، ويميره بالتخاذل أمامه (١) :

ألا أبلغا عمرا على نأى داره	هقد قلت قولاً جاثراً غير مهتد
أنهدى الهجاء لاصريء غير مفحم	وتهدى الوعيد لاصريء غير موعد
فإن تلقى تلقى امرأ قد بلوته	حديثاً وإن تفجر على تفند
لم تعلمن يا عمرو أى لقيتكم	لدى مآقط والحيل لم تتبدد
ومازلت أحمى محبتي وأذودنم	برعى حتى رحى قطر بطردى

إنه فارس حتى في هجائه ؛ فهو عف اللسان ، لا يعيب مهجوه بما تتقذى به الاسماع ، وإنما هو إلى الواصف المقرر أقرب منه إلى الذام الشاتم الذى يتصيد المايب ليصم بها من يهجوه ؛ فلا نجد في هجائه حشاً يخدش الحياء ، كما في رده على ابن عمه خفاف ابن ندبة حين هجاء (٢) :

خفاف ما تزال تجر ذبيلاً	إلى الأمر الفارق الرشاد
إذا ما عا تبتك بنو سليم	ثبيت لهم بداهية نآد
وقد علم العاشر من سليم	بأى فيهم حسن الأيادى
فأورد إخفاف قد بلينم	بى عوف بحبسة بطن واد

ولعل أوسع ميادين هجائه تلك المناقضات التى دارت بينه وبين معاصريه ممن كانوا ينافسونه على الزمامة ، كذلك التى كانت بينه وبين خفاف بن ندبة ، فقد هجاء خفاف بقصيدته التى منها (٣) :

يا أيها المهدي لى الشتم ظالماً	ولست بأهل - حين أذ كر - للشتم
أبى الشتم أبى سيد وابن سادة	مطاعين فى الهيجام مطاعيم للجرم
هم مسحوا الضراً أبالك وطاعنوا	وذاك الذى يرمى ذليلاً ولا يرمى

(١) الديوان ص ٤٧ .

(٢) الديوان ص ٤٦ .

(٣) ديوان خفاف ص ٥٩ .

مفأجابه العباس ناقضا قوله ، رادا عليه قوله (١) :

الا أيها المسدى لى الشتم ظالما تيين إذا راميت هضبة من ترى
أبى القم عرضى ، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم
وإنى من القوم الدين دماؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم (٢)

وكذلك صنع فى مناقضاته مع خوات بن جبير ، وعبد الله بن جندل (٣)

* * *

٣ - وكان إلى جانب هذين الفنين الاصليين فى شعر العباس بنى مرادس شعر فى بعض فنون الشعر التقليدية مثل الرثاء والمدح ، والنزل وشعره فى هذه الفنون قليل . ويبدو أن ذلك يرجع إلى بيئة الشاعر وطبيعة الفارس فيه ؛ فالبادية بأخلاقها نأبى على الشاعر أن يتعلق الآخرين ويتمدحهم ، والفروسية تتعارض مع البكاء على المليت ، وهذه وتلك ترى فى المرأة حرما يجب أن يحمى ولا ينزل إلى ميدان القول وحديث اللسان .

من ثم لم يؤثر له شعر فى الرثاء إلا قصيدة رثى فيها أخاه عمارة بن مرادس ، وإلا بما يسكى فيه يهود بن النضير حين أخرجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من ديارهم . وحق هاتين المرئيتين لهما من الملابس ما ينأى بهما عن فن الرثاء .

أما رثاؤه أخاه عمارة فلعل الدافع إليه حب العباس إياه ، والظروف التى أحاطت بقتله ؛ إذ قتل فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيداً عن موطنه ، إذ كان قد ترك دياره ، وذهب إلى أرض اليمن حيث قتل ، ولقد أشار العباس إلى ذلك فى رثائه الذى قال فيه (٤) :

(١) ديوان العباس ص ١٠٥

(٢) الترات جمع ترة - بالكسر - مصدر وتره إذا قتل حميمه ، والمقصود بالثرة الثأر ، والرغم - بتليث الراء - السكره والذل .

(٣) لمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع راجع للمؤلف (الممارسة فى الأدب العربى)

(٤) الديوان ص ١٣٧ ، ص ١٣٨

أبعد عمار الخير زجو سلامة
 ولا وضعت عندي حسان قمارها
 لأن لم أزر خولان في عقر دارها
 وأخفى غليلي من سراة قضاة
 فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة
 بأني سأرعى الحقل يوما بفارة
 أقام بدار النور في شر منزل
 وقد بتكت آرابه ومفاصله (١)
 ولا ظفرت كني بقرن أنازله
 بأرعن رجاف تزجي قنابله (٢)
 وكل صقيل يملأ الكف حامله
 ويعلى بن سعد ثور يرأسه
 لها منكب حاب تدوى رلازله (٣)
 وحلى يياض الحقل زهر خامله

والناظر في هذه المراثية يجد أنها إلى الحماسة أقرب منها إلى الرثاء، فهو يهدد ويتوعد
 قاتلي أخيه بالنار منهم والانتقام .

فلذا نظرنا في مراثيته يهود بن الضير وجدناه فيما مدفوعا بالوفاة لما كان بينه وبينهم
 من علاقات قديمة وصداقات وطيدة ، تلفت فلم يجد أحدا منهم حوله ، فلم يكن له بد من
 أن يملأ أسفه لبعدهم عنه ، في قوله (٤) :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا
 فإنيك عمرى هل أريك ظمائنا
 عليهم عسين من ظباء تبالاة
 إذا جاء باغى الخير قلن وجاءة
 وأهـلا ، ولا ممنوع خير طلبته
 فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم
 رأيت خلال الدار ملهى وملعبا
 سلسكن على ركن الشظاة فنيا (٥)
 أوانس يصيين الخليم الجربا
 له بوجوه كاللذنانير : مرحبا
 ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
 سلام ، ولا مولى حي بن أخطبا

* * *

(١) بتسكة: قطعه والآراب جمع إرب - بكسر الهمزة وسكون الراء - العضو السكامل .
 (٢) الجيش الأرعن : العظيم الجرار ، زجي الشيء رجاء أى ساقه ودهنه ، وقنابله
 - بفتح القاف - جمع قنبل - بفتح القاف وسكون الدون وفتح الباء - الطائفة من الناس
 ومن الخيل ، قيل هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

(٣) المنكب - بفتح فسكون - مجتمع رأس العنق والكتف ، وعريف القوم
 ولعله المقصود هنا ، والحباب ، يقال : حاب يحوب حوبا : أتم .

(٤) الديوان ص ٣٨ (٥) نيأب اسم موضع .

وأما مدحه فلم يعرف له قبل الإسلام سوى مدحه قيس بن عاصم وأبي حليس ،
بولسكل من المدحتين من الدوافع ما جعل العباس ينتسب مذهبه ، ويرغم نفسه على
هذا الفن ، وذلك لأن قيس بن عاصم كان من الشخصيات المثالية التي أخذت العباس
بما أثر عنها من كريم الخلال ، وطيب الفعال ؛ فمدحسه قيساً قصة ، وذلك أن
رجلاً^(١) من بني القين من قضاة جاور قيس بن عاصم ، فأحسن جواره ولم يرمنه
إلا الخير ، فلما فارقه ونزل في جوار جوين الطائي ، أبي عامر بن جوين ، ووثب عليه
رجال من طيء وقتلوه وأخذوا ما معه ، فما كان من العباس إلا أن اندفع بمدح قيس
ابن عاصم لحمايته جاره ، ويذم رجال طيء على ما بدر منهم من النسدر والحياثة
في قوله^(٢) :

لعمري لقد أوفى الجواد ابن عاصم	وأحسن جارا يوم يمدح بكره
أقام عزيزاً متدي القوم عنده	فلم ير سوءات ولم يحسن غدره
أقام بسعد يشرب الماء آمناً	وبأكل وسطاها ويربض مجره

كما أن وراء مدحه أبا الحليس دافعا أقوى ، وذلك أن أبا الحليس قتل حويله الذي
قتل هريم بن مرداس أبا العباس ، فلم يسكن من العباس إلا أن يذكر هذا الصليح
له ، ويشيد بوفه ، ويثني عليه ، ويشكر له إقدامه على الثأر من قاتل أخيه في
قوله^(٣) :

أتاني من الأبناء أن ابن مالك	كفى نائرا من قومه من تقيبا ^(٤)
ويلقاك ما بين الخيس خويلد	أرى عجبا ، بل قتله كان عجبا
فدى لك أمي إذ ظفرت بقتله	وأقسم أبني عنك أما ولا أبا
فذلك أدى نصرته القوم عنوة	ومثلك أعيادا السلاح المجربا

(١) انظر الأغاني ج ١٤ ص ٧٢

(٢) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢

(٣) الديوان ص ١١٢

(٤) تنبيه في الأمر : لم يبال فيه .

فليس المدح من طبائع العباس ، ولا التكبب بالشعر ديدنه . إنما هو يدح على صنائع تشد انتباهه ، وتستحوذ على إعجابيه ، فيجد أن من واجبه مدح صانعيها على ما صنعوا ، فهو مدح على خلق ، وليس مدحا لمدات المدح .

ولما اعتنق الإسلام ، ووجد نفسه أمام المثل العليسا تتحرك ، تحركت مشاعره فياضة ، فاندفع بالثناء الصادق ، والمدح الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم ، من ذلك قوله (١) :

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ، ومحمدا سماكا

ومحمد صلى الله عليه وسلم خير البرية ، نشر كتاب الله القدي جاء بالحق ، وأنار بالبرهان المقول فبدد ظلام الجاهلية الدامس (٢) :

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا وأطفأت بالبرهان نارا مضرا

وظل العباس يتتبع مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلما وقف على منقبة جلاها ، وأبرزها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مخلص في أداء رسالة ربه بمقل ورشاده كما يقول (٣) :

من مبلغ الأرقام أن محمدا رسول الإله راشد حيث بما
دعا ربه واستدعراه وحده فأصبح قد وفى إليه وأنما

وهو صلى الله عليه وسلم خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب (٤) :
يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تمد الأنفس

ولم يفته في هذا الصدد أن يقارن بينه صلى الله عليه وسلم وبين سبقه من الأنبياء فقد جاء بالحق الناطق ، وكان أمينا على الفرقان ، وأول شافع ، وآخر مبموث تخاطبه الملائكة (٥) :

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) الديوان ص ١٤١ (٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الديوان ص ٩٣ ، ص ٩٤ (٥) الديوان ص ١١٦

فأنا بمد عيسى بنـاطق من الحق فيه الفصل منه كذلك
أميأنا طى للفرقان أول شافع وآخر مبعوث يعجب الملايكا

فالمدح فى شعر العباس بمد بحق ولید الحیاة الإسلامیة ؛ إذ لم یسكن قبل الإسلام
حریصا طى مدح واحد بعینه حرصه طى مدح الرسول صلی الله علیه وسلم ، وما أتر من
مدحه فى الجاهلیة إنما هو مدح على صنائع بخصوصها، ولولا تلك الصنائع لما سمع له -
فى هذا الفن - صوت .

* * *

وأما غزله فهو - على قلته - غزل تقليدى ، لا یشف عن عاطفة ، ولا یكشف عن
میل ، سكل ما أتر من شعره فى ذلك آیات قليلة جاءت فى مطالع بعض قصائده .
اللهم إلا ثلاثة آیات جاءت مستقلة ، وفيها یصف المرأة بحسن الطلعة وجمال العینین ،
وأنها شابة مخدومة لاتقوم بشئون نفسها إلا أن تلهو باللعب بالأطفال ، كأنها علیل یجد
الراحة فیمن یقوم على رعايته (١) :

قلیلة لحم الناظرین یزینها شباب ومخفوض من العیش بادر
أرادت لتنتاش الرواق ولم تقم إلیه ، ولكن طأطأته الولائد (٢)
تداعى إلى لهسو الحديث كأنها أخو سقطة قد أسلته العوائد

وما عدا هذه الآیات الثلاثة مقدمات عزلیة ینتدى بها بعض قصائده لیتنقل منها
إلى غرضه ، وفى هذه المقدمات یقف على الأطلال والرسوم لیناجى من عرف من النساء
فیها ویتمتها بصفات الحسن والجمال ثم ینتقل إلى غرضه ، مثل قوله (٣) :

لاسماء رسم أصبح الیوم دارسا وأقفر منها رحرحان وراكسا (٤)

(١) الديوان ص ١١٦

(٢) انتاش الشيء تناوله وأخذه ، والرواق بیت كالفساطیحمل على عمود واحد ،
ورواق البیت مقدمه ، ورواق العین حاجبها ، والولائد جمع وليدة مؤنث الولید .

(٣) الديوان ص ٦٨

(٤) الرحرحان والرحرع : الواسع المنبسط .

غنى عسيب لا أرى غير مائل حلاء من الآثار إلا الروامسا (١)
ليالى سلمى لا أرى مثل دلها دلالا وأنسا يهبط المعصم آسالا (٢)
لضوع منها المسك حق كأنما ترجل بالريحان رطبا ويابسا
مدعها ولوكن قد آناها مقادنا لأعدائنا رجي الثقال الكوادسا (٣)

فالشاعر متأثر ببيئته أيما تأثر في توجهه إلى هذا الفن ، وذلك لأنه في جاهليته فارس بدوى ، له بين قومه من المسكاة والمزلة ما يرتفع به عن تناول المرأة في شعره وانتهاك حرمتها التي يرى أن مركزه ورض عليه حمايتها من أى انتهاك . . . ثم هو في إسلامه مشغول بعبادى الدين الجديد ، حريص على أن لا يخرج على حدوده وآدابه ؛ حفاظا على مكانته التي عرفه عليها المسلمون ورسولهم صلى الله عليه وسلم ، خصوصا أن العمر قد تقدم به ، فلم يكن مقبولا أن يخوض شيخا فيما تروغ عنه شابا .

* * *

تلكم هي أبرز فنون الشعر التي أدار العباس بن مرداس شعره عليها ، وهو فيها جميعا يتوسل بالوصف ، فالوصف في شعر العباس وسيلة لا غاية ، ولذلك لم يخص الوصف بالقول ، إنما هو في ثنايا آخره أو هوائه أو مدحه يجد نفسه مضطرا لأن يتوسل بالوصف ومع ذلك فالوصف في شعر العباس مقتضب لا استقصاء فيه ، سطحى لا عمق فيه ، بسيط لا تركيب فيه ، ساذج يقوم على المراثيات المحيطة به وهيئتها المادية ، فالتأثير في شعره يقوم على الحقائق قبل أن يقوم على التخجيل والتهويل ، والمبالغة في الوصف والنصير ، ومن أحفل شعره بالوصف ما جاء في قصيدته العينية التي بصور فيها صبر بن سليم تحت

-
- (١) العسيب : الشق في الجبل ، والروامس جمع رامسة ورامس ، والرامس ، من الطير والدواب ما يطير أو ما يخرج في الليل ، والرامسة : الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار .
- (٢) المعصم جمع أعصم عصما : الحيوان في ذراعية أو إحداهما بياض وسائرُه أسود أو أحمر .
- (٣) الكوادس جمع كادس ، يقال : كدس الحيل إذا ازدحمت في سيرها فركب بعضها بعضا ، والكداس - بضم الكاف وتخفيف الدال - الحب المحصور المجهوع .

قيادة الضحاك في مواجهة هوازن يوم حنين ، ومهما يقول (١) :

ويوم حنين حين سارت هوازن	إلينا وضافت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا	فراع الأعدى منهم والوقائع
أمام رسول الله يحقق موقنا	لواء كخذروف السحابة لامع (٢)
ندود أخانا عن أخينا ولو ترى	مصالا لكننا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد	رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بهمد الضلالة أمر	وليس لأمر حمه الله دابع

وماذا يرجى من شاعر هو في جاهليته بدوى لآتمه الحياة وظروها حتى يتأني ويتأمل ويتعمق وينظر فيما حوله ويستعصي ما يقع في متناول نظره . . . بل إن الزعامة وواجباتها ، والحروب وأهوالها لتمجعله عن مثل تلك النظرات ، ولولا الفطرة الشاعرة لما تمكن من قول الشعر ، فهو يقول الشعر عن نظرة لم يتمكن من تهذيبها بالصنعة الفنية ثم هو في إسلامه معتز بما يقدم له الإسلام من أخلاقيات ومبادئ ، فهو حريص كل الحرص على أن يعيش في إطار هذا الدين الجديد ، لا يند عن آدابه وأفكاره في كل صغيرة وكبيرة ، فهو يترسم الصدق فيما يقول ؛ ويتوحى الحق فيما يمرض ، في مثل قوله (٣) : يصف ما حل بالمشركين من هلاك ودمار على أيدي جنود الله حين راحوا يمحسون هامهم ويقطفون أعناقهم بسيفهم حتى أكثروا فيهم القتل ، فرملوا نساءهم اللاتي لم يجدن إلا الدعاء طي من أصاب أزواجهن :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد	لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا
بمترك لا يسمع القوم وسطه	لسا رحمة إلا التذامر واللقفا (٥)

(١) الديوان ج ٨١ ؛ ص ٨٢

(٢) الخذروف : كل شيء منتشر من شيء

(٤) الديوان ص ٩٠

(٤) الرجمة : السكامة ، يقال : لم أسمع له رحمة ؛ والتذامر : الغصب والتوعد ؛ يقال : تدمر تمصب ؛ وتدمر عليه تسكر له وتوعدة ؛ واللقف - بفتح اللون وسكون اللقاف - مصدر نقف ؛ يقال : نقف رأسه نقفا صر به عليها حتى خرج دماغه

بييض تطير الهام عن مستقرها ونقط أعناق الحكمة بها قطفا
فلكم تركنا من قتل ملحب وأرملة تدعو طي بعلمها لها (١)

* * *

والناظر في أساليب الشاعر والفاظه ، وفي معانيه وأخيلته لا يستطيع أن يغير ما قرره دنونه الشعرية من قبل ، فهو - كذلك - بدوي حضري ، تتمزج لديه الطبايع البدوية بالطبايع الحضرية .

تقرأ شعره - وهو الذي لم يفادر البادية إلا للضرورة - فتحار فيه أمام تلك المحولة والوضوح التي تتسم بها أكثر ألفاظه ، كما تحار فيه أمام تلك البساطة القوية التي تبدو عليها تراكيبه .

ولكن مع شيء من التروى والتأمل نجد تفسير ذلك قويا واضحا . وذلك لأن الشاعر - كما عرفنا من نشأته - لم يسلم نفسه للبادية تماما ، فهو لم ينهل على نفسه في بداوته ، ولم يقبع بين صحاريها وجبالها وطبائرها ، بل كان دائم التنقل والترحال . متخذاً من الساع الرقمة التي يسكنها قومه وسيلة لتلك النجمة الدائمة ، أضف إلى هذا أن مركزه بين قومه فرض عليه أن يكون على رأس الوفود . من كل مامنحه الفرصة ليخرج من نطاق البادية ، وليتعامل مع غير البدو من سكان المدن والحواضر . هذا إلى ما كانت تتمتع به بادية بني سليم - على امتدادها - من قرب إلى الحواضر العربية شمالاً وجنوباً ، إذ كانت تمتد في غرب الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بامتداد الحرة الممتدة من قرب عشيرة إلى قرب مدينة يثرب ، وأوديتها الشرقية مساحة في عالية نجد حتى حمي الربرة الواقع غربي حمي ضربة : وتمتد بلادهم جنوباً حتى تشمل منهل الدفينة .

لما كان الإسلام وأقبل على الدين الجديد ، وشرف بصحبة الرسول صلى الله عليه

(١) لحب الشيء - بالتضمين - أثر فيه بالضرب أو القلع ونحوه ، والهدف : الحزن والأسى .

وسلم حتى روى عنه بعض الحديث . . اجتمع إليه كل أسباب الليونة والسهولة ليكسوها ما طبع عليه من أخلاقيات البادية ثم الإسلام .

ولقد تميز الإسلام بالظهور في ألفاظه ، ليس بالسهولة واليسر فحسب ، بل بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية ، وقد احتوى شعره على طائفة ليست بالقليلة من تلك المصطلحات والألفاظ ، مثل (دين الله ، والهدى ، والشرائع) في قوله (١) :

ولكن دين الله دين محمد
ومثل (جنود الله) في قوله (٢) :

فحنا أسد غابات إليهم
ومثل (رسول الله) في قوله (٣) :

بذي لجب رسول الله فيهم
ومثل (الإسلام) في قوله (٤) :

إن يهدوا إلى الإسلام يلقوا
ومثل (الشرك) في قوله (٥) .

الضاربون جنود الشرك ضاحية
ومثل (المؤمنون) في قوله (٦) :

كأبوا أمام المؤمنين دريئة
ومثل (السكار) في قوله (٧) :

إن تبتنى السكار غير ملومة
فإن وزير لئى وقابع

-
- (١) الديوان ص ٨٢ (٢) الديوان ص ٥٠ (٣) الديوان ص ٣٤
(٤) الديوان ص ٥٢ (٥) الديوان ص ٥٥ (٦) الديوان ص ٧٤
(٧) الديوان ص ٨٠

ومثل (العدل والصراف) في قوله (١) :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

إلى غير ذلك من الألفاظ القرآنية والمصطلحات الإسلامية التي صبغ بها شعره ، فأصبح مميزا آتم التميز عن شعره في الجاهلية ، وإن اسمح في الجاهلية والإسلام بسمة السهولة والوضوح والبساطة .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى معاني الشعر عند العباس وجدناه - خاضعا لبيئته - يمتاز بالصدق والصرامة والوضوح ، إلى جانب البساطة والقرب والإيجاز ، مع الاختلاف البين بين معانيه الجاهلية والإسلامية ، وذلك لأن الشاعر الصادق - على وجه العموم - يستجيب في معانيه لما تضطرب به مشاعره ، وما تفيض به أحاسيسه ، دون تكلف أو تصنع .

ففي شعره الجاهلي تبرز المعاني الجاهلية ليقدم من خلالها الشاعر أمكاره ، من ذلك أنه حين أراد الانتحار بقومه وإظهار عزمهم ومنعتهم ، قدم ذلك من خلال معنى جاهلي معروف ، حيث وصفهم بالقلم في قوله (٢) :

أبي الدم عرضي إن عرضي طاهر وإن أبي من أباة ذوى غشم

وكما كانوا في الجاهلية ينتخرون بالأصول والأنساب ، افتخر العباس كذلك ، حين فاخر عمرو بن معد يكبر في قوله (٣) :

وإن تك من سعد المشيرة تلفي إلى الفرع من قيس بن ميلان مولدي
إلى مضر الحمراء تنمي جدودنا وأحسابنا ومجدنا غير قمد

أما في شعره الإسلامي فأفكاره ومعانيه إسلامية خالصة ، حتى يخيل إليك أنه غسل

(٢) الديوان ص ١٠٥

(١) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١١٩

نفسه تماما من كل ما هو جاهلى الأمر الذى يلات النظر ؛ إذ كيف يتأنى لشاعر أن يفصل نفسه - هكذا - تماما عن مرحلة النشأة والتكوين اللغوي .

فالعصر فى الحرب ليس بالقوة والشجاعة ، وإنما هو بحراسة الله ونصره فى مثل قوله (١) :

فضى ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائع من يحرس
والجهاد والكفاح مع ما يلاقى من عنف وإرهاق ، هو لإرضاء الله ليس غير ،
والله وحده يعلم خفايا النفوس وظواهرها ، كما فى قوله (٢) :

رضا الله نوى لا رضا الناس نبتنى والله ما يسدو جيما وما يخفى
إلى غير ذلك مما يتلىء به شعره . وهكذا تنير تصور الشاعر بإسلامه ، فأصبحت
مرائيه غير مرائيه فى الجاهلية .

* * *

وإذا وجهنا النظر إلى خيالاته وصوره وجدنا البيئة البدوية - بكونياتها وحيواناتها.
وظواهرها الطبيعية - ماثلة تماما فى شعره . فالخيل إذا اندمعت فى الحرب بقوة ، وأراد
تصويرها ، لجأ إلى مرائيه المتكررة فى هذه البيئة فانتقى منها ما يقرب الصورة ويوضعها ،
فلم يجد سوى السيل المرمر الذى لا يكاد يشيب عن ناظر بدوى مثله ، وذلك قوله فى
كشبيهه الجنود مندعمين بمنف ورسانا ورجاله (٣) :

على الخيل مشدودا علينا دروعنا ورجلا كدفاع الأتى عرمرما (٤)
والجيش إذا كثر جنوده ، وكثف عتاده ، وأصبح يترجرج فى حركته يشبه

(١) الديوان ص ٩٠

(٢) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الرجل - بفتح وسكون - المائى على رجله ، والآتى - بتصميم الياء ، السيل
يأتى من بعيد ، والمرمر : الشديد

- النجوم المتلألئة في السماء ، يراها الناظر ولا يحيط بها حصرا ولا عدا ، وذلك في قوله (١) :

ورجاجة مثل لون النجوم م ، لا العزل فيها ولا الحسر

والدواء الخافق الذي تهفو إليه الأفئدة ، وتنتطح إليه النفوس يشبه طرف السحابة المنتشر في الفضاء في شدة الأنظار ، وتمكنه منها ، كما في قوله يشبه لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين (٢) :

أمام رسول الله يخفق قوقنا - لواء كخذروف السحابة لامع (٣)

والسيوف القوامع في أيدي الجمود تشبه السحاب البارق المتلألئ خلال الظلام الحالك ، كما في قوله (٤) :

نديسكم والموت يبني سرادقا عليكم شباحد السيوف البواتك
تموج بأيدينا كما لاح بارق تاللاً في داج من الليل حالك

وإلى جانب مشاهد الطبيعة البدوية ، نرى حيواناتها وطيرها يستمد منها الشاعر أحييته وصوره ، فجنود المسلمين يوم حنين يشبهون الأسد (٥) :

فكنا أسدلية ، ثم حق أبحناها وأسلمت النور

وبنو معاوية بن بكر أمام الإسلام يشبهون الأعمام في قوله (٦) :

كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام ضائنة تخور

والخيل في المعركة تشبه العقبان في قوله (٧) :

إلا سواج كالعقبان مقربة في دائرة حولها الأخطار والمكر

(١) الديوان ص ٦٥

(٢) الديوان ص ٨١

(٣) الخذروف : كل شيء منتشر من شيء .

(٤) الديوان ص ٢٣١

(٥) الديوان ص ٥١

(٦) الديوان ص ٥٢

(٧) الديوان ص ٥٤

واللواء في الحركة يشبه العقاب الذي يملق في السماء ثم ينقض على فريسته فيخطفها،
مثل قوله (١) :

بمسكة إذ جئتنا كأن لواءنا عقاب أرادت بمد تحليقها خطفا
لى غير ذلك من الصور المتزعة من البيئة البدوية التي آثرها الشاعر على الحاضرة
حتى بعد إسلامه ، وانتقاله إلى البصرة على عهد عمر بن الخطاب على ما سبق
الإشارة إليه . .

حسان بن ثابت

نشأته وحياته :

حسان بن ثابت بن للنذر بن حرام الخزرجي ، من بني النجار من قبيلة الخزرج ،
 ولده بالمدينة ، ونشأ في بيت شرف وجاه . ويكاد يجتمع المؤرخون على أنه عاش مائة
 وعشرين عاماً بصنها في الجاهلية (١) . نشأ بين قومه ، وعاش في مجتمع يثرب الذي يضم
 الأوس والخزرج واليهود ، والذي كان يثن من الحروب المتصلة بين الأوس والخزرج ،
 بتأريث اليهود وإشغالهم نار الفتنة بينهم ، حتى تتمكن قبصتهم من السيطرة على مصائر
 الأمور فيها ، فكان لسان قومه المذموم في تلك الحروب ، وكان في مواجهته الشاعران
 الأوسيان : أبو القيس بن الأسات ، وقيس بن الخطيم (٢) . اصل في الجاهلية بالنساسة
 ومدحهم ، وكان يتردد عليهم ، وقيل إنه اصل ببلاط الحيرة ، وحل محل الدابنة حين
 كان على خلاف مع النعمان بن المنذر . ولما أسلم بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
 أصبح شاعر الإسلام ، الذي يدافع عن النبي وعن المسلمين ، ويتنوع قريشاً بهجائه
 اللاذع ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثه على هجائهم ويدعوه ، ويروى أن
 الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم
 وأحسابهم ، ثم اجهم وجبريل معك (٣) » . وقد نال منزلة رفيعة عند رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فكان يقسم له في التناؤم ، وأهداه ستاناً ، كما أهداه سيرين
 أخت مارية القبطية ، فأعجب منها ابنه عبد الرحمن ، واستمر الخلفاء من بعده صلى الله
 عليه وسلم على تقديره وإجلاله ، حتى مات في خلافة معاوية ، بعد أن كف بصره .

شعره :

الناظر في شعر حسان يرى أنه قسبان متميزان ، أحدهما أسرى فيه روح

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ٢ ص ٥ وما بعدها . (٣) الأغاني ج ٤ ص ١٣٨ وما بعدها .

الجاهلية بقيتها وأحداثها ، وثالثاً تسرى فيه روح الإسلام بثقله وقيمه وأخلاقياته وأحداثه

قال ابن سلام : حسان أشعر شعراء القرى الخمسة ، وهو كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تماضت قريش واسببت وضموا عليه أشعاراً كثيرة لانثى (١) ، وكان للشعر للوضوح أثره في ضعف شعر حسان الإسلامى ، فهو لا يثقله تماماً ، حتى ظن الأصمى أن إسلام حسان كان من أسباب ضعفه ، وقال : الشعر - كماكد بابه الشعر ، وإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت حل من فحول الجاهلية ، ولما جاء الإسلام سقط شعره وقال : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام ، لحال الذى صلى الله عليه وسلم (٢) ، والحقيقة - فيما أرى - أن الذى أضغفه هو ما أدخل عليه مما رواه ابن إسحاق في التنازى ، بل لقد اختلط الأمر على الرواة فسبوا إلى حسان ما قاله غيره ، كما سبوا إليهم ما قاله حسان (٣) ، أصعب إلى هذا ما فعلته الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضى الله عنه في نفوس المتحزبين ، وقد عمل الامويون على إثارة المسلمين ضد على رضى الله عنه ، فصنموا شعرا في مدح عثمان على لسان حسان شاعر الرسول ، كما حملت عليه أشعار في مدح الزبير بن العوام ، وعبد الله بن عباس .

وأيا ما كان الأمر فيها وصلنا من شعر حسان قصائد جاهلية وأخرى إسلامية وثقها الرواة ، تكشف عن اتجاهات حسان وشاعريته من ذلك صميمته التى يفخر فيها بقومه ومآثرهم ، والتى عرصها على النابغة في سوق عكاظ ، ومطلعها :

لم تسأل الربيع الجديد التكلم
بمدح أشداخ فبرقة أطلما
وفيها يقول :

لما حاضر نهم وناء كأنه
شماريخ رصوى عزة وتكرما

(١) تماضوها : رمى بمصهم بمضا بالضمية وهى الإيك والثقيمة . طبقات الجول للشعراء ج ١ ض ٢١٥ .

(٢) الشعر والشعراء - ص ٣٠٥

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام وقارن بالديوان .

مقى ما تزنا من معد بصيبة
بشكل فنى عارى الأشاجع لاجه
لنا الجففات الفري يلمن بالضحى
أبى فعلمنا المرؤب أن نطق الحما
وغسان نمنع حوضنا أن يهدما
قراع الحكاة يرشح للسك والهدما
وأسياما يقطرن من نجوة دما
وقائلنا بالعرف إلا تكلمنا

وكان لحسان دور فعال فى الصراع الدائر بين الأوس والخزرج قبل الإسلام فقد شارك بشعره فى هذا الميدان ، حيث شبت نار المناقضات بين شعراء القبيلتين . من ذلك ما قاله فى الفخر حين امرمت الأوس أمام الخزرج فى يوم الربيع بعد قتال عنيف كاد يفنيهم ، وكان حريصا أن يبدأ قصيدته بمطلع يتفوز فيه بلبلى بنت الخطيم الأوسية ، وذلك قوله :

لقد هاج نفسك أشعجانها
تذكرت لبلى أى بها
وحجل فى الدار غربانها
وغيرها معصرات الرياح
مهارة من العين تمشى بها
وقفت عليها نساءلنها
فميت وجاوبى دونها
وعاودها اليوم أديانها^(١)
إذا قطعت منك أقرانها
وخف من الدار سكانها
وسح الجنوب وتهاونها
وتبها ثم غزلائها
وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
بما راع قلبى أحوانها

ولما اعتنق الإسلام أحلص نفسه للدفاع عنه ، فكان الجندى التأهب بشعره لسكل معركة ، ووقف مع عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك للرد على شعراء المشركين فى هجائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الله ابن الزبيرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن الماص . كما تراه فى همزيتة التى يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث ، ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهما يقول :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى
فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتكم عبدا
وعبد الدار ساداتها الإماء
هجوت عمدا فأجبت عنه
وعند الله فى داك الجزاء
أنهجوه ولست له بكفاء
مشركا لخيركا الفداء

(١) أديانها جمع دين : الداء والمراد الحب القديم .

هجوت مباركا برا حنيفا أمسين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي لمرض محمد منكم وقاء

ولما بكى عبد الله بن الزبيرى قتلى قريش في معركة بدر بميمته التي يقول في
سطلها :

ماذا طى بدر وماذا حوله من فتية يبص الوجوه كرام
أجابه حسان بن ثابت ناقضا عليه قوله بقصيدة ميمية طى الوزن نفسه والفاقية ،
سواء بها :

ابك بكت عيناك ، ثم تبادرت بدم يهل غروبها سجام
ماذا بكيت به الدين تنايموا هلا ذكرت مكارم الاقوام
وذكرت منا ماجدا ذاهمة سمح الخلائق صادق الأقدام
أعنى البى أحا المكارم والندى وأبر من يولى طى الأقسام
مدله ولمثل ما يدعوله كان المدح ثم غير كهام

ولما قال ابن هبيرة قصيدته الهائية في انتصار قريش على المسلمين في أحد ، أجابه
حسان ، ينقض قوله ، ويسفه رأيه وآراء من اتبعوه طى حرب الله ورسوله ولا طاقة
لهم بذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جنود الله ، والمشركون أعداء الله ،
وسوف يخزي الله أعداءه بأيدي حموده . . . ثم ينهى قصيدته بالحديث عن مكارم
الرسول وأصحابه ، ومنتهم على قريش في إطلاقهم أسرى بدر ، وفيها يقول :

سقم كسامة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول لجند الله مخزيبها
أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاتيها
حمتموهم أحايشا بلا حسب أئمة الكفر عرتكم طواغيبها
ألا اعتبرتم بحيل الله إداقتات أهل القلب ومن ألقينه فيها
كم من أسير مكككاه بلا ثمن وجز ناصية كما مواليها

ولما بكى كعب بن الأشرف اليهودى قتلى بدر في عيلته التي قال فيها :
طحننت رحا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل الأدمع

أجابه حسان بقوله :

أبكي لكعب ثم طي بعبرة منه وعاش مجدعا لا يسمع
 ولقد رأيت ببطن بدر منهم قتلى لسح لها الميون وتدمع
 فابكي فقد أبكيت عبدا راضعا شبه السكيب إلى السكيبية يتبع
 ولقد شفا الرحمن منا سيدا وأهان قويا فأتلوه وصرعوا
 ونجا وأملت منهم من قلبه شغف يظل أخوه يتصدع

ولما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم سمة الوفود - بعد فتح مكة -
 وفيهم عطارد بن حاجب بن زرارة قام اليرقان بن بدر فقال قصيدة يفخر فيها بقومه،
 منها قوله :

نحن الكرام ، فلاحى يبادلنا مسا الملوك ، وفيما يقسم الربيع
 وكان حسان غائبا فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء وسمع ما قاله
 لليرقان قال عينية يمارضه بها ، وفيها يقول :

إن الدوائب من فخر وإخوتهم قد يبسوا سنة للناس تتبع
 يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمس الذي شرعوا
 نوم إذا حاربوا صرخوا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياهم نفعوا
 فإن في حربهم فأنرك عداوتهم شرا يحاض عليه السم والسلع
 أكرم يقوم رسول الله شيعتهم إذا تماوتت الأهواء والشيع

وفي هذه القصيدة يظهر مدى تأثر حسان بالدين الجديد ، إذ فخر بالرسول وبما
 أتى من أمور الدين التي يجب على كل ذي عقل أن يدين بها ويتبعه فيها .

ومن إسلاميات حسان التي يظهر فيها تأثره بالفكر الإسلامى ، دالته التي
 يقول فيها :

وقد زعمتم بأن تعهوا ذماركم دماء بدر زعمتم غير مورود
 وقد وردنا ولم نسمع لقولكم حتى شربنا رواء غير تصريد
 مستصمين بحبل الله غير منجدم مستحکم من حبال الله محدود
 وبما الرسول وفيما الحق نتبعه حتى المات ولصر غير محدود

واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنار على كل الأماجد

وهكذا واصل حسان بن ثابت رحلته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعونه إلى الإسلام ، يتصدى لكل عدو ، حتى إذا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وقف حسان يبكيه ، وبما قاله في ذلك دللته التي يقول فيها مصورا حزنه وألمه لفراق الرسول :

ما نال عينك لانام كأنما	كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويا	يا حير من وطىء الحصى لا تبعد
وجهى يقيك الترب ، لهفى ليتنى	غيبت قبلك في بقيق الترقد
بأبى وأبى من شهدت وفاته	في يوم الاثمين النى المهتدى
فظلت بهـد وفاته متبلدا	متـلـددا ياليتنى لم أولد (١)
أقيم بمدك بالمدينة بينهم ؟	ياليتنى صبحت سم الأسود (٢)
أوحل أمر الله فينا عاجلا	في روحة من يومنا أو في عد
فتقوم ساعتنا ، فنلقى طيبا	محضا ضرائب ، كريم المختد (٣)

ومن يقارن بين شعر حسان في الجاهلية وشعره في الإسلام يجزم بأن قائل هذا شعر ذلك ، ولولا الصياغة اللفظية لما كان بين الشعرين أدنى صلة . وهذا يدل على مدى قائل الشاعر بالإسلام ، وقد تحول به إلى إنسان آخر يختلف تماما عنه قبل الإسلام .

يبد أن الناظر في شعر حسان قبل الإسلام وبمده يلاحظ أن أثر البيئة الحضرية الحسية والمكرية والدينية - يتصح في جراحة الفاظه وسهولتها ، وفي إحكام عباراته ودقتها ، كما يتصح في معانيه التي تكشف عن بيئته الحضريتين في ثوب وجوار النفسانة من جهة ، وفي ظل الإسلام ومكره وعقائده ومبادئه من جهة أخرى .

(١) للتبليد : من أدركته الحيرة . ومثله المتلدد .

(٢) صبحت : سقيت صبحا (٣) الضريبة : الطبيعة والسجية ، والمختد : الأصل

(٦) كعب بن زهير

نشأته وحياته :

كعب بن زهير بن أبي سلمى ؛ أحد حلقات السلسلة الممتدة من شعراء بيت زهير - كما أمرنا من قبل - نشأ في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، لفته أبوه الشعر ، فكان هو وأخوه بجير من رواة أبيهما زهير . ويدكر الرواة أن زهيراً كان يخرج يابنه كعب إلى الصحراء ، فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يحجزه ، إندرىباً له وتمريثاً على صوغ الشعر (١) . وقد ولد في خطفان قبل مجيء الإسلام ، ولم ينقض العصر الجاهلي إلا وله من الشهرة والمسكاة في الشعر ما جعل المحيطية زميله يقول له : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بمدك ، وإن الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع (٢) .

أدرك الإسلام كما أدركه بجير أخوه ، والمحيطية وكان بجير أسبقهم إلى الإسلام ، فهجاه كعب هجاء تألم له رسول الله ، فتوعدده وأهدر دمه ، من ذلك قوله :

ألا أبلغنا عن بجيرا رسالة	مهل لك بمأملت- ويحك هل لك
شربت مع المأمون كأساً روية	فأنهك المأمون منها وعلك
وخالفت أسباب الهدى وتبعته	على أى شيء - ويب غيرك - ذلك
على حلق لم تلف أما ولا أبا	عليه ، ولم تدرك عليه أخا لك

بعث إليه بجير محذراً ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم متنكراً ، فبدأ بأبي بكر ، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بمأتمته ،

- (١) أنظر الأغانى ج ١٥ ص ١٤١ طبع الساسى ، وأمالى المرتضى ج ١ ص ٩٧ طبع الحلبي ، ومقدمة ديوان كعب طبع دار الكتب المصرية .
(٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٤ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٦ ، والأغانى ج ٢ ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ طبعة دار الكتب .

فقال . يا رسول الله هذا رجل ييايئك على الإسلام ، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فحسركمب عن وجهه ، وقال هـذا مقام المانذ بك يا رسول الله ، أنا كمب بن زهير . وآمنه صلى الله عليه وسلم ، واستشده (١) ، فقال لاميته المشهورة معتذرا عما بدر منه ، وما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به ، ومن حوله من صحابته ، ومعلمها (٢) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفسد مكبول

وبها يقول :

أبثت أن رسول الله أوعدني مهلا هداك الذي أعطاك ناهله لا لأأخذني بأقوال الوشاة ولم لقد أقوم مقاما لو يقوم به لظل يرعد إلا أن يكون له حق وضعت عميق لا أنازعـه إن الرسول لسور يستضاء به في عصابة من قریش قال فأنلهم زالوا ، فارال أنكاس ولا كشف شم العرائن اطلال ، لبوسهم	والعمو عند رسول الله مأمول قرآن فيما مواعيط وتفصيل أذنب ولو كثرت عى الأقاويل أرى وأسمع مالو يسمع أميل من الرسول بإذن الله ينزويل في كف ذى نقات قبيلة القيل مهند من سيوف الله ملول (٣) بيطن مكة لما أسلوا : رولوا (٤) عند اللقاء ، ولاملل معاريل (٥) من نسج داود فى الهيبعاسرايل (٦)
--	--

والاظرف فى هذه القصيدة يرى شاعرية كمب وتفننه فى الانتقالات ، ودقة التصوير ،

(١) الشمر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ ، وابن سلام ج ١ ص ٩٩

(٢) الديوان ص ٦ وما بعدها طبع دار الـكـتب المصرىة .

(٣) للمهند : السيف المصنوع من حديد الهند ، وهو أفضل السيوف .

(٤) رولوا : انتقلوا ، يعى : هاجروا .

(٥) الانكاس جمع نكس : الصعيف ، والكشف جمع أكشف : من لآرس له ،

الميل جمع أميل : من لا يحسن الركوب ، معاريل جمع معرول : من لآسلاح له .

(٦) العرائن جمع عرنين : الأنف ، والشم : حدة فى طرف الأنف ، ع كشمير .

وحسن العرض ، لكنه مع كل ذلك جاهل في كل ما قدم ، سواء في مطالعة النزلى ،
أو في مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ، بحيث تكاد لاتتم رائحة الدين
الجديد ، وهذا دليل صدق الشاعر ، إذ لم يعرف بعد عن الإسلام شيئاً ، إذا مزج
الإسلام نفسه ، صدر في شعره عن قيمه وأفكاره ، مثل قوله :

أعلم أى مقى ما يأنى قدردى ليس يحبسه شح ولا شفق (١)
بيما الفقى معجب بالعيش مقببط إذا الفقى لنا بما مسلم غلق (٢)
والمرء والمال ينمى ثم يذهب من الدهور ويفنيه فينسق
فلا تحامى علينا الفقر وانتطرى فضل الذى بالفى من عنده نثق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ومن سوانا ولسا نحن نترق
ومثل قوله :

لو كنت أعجب من شىء لأعجبى سعى الفقى وهو محبوب له للقدر
يسمى الفقى لأمر ليس يدركها والنفى واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش بمدود له أمل لاتنتهى المين حق ينتهى الأثر

ومن ردد نظره فى ديوانة يدرك الفارق الكبير بين كعب الجاهل فى خلقه
وساوكه ، وبين كعب المسلم الزاهد المنسامح الذى برد على هاء من هاء ، بالحكم
والمواعظ ، طالبا منه مقابلة صفح ، عنه بالسكوت ، حق لا يخرج عما الترمه من آداب .
مثل قوله (٣) :

إن كنت لأترهب ذى لما تعرف من صفحى عن الجاهل
فأخشى سكوتى إذ أنا منعت نيك لمسوع خنا القائل

(١) الشفق : الخوف .

(٢) الملق بفتح وكسر . المستحق ، يقال : عاق الرهن إذا استحق .

(٣) حزانة الأدب ج ٤ ص ١٢ ، والحياوان ج ١ ص ١٥

فالسامع النام شريك له ومطعمه المأكل كالآكل
مقالة للسوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

ولقد كان كعب أحد الفحول المتقدمين في الجاهلية والإسلام، إذ كان في
شعره الفنان الأصيل الصادق، المدقق الحس، الرائع التصوير، القدي يملك أزمة للبيان،
خيوجه أنى شاء .

الفصل الثاني

فنون الشعر الحضري

في حديثنا عن فنون الشعر البدوي قررنا - من واقع الحياة العربية البدوية - أن شعر البادية كان استجابة صادقة لما أملت البادية على أبنائها من اتجاهات فنية ، وقيم خلقية وسلوكية . وكذلك كان الحال في الشعر الحضري ؛ فقد تطلبت الحاضرة من الشعراء تنازلات عن بعض القيم البدوية فلم يجدوا مناصا من الاستجابة إليها ليحققوا لأنفسهم التلاؤم مع ما يجد عليهم من أخلاقيات .

وفي مقدمة هذه التنازلات استبدال الدعوة إلى السلام بالدعوة إلى الحرب والحض عليها ، والتحميس لها ، أو على أقل تقدير السكوت عن الحرب وما يتصل بها

وتحول الشاعر من مدح القيم والأفعال إلى مدح الأشخاص لدواتهم سعياء وراء كسب ، وطلب الجزيل عطاء .

وتهالك الشاعر في سبيل الحصول على الأعطيات والجوائز بالتفنن في الاعتذار على اختلاف أساليبه واتجاهاته وممانيه .

واستبدال للتع المادية بالشاعر ، بما دمه إلى تعرية الرأة وتجريدها بما يسترها في جراءة ، لتبدو للأعين مظاهر جاذبيتها وإغرائها ، وإلى الحديث عن الخمر ووصف آثارها على شاربها ، وتتبع مجالسها ودنانها وكثوسها بالوصف المستقصى

اتخاذ للشعر سلاحا من أسلحة الدعوة الدينية ، ووسيلة من وسائل الوعظ ، يصل بها الشاعر إلى نفوس سامية ، يقرر العقيدة ، ويوضح الفكرة ، ويدفع الخصم المهاجم بنقض حجائه ، ويبيح قتل الحروب الناشئة بين الداعين إلى الدين وخصومهم .

متحقق من ذلك الشعر أغراض جديدة وأخرى مطورة عدلت لتناسب مع البيئة الحضرية .

ومن ثم أمكن أن نحصر فنون الشعر الحضري في فنون ثمانية هي : المدح ،
والهجاء ، والاعتذار ، والفتور ، والفرح ، والفرح ، والدينيات ، والمواظ ، والرثاء ،
والوصف .

ولا ريب في أن أثر الحضرة يختلف في ذلك من شاعر إلى شاعر ، وفقا لمواقفه
الفنية ، وطبيعة الحضارة التي تكتمفه .

المدح :

كان من المدح من أبرز فـون الشعر الحضري ، ولقد أنجبه شعراء الحضرة بهذا الفن متباين الدواعي فانشعب الطريق بهم في المعاني والصور بما يتناسب مع الصفات التي يمدح بها . فبينما نجد النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر ، ويصاحبه إشعاعه على الصفات التي يمدحها فيه من كرم وجود في قوله :

الواهب المائة المعكاء زينها	سعدان توضح في أوبارها اللبد ^(١)
والأدم قد خيست فتلا مرافقها	مشدودة يرحال الحيرة الجدد ^(٢)
والراكصات ذبول الربط فانقها	برد المواجر كالنزلان بالجرد ^(٣)
والخيل تمزغ غربا في أعنتها	كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد ^(٤)

ونسلم صوت حجر بن خالد يمدح النعمان - كذلك - مركزا على كرمه وجوده ، في قوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد	كفعل أبي قابوس جزما وناثلا
يساق النعام النمر من كل بلدة	إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى	ولضحى قلوص الحمد جرباء حائل ^(٥)

(١) المعكاء - بكسر الميم - الغلاظ القوية ، وبريد الإبل ، وتوضح : موضع ، والسعدان - بفتح السين - صراع ، اللبد : ما تلبد من الشعر .

(٢) الأدم - بضم فسكون - النوق البيض ، حيت - بضم الحاء وكسر الياء المضممة - ذلات ، فتلا - بضم الفاء - كناية عن قوة خلقها ومثابقتها .

(٣) الراكصات : الساحبات ، الربط : ثوب طويل ، فانقها : نعمها ، الجرد - بفتح الجيم والراء - موضع .

(٤) تمزغ غربا : تسح سحبا شديدا ، الشؤبوب : السحاب أو دومات مطره .

(٥) الباع : الشرف ، والندى : السكرم ، والقلوص : النافذة الشابة ، والحائل ، التي حمل عليها الفحل ولم تلقح

فلا ملك ما يلائقك سميه ولا سوتة ما يمدحك باطلا
نجد العباس بن مرداس قبل الإسلام مادحا بدويا ، فلا نمثر له إلا على مدحتين
إحداهما يمدح فيها قيس بن عاصم ، ويمدح في الثانية أبا الحليس ، وهما مدحتان على
مواقف وأحلاق .

ونجده في ظلال الإسلام يتجه بمدحه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيركز
مدائحهم على ما جاء به من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم كما في قوله :

نبي أتانا بمسد عيسى بإطاق من الحق فيه الفصل منه كدلسكا
أميننا على الفرقان أول شامع وآخر مبعوث يعجب الملائكا

فالشاعر إنما يمدح فيه صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الحق ، وأمانته على القرآن ،
وشفاخته المأمولة وكان ذلك تهيؤا للشروع المدائح النبوية ، فقد كان مدح الرسول صلى
الله عليه وسلم أحد مظاهر الحرب الدائرة بين المشركين والمسلمين ؛ إذ كان المشركون
يعتمدون على مهاجمة الرسول وهجائه .

أما مدح غير الرسول صلى الله عليه وسلم فكان في الغالب موجها إلى جماعات ،
لا إلى أفراد ، من ذلك ما قاله كعب بن زهير في مدح الأنصار استجابة لرعبته صلى الله
عليه وسلم حين غضبوا لتمريرهم في لاميته الاعتذارية ؛ فذكر بلاءهم مع الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وإخلاصهم في الدعوة والدفاع عنها :

من سره كرم الحياة فلا يرل في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المسكارم كابرا عن كابر إن الحيسار هم بنو الأحيار
والبائمين نفوسهم لبديهم للموت يوم تمنائق وكرار
يتطهرون ، يرونه نسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار

عرفنا - فيما تقدم - أن الهجاء سلب المحامد عن المهجو .

كما عرفنا أن شعراء الجاهلية البدو لم يوردوا قصيدة بالهجاء، وإنما كانوا يتناولونه في سياق المعر، أو كانوا يرجون بين الهجاء والفخر، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن هجاء خصم - يتنزه الفخر عليه بالانصاف بما يسلب عنه من المحامد، فهو لون من اللقابلة والطاقة .

والناظر في شعر الحضر - على اختلاف اتجاهاته - يلاحظ أن طائفة من شعراء الحضر لم يشدوا عن المنهج البدوي في فن الهجاء، وهو يأتي في طوايا المعر، ويحرص فيه الشاعر على التلطف والتحفظ، دون إهحاش أو إقذاع، على نحو ما رأينا في شعر النابتة من هجاء وخر دار به حول قبيلته وما كان بينهما وبين بنى أسد من تحالف، وما كان بينها وبين بنى عامر من حروب . من ذلك قوله :

بأن يك عامر قد قال جهلاً	إن مطيئة الجهل السباب
هـكن كأبيك أو كأبي براء	توافقك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحملك طاميات	من الخيلاء ليس لمن باب
وإلك سوى تحلم أو تناهى	إذا ما شبت أو شاب الفتراب

وغير حتى ما لجأ إليه الشاعر من السخرية من مهجوه، والتهمك به، دون إقذاع أو إهحاش، وكل ما وجهه إليه أنه أوماً إلى وصفه بالحق والجهل، ويماق انصافه بالحلم على مستحيل

وعلى هذا النحو - أعشى قيس في هجائه يريد بن مسهر الشيباني، حين حس قومه للنار من أعتدى على واحد منهم قتله، وكان القتال واحداً من بنى قيس بن ثعلبة، يهدده الأعشى وهجاء لذلك في قوله :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة أبا ثنيت أما تفكك تأنكل (١)
الست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضافرها ما أطت الإبل (٢)
كناطح صخرة يوما ليوهنا فلم يضرها وأوحى قرنه الوعل (٣)

مقد لجأ إلى السخرية بطريق الاستفهام ، قائلا : ألا تنتهي عن السعي بالشعر
والحقد عليا ، والوقوع في أعراضنا بالقم والسب ؟ إلك لن تبال منا شيئا ، ولن تضير
إلا نفسك ، كما يحدث للوعل الذي يططح الصخرة قاصدا إضمارها وإيهانها ، فلم يبل
منها بقدر ما نال من نفسه .

كما سار في هجائه علقمة بن علاثة ، ممتدا على التمريض والإيحاء المؤلم في قصيدتين ،
في أولاهما ، ازن بينه وبين خصمه ومسامره عامر بن الطفيل في قوله :

علقم ما أتت إلى عامر الناقص الأوتار والواتر (٤)
ياحجب الدهر متى سوي كم ضاحك من ذا وكم ساخر
ولست بالأكثر منهم حصي وإنما المرة للكأثر (٥)
علقم لا أسفه ولا تجملن عرضك للوارد والصادر
ولست في السلم بدى نائل ولست في الهيجام بالجاسر (٦)

وحاء في الثانية قوله :

تبيتون في المشق ملاء بطونكم وجاراتكم غرثي بين خائصا (٧)

(١) مألكة - بضم اللام - رسالة ، تأنكل : تسمى بالشعر أو تنضب وتغلى
حتى لا تكأ نك تأكل نفسك .

(٢) الأثلة : شجرة ، يقال نحت أثلته : تنقصه وعابه ، أطت : أتت .

(٣) الوعل - بكسر الهمزة - صرب من الماعز الجبلي .

(٤) الأوتار جمع وتر ، وهو النار ، وناقص الأوتار : الأحدهم بالنار ، والواتر :

الذي يترك ثأره في الأعداء فلا يستطيعون نقسه .

(٥) المقصود بالحصى : المدد .

(٦) المائل : المطاء ، والجاسر : الجريء .

(٧) المثنى : زمن الشتاء ، غرثي : حائمة ، حائص : ضامرات البطون .

وكان إلى جانب تلك الطائفة التي لم تفرد لهجاء قولها ، طائفة أخرى اضطرت إلى إفراده بالقول اضطرارا ، كما رأينا في مناقضات العباس بن مرداس التي شبت بينه وبين خفاف بن ندبة ، وخوات بن حبير ، وعبد الله بن جندل ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الحديث عن العباس .

ويلاحظ أن العباس - مع ذلك - لم يخرج على المنهج العام ، من التزام عفة اللسان ، والبعد عن الإفخاش والإقذاع ، وإن مال إلى التصريح في بعضها كما في قوله :

واظلم أنكد وجهه ملعون	أكليب مالك كل يوم ظالما
يوم الفدير سميك المطعون	فانعل بقومك ما أراد بقومه
في صفحتيك سنانها مسون	وأظن أنك سوف تلقى مثلها
وإخال أنك سيد مقبون	قد كان قومك يحسبونك سيديا

وليس البعد عن الإفخاش والإقذاع هي سمة هذا الهجاء ، بل إن من سماته كذلك البعد عن المبالغات والتهميل ، فهو قريب إلى الحقيقة كما تقدم ، وكما رأينا في هجاء حسان أنا سفيان بن الحارث . بل إن روح الإسلام لتتضح في هجاء الشعراء المسلمين ، حين يضطرون إلى الرد على من هجاهم من المشركين ، كما رأينا في هجاء كعب بن زهير ، وقصارى ما كان يضمه الشاعر المسلم أهاجيه تمير الكفار بالثالب أو بالكفر ، على ملاحظه صاحب الأغاني في قوله : إن حسانا وكعبا كانا لا يمارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والآثر ، ويميراهم بالثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يميزهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلخوا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (١) .

ولم يكن هجاء المشركين وقفا على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد انبرى كثير من شعراء المسلمين يدافعون عن الرسول ومحبيه ودعوته ، ويردون عنهم هجاء من يتعرض لهجائهم من شعراء المشركين ، فالتسع في ذلك الجو ميدان المناقضات .

وهكذا بدأ أثر الحضارة الإسلامية واضحا جليا في فن الهجاء ؛ وكان قصارى

(١) الأغاني - ج ٤ ص ١٣٨ .

الشاعر أن يصف مهجوه بما يعيبه به من خلق ونموت ينهر منها المسلم والذوق العربي
مما . كما نجد في قول كعب بن مالك الأنصاري الخزرجي يهجو أبحار بني النضير ،
ويذري بموقفهم المشيد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع توفر الأدلة العلمية والدينية
لديهم على صدقه صلى الله عليه وسلم (١) :

لقد خزيت بمدرتها الجبور	كذلك الدهر دو صرف يدور
وذلك أنهم كفرو برب	عزير أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهما وعلمنا	وحاهم من الله التذير
مقالوا : ما أتيت بأمر صدق	وأنت بمنكر مناجدير
أرى الله النسي برأى صدق	وكان الله يحكم لايجوز
فأيدته وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير
فقودر منهم (كعب) صريحا	فدلت بمد مصرعه النصير
فما كره فأنزله بمنكر	و (محمود) أحوثه جسور
فتلك بسو النضير بدار سوء	أبارهم بما اجتمروا المبير
عداة أناهم في الزحف رهوا	رسول الله وهوهم بصير
فذاقسوا غب أمرهم وبالا	لكل ثلاثة منهم بصير

وشعر المهجاء في هذا المجال كثير ، يدور في الغالب حول هذا الاتجاه .

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣

الاعتذار :

الاعتذار هو تنصل الإنسان بما نسب إليه ، واحتجاجه لنفسه . وهو من شمري وطيد الصلة بغنى المدح والهجاء ، فالهجاء قد يكون من دواعي الاعتذار ، أما المدح فهو سقيمه وصوره القدي يشبهه في كثير من أبعاده ، غير أن المدح يبيع من عاطفة الشكر والرصا والأمل ، بينما الاعتذار تنتزع فيه عاطفة الخوف بماطفة الشكر والرجاء .

وهو من الفنون التي نشأت في الحضرة ، وندر أن يجد شاعرا بدويا يعتذر . ولعل ذلك يرجع إلى أنفة العربي من أن يضع نفسه في موضع يضطر معه إلى الاعتذار ، حتى إنهم في أهاحيهم كانوا يتحفظون ويلجئون إلى التعريض أو الإيماء والإيحاء - على ما رأينا - حتى لا يضطروا إلى الاعتذار والتأسف على ما سلف منهم .

ولما طأطأ العربي في بعض الحضرة رأسه تحت إغراء المنح والمطام ، وجرى لاهته وراء الملوك والأمراء مقدما بين يديه تملقه ونمائه في صورة مدائح يشتري بها ما يجور به عليه من المال . . . عندئذ هانت على العربي نفسه ، وضاعت قيمة الألفة بين ما ضا في غمار حياته الجديدة ، فلم يجد في الاعتذار ما كان يجده البدوي في باديته .

وحرص على أن يفتن في الوصول إلى قلب سامعه طلبا لرضاء عنه ، وعفوه وغفر ما قدم من خطأ ، فاختمت بعض الشعراء لهم في الاعتذار أساليب أصبحت فيما بعد مدهاب تنسب إليهم وترتبط بهم ، وذلك بأن يذهب في اعتذاره مذهبا لطيفا ويقصد مقصدا عجيبا ، يصل من خلاله إلى قلب المتذمر إليه ليستل منه ما انطوى عليه ويسح إعطائه ، ويستجلب رضاه ؛ وذلك لأنهم وجدوا أن إثبات المتذمر من الاحتجاج وإقامة الدليل والبرهان على نفي التهمة خطأ فأحش، يريد النار اشتعالا . لا مع الملوك ، ودوى السلطان . وحق المتذمر العاقل أن يتلطف في حديثه ، فيقسه - في أثناء ذلك - برهانه ممتزجا بالتضرع والاستنجاد والسخول تحت عهد الملك ، ورة الرجا والأمل بمعاودة النظر في الكشف عن كذب الناقل ، وشايه الواهي ،

أن يلجئه ذلك إلى الاعتراف بما لم يجنبه خوف تكذيب سلطانة أو رئيسه فإن ذلك مهلكة ، وإنا عليه أن يحيل الكذب على الناقل والحاسد (١) .

والاعتذار في الشعر العربي - على ذلك - ينشعب في اتجاهين :

أولهما : انجاء الشعراء طالبي المطايا والمناسب في توجيه اعتذارهم إلى من أدمعتهم الحياة المرفقة على أن يكونوا في ركاهم من ملوك الحيرة والشام ، حرصا على مسكاته ، وتطلعا إلى عطية .

وثانيهما : اتجاه الشعراء المسلمين الذين سبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في شركهم إلى الاعتذار عما سلف منهم ؛ والتأسف على ما كان في جاهليتهم .

ولا ريب في أن اختلاف الدواعي إلى الاعتذار، ينشأ عنه اختلاف النهج والأسلوب .

وكان على رأس الاتجاه الأول عدى بن زيد العبدي ، وتلميذه في ذلك النابضة الديباني ، وقد وحه الشاعران اعتذارتهما إلى الزمان بن المنذر على نحو ما ذكرنا في ترجمتهما ، وقد أتر عنهما في ذلك قصائد كثيرة طوال ، ذكرت نماذج منها في ترجمة كل منهما .

وكان على رأس الاتجاه الثاني كعب بن زهير في لاميتا المشهورة التي قل في مطلعها:

أنت سعاد فتلى اليوم مقبول متم إرها لم يفد مكبول

وهو فيها يكشف عن الفارق بين الاتجاهين ، فبيدما يقدم أصحاب الاتجاه الأول اعتذارهم بين يدي آمالهم ، نرى كعبا يقدم اعتذاره بعد أن تحقق مأموه ، ونال عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمينه ، وإلى ذلك يشير في قوله :

أقصد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع القيل
لفل يعسد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تمويل
حق وضمت يعني لا أبازعه في كف ذي تقات قبيلة القيل

(١) راجع العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٦ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

يمتاز الفخر الحضري من الفخر البدوي بتميز المحامد والنموت الحضريّة من المحامد والنموت البدوية ، إذ الفخر لا يخرج عن تمداد الشاعر ما يشتمل عليه من ذلك ، وكل هاهنا يتأثر بوسطه وبيئته في تقدير للصفات ، وتحديد الفضائل ، إذ كثير منها نسبي ، فليس ما يفخر به ابن اليازية - بالضرورة - مثل ما يفخر به ابن الحاضرة ، ومن هذا للتعلق أقرر أن ما يفخر به ابن الحاضرة المادية لا يتفق بالضرورة - مع ما يفخر به ابن الحاضرة الإسلامية .

يتضح ذلك إذا نظرنا في شعر شاعر مثل طرفة بن العبد القدي استمالسته الماديات فلم يشعر بسكياها إلا بالإصاف بكل ما هو مادي وهو الفارس الذي لا يضارعه فارس ، الجواد ، السكير المربد ، التلاف ، المكب على ماذاته ومتمه على الرغم من عشيرته ، وذلك في قوله :

عنت ، سلم أكسل ولم أتبدل	إذا القوم قالوا من متى؟ حلت أنى
ولكنى متى يسترمد القوم أرغد	ولست بحلال التسلاع مخافة
وإن نلتسقى في الحوانيت تصطد	فإن تبغى في حلقة القوم تلقى
إلى ذروة البيت الشريف المصمد	وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى
تروح إلينا بين برد ومجسد	ندا ماى بيض كالنجوم وقينة
ويبعى وإنفاقى طريفى ومتمدد	وما زال كشرابى الخور ولذنى
وأفردت أفراد البعير المعبد	إلى أن تحم - امتنى العشيرة كلها

ومن ذلك المورد قدم امرؤ القيس فخره على نحو ما رأينا ، وهو دائما اللقى الأثير هند الفتيات ، الذى فرغ من كل ما يشغل العظيم من عظام الأمور ليهتم بالتأفة من ألوان الحياة ، فليس يمينه إلا تسكير في رحلة صيد يمتطى فيها فرسه القوى ، ومن حوله ثلة من الشبان الفارحين ومهم الجوارى لينتهوا إلى حفل تنحرف به التبايح ، وتمد الوائد .

فإذا قلبنا النظر في شعر الحضرة الإسلامى وجدنا شعراء يفخرون بقيم اصطفاها الإسلام من القيم العربية لتصبح قبا إسلامية ، يحرص عليها المسلم ، ويمتاز بالتزامه بها ، واشتغالها عليها .

وكان أهم ما يهتم به المسلمون في العصر الأول لمحجى الإسلام من هذه القيم الإخلاص للدعوة ، والوفاء لمهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإقدام على الموت في معارك الجهاد طلبا للشهادة ، والخلوص من الشرك وتوابعه ، والوقوف في وجه المشركين دفاعا عن الرسول والدعوة . . . الخ .

من ثم كان الفخر في هذا الوسط الإسلامى مزيجا من الفخر والحساسة الإسلامية ، كما نجد في شعر حسان حين وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على صرعى قريش يناديهم : يا أهل القلب بئس عشيرة الذى كنتم لنبيكم ، كذبتونى وصدقنى الناس ، وأخرجتونى وآوانى الناس ، وقائلتهونى ونصرنى الناس ثم قال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال حسان بائيته التى تصور فيها هذا المشهد وفيها يقول :

فنادرنا أبا جهل صريعا	وهتبه قد تركنا بالجيوب
وشيبة قد تركنا فى رجال	ذوى حسب إذا سبوا حسب
يناديهم رسول الله لما	قدفناهم كباكب فى القلب
لم تجدوا كلابى كان حقا	وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟ ا
فما بطفوا ، ولو نطقوا لقالوا	صدقت وكننت ذا رأى مصيب

وفى غمرة الفرح بنصر الله يوم بدر ينطلق لسان حسان مصورا بطولة القائد العظيم ومن خلقه المسلمون يستمعون بحبل الله ، معددا ما يفخر به كل مسلم فى مثل هذا الموقف ، فيقول .

مستمعرى خلق المادى يقدمهم	جلد النحيزة ماض غير رعديد
أعنى رسول إله الخلق فضله	على السبرية بالتقوى وبالجود
مستمعين بحبل عير منجذم	مستهكم من حبال الله مدود
فينا الرسول وفيما الحق تتبعه	حتى المات ونصر غير محدود

فأى محامد ونموت يعتز بها المسلم فوق هذه المعامد والنعوت ؟ !
إنها كما ترى قيم الإسلام التي دعا إليها القرآن الكريم ، وتخلق بها الرسول صلى
الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله تعالى عليهم .

وصفوة القول : إننا هنا أمام نخر حماسى يدور حول انتصار الجماعة ؛ فهو نخر
تغلب عليه الروح الجماعية من خلال الأخلاق والقيم والمبادئ الإسلامية ، ولا ريب
فى أن الفارق شاسع بين هذا النخر ونخر أمثال طرفة وامرء القيس بمن نشأ فد
احضان الحضارة العسبية بمبادئها وقيمها المادية .

الغزل :

من الهنون للشعرية التي يلتقي فيها البدوى مع الحضري ، لكنهما لا يلتقيان إلا على الاسم العام ، أما للمهيج وللغاني فهما مختلفان تماما ، فإذا كان الشاعر البدوى يرى في المرأة حرما لا يذمها ، وإنما يطفح حوله في خشوع ، فإن الشاعر الحضري كان يرى فيها متعة الحواس ، ومنهل العرائز والشهوات فهو حين يتعرض لها إنما يتعرض لمباح ، يتمتع نفسه بالنظر إلى ما يخفى من جسمه ، ويمتدح غيره بتعريفها مما يسترها ، على نحو ما رأينا في شعر امرئ القيس الذي يقول فيه مصورا إحدى مغامراته النسائية التي يفخر بها ، ويرى أن ذلك قصارى ما يصبو إليه رجل مثله :

جئت وقد نضت لوم ثيابها	لهدى الستر إلا أبسة المتفضل (١)
مهفهفة بيضاء غير مفاضة	ترائبها مصقولة كالسجنجبل (٢)
أصد وتبدي عن أزيل وتتنقى	بناظرة من وحش وجرة مطفل (٣)
وجيد كجيد الرُّم ليس فاحش	إذا هي نصته ولا بمطفل (٤)
ومرع يرين المئين أسود فاحم	أنيث كقنو النخلة المتعشك (٥)

(١) نضت : حلعت ، والمتفضل : من يلبس ثوبا واحدا إذا أراد الحفة في العمل .
 (٢) المهفهفة : لطيفة الحضرة صامرة البطن ، والمفاضة : المرأة عظيمة البطن مسترحية اللحم ، والترائب : جمع تريبة . موضع القلادة ، والصقل : إزالة الصدأ والندس والسجنجبل : المرأة .

(٣) أصد : تعرض ، وتبدي : تطهر ، وخذ أسيل . فيه امتداد وطول ، ووجره موضع ، ومطفل التي لها طفل

(٤) الرُّم : الظن حالص للبياض ، نصته : رفته ، والفاحش : ما حاور القدر المحمود من كل شيء ، والممطل : الخالي من الخلق .

(٥) الفرع : الشعر التام ، والمئين . الظهر ، الأنيث : الكثير ، والقنو : المدق ، والمتعشك : المتدلى .

وتضحى نثيت المسك فوق ثيابها ذؤوم الضحى لم تلتطق عن تفضل^(١)
وعلى هذا النحو يسير المنخل اليشكري في تصوير واحدة من مفاخره مع المنجدة
زوج النعمان ، وفيها يقول^(٢) :

ولقد دخلت على الفتى	ة الحذر في اليوم المطير
السكائب الحسناء تر	قل في الدمقس وفي الحرير
ندعتنا فتداعت	مشى القطاة إلى القدر
ولثمتنا فتفتت	كتنفس الظى البهير ^(٣)
فدنت وقالت يادنـ	خل ما بجسك من حرورا
ماشف جسمى غـير حـ	ك ، فاهدنى عى وسيرى

ولم تذف حسية الغزل في الشعر الحضري عند حد هذه القمص التي تدور حول
مفاخرات الشاعر مع المرأة ، بل إنك لتجد الشاعر الحضري في ذلك العصر لانه عينه
من المرأة إلا على عاينها للحسية ، وأوصاف جسمها المادية ، مما يكشف عن انهالك في
المادية انهما كما يشبه من قريب تمالك بعض الشعراء المحدثين في البيئات المادية . من
ذلك ما قاله الأعشى متغزلا في امرأة شده جمالها :

غبراء فرعاء مصقول عوارضها	تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجى ^(٤)
كأن مشيتها من بيت جارتها	مر السحابة ، لا ريث ولا عجل
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت	كما استمان بريح عشرق زجل ^(٥)
يكاد يصرعها - لولا تشدها -	إذا تقوم إلى جاراتها السكل ^(٦)

(١) البيت كله كناية عن الترف والنعيم .

(٢) الأسميات رقم ١٤

(٣) البهير من البهر : وهو ما يمتري الإنسان والحيوان عند السمي الشديد من

تتابع الأتفاس .

(٤) الفراء : البيضاء واسمة الجبين ، والفراء : طوبلة الفرع من شعر وعوارص ،

والوجى : الذي رق حاره من كثرة المشى .

(٥) الوسواس : صوت الحلى العشرق - بكسر العين - شجيرة مقدار ذراع لها

أكام فيها حب صنار إذا جفت فثرت بها الريح تحرك الحب نسمع له حشخشة على الحصى ،

والزجل : ذو الصوت المطرب . (٦) البيت كله كناية عن السمن والترف .

- إذا تقوم بوضع المسك بصورة والزئبق الورد من أردانها شبل (١)
ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل (٢)
يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذدنا الأصل (٣)

والغزل الحضري كما ترى في الغالب يدور حول الماديات ، سواء في علاقة الرجل بالمرأة ، أو في محاسنها الى تأسره ، ومن ثم لا تكاد تجرد هذا الغزل خارج الحضرة الحسى ، أما المحضر الإسلامى فلم يكن أمام شعرائه مجال لتناول المرأة بأى صورة من صور التناول اللهم إلا الغزل التقليدى في مطالع القصائد ؛ إذ كان ما يشغلهم من أمور الدعوة أعلأ صوتا من ذلك ، أضف إلى هذا أن استجابة الشعراء لقيم الإسلام تمنعهم من الخوض في ذلك ، فلم يكن الكثير منهم قد اتضح أمامه بعد ما رفضه الإسلام وما يقبله من ذلك .

-
- (١) ضاع المسك : انتشر ، وأصورة جمع صوار : الرائحة الطيبة ، والزئبق : دهن الياسين ، والأردان جمع ردن - بضم الراء - السكم .
(٢) الحزن : الأرض الغليظة ، والمراد به هنا موضع من بلاد الجيمة فيه رياض وقيعان .
(٣) الأصل - بضم الصاد - جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى الظلام .

الدينيات والمواعظ:

الحديث عن الدين وما يتصل به من الأوسكار والمعانيد ، والدعوة إليه ، والحث على التخلق بقيمه ، ولفت القلوب والمغزول إلى أسرار الحياة ، ونظام الكون ، والمسير المحتوم . . إلى غير ذلك من المواعظ ون شعرى جد على الشعر الحضرى ؛ وقد تأثر الشعراء في المحواضر المختلفة بالفكر الدينى - على اختلاف مصادره - المسيحى واليهودى ، والوثنى ، ثم الإسلامى ؛ واعتنق شعراء العرب بعض تلك الأوسكار ، وأخلصوا أنفسهم للدعوة إليها من خلال شعرهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء شاعر الحيرة عدى بن زيد العبادى ، الذى أحاص أكثر شعره لذلك الفن ، وتناوله من مختلف اتجاهاته ، بقص من أحداث الأمم الفائرة وحكاياتهم وما وقع لهم ما يمثل أمام الناظر ، فيجرد الإنسان من أدران الحياة وشوائب المادة ، ويحميه من الاغترار بها والانخداع بظواهرها . وبما قدمنا من نماذج شعره ما يورد ذلك

وسار قربا من مسار عدى شاعر الطائف أمية بن أبى الصلت الذى نسب إليه شعر يتحدث فيه عن إله العالمين ، حالق السماوات والأرض ، ومدشء الكون ، مستدلا على وجود الله بنظام هذا الكون ويتحدث فيه - كذلك - عن الموت والفاء ، والبعث والشور ، والمذاب والثواب نحو قوله الذى نسب إليه على شك فى صحة تلك النسبة :

إله العالمين وكل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بهاها وابنى سبعا شسدادا	بلا عمد يرين ولا رحال
وسواها وزينها بسور	من الشمس المضيئة والهلل
ومن شهب تلالاً فى دحاها	مرامبها أشد من المصال
وشق الأرض فانبجست عيوبا	وأنهارا من العذب الرلال
وكل معمر لا بد يوما	وذى دنيا يصير إلى زوال

ورجع الشك في نسبة هذا الشعر لأمية إلى معانيه بالمعاني الإسلامية ، وليس هذا بالسبب الذي يشكك في نسبة الشعر إلى أمية ؛ خصوصا إذا ذكرنا أنه ممن كان يسمى للنبوة ويمد نفسه لادعائها

وقد أوضحنا - في أثناء حديثنا عن عدى بن زيد - مكن شعر أمية الديني من شعر عدى .

وأيا ما كان الأمر فإن الشعر الديني في هذه اللواتن لم يخرج عن الأمور العامة ، والقضايا البسيطة التي اجتمعت عليها الديانات السماوية كلها .

ولما كان الإسلام لم يتوقف الشعراء المسلمون عند هذا الحد ، بل تجاوزوه إلى عرض قيمة الخاصة ، والحث على مناصرتة . بينما حرص شعراء المشركين على محاربتة . والصد عنه .

ولعل أوضح مثل لذلك ما نجد من شعر كعب بن زهير :

لو كنت أحب من شيء لأعجى	سمى الفتى وهو محبوب له القدر
يسمى الفتى لأمر ليس يدركها	والانس واحدة والهلم منتشر
والمرء ما عاش بمدود له أمل	لا تنتهى المئين حتى ينتهى الأثر

الرثاء :

فن الرثاء من الفنون المشتركة التي حفل بها شعر الحاضرة كما حفل بها شعر البادية؛ وإن كان في البادية أكثر شيوعاً، وأشد انفعالا وتفجعا، وذلك لما يواجهه شاعر الحاضرة من مبادئ وقيم تذكره دائماً بالمصير المحتوم الذي يتناول كل كائن مخلوق، بحيث تخف حدة الالتئاع والتفجع ازوال المفاجأة في زوال الموت .

ومن ثم يلاحظ المدارس أن شعر الرثاء في الحواضر العربية غلب عليه الغزاء والتسلى على اختلاف اتجاهات الشاعر فيه، من تذكّر لما نزل بالملوك النابرين، وتأمل في سنن السكون ونظام الحياة؛ وهو فرصة للنظر المأمى فيما حول الشاعر، وصوغ ما انطبع على صفحة فكره وعواطفه من إنعكاس لهذا النظر، يتمثل دعوة الآخرين إلى تقبل ما يأتي به القدر بنفس راضية على الرغم من مرارته وألمه .

يبد أن الشاعر لم يكن ليقف عند حد التأسي والتعزية، بل كان يضطر إلى سرد طرف من سمات الميت وحصائصه الخلقية، وكأنه بذلك يعال للتعزى بفقد هذا الشخص من دون الآخرين الذين يموتون في كل يوم ولا يتألون من اهتمام الشاعر بما يحمله يرثيهم ويتعزى عن مقدمهم؛ ولذلك دار شعر الرثاء حول الموتى ذوي المسكنة في نفوس معايشهم .

ولعل ذلك يتضح من رثاء فضالة بن كلدة الذي قال فيه أوس بن حجر، طالبا من نفسه التجميل في الجزع لوقوع المخذور، دون أن يفرق في ذلك بين شخص وآخر، فقد أودى بمن ضم كريم الأخلاق من سماحة ونجدة وحزم، وعقل، كما أودى بمن مجرد عن هذه الصفات جميعا :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذي تحذرين قد وقما
إن الذي جمع السماحة والسجدة دة والحزم والقوى جمعا

الألمعى الذى يظن بك الظن - وكان قد رأى وقد سمعا (١)
الخفاف المتناف للرزاء لم يتمتع بضمف ولم يمت طبعاً (٢)
أودى وهل تنفع الإشاحة من شيء لمن قد يحاول البدعا (٣)

ويتضح من رثاء امرىء القيس أباه ، وهيه تأملات حزبية ، ونظرات باكية إلى مايجرى في السكون ، وذلك في قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب (٤)
عصافير وذبان ودود وأجراً من مجلعة الدئاب (٥)
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همقى وبه اكتسابى
بعض اللوم عاذلقى إني ستسكيبى التجارب وانتسابى
إلى عرق الترى وشجت عروقى وهذا للموت إسلبى شيابى (٦)
وتنسى سوف يسلبها وجرى ويلحقنى وشيسكا بالتراب (٧)

ولما كان الإسلام ، تأثر الشعراء بتعاليمه السامية الواضحة التى تأتى على الشاعر للبالغة في التفجع والتحسر ، واستجابوا لقيمه التى تفرض على الجميع روح الجماعة ، فلم ييكونوا ميتا لداته ، وإنما ييكون فيه تأثر الأمة بفقده .

وصادف ذلك ما كان بين المسلمين والمشركين من صراع بلغ درجة عالية من التحدى

(١) الألمعى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور ولا يخطيء ، وأنه يظن صادق الظن جيد الفراسة .

(٢) الرزاء : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لسكرمه ، يتمتع : يصاب . والطبع - بكسر اللب - اللب .

(٣) أودى : مات ، الإشاحة : الجذ فى طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .

(٤) موضعين - بكسر الضاد والعين - لأمر غيب : يريد به الموت ، وسحر : نلهمى ومحدع .

(٥) الدئاب المجلعة : المصنعة على الشيء التى لا ترجع عما تريد ، بمعنى : تخن فى الضعف مثل هذه المحلوقات ، وهى ركوب الإنام أجراً من الدئاب التى تصم على ماتريد .

(٦) وشجت عروقى : اشتبكت وانصلت ، يقول : إن أصله فى حسبه ثابت راسخ .

(٧) الجرم البدن ، والوشيك : السريع .

فألْبَسَ الرثاء ثوب الفخر ، ومزج الفخر بالرثاء ، في بكاء من استشهد من المسلمين ، ومن قتل من المشركين في الحروب التي دارت بين الطرفين في مطلع الإسلام . وكان محور هذا الرثاء - كما فرسه الموقف - تمداد المناقب ، ووصف الثوى الأخير وما ينتظر الشهيد من جزاء .

بيد أننا نلاحظ في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم مزيداً من التفجع والتوجع لمقدمه ، إذا قورن برثاء غيره ، لكننا إذا وضعنا في الاعتبار مكان الرسول من نفس المسلم لم نجد في ذلك زيادة ولا مبالغة ، وإنما هو التصوير الصادق لما يحس به الشاعر من فداحة المصيبة ؛ فهي إذن أمور نسبية ، لاندرک أمادها إلا بالنظر المدقق الفاحص . ومن أبرر المرأى الجاهية ، وبث الأحران للمصائب العامة ما قاله أبو أسامة معاوية ابن رهير حليب بن محزوم وهو مشرك حين مر بهيرة بن أبي وهب فرأى إعياءه من الحرب ومما أصاب قومه من الهزيمة في غروة بدر ، مصوراً أساء وحزنه لما ألم بهم ، فأحرا بنفسه وقبيلته وشهوده الحرب :

ولما أن رأيت القوم حقوا	وقد زالت نمامتهم لفر
وأن تركت سراة القوم صرعى	كأن خيارهم أذباح عتر
وكانت جمه وامت حماما	ولقينا المناسيايا يوم بدر
وأبلغ إن بلغت المرء عفا	(هيرة) وهو ذو علم وقدر
بأنى إن دعيت إلى أفيسد	كررت ولم يضق بالكرصدى

وهذا الأسود بن المطالب - وكان قد أصيب له في بدر ثلاثة من ولده زمعة وعقيل والحارث بن زمعة - يسمع نائحة من الليل فيسأل غلامه عمن تبكى ، فأحبره بأنها تبكى بغيرا لها ضل ، فأنفجر ساحتها غاضبا نائحا يقول :

أتبكي أن يضل لها بغير	ويبعها من السوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن	هلى بدر تقاصرت الجودود
وبكى إن بكيت على عقيل	وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى حميما	وما لأنى حكيمة من بديد
الا قد ساد بهمدم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

بيدما يقف عند الله بن الربيرى السهمى يبكى شهداء بدر ، فيسمى أبطالهم ، ويشيد بآرائهم وحسن بلائهم ، وإقدامهم على الموت في غير خوف ولا تردد :

ماذا على بدر وماذا حـوله من فتية بيض الوحوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها وابن ربيعة خير خصم فقام
والحارث الفيض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلة الإظلام

* * *

وإذا بكى باك فأعـود شجوه فعلى الرئيس الماحد ابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام

وهو رثاء - كما ترى - يمازجه الفخر والمدح ، فهما عنصران يكادان لا يفارقان
المرأى في الشعر الإسلامي ، إذ المرأى في هذا الوسط البيئي منبثقة من الصراع القائم
بين معسكري الإسلام والشرك .

لوصف :

يكاد شعراء الحاضرة لا يقلون عن شعراء البادية اهتماما بفن الوصف - على ما سبق الإشارة إليه - ولا يخرجون على منهجهم فيه ، من تنوع في معارضه ، حيث وصفوا القاديات والوضوعيات ، ووصفوا المدركات الوجدانية والمدركات العقلية والمدركات الخيالية ، كما وصفوا الماديات والمدركات الحسية .

١ - وكان من أهم ما استأثر بفن الوصف لدى شعراء الحاضرة المادية مجالس الخمر ، وما يدور فيها من رقص وطرب ، حيث أفردوا القصائد لذلك ، وقبلوا نظرهم في مشاهدتها ، فوقعوا منها على لوحات كثيرة ، متعددة الأحداث ، وتفننوا في تلوين كل لوحة بما يناسبها . وكان من المقدمين في ذلك عدى بن زيد الذي تناول الخمر بالوصف ، فقدمها في صورة رائعة من حلال أوانها وكؤوسها - على ما سبق الإشارة إليه - وشاركه في هذا الأعمى الذي برع وأجاد وتمكن من استحضار مجالسها مشخصة مجسمة بما يلتزمون فيها من عادات تشبه الطقوس ، وما يتزيا به السقاة والمضون من أزياء ، وما يكون عليه الإماء من خلاءة وثئن . يوضح ذلك ما أراه في مملته من قوله :

وقد عدوت إلى الحانوت يتبعى	شأ مشل شلول شلشل شول ^(١)
في فتية كسيوف المسد قد علموا	أن ليس يدمع عن ذى الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الريحان متسكنا	وقهوة مزرة راووقها حضل ^(٢)
لا يستليقون منها وهي راهنة	إلا بهات، وإن علوا وإن نهلوا ^(٣)

- (١) عدوت : ذهبت ، شأ : يشوى اللحم ، ومعنى مشل - بكسر ففتح - شلول ، شلشل - بضم الشينين - شول : أنه حفيف الحركة نشيط .
- (٢) قضب - بضم القاف والضاد - حمم قضيب : العصن والقهوة : الخمر ، والراووق : اللوعاء الذى تروق به الخمر ، حضل : ندى ، كى بدلك عن اتصال شربهم .
- (٣) علوا : من العلى - بفتح العين - الشرب بعد الشرب تباعا ، ونهلوا من النهل : أول الشرب ، إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

يسمى بها ذوزحاجات له نطف مفاص أسفل السربال ممتل (١)
ومستجيب تحمال الصننج يسمه إذا ترجع فيه القينة الاضل (٢)
والساحبات ذبول الحز آونة والرائلات على أعجازها المجل (٣)
من كل ذلك يوم قد لهوت به وفي التجارب طول اللهم والغزل

وهو كما ترى - وصف لأحد أيام نهمه ، غدا فيه إلى الحمار يصحبه اتية كسيوف
الهند - رونقا ومضاء ويتبهم رفيق خفيف الحركة نشيط ؛ فتجاذبوا في متكهم
أغصان الريحان ، وكثوس الحمر التي لم يقطع دورانها عليهم ، دون أن يصيبهم ملل ،
فشربوا وسكروا ، فإذا أهفوا طلبوا للزيد من الساقى وكان غلاما حدثا يملق في أذنه
قرطا ، ويلبس قميصا قصيرا . هذا إلى ذلك للمود الذى تنسق ألحانه مع صننج كانت
تعزف عليها في أثناء عائتها قبة في ثوب واحد رقيق شفاف ، ومن ورأها القتيات
الحسناوات ترفل في ثياب الحر السابقة .

ولا يقف عند حد وصف الحمر وأوانها ومخالسها ، بل إنه ليصف فعلها بمقول
شأريها ، وأثرها في قلوبهم ، وصفا يبلغ من لدقة فيا مبالغا يعان عن مدى شغفه بالحمر
واقفانها ، مثل قوله في أسلوب قصصى رائع :

أسانى يؤامرني فى الشمو ل ليل لقات له : غادها (٤)
أرحسا نباكر جسد الصبو ح قبل النفوس وحسادها (٥)

(١) دو رجاجات : يريد الصاقى ، نطف جمع نطفة : القرط به لؤاؤة صافية ، ويعنى
بمفاص أسفل السربال أنه قصير القميص ، والممتل : المطبوع على العمل والنشاط .

(٢) المستجيب : العود ذو الأوتار ، سمي بذلك لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصننج ،
من آلات الطرب . وكسى بالشرط الأول عن اتساق ألحانها . والقينة : الأمة المعية ،
والفضل - بضم الفاء والضاد - اللاسة ثوبا واحدا .

(٣) المجل - بكسر ففتح - جمع عجلة - بكسر فسكون - وهى قربة الماء .

(٤) يؤامرني : يشاورني ، الشمول : الحمر ، غادها : انطلق بما إليها .

(٥) جد - بكسر الحيم - نشاط ، والصبوح : حمرة الصباح .

(١٩ - الأدب العربي)

وقمنا ولما يصح ديكما	إلى جونة عند حدادها(١)
تنخلها من بكار القطاف	أزيرق آمن إكسادها(٢)
ومات له : هذه هاتها	بأدماء في جبل مقتادها(٣)
فقال : تريدوني تسمية	وماذاك عدلا لأندادها(٤)
وقلت لمنصفنا : أعطه	فلما رأى حضر شهادها(٥)
أضياء مظلمته بالسرا	ج والليل عامر جدادها(٦)
دراهمنا كلها جيد	فلا تحبسنا بئقسادها(٧)
وقام وصب لنا قهوة	تسكننا بمد إعادها(٨)
كيتا تكشف عن حمرة	إذا صرحت بمد إزبادها(٩)
كحوصلة الرأل في جريها	إذا جليت بمد إتمادها(١٠)
وجال علينا بإبريقه	محضب كف بفرصادها(١١)

- (١) جونة - بفتح فسكون - جرة وحدادها : خمارها .
(٢) تنخلها : تخيرها ، وبكار القطاف : أول ما يقطف ، والأزيرق ، تصغير أزرق ، يعنى به أزرق المينين ، آمن إكسادها - بكسر الميم - لا يحاف كسادها .
(٣) الأدماء : اللاقة البيضاء ، ومقتاد الناقة : الغلام الذى يرعاها .
(٤) الأنداد : الأمثال .
(٥) المنصف - بكسر الميم وفتح الصاد - الخادم ، والحضر - بفتح الحاء وسكون الضاد - الحضور ، ويقصد بالشهادها : الدرهم .
(٦) المظلة : الحانوت أو الخبساء . والجداد - بضم الجيم وتشديد الدال - الأهداب والأستار .
(٧) لتتقاد : المد والنقد وتبين الزائف من الصحيح .
(٨) تسكننا : سكن إليها .
(٩) لكسيت : الجراء ، صرحت : ذهب زبدها .
(١٠) الرأل - بفتح الراء وسكون الهمزة - فرخ النعام ، شبه الحجر بمجوصلته في الحمرة . حليت : أخرجت ، من جلوة العروس ، والقاعدة : إذا قدمت عن الطلب .
(١١) الفرصاد - بكسر الفاء - التوت الأحمر .

فبانث ركاب بأكورها لهينا وخيل بألبادها(١)
ورحنا تنعما نشوة نيجورينا بمد إقصادها(٢)

٢ - واستأثر كذلك بفن الوصف - لديهم - مشاهد الطبيعة وتقلباتها، ومظاهر
السكون ودقائقه؛ فرأينا منهم من يستأثر به مشهد الأمطار والسيول التي تسلم بالديار
فيقيمها من مبتدئها إلى منتهاها، كما صنع امرؤ القيس في معلقته؛ إذ خص جزءا كبيرا
منها بوصف وميض البرق ولما نه المتداخل في السحاب المترام، وكيف جلس هو
وأصحابه بين حامر وإكام يتأملون سح الماء، وهطول الأمطار، حتى تحولت في الأرض
سبيولا تجرف كل ما يصادوها من أشجار، فلم تتركها بخلا ولا بيتا، وما زالت المياه
تتمزأيد، والسيول تشدد حتى عات آجام السباع ففرقت، وأصبحت رءوسها فوق سطح
الماء كأنها جدور البصل الرى؛ وذلك قوله:

أحار ترى برقاً كأن وميضه كأمع اليدين في حبي مكلل(٣)
يضىء سناه أو مصابين راهب أهان السليط في الغزال المقتل(٤)
قدمت له وصحبتى بيعد حامر وبين إكام بمد ما متأمل(٥)

إلى آخر الصورة التي ذكرت آياتها كاملة في ترجمة الشاعر، وواضح فيها أنه
- على مهجه البياني - يعتمد في توصيحه مقصده، وإبرار الصورة على التشبيه بـ مختلف
أنواعه وأدواته .

-
- (١) الأكوار - جمع كور - الرحال، والألباد - جمع ألد - قطعة الصوف
توضع تحت السرج .
(٢) الإقصاد : القصد والاعتدال .
(٣) حار : ترخيم حارث ، وميض البرق : لهمانه، والعى من السحاب : المترام
ومثله المسكال .
(٤) السليط : الزيت ، والزبال : الغزال ، والمزورد بقوله : أهان السليط :
أكثر منه .
(٥) حامر وإكام : موضعان ، بمد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

ولم تكن هذه الآيات وحدها هي التي نسبت لامرئ القيس في وصف له ومشاهد الطبيعة ، فقد نسب إليه مقطوعة أخرى في النرض ذاته - وإن كان أبو عمر ابن الملاء ينسبها قدي الرمة - وفي هذه المقطوعة يمضى الشاعر فيصور مسطرا قر الشبه بالمطر السابق ؛ فالمطر ينهر حتى يعم الأرض ، ويقلع فتبدو الأوتاد من الأرك والسكنه يعود أكثر مما كان فتتوارى عن الأنظار ، وتظل متوالية متدفقة حتى تنف الأشجار ولا يبدو منها إلا أعاليها ، تتراعى كأنها رءوس ميممة قطعت وبها عماء ؛ وما يزال على هذا الانصباب والتدفق فترة ، تستدر السحب ربح الصبا الشمالية فيس الطر في المهلول ، وتقابلها ربح الجيوب فتفجر السحب بالمطر كذلك ، وتسيل ا حتى تضيق بأمواجه الأرض المروعة باسم خيم وجفاف ويسر :

ديمة هط-لاء فيها وطف	طبق الأرمه تحرى وتدر (١)
تخرج الود إذا ما أشجذت	وتواريه إذا ماثنت-كرو (٢)
وترى الضب حفيقا ماهرا	ثانيا-ا برئنه مايمقر (٣)
ونرى الشجراء في ريقه	كرووس قطعت فيها الحجر (٤)
ساعة ثم انتحاهما وإبل	ساقط الأكناف واه منهمر (٥)

(١) الديمة : المطر الدائم، وهطلاء: كثيرة المهطل، والوطف: الدنومن الأ طبق الأرض - بالباء انفتوحة - تطبقها وتممها الكثرة مطرها ، تحرى : تمه الأمكنة وثبتت فيها ، وتدر : يكثر ماؤها وترسل درها .

(٢) الود - بفتح الواو - الردد ، وأشجذت : أفلتت وسكنت ، وتشتت تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) حفيقا ماهرا : يريد مسرعا في عدوه ، وبرئ الضب: يقابل الإصبع من الأ وما يمقر : لا يصيبه المرق والتراب وذلك لخفته في عدوه .

(٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، وريق المطر : أوله ، ينفى أز ينهر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها فتبدو كأنها رءوس قطعت وفيها الحجر وا

(٥) انتحاهما : قصدها ، الوايل : المطر الثرير ، والساقط الأكناف: الدا نواحي الأرض . واه . متخرق ، المنهمر : المنسكب .

راح تمر به الصبام اتحى فيه شؤبوب جنوب منفجر (١)
ثج حق ضاق عن آذيه عرض خيم جفاف فيسر (٢)
قد غدا يحمل في أنفه لاحق الإطلين محبوبك ممر (٣)

* * *

٣ - كما احتفل شعراء الحاضرة بإيراد إحدى وسائلهم الحيوية بالوصف ؛ من
حيوان ، وآلات حرب ، ونحو ذلك . فهذا أبو دؤاد الإيادي يصف فرسه في قصيدة
من روائع شعره تبلغ نحو ثمانية وعشرين بيتاً خصها كلها في وصف الحصان ،
سجاء فيها :

وقد أعدو بطرف هيـ كل ذى مية سكب (٤)
أسيل سلجم المقبل لاشخت ولا جأب (٥)
مسح لا يوارى العير منه عصر المهب (٦)

(١) راح : عاد بالمطر في آخر النهار . تمر به - بفتح التاء - تحركة وتديره ،
والشؤبوب : دمة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .
(٢) ثج : سال ، والآذى : الموج ، وحيم - بفتح الحاء وسكون الياء - وجفاف -
بضم الجيم - ويسر - بضم الياء والسين : أما كن .
(٣) يحماني في أنفه : يريد في أنف المطر أى في أوله ، ولاحق الإطلين : فرس
ضامر الكشحين ، المحبوك : الموثق الخاق ، ومثله المر - بضم ففتح - من الحمل المر
وهو المحكم القتل .
(٤) الطرف - بكسر الطاء ، الفرس الكريم ، والميكل : الطويل في ضخامة ،
ذوميمة : ذو جرى سائل ، ومثله السكب .
(٥) أسيل الحد : مستو ، ساجم : طويل ، للمقبل . يعنى حين تراه مقبلاً ، والاشخت
المعيق ، والجأب : الغليظ
(٦) المسح : الذى يصب في حريه ، والمصر - بفتح العين والصاد - الملجأ ،
والالمب : شق في الجبل ، يعنى أن الحصان لشدة اندفاعه في الجرى لا يتوارى عنه العير
سوان النجاً إلى شق في الجبل .

له ساقا ظليم خا	ضرب فوجيء بالرعب (١)
ومتمنان خظانان	كزحلوفا من الهضب (٢)
يهز العنق الأجر	د في مستأمن الشعب (٣)
ترى فاه إذا أقبل	مثل السلق الجذب (٤)
نبيل سلجم اللجبين	صافي اللون كالثقاب (٥)
حديد الطرف والمنسك	سب والعرقوب والثقاب (٦)
جواد الشد والإحضا	ر والتقريب والمقب (٧)

وهذا أوس بن حجر في وصف القوس، وقد سار فيه على منهج الاستقصاء والتتبع فبدأ بالقوس منذ كان غصنا في شجرة بعيدة المنال؛ إيماء إلى ندرة هذا القوس، فقهى أحسن الأقواس الممددة للحرب، صنعه خير، حين أبصر شجرته جشم نفسه العناء حتى تمكن من الحصول على هذا النصف، وقام بصقله وإعداده، فأخرجه وسطا بين الطويل والقصر، ملء الكف، حين يستعمل يسمع لصوته رنين، فإذا شد النازع السهم عاد إلى القبض، ثم ابتعد عنها لقوة دنفها وصلابتها:

ومبضوعة من رأس فرع شظية	بطود تراه بالسحاب مجللا (٨)
على ظهر صفوان كأن متونه	علان بدهن يزلق المنسلا
يطيف بها راع يجشم نفسه	ليكلأ فيها طرفه متأملا

(١) الظليم: ذكر النعام، والحاضب: الذي رمى الربيع غضبت قوائمه، وساقا الظليم قصيرتان.

(٢) الخظاة: المسكتزة، والزحلوفا: المكان الزلق.

(٣) الأجر: قصير الشعر، والشعب: الموصل المركب في الحارك وهو موصله الضيق مع الكاهل، يقول: قد ركب في أصل متين، وإذا سار هز عنقه.

(٤) الساق: بفتح السين واللام - الأرض المتجردة من النبات.

(٥) الثقاب: بضم التاف وسكون اللام - الشوار يكون نظاما واحدا.

(٦) المنسك: مجتمع رأس العضد والمنسكف.

(٧) كل ما ذكر في البيت مضافا إلى (جواد) أنواع من الجرى.

(٨) المذبذبة: المقطوعة، والشظية: الفتحة من الشيء، والطود: العجل.

على خير ما أبصرتها من بضاعة
فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن
فأبصر الهابا من الطود دونه
فأشرب فيها نفسه وهو مصمم
وقد أكلت أظفاره الصخر كلا
فما زال حتى نالها وهو مشفق
أمر عليها ذات حد غرابها
على حذيه من براية عودها
عمردها صفراء ؟ لا الطول عابها
كتوم طلاع الكف لادون مائها
إذا ما تعاطوها سممت لصوتها
وإن شد فيها للزع أدبر سهمها

التمس بيما أو تبسكلا (١)
لتبلفه حق تسكلا وتعملا
برى بين رأسى كل نيقين مهبلا
والقى بأسباب له وتوكلا (٢)
تمسا عليه طول مرقى توصلا
على موطن لو زل عنه تفضلا
رقيق بأخذ المداوس صيقلا (٣)
شديه سما الهى إذا ما تملا
ولا قصر أرى بها فتمطلا
ولا عسها من موضع الكف أضلا (٤)
إذ أنبضوا عنها نلها وأزملا (٥)
إلى منتهى من عسها ثم أقبلا (٦)

وصفوه القول : إن شعراء الحضرة الجاهلى فى فن الوصف اختلفوا عن شعراء البادية
فى أمور من أهمها :

١ - الموصوف ؛ فما يثير اهتمام الحضرى يختلف عن ذلك الذى يثير اهتمام البدوى ،
ولا ريب فى أن الشاعر إنما يركز مصورته على الشيء الذى يشد نظره دون غيره ،
وإلا أصيب شعره بالفتور والوهن .

(١) التبسك : الفنيمة . (٢) أشربط نفسه : أزدبها .

(٣) ذات الحد : السكين ، وغراب السكين : حدها ، والمداوس جمع مدرس
كثير : آلة الصيقل التى يثقب بها القوس .

(٤) الكتوم . التى لا يوجد فى عودها شقوق ، وطلاع الكف . ملء الكف
والمعجس . المقبض .

(٥) الإنباض : تحريك الوتر فى القوس ، والنثيم : صوت القوس ، والأزمل الرنين .

(٦) معنى إقبال الشهم إلى المقبض وإدباره أن القوس لينة فى صلابة عود ، وإذا
شد الفازع الشهم عاد إلى المقبض ، ثم ابتعد عنها لقوة دهمها وصلابتها .

٢ - النهج الاستقصائي ، فكل واحد من شعراء البيهقيين يعتمد في وصفه على الاستقصاء ، بيد أن شاعر الحضرة في استقصائه يلجأ إلى الوصف التأملي المتفحص ، كما رأينا في شعر أوس بن حجر ، وشاعر البادية في استقصائه يلجأ إلى الوصف القصصي ، فهو يقدم نعوت موصوفة في تتابع قصصي ، تتكامل بمناصره الصورة كما يراها الشاعر ، على ما رأينا في وصف زهير وليبد .

الفصل الثالث

الشعر العربي بين البادية والحاضرة

من المقرر أن الأدب العربي على اختلاف أنواعه وفنونه يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها إفراد عن فرد ، ففي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تعوقه عن مواصلة المسار ، لا يختلف في ذلك أدب عن أدب ، وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانتعالات رضا بها أو سخطا عليها ، دعاء عنها أو برماها . . .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أختها في أمور كثيرة من أبرها - في ميدان الأدب - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة ، وكيفية نقل هذا المعنى المرئي أو الصورة المدركة إلى الآخرين ، ثم بالأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

من هذا يتقرر أن أدب كل بيئة له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى ، وهو غير تفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها ، ولا يحق - لذلك - أن يحمّد أدب أمة أو جيـل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيـل لخصائصه ؛ إذ هي من ضروريات البيئة التي لا جهد لأحد فيها ، إنما يذم أدباء بيئة ما إذ تجاوزوا ما تملّيه عليه بيئتهم أو تحاهلوه ؛ لأن أديهم عندئذ يكون مسخعا مصسوعا لا يعبر عن ذات أصحابه .

فلإذا أردنا أن نتعرف على خصائص الشعر العربي الجاهلي في بيئة البدوية والحضرية فعنى هذا أننا نقصد إلى الكشف عن خصائصه المعنوية والخيالية وخصائصه المضمونية ، وخصائصه الأسلوبية ، وخصائصه الشكلية ، إذ الحال الفنى الذى يعبر شعر بيئة عن شعر بيئة أخرى يكاد لا يخرج على هذه المناحي الأربعة .

الخصائص المنوبية والخيالية :

المقصود بالمعنى هنا المدركات التى يقف عليها الشاعر فى أثناء تفكيره فى موضوعه ، فالمعنى الشعرية هى الحقائق التى تشد انتباه الشاعر فى موضوعه ، وعليها يتسوم البناء للشعرى ؛ لأن الشاعر حين يتناول موضوعا ما من الموضوعات أو حدثا من الأحداث لا يمكن بأى حال أن يستقصيه ويلم بكل أطرافه ، وإنما هو بحسه الخاص يقع على جانب منه يتأثر به ويميل فيه . هذا الجانب الخصوصى يجرئانه هو المعنى السكوى أو السكرة الأصيلة التى يقدمها الشاعر وهو ذلك حاضن ثقافته ومعارفه الخاصة النابعة من بيئته .

والباطر فى شعر البادية العربية ، وشعر الحاضرة العربية يصادف عدة ملاحظات :

١ - وهو يلاحظ أن المعانى فى الشعر البدوى واضحة صريحة صادقة فلا يحول بينها وبين متاعها غموض ؛ وذلك أحد آثار البيئة فى مقومات الشخصية لديهم ، فقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية المفتوحة التى لا تعتمد فيها الحياة إلا على الضرورى من الحجب ، والتى لا يفيد فيها الالتواء والتخفى ، والتى لا كيان فيها لجبان أو ضيف .. فرضت عليهم تلك البيئة أن يتخاطوا بخناق الشجاعة ، ذلك الخلق الذى ينطق به اللسان فى غير موارد ولا لتواء ، والتى تنكشف به السرائر فى تحد وتحديد ، وكما نرى فى المعانى التى شددت اهتمام الشفهرى فى زوجه أميمة إذ يقول (١) .

لقد أعجبتهى لا سقوطاً قناعها	إذا ما مشت ، ولا بدات تلفت
تببت - بعيد النوم - تهدى غبوقها	لجاراتها إذا الهدية قات (٢)
تحل بمنجاة من اللوم بيئها	إذا ما بيوت بالمذمه حلت
كان لها فى الأرض نسيا تقصه	على أمها ، وإن تكلمك تبنت (٣)

(١) المفضليات رقم ٢٠

(٢) البوق : اللاب الذى يشرب فى العشى .

(٣) اللسى : الشىء العسى أو المفقود ، تقصه : تتمقب أثره ، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبنت - بفتح وسكون - أو جزت .

أميمة لا يخزي نساها حليها إذا ذكر النسوان عمت وجلت (١)
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت (٢)

الشنفرى يرى أن محاسن المرأة تقوم على الوقار ، والسكرم ، والبهمة عن أسباب اللوم والذم ، والحياء ، حسنة السيرة والسمة لمفتها وجلالها ، يسد بها زوجها لأنها موضع ثقته

وقرار المرأة في تصور الشنفرى يعنى أن قائمها لا يسقط عن وجهها في انقضاء سيرها ، وأنها لا تتلف حولها . وكرمها في تصويره يعنى الإيثار ؛ فهو يؤثر حاراتها في الجذب بنبوق اللبن ، وبمدها عن أسباب اللوم يعنى حصانة بينها عن كل يوم أو ذم . وحياؤها يعنى أنها لا تروع رأسها عن الأرض في مسيرها كأنها تبحث عن ثمره مقدته ، وأنها لا تتكلم إلا ناقضاب ، وحسن سيرتها يعنى أن الحديث عنها لا يحمل الخزي لزوجها ، وسعادة زوجها بها ترجع إلى اطمئنانه إلى مسلكها وثقته فيها ، فلا يخالج بعمه شك ولا ارتياب

وكا يرى في تصوير دريد بن الصمة ارتباطه بمشيرته وتمصبه لها ، إذ يقول :
وما أنا إلا من غربة : إن غوت غويت ، وإن ترشد غرية أرشد

فارتباطه بمشيرته عزية يعنى في تصويره أنه يكون حيث كانت ، فإن ضلت ضل معها ، وإن اهتدت اهتدى معها .



وليس وضوح المعاني خاصة بدوية ، إن معاني الشعر الحضري في هذا العصر كانت كذلك واضحة ، بيد أنها في غالبيتها تقسم الملو والمبالغة ، كما يتسم بعضها بالالتواء والمواربة ، وذلك متأثر البيئة الحضرية ، وما تستقره المباشرة فيها من تحفظ في التعبير ، يلتقى على ذلك الشاعر الحضري الذي ولد ونشأ في الحاضرة لمعدي بن ريد ، والشاعر البدوي القدي نحضر مجسمه وحسه دون عقله وهــكره ، كالبانفة الديباني والأعشى .

(١) الأصمعيات ص ١١٢ طبع دار المعارف .

(٢) انظر حماسة البحترى ص ٢٠

وسمة النلو والمبالغة تبرز أوضح ما تبرر في شعر المدح وما يتصل به من هجاء وثناء واعتذار ؛ فقد غلبت للمبالغة على هذه الفنون لصدور الشعراء فيها عن طمع في المكافأة وتطلع إلى الجراء ، كما نرى في مدائح عدى والمابضة والأعشى وأضرابهم ، انظر من ذلك إلى أعشى قيس يمدح هوذة بن علي سيد بني حنيفة فيمضي يجمع من الصفات ما يفك عقدة الأيدي فتبطل بالمطاء ، وذلك قوله :

أرجى نوالا فاضلا من عطاءك	إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتي
وأدليت دلوى فاستقت برشائك (١)	سمت برحب الباع والجود والدى
من الناس لم يبهس بها مناسكا	فك يحمل الأعباء لو كان غيره
وأنت الذي آويتني في ظلالك (٢)	وأنت الذي عودتي أن ترشقي

تجدد المبالغة المزوجة بالتصريح بالسؤال وطلب المطاء

وانظر إلى المابضة الذي يأتي يمدح النعمان بن المنذر فيقدمه في صورته تملن عن تلك المبالغة التي تجاور بها الحد وذلك في قوله :

ترعى أواذيه العبرين بالثريد (٣)	فما الفرات إذا هب الرياح له
فيه ركام من اليبوت والحصد (٤)	يمده كل واد مترع لاجب
بالخيزارة بمد الأين والجد (٥)	يطل من خومه الملاح متمما
ولا يحول عطاء اليوم دون غد (٦)	يوما بأجود منه سيب ناملة

(١) الباع : الكرم ، والرشاء : جعل الندو .

(٢) ترشقي : تملني وتقيني .

(٣) أواذيه : أمواجه ، العبران - بكسر العين الشاطئان .

(٤) مترع : مملوء ، لاجب : ذو صوت شديد ، واليبوت : شجر ، والحصد -

بفتح الحاء والضاد - المحطم من الأشجار .

(٥) الخيزارة : سكان السفينة ، والأين : التنب ، والنجد - بالتحريك -

الكرب .

(٦) السيب : المطاء ، والناملة : الزيادة ، يريد أن عطائه ومرو .

فهذه مبالغات لا يعرفها البدوي الخالص فرسنتها على أمثال هؤلاء - مما تجد نماذج
بعضه في ترجمات من ضمنهم بحثنا هذا - أخلاقيات الحاصرة ، واستدعاءاتها التي تبيح
للشاعر مالا تبيحه البداية .

ومن هذا المعين قدم النابغة اعتذاراته للنمان ، مثل قوله :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لنتى وتلك التي أهتم منها وأنصب (١) ،
فبت كأن المأذات مرش لى هراسا به يعلى فرائى ويقشب (٢)

ومثل قوله :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه أنانى ودونى راكس فالضواجع (٣)
فبت كأنى ساروتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم نافع (٤)
يسهد من ليل التمام سلبها لحتى النساء فى يديه تفاعع (٥)
تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقة طورا ، وطورا تراجع (٦)

* * *

(١) أنصب : أجهد جهدا شديدا .

(٢) الهراس ، بفتح الهاء - شجر كثير الشوك ، والمأذات : الأثرات في المرض .
يقشب : يجدد .

(٣) فى غير كنهه ، يريد على غير ذنب منه ، والسكنة : الحقيقة . راكس : واد
فى منازل بنى أسد ، والضواجع : منحى الوادى .

(٤) ساروتنى : لدغتنى ، وضئيلة : أفضى دقيقة الجسم ، والرقش جمع رقشاء : المنقطة
نقطا بيضاء وسوداء ، والتفاعع : القاتل .

(٥) يسهد : يمع اليوم ، وليل التمام - بكسر التاء - أطول ليالى الشتاء ، والسليم :
المدوخ ، والقماقع : الأصوات ، كانوا يحملون الحلى فى يد المدوخ اعتقادا منهم
بأنها كشفية .

(٦) تناذرها الراقون : خوف بعضهم بمضا منها ، يريد أنهم من خبئها لانتجيب الرقى ؛
بل تجيب مرة ، ولا يجيب مرة .

ومن ثم نجد الشاعر البدوي الذي تحضر بفكره وعقله في ظل الإسلام لا يخرج على المعاني البدوية في انوضوح والصراحة والصدق، دون مبالغة أو تهويل، فهو في ظل القيم الإسلامية صريح واضح صادق، كما كان في ظل القيم البدوية؛ إذا كانت تلك القيمة من القيم البدوية التي أقرها الإسلام وحرص عليها ودعا إليها بمنته وأحلاقياته، ولعل هي مدائح العباس بن مرداس وكعب بن زهير، وحسان وعبد الله بن رواحة ومناخرهم الإسلامية ما يؤكد ذلك ويقرره. هم إنما يفخرون بما هو قائم، وإنما يمدحون عما صدر عن المدوح من حميد الأمل، وما يتصف به من كريم الخلال.

فهدا العباس بن مرداس في إحدى خريانه يعتز بأنه وقومه نصرورا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الرحمن، مركبوا الموت دون خوف:

وإذ كر بسلاء سليم هي مواطنها	وبى سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصرورا الرحمن واتبعوا	دين الرسول وأمر الناس مشتجر
ومح يوم حنين كان مشهدنا	للدين عرا وعهد الله مدخر
إذ نركب الموت محضرا بطائه	والخيال يجاب عنها ساطع كدر

وهذا كعب بن زهير - في أخبار جاهليته - يعتذر لرسول الله، ويضطر إلى الاستواء في ذلك، دون أن يخرج إلى التهويل والمبالغة، لعلمه أن هذا التمسح ليس مما يستسيغه الرسول صلى الله عليه وسلم.

أبئت أن رسول الله أوعدي	والمفوع عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نامله الـ	قرآن فيها مواهظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذب ولو كثرت هي الأقاويل

وهذا حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز الاعتدال، ولا يشد عن ذكر الحقائق:

ألا أبلغ أبا سفيان عفي	فأنت مجوف نخب هـواء
نأن سيوفنا تركتك عبدا	وعبد الدار سادتها الإمام
هوت محمدا فأجبت عنه	وعند الله في ذلك الجزاء
أتهجو ولست له بكفء	فشركا لخيركا القداء
هوت مبارك برا حنيفا	أمين الله شيمته الوفاء

٢ - ويلاحظ أن المعاني والأدكار في الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - بسيطة
وطرية ، لا تعقيد فيها ولا تركيب ؛ فدور العقل فيها دور المحصى المتبع ، لا دور الصانع
المركب ، أى أنها معان حسية لم تخضع لصعنة العقل ، فهي على حالها لم يطرأ عليها
تغيير أكثر من ضم بعضها إلى بعض ، على نحو ما نرى في تأبي التلس على الرضوخ
للهوان والضميم ، فيقرر أنه لا يقبل الهوان كريم ولا عاقل ، ولا يرضى به إلا حمار ذليل
أو جماد لا يعقل ، وذلك في قوله (١) :

إن الهوان حمار الأهل يرفه والحمر ينكره والرسلة الأجد (٢)
ولا يقسم على خسف يراد به إلا الأذلان: غير الأهل والوند (٣)
هذا على الخسف مقبول برمته ودا يشج ولا يبكي له أحد

فالهوان لا يقبله إلا من يشبه همدين - الحمار والوند - في الرضا بالقل ، وعدم
الإحساس بما يصنع به

إن الشاعر يتمدح بالأفة وإباء الضيم ، ويرى أنه لا يقبل الضيم عاقل ، وإنما هو
أحد اثنين ، حيوان يجهل ما يراد به ، أو جماد لا يدري من أمره ولا من أمر غيره
شيئا ، وكل منهما وضع في موضع التسخير والإذلال ، وواضح أنه استمد هذا الملقى
من بيئة التي يعيش فيها ، دون أن يصيب إليه من عنده شيئا ، سوى أنه قرن
هذا بذلك .

وهي نحو ما رأينا في تصوير رهير الحرب في صورة بشة تدعو العتلاء إلى النفور
منها والبعد عنها ، وهي أسد ضار ، ونار مشتعلة ، ورحى تطحن للتجارين ، وأنى
لا تلد إلا الأبناء المشوم ، وتجارة لا ترحح مالا ، ولا ريب في أنها معان مطروحة في
البيئة لم يمنعهما عقل الشاعر بقدر ما لاحظهما وانتأها من بين غيرها ليمور بها الحرب
فيحقق مقصده ويفر منها .

(١) انظر حماسة البحتري ص ٢٥

(٢) الرسالة - بفتح فسكون - الباقه الذلول ، والأجد - بضم الهمزة والجيم -
الموثقة الخلق .

(٣) العير - بفتح فسكون - الحمار .

وهذا المنهج في اساطرة المهاني يسير عليه عدى بن ريد شاعر النعمان في مختلف فنونه الشعرية من حمریات ومواعظه واعتداریات ، من ذلك قوله .

من رأنا واحداث نفسه
وهروف الدهر لا يبقى لها
رب ركب قد اناخوا عمدنا
عمروا دهرا بعبس حسن
ثم اضجرا عصف الدهر بهم
وكذاك الدهر يرحى بالحق
انه موف على قرن روال (١)
ولما تأتي به صم الجبال
بشربون الحمر بالماء الزلال (٢)
آمنى دهرهم غير عجال
وكذاك الدهر يودى بالرجال
في طلاب اليبس حالا بمدحال

ووجودنا هذا وشك الزوال ، ولن يفات من الموت كائن حتى صم الجبال ، فليس في هذه الدنيا وأحداثها ما يفتح باب الأمان لها ، ولا يتخذ عن إنسان بما توهمه حياة بعض الناس ، وما عليه إلا أن ينظر في مصيرهم ، مذاك مصير كل حي .

ولا تمكاد تجد شاعرا - بدويا أو حضريا - يخرج على هذا المنهج ، فهم جميعا لا يصنعون معانيهم ، وإنما يستمدونها من البيئة المحيطة بهم ، فيضمون بعضها إلى بعض لتتحقق المقصود ، حتى في تلخيص خبراتهم وتقدمها في صورة حكم ، لا يلجأ الشاعر إلى تركيب معانيه وتقدمها في صورة عقلية ، وإنما هو ملاحظ محص ، كما نجد في حكم زهير بن أبي سلمى ، حين يقول :

فلو كان حمد يخلد للناس لم نمت
واكن حمد الناس ليس يخلد

وحين يقول :

وهل يلبت الخطى إلا وشيجه
وتفرس إلا في منابتها النخل

وكما نجد في حكم الباقية إذ يقول :

ولست بمسابق أحدا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب

فأنت مع الشعر العربي الجاهلي أمام معان إنسانية حسية يقدمها الشاعر بما يتراءى له في بيئته ، دون أن يتحول بها إلى معنى ذهني أو صورة عقلية مركبة أو معقدة .

(١) القرن - بفتح مسكون - الطرف . (٢) لاء الزلال : الصافي .

ويلاحظ أنها قريبة المأخذ ، فهي مع صراحتها وبساطتها لا عمق فيها ، وكيف يتعمق من حرمة بيثته الاستقرار والهدوء ؛ فهو دائم الحركة ، مستمر الرحلة ، لا ينزل إلا ليرتحل ، ولا يقيم إلا ليساهر ، سواء كان من ساكني الحضر أو قاطني البادية ؛ فظروف الحياة في شبه الجزيرة دأمة للتقلب والتغير .

ولسكنهم استمساوا عن عمق الفكرة بدقة الحس ، في تتبع الحركة ، واستقصاء المشاهد ، فعملوا من شعرهم لوحات تتجسم فيها الماني ، ولشخص الأحداث والمواقف كما في قول زهير بن أبي سلمى يصف ممدوحه حين يستنث بهم فيطيرون إليه بجناهم .
ورماهم ليقدوه بما ألم به ، غير هيا بين ، فالقتل إحدى أمانهم من قديم (١) :

إذا فزهوا طاروا إلى مستفيثهم طوال الرماح لاضفاف ولاعزل (٢)
فإن يقتلوا ييشتنق بدمائهم وكانوا قديما من منايام القتل
وكان رأينا أنفا في وصف البقرة الوحشية التي شبه بها لبيد بن ربيعة المامري ناقته .
وكافي قول زهير يصب أحد مشاهد الصيد ؛ فيلم بدقائق الحدث حتى يجملنا
نمايشه ونحس بإحساسه ، وتلف تاهقه .

إذا ما غدونا ننتهي الصيد مرة متى زره فإننا لا نخافه (٣)
فبينما نبقى الصيد حاء غلامنا يدب ويخفي شخصه وبضائه
وتال : شياه راتعات بقرة بمستأسد القرمات حو مسايه (٤)
ثلاث كأقواس السراء ومسجل قد أخضر من لس العمير جحافه (٥)

(١) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) عزل - بضم فمكون - جمع أعزل : من لاسلاح له ، وفزعوا : نهضوا للاغاثه .

(٣) نخائله : تمكر به وصيده دون أن يرانا .

(٤) المستأسد . الميت الذي طال ، والقرمات : مجارى الماء ، والحور . البسات

الضارب إلى السواد

(٥) السراء : سير تؤخذ منه القسي ، شبهها بما في الضمور ، والمسجل . حمار

الوحش ، والعمير : نبت ، ولسه : أحده بمقدم القم ، والجحادل من الخمر والإبل
والخيل بمرة الشفاء

وعلى هذا سار شعراء الحضرة في معانيهم ، كما نجد امرأ القيس في وصف فرسه وهو يجرى :

وقد افتدى والطير في وكناتها عنجرد تيد الأوابد هيكل^(١)
مكر مفر ، مقبل مدبر معسا كجلود صخر حطه السيل من عل^(٢)
كيت يرل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل^(٣)

وكما نجد الأعشى في تصوير جيش عمرو بن الحارث النسائي ، حيث يصور جماعات الطير من النسور والمقبان تتبع الجيش تنتظر رادها من أشلاء القتلى :

إذا ما هزوا بالجيش حلق فوقهم مصائب طير تهتدى بمصائب^(٤)
يصاحبهم حتى يشرن منارهم من الصاريات بالدماء الدوارب^(٥)
تراهن حلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب^(٦)

ومن هذا للناطق في الماني حرصوا في أوصافهم على أن لا يخرج عن نطاق الموصوف المحسوس ، وحرصوا في مدائحهم على أن لا يخرج عن المحسوسة التي دعت الشاعر إلى المدح شكرا عليها وعرفانا بها دون مبالغة أو مغالاة ، وأقاموا مراتبهم على تعداد مناقب الميت ، وبكائه والنعيميس على الثأر له إن كان قتيلا، دون أن يتعمقوا في أسرار الموت أو يتجاوزوا سطح الأحداث ، بل إن من تناول الموت في حديثه لم

(١) الوكنات جمع وكنة - بضم الواو - مواقع الطير، المنجرد : الماص في السير، والأوابد جمع أبدة : الوحوش ، والهيكل : الفرس العظيم الجرم .

(٢) مكر - مفعل - اسم آلة من كر إذا عطف ، ومفر : اسم آلة من فر ، جملة كأنه آلة الكر والفر ، والجلود : الحجر العظيم الصلب ، وحطه : القاء ، من عل : من فوق .

(٣) الكيت : ما كان لونه بين الأسود والأحمر ، والحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والصفواء والصفوان : الحجر الصلب .

(٤) المصائب : الجماعات .

(٥) الصاريات : التمودات ، والدوارب : المدرية .

(٦) خزر الميون - بضم الخاء - جمع أخزر : الذي ينظر بؤخر عينه ، والمرانب :

ثياب سوداء .

يقنأوله من الوجهة العقلية الخفية ، إنما تناوله من الوجهة البارزة المكشونة ، فالمرت ضرورى محتوم لا يمنع منه مانع ، ولا يصح من عاقل أن يفر منه ، هل ما رأينا فى عينية أبى ذؤيب . وتحمدنوا فى غزلهم عن جمال المرأة ، وما أقاموا من علاقات فى صراحة تسكاد فى بعضها تحمداً الحياء ، بيد أن بعضهم قد سار بالفزل مسارا نفسيا فيه شهء من التعمق والأناة على ما رأينا فى نونية عنتره .

هذا ويظن كثير من الدارسين أن معانى الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - ضعيفة التماسك ، راحة الروابط ، فهى معانٍ مفككة ، قائمة على الاستفراد ، بحيث تستطيع أن تقدم فيها وتؤخر ، وتحذف وتضيف ، دون أن تتأثر بذلك القصيدة ، فهى ليست - كما يتطلبه النقد الحديثون - بناء عضويا تاما ، بقدر ما هى مجموعة مشاهد أو مواقف لا يشد بعضها إلى بعض رباط وثيق ، وإن كانت بعضها وحدة عامة ، وإطار - جدد ؛ فالقصيدة الجاهلية - على ما يرون - خالية من الوحدة الفنية ؛ فليس فيها وحدة بناء ولا وحدة غرض

ويمل هولاء ما يرونه بعدم معرفة العرب الجاهليين بالترتيب المطلق أو النظر الفلسفى ، بما اضطرهم إلى رؤية المشاهد مقطوع بعضها عن بعض ، وبلا صلة ولا نظام .

وفى الحق أن هذا الرأى مجاف للصواب ، بعيد عن الواقع ، دفع إليه التمجلى فى الحكم ، أو التسليم بما قرره بعض المستشرقين دون أناة وترو ، ومماودة نظر فيما بين أيدينا من شعر هولاء . ولو أننا قبل أن ننظر فى الشعر الجاهلى تعرفنا على دقائق الحياة البدوية - على ما فى ذلك من عسر - ونقلنا أنفسنا لشاركهم معيشتهم ونجاورهم فى بيئتهم بكل أبعادها لما وجدنا فى شعرهم هذا التفكك المرعوم ؛ فالعيب فىنا نحن ؛ لأننا ندرس شعر قوم لانعلم من أحوال معيشتهم ، ومن ظروف بيئتهم إلا النذر اليسير ، وكيف ننصب أنفسنا فضاة يتضون القضاء المبرم فى شعرهم .

على الدارس الصادق النية أن يتوقف عند كل إشارة ترد على ألسنتهم ويبحث عن مدى أثر ذلك فى علاقتهم الإجتماعية والشخصية ، وأن لا يمر من الكرام على تلك الأما كنن التى يتحدثون عنها ويقفون عليها ، بل لا بد لنا من تعرف على تلك الأما كنن

وذكرياتهم فيها ، كما يجب على الدارس أن يعنى بالتعرف على حال الشاعر النفسية قبل أن يصدر حكمه على ما يقول

إننا إذا ما نجحنا في تحقيق ذلك قبل مواجهة شعرهم ضمنا لأنفسنا النجاح في أن نصدر في أحكامنا من فوق أرض صلبة لانهز من تحت أرجلنا. وهذا ما سوف نحاوله مع بعض شعرائهم إن شاء الله تعالى .

وصفوة القول في هذا أن ما صدر على الشعر الجاهلى - في هذا الميدان - من أحكام لايقوم على الدراسة العلمية الموضوعية الحالية من الزيف ، بل هي أحكام لاتخلو من التجنى والارتجال والتسرع .

* * *

أما الخيال ويقصد به الصورة التي يرى الشاعر فيها معانيه بخياله بمد تأثره بها ، أو هي الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التي يتكلم منها الموضوع .

فإذا كانت المعاني خاضعة لثقافة الشاعر ومعارفه العقلية الخاصة ، وإن الأخيالة خاضعة لعواطفه وتأثراته وانفعالاته الخاصة كذلك ، فليست واحدة منهما من المشتركات العامة ، وإنما كل منهما يختلف من شاعر لآخر وفقا لما خضع له عقله وحسه من مؤثرات بحل أو تدق .

والناظر في الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - يلاحظ أنه حافل بألوان الخيال - سواء في ذلك الخيال الابتكاري والخيال التفسيري^(١) - غير أنه لا يخرج عن حدود البيئة الجاهلية ، يمثل ذلك قول عبد العزى الطائي موضحا حرصهم على الثأر :

(١) الخيال الابتكاري هو الخيال الذي يقوم على الابتكار ، حيث يعتمد فيه صاحبه على تكوين مجموعة من العناصر المختزنة في القدهن ؛ ويلهما من شتات ليصنع منها صورة جديدة تكشف عن إحساس داخلي تجاه موقف أو مشهد . أما الذي يقوم على التفسير والتصوير فهو ما يقدمه الأديب من إضافة الصورة التي يراها ويعبر عنها إلى صورة أخرى أقرب منها إلى إدراك المتلقيين ، وأوضح في تصوراتهم ، ويعتمد في هذا النوع من الخيال على فنون البيان من تشبيه واستمارة وكناية إلى غير ذلك . انظر للمؤلف كتاب في الأدب العربي المعاصر القسم الثاني ص ٧٥

إذا ما طلبنا تلبنا عند مشر أبيتنا حلاب الدر أو نثر الدما (١)
فالشاعر يرى الحرص على الثأر في صورة رفض الدية نالمة ما بلغت ؛ لأن قبولها
في القتل والموان ، ولذا جعل رفضها إباء وليس مجرد رفض .

وعلى هذا النحو يواجهنا تأبط شرا ، حيث يبرز الحرص على الثأر في صورة الغريزة
طرية التي لا يهدأ له بال ، ولا يفض له جفن حتى ينال ثأره ، وذلك في قوله :
قليل غرار النوم أكبر همه دم الثأر أو يلقى كيا مسقما
فطلب الثأر ولقاء البطل الذي سفت وجهه الهواجر أكبر ما يهتم به وينصب له .
والشاعر يربنا هذا الاهتمام والنصب الدائمين في قلة النوم التي يماني منها .

كما يمثل قول امرئ القيس في وصف الدهر :

أزال من المصاع ذا نواس وقد ملك الحرونة والرمال (٢)
وأشب في الحالب ذا حليل وللزراد قد نصب الجبال (٣)
ونج كندة الأحيار طرا يهـرو واصطفي حجرا هزالا

ومثل قول الشفري في وصف الذئب الجامع :

هذا طاروا يمارض الريح هاما يخوت بأذئاب الشباب وبمسلى (٤)
فما لواء القوت من حيث أمه دعا فأحابتـه نظائر نحلى (٥)

(١) التبل - بفتح مسكون - الثأر ، وحلاب الدر : الإبل التي تحلب ويشرب لبنها .
- حماسة البحتري ص ٢٨ طبع بيروت ، والمفصلات القصيدة رقم ٤٢ ، والأصمعيات
بيدة رقم ٤٢ .

(٢) المصاع . الحصون والقصور ، وذو نواس : ملك اليمن ، والحزونة : المواضع
مظلة ، يريد ملك السهل والجبل

(٣) أشب في الحالب : يعنى أشب الدهر محالبه في ملك من ملوك حمير يقال له
أصمبح . ويقال للكبد الحليل .

(٤) يمارض الريح : يتقبلها ، وهاما : مسرعا ، يخوت : يقض ، والأذئاب -
أراف ، والمسلى : المشى السريع .

(٥) لواء : مطلة وامتنع عليه ، أمه : قصده ، نحل جمع ناحل : المهزبل .

مهلهلة عيب الوجوه كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل (١)

وكذلك الشأن في الخيال التفسيري ، فهو مستمد من البيئة الجاهلية حيث يخلق الشاعر فينتزع من البادية أو الحاضرة الجاهلية الشكل أو الهيئة القريبة التي تبرز رؤيته الخاصة في صورة تشبيه أو استمارة أو كناية ، وهو في ذلك دقيق ، يجمع الأطراف من هنا وهناك فتترامى جليلة واضحة ، كما تتميز بالطرافة والروعة على الرغم من تكرارها وأشابهاها ليس في شعر الشاعر حسب ، بل في شعره وشعر غيره ، ولقد بلغت بهم دقة التصوير هذه حدا جعل من الميسور علينا أن نتعرف على مواطنهم بما فيها من مضاب وسهول وأودية ، وبما تحتويه من حيوانات متوحشة ومستأنسة ، ونتعرف على مألوفاتهم وعاداتهم وأعرافهم ، وما كان يدور فوق أرضهم ، كل ذلك نراه ونتعرف عليه إذا ما نظرنا في أخيلتهم التفسيرية ، مثل قول الأعشى في مدح الحماق :

لثشب لقرورين * يصطليانها وبات على الغار الندى والمحلح

مثل قول علباء بن أرقم في وصف المرأة :

يوما توافينا بوجهه مقسم كأن ظبية تمطو إلى ناظر السلم (٢)

ومثل قول المنخل اليشكري :

وليثمنا فتشمت كتفيس الظوى البهير

ومثل قول المهامل في حديثه عن طول الليل ، فيرى النجم في بطئه يشبه الاتصال

الصغيرة التي تجول في المطر فتخشى الرلق فلا تسرع :

كأن للنجم إذ أولى سحيرا فصال إجان في يوم مطير

أما الكواكب فيراها في ثباتها وعدم تحركها كأنها نوق حدثات التناج عطلت

على وليدها فهي لا تتركه :

(١) مهلهلة: قليلة اللحم ، القداح : أداة القهار ، والياسر : المقامر ، وتتقلقل :

تتحرك وتضطرب .

(٢) المقسم : الجميل المتناسق ، يقاله قسم الوجه حسن ، تمطو : تتنازل ، والسلم :

شجر بدوى .

كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على ربع كبير (١)

وامرؤ القيس يحدثنا عن طول الليل فيراه بعيرا ثقيلا يتمطى ، ويرى نجومه
مشدودة إلى الجبل بجبل متين فلا تتحرك :

نقلت له لما تمطى بصاده وأردف أعجازا وناه بكل كل (٢)

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مزار القتل شدت يذبل (٣)

كأن التراب علفت في مصامها بأمراس كتنان إلى صم جندل (٤)

ولعل ارتباطهم ببيتهم الارتباط الوثيق في معانيهم وأخيلتهم هو القدي فرض عليهم
المعدودية والحسية في الماني والأخيلة

يبد أنهم أكرهوا تلك الحواجز وتجاوزوها بما ولدوا من الماني وما ابتكروا
من الأخيلة .

كما أنهم لم يستعملوا الحسية الماني والأخيلة حتى لا تتحول إلى تآليل حامدة تشيع
الضيق واللعل ، بل أمدوها بأسباب الحياة بما حرصوا عليه فيها من دقة التصور والمستقصية
فأصبحت الصور مسرحا لحركة وانمية تترامى فيها تحركات الكائنات المصاحبة لهم في
عصرهم ، فأنت أمامها كأنك تمشي بينهم ترى ما كانوا يرون وتعامل كما كانوا
يتعاملون معها ، على نحو ما ترى في مطلع معلقة زهير بن أبي سلمى التي يتحدث فيها
عن مبارل حبيته المسكية بأمر أوفى :

أمن أم أوفى دمنة لم تسكلم بحومانة الدراج المثلث (٥)

(١) عوذ جمع عائدة الناقة حديثه النتاج ، والربع بضم فمتج : الفصيل ينتج من
الربيع ، وهو أول النتاج

(٢) أعطى . تمدد ، والأرداف : الأتباع ، والأعجاز . المآخير ، وناه : بعد ،
الكسكس : الصدر .

(٣) معار القتل : محكم القتل ، بديل : اسم جبل ببجد .

(٤) الأمراس : جمع مرسة : العجان ، والمصام : موضع الوقوف ، والجندل :
الصخر ، والمم جمع أصم : الصلب .

(٥) الدمنة : ما أسود من آثار الدار ، وحومانة للدراج ، والمثلث : موضعان .

ودار لها بالرقبتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم (١)
 بها المين والآرام يشين حلقة وأطلاؤها ينهض من كل مجثم (٢)

رأناظر فيما قدمنا في فن الوصف من معلقة امرئ القيس يصف البرق والمطر من
 معلقة لبيد يصف الديار المشية ، ويصف البقرة الوحشية وما قدمنا من شعر زهير يصف
 مشهد الصيد ، إلى غير ذلك تجد أمامك للتشخيص الحى المتحرك الناطق النابض القلب

وصفوة القول أن الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - فى معانيه وأحيلته وتيق
 الارتباط بالبيئة الجاهلية - بادية كانت أو حاضرة - ؛ فهى البمع الذى استمد منه
 الشعراء معانيهم ، ومن أحداثها نسجوا أحيانهم ، وكانت صدى صادقا للحياة الجاهلية
 وما يتردد فى أجوائها ومن ثم تميز شعرهم عن شعر غيرهم ، نفاض بالحركة الواسمة التى
 لا تسكاد تتوقف منذ مطلع القصيدة حتى منتهىها سواء كان الشاعر فيها موضوعيا أو دانييا .

الخصائص المضمونية .

المقصود بالمضمون أو المحتوى الشعرى هو تلك الفنون الشعرية التى يتناولها الشاعر
 وما يتضمنه كل من من أحداث ومواقف ، فأنت حين تنظر فى مضمون الشعر الجاهلى
 ترى الحياة البدوية الجاهلية فى الشعر البدوى ، كما ترى فى الحياة الحضرية بمختلف
 ألوانها فى الشعر الحضرى بكل شخصياتها وأحداثها ، فلا يكاد الشاعر يتناول موضوعا
 خارجا عن بيئته ؛ فصدقهم ليس فى التعبير عن الموقف حسب ، بل هو كذلك شامل

(١) الرقتان : مرتان إحداهما قريبة من البصرة والآخرى قريبة من المدينة ،
 والمراجع جمع مرجوع من قولهم رجمه رجما ، أراد الوشم المجدد ، ونواشر المعصم
 هروقة ، الواحد ناشر ، والمعصم موضع السوار من اليد .

(٢) المين أى البقر المين ؛ واسمات الميون ، والآرام جمع ريم : الظى الأبيض
 حالمس البياض ، وخلقة : يخاف بعضها بعضا ، إذا مصى قطع منها حاء قطيع آخر ،
 والأطلاع جمع الطلأ : وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية ، والجثوم للسان والطير
 والوحوش بمنزلة البروك للبعير .

للصدق في تناول الموضوعات ، حتى ما هو قائم على الخيال من تلك الموضوعات لن تجده طارئاً على بيئته ، إنما هو موجود بالفعل فيها ، سواء كان وجود الموضوع ملاسماً للشاعر أو لغيره ، فموصفات البدو عربية بدوية جاهلية ، والمرأة التي يتناولونها في غزلهم عربية بدوية جاهلية ؛ والخلائق التي يتمدحون أو يفخرون بها خلائق ونموت عربية بدوية جاهلية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم وتجاربهم التي يضمنونها حكمهم عربية بدوية جاهلية كذلك ، فأنت مع الشعر البدوي إذن منمرور في الحياة البدوية الجاهلية تماماً .

وكذلك الحال مع شعر الحضرة لا يشتد الشاعر فيه على بيئته ، وإنما هو في كل ما يتناول خاضع لقيمه وأخلاقها وأعرافها ، من ثم لم يكن غريباً أن نجد الشعر العربي الجاهلي يجمع بين التناقضات في مضامينه أو ما يشبه التناقضات ، فبينما نجد الشاعر البدوي يتمدح بالمفة والكرم والشجاعة في مواجعة الأعداء نجد الشاعر الحضري الذي عاش الحضرة بحسه وحمه يتمدح بالجرأة على التصلب إلى المرأة في فراش زوجها ، واستهلاك المال في الخمر والقمار والجري وراء المتع الجسدية ، أما للشاعر الحضري الذي عاش الحضرة للمسكرية والقصيدية في ظلال الإسلام ، فإنه يتجه بمخوره اتجاهها يخالف اتجاه شاعر البادية الخالصة واتجاه شاعر الحضرة المادي ؛ إذ يذوب شخصه في أمته وقومه ، وهو لا يمتزج بمسلك شخصي إلا أن يكون هو المسلك الجماعي ، ولا يفخر إلا بما يتلاءم مع قيم الإسلام ومبادئه ؛ كما رأينا في شعر العباس بن مرداس ، وحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم

* * *

وهم في هذا على خلاف غيرهم من الشعراء ، إذ نجد كثيراً من أشعار البيئات الأخرى غير العربية توغل في الأحداث الخيالية المنفرة التي لا واقع لها إلا في الخيال والتصور ، على نحو ما نرى في أساطير اليونانيين ؛ فالأحداث التي ضمنها اليونانيون أشعارهم أحداث أسطورية غريبة تمثل مرحلة من مراحل التطهولة المتأخرة ؛ إذ هم يتحركون من منطلق يخالف عن منطلق الشعراء العرب الجاهليين ، وبينما ينطلق اليونانيون من بيئة ينجص

إني امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها
البطولة التي يعتز بها عنزة هنا هي تمكته من نفسه ، وسيطرته عليها ، وكبحه
جأحها ، فلا ينال من أنقى شيئاً بدون حق مشروع . هذه البطولة لاشك تختلف عن
البطولة التي يفخر بها عروة بن الورد ، الذي يؤمن بأنه خلق لرعاية الضمفان والملاك
من قبيلته ، ويستعد - لذلك - بأن البطولة هي قيامه على هذا الذي خلق له ، وليس
مقبولاً لديه أن تهلك عشيرتنا (معتم وريد) وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من
أجلهما ، فذلك عار أى عار ؛ إذن البطولة أن يقتحم مع رفاته من الصماليك حتى
بعض القبائل ليحصلوا منها على ما يشاءون من الثنائيم ليقدموا للمحتاجين ما يشبههم ،
وذلك في قوله :

أهلك معتم وزيد ولم أقسم	على نذب يوما ولى نفس عخطر (١)
ستنزح بعد اليأس من لا يخافنا	كواسع في أخرى الوام الممر (٢)
نطاعن عنها أول القوم بالقما	وبيض خفاف وقمن مشهر (٣)
ويوما على غارات نجد وأهله	ويوما بأرض ذات شت وعرعر (٤)
يرح على الليل أضياف ماجد	كريم ومالى سارحاً مال مقتر (٥)

وهذه وتلك تختلف عن بطولة الشهرى التي يعتز بها في قوله :

-
- (١) معتم - بضم مسكون وفتح - وريد : بطنان من عبس . ونذب - بفتح النون
والدال - خطر .
- (٢) كواسع : خيل تطرد إبلاء وتسكسها . والوام : الإبل السائمة . وأخرى :
آحر ، والمنفر : الذعور .
- (٣) البيض : السيوف ، وفي البيت على هذه الرواية إقواء ، ورواية الديوان
(ذات لون مشهر) ، وعليها فلا أقواء .
- (٤) الشث - بفتح الشين - والعرعر - بفتح مسكون - من أشجار البادية .
- (٥) يريح : يرد ، ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله ، وسارحاً :
سائماً في المرعى ، ومقتر : فقير مقل

وليلة نحس يصطلى القوس رها واقطمة الاتى بها يتدل (١)
دعست على غطش وبشش وصحبتى سمار وارريرز ووحروأفكل (٢)
فأيمت نسوانا وأيمت إلهة وعدت كأ أدأت والليل اليل (٣)
وأصبح عى بالنميصاء جالسا هريقان ؛ هسثول وآخريسأل (٤)

فالبطولة هنا في القدرة على تجشم الصعاب في سبيل الفلك والقتل والعدوان ولاشك في أن كلامهم ضمن شعره ما ضمته ناسه بتأثير بيئته الخاصة داخل إطار البيئته البدوية، فأصبح خاصة من خواص شعره التي يتميز بها .

ولا ريب في أن البطولة البدوية تختلف تماما عن بطولة الحضارة المادية ، والتي يمثلها امرؤ القيس في قوله :

ريضة خندر لايرام خباؤها تتمت من لمو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشدون مقلى
حئت وقد نصت لنوم ثيابها لدى السر إلا لبسة المتفضل
فقال . بين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العماية تنجلى

وكذلك انشأن على البطاق العام ، تحدث البيئته العربية في الشاعر العربي ما يوجهه إلى مضامين خاصة يتميز بها الشعر العربي عن غيره من الشعر ، بالحديث عن النباق والظباء ، وحسر الوحش ، والخيول ، والدئاب ، والمخيل ، والرمل ، والرياح ، والسكواكب ، والأمطار ، والسيوف ، والرماح ، والبال . إلى غير ذلك من أبر خواص الشعر البدوي .

-
- (١) النحس : الجهد والضر والبرد ، يصطلى القوس - بها . يوقدها ليتدفء بها ، والأقطع - بضم الطاء - جمع قطع بكسر القاف : نصل السهم ، يتبدل . يتخذ منها النيل .
(٢) دعست : مشيت ، والنطش : الظلمة ، والبشش : المطر الخفيف ، السمار : شدة الجوع ، الإدرير : البرد الشديد : الوجر . الخوف ، والأهـكل : الوعدة والإرتعاش ،
(٣) أيم المرأة أفدها زوجها حماها أيا ، والأليل : شديد الظلمة .
(٤) النميصاء : مكان بنجدته .

الخصائص الأسلوبية :

الأسلوب هو الصياغة اللفظية التي تشف عن الماني والأخيلة التي يعبر بها الشاعر عن المضمون ، وهو - كذلك - القالب الفني الذي يصب فيه الشاعر معانيه وأفكاره ، مستجيبا لتكبيره الفني الذي وجهته إليه بيئته . والشاعر الصادق تتساقب من بين عفتيه الألفاظ المناسبة لشعوره وأخيلته ومعانيه في لشكل الذي يتلامم مع البيئة التي نشأ فيها طبيعيا واجتماعيا وفتيا ؛ ولذلك كانت أساليب الشعر مرآة تمكس مضمونه وأخيلته ، فهما متلازمان ، ترى في الألفاظ ما يحس به الشاعر ، وتعرف من أحاسيس الشاعر على طبيعة الألفاظ .

١ - والتناظر في شعر البدو الجاهلين يحد ألفاظه جزلة قوية - على وجه العموم - بيد أنها تتردد بين الوعورة والحشونة وبين السلاسة والمذروبة بما يتلامم مع المحتوى الشعري ، والجو النفسي الذي يفرضه الموضوع على الشاعر .

فتح الجزالة والقوة ترى الحشونة في الألفاظ الشعرى ، حين يمزى نفسه عن اعتزال الناس إياه بصاحبة قلبه الشجاع ، وسيمه الصارم وقوسه الحيدة للصنع، وذلك في قوله:

وإني كفاني فقد من ليس حاربا	بحسنى ، ولائى قر به متمل (١)
ثلاثة أصحاب . - مؤاد مشيع	وأبيض إصايت، وصفراء - يطل (٢)
هتوف من الملس المتون يزنيها	رصائع بيطلت إليها وحمل (٣)
إذا رل عنها سهم حنت كأنها	مررأة ععلى برن وتة-ول (٤)

وحين يصور صراع الحياة الذي يحوضه هو وأصحابه ضد محاطر الصحراء ومن يقصدهم من الأعداء ، يذكر أنهم يقطعون النار في النهار، فإذا جنم الليل وجدتهم

(١) التملل : التلمى .

(٢) مشيع - بصم الأول وفتح ما قبل الآخر - شجاع ، والأبيض : السيف ، والإصايت - بكسر الهمزة - المصقول ، والصفراء القوس ، والميطل - بفتح فسكون ففتح - الطويلة المبق . (٣) الهتوف : ذات الصوت المنغم ، والمتون : الطهور ، والرصائع جمع - صيمة : ما يرصع به ويحلى ، ويطلت به : علفت ، والحمل - بكسر الميم وسكون الحاء - ما يعلق به القوس على للكتف .

(٤) رل السهم : حرج ، والمرزاة : كثيرة الررايا والمصائب .

في مغازة أخرى را كبين ظهور المهالك والمطاب ، دون رفيق - في الغالب - سوى أرجامهم التي تعودت العدو السريع ، وهم - لذلك - مفزعون دائماً ، حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلوبهم ، بل ظل يكأؤم ويرعاهم حيفة العدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا عرارا ، فهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجدون عليهم ، ويضحك الموت ويكشر عن أنيابه الملائم ؛ فهم دائماً مستوحشون حتى أصبحوا يؤرون الوحشة لما يرون فيها من الأنس ؛ إذ لا يأنسون إلا بالفتار التي تودوا عليها فرفوا دروبها ومسالكها معرفة تحملهم لا يخلون تصدم كما لا أمل الشمس قصدها (١) :

يطل - ل بوهاة ويصيرها	جحيشا ، ويرورى ظهور المهالك (٢)
ويسبق وعد الريح من حيث يلتحى	بمخرق من شدة التمدارك (٣)
إذا حاط عينيه كرى النوم لم يرل	له كلىء من قلب شيجان فاتك (٤)
ويجمل عليه ربيشة قلبسه	إلى سلة من حصد أخضر فاتك (٥)
إذا هـره في عظم قرن تهلت	نواجذ أهواه المايا الضواحك (٦)
رد، الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى	بجيت اهتدت أم النجوم الشوابك (٧)

كما ترى الحشونة في الفاظ رهير بن أبي سلمى حين يصعب البقرة الوحشية التي يشبهه به ناقته في سرعتها في قوله :

(١) أمالى القتالى ج ٢ ص ١٣٨

(٢) يظلم : يندو ، والمومة : النلاة ، جحيشا : منفردا ، يرورى : يركب .
(٣) وعد الريح : أولها ، يلتحى : يقصد ، والمخرق : السريع ، والشد : العدو ،
والتمدارك : المتلاحق .

(٤) حاط عينيه كرى النوم : نام ، والكأؤم : الرقيب ، والشيجان : الجاهدى الأمر
(٥) الربيشة : الرقيب ، والسلة - بفتح السين - الواحدة من سل السيف ، والأخضر
السيف ، والبااتك : الداطح .

(٦) القرن - بكسر القاف - الكف والنظير ، تهلت : تلالأت وأشمرقت .

(٧) أم النجوم : يقصد الشمس .

كخسساء سفهاء الملائم حرة مسامرة مزعومة أم فرقة-د(١)
 غدت بسلاح مثله يتقى به وبؤمن جأش الخائف التوحد(٢)
 وسامعتين تعرف العتق فيهما إلى جذرمدلول الكعوب محدد(٣)
 وناظرتين تطهران قداهما كأنهما مكحولتان بإئد(٤)
 طباهها ضحاء أو حواء غافقت إليه السباع في كناس ومرقد(٥)

إلى آخر الأبيات التي ذكرناها في بحث رهير .

ومع الجزالة والقوة ترى السلاسة والمذوبة في نحو قول المهلهل بن ربيعة في رثاء أخية كليب :

دعوتك يا كليب فسلم نجفى وكيف يجيبني البلد القفار
 أجبني يا كليب خلاك فم لقد فقت بفارسها نزار
 سقاك النيث إنك كنت عينا وإسرا حين يلتمس اليسار

وتراها في قول الخسساء رثى صخرها :

قذى بيمينك أم بالمين عوار أم ذرفت إذخات من أهل الدار؟
 كأن عبي لقد كراه إذا حطرت فيص يسيل طي الحدين مدرار

(١) الخسساء : بقرة الوحش ، سميت بذلك لتأخر أبقها ، سفهاء الملائم ، السفح : سواد في حرة ، والملائم : الخدان ، ومزودة : مذعورة ، ومسامرة : ترحل من موضع إلى موضع ، والفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد بالسلاح قريبها ، والجأش : الصدر ، والمتوحد ، الوحيد المفرد .

(٣) السامعتان : الأذنان ، والعتق : الأصالة ، ومعرفة العتق فيهما كناية عن أن أذنيها محددتان منصبتان . إلى جذر : مع أصل ، فألى بمعنى مع . ومدلوك : أملس ، الكعوب جمع كعب : مابين العتقتين في القرن ، يريد أن قرنيها أملسان محددتا الرأس .

(٤) الباطرتان : المينان تطهران قداهما : ترميان به وتنفيانه . والإئد : كهل أسود (٥) طباهها : دعاها ، ضحاء - بفتح الضاد والحاء - رعى الضحى ، وخلاء : حلو المسكان غافقت إليه : السباع : اختلفت إلى ولد البقرة : والسكاس - بكسر الكاف - بيت في الشجر تستتر به البقرة أو تستر أولادها من الحر والرد :

فالعين تبكي على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستاذ

وتراها في قول زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

يميننا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل وميرم
تداركتما عبسا وذبيان بمد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السم واسما بمال ومروف من القول سلم

كما تراها في قول عنتره يفخر بإقدامه وشجاعته

بكرت نخوفى الحتوف كأننى أصبحت من غرض الحتوف بمعل
وأجبتها إن النيسة منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل

جزالة الألفاظ وقوتها هي السمة العامة في الشعر البدوي ، إذ يندر أن نجد في شعر بدوي لفظاً رقيقاً ، وإذا وجد كان - في الغالب - علامة السهل والتزييف ، أما خشونة الألفاظ على ممع المتأني فهمي سمة تلازم بعض الشعر البدوي ، ويتأني عنها البعض الآخر ، ويلاحظ أن الخشونة تنلب على الألفاظ حين يفخر الشاعر أو يصف ، كما تنلب السلاسة والمدوية حين يتنزل أو يرثى أو يمدح ، فهي إذن ليست من أمارات البداوة الخالصة ، بيد أن الجزالة والقوة هي الأمانة الناطقة على البدوي إذ هي الملازمة لاستدعاءات البادية بما منحويه من أسباب الحياة .

* * *

أما الشعر الحضري فألفاظه تختلف باختلاف منشأ مشاعر ، ولون الحضارة التي تأثر بها ، فبينما يحتفظ الشاعر البدوي المتحضر لألفاظه بالجزالة والقوة ، يميل الشاعر الحضري الذي نشأ في الحضرة إلى الزفة والليونة فيها إلى الحد الذي يشكك المتأخرين في صحة ما نسب إليه من الشعر ، كما حدث لمدى بن زيد العبدي ، الذي قال فيه ابن سلام : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد (١) » .

(١) طلبات حول الشعراء ج ١ ص ١٤٠ بتحقيق محمود شاكر ، ومضى يراكن

الريف : يلازمه وبطل الإقامة فيه .

ويلاحظ أن شعر البدوي المحضر مع قيامه - في العموم - على الألفاظ الجزلة ،
اختلف في بعض حالاته ، ومن حيث الوعورة والخشونة ، ف شعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة المادية في الحيرة وغيرها من عواصم الإمارات العربية في الجاهلية تردت
ألفاظه بين الوعورة والسهولة حسبما يستدعيه المقام ، أما شعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة الإسلامية فإن ألفاظه ظلت وسطا بين الوعورة والسهولة ، فلم تخشن لدرجة
الصعوبة على المناطق وللسامع ، ولم تكن لدرجة الانحدار والهبوط عن مستوى الفصاحة ،
لقد تأثر الشعراء في ظل الإسلام بالألفاظ القرآنية ، وبالأحلاق الإسلامية ، فالوا إلى
القرب من السامعين ، والتأسق بين ما يلفظون وما يتناولون من فنون وأصناف .

٢ - والظاهر في الشعر البدوي يلاحظ أن المباريات فيه تؤدي وظائفها الفنية في
وضوح واستواء ، لا غموض فيه ، ولا اضطراب ، ولا إعراب ، فالشاعر يتمكن من
لغته ، مدرك مدلولاتها ، مستوعب صيغها ، معاش أطوارها ، ليس غريبا عليها
ولا متطاولا طارتا ، يقنعك بأن ما يقدم صنيع عفو الخاطر ، دون معاناة أوكد ،
وإن كان قدر رد النظر فيه مرارا وراجعه ، حتى صحت له صيغته وعباراته بالشكل القوي
الأسق مع مزاجه الفطري ، واستمداده البدوي ، فالنسيج محكم ، والبناء متكامل ،
والمباريات تامة ، والألفاظ مجودة مصتولة .

كما يلاحظ أن صورهم الفنية تمتد - في الغالب - على الخيال التفسيري أو المبالغة
البدئية ، والإيماء الكنائية ، وأنهم في هذا وذلك دائرون داخل الإطار البدوي
لا يشدون عنه ، ولا يتطاولون ، عليه ، بيد أن دورانهم هذا لم يكن دورانا عفويا دون
قصد وتمدد ، بل كانوا مدفوعين إليه لتحقيق التجويد ، وإحراز التفوق

ونظرة إلى حكاية عترة عن جواده في المركة :

فازور من وقع القسا بلبسانه وشكا إلى بسيرة وتممحم
أو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولما كان أو علم الكلام مكلمه

وإلى قوله يصعب القباب في الرعس :

وخلا القباب بها فليس يبارح عردا كفعل الشارب المرهم
(٢١ - الأدب المرز)

هزجا يـمـك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجدم^(١)
ترينا اتجاه الخيال العبرى واعتماده في إبراره على التفسير والمقارنة ، حيث أقامه
على الاستمارة والتشبيه .

ونظرة إلى قول عبد الله بن سلمة النامدى الأزدي :

ألا صرمت حباثلنا جنوب وفرعنا ومال بنا قضيب^(٢)

ترينا كيف جمع فيه بين الاستمارة في (صرمت حباثلنا) ، والسكناية في (ومال
بنا قضيب) فإنه يكنى بذلك عن التفرق ، وابتعاد كل عن الآخر .

ونظرة إلى قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطقنى رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت

ترينا - إلى جوار الاستمارة - التمريض الذى يعبر بطريق الإيحاء ، والاحتصار ،
وذلك في قوله (ولكن الرماح أجرت) ، أى شقت لسانى . يعنى بذلك أن رماح
قومه أسكته ومنعته الكلام .

وليس يبعيد عنا شعر زهير ، والحارث بن حلزة في معلقتهما .

وإلى جوار هذه الصور التى تعتمد على الخيال التفسيري ، تجدد الصور التى تعتمد
على الخيال الابتكارى ، ويلاحظ أن هذا اللون من الصور يتألف فى شعر الفرسان
الصعاليك وغير الصعاليك ، ولعل ذلك راجع إلى اشتغالهم عن المقارنة ، والبحث عن
المثيل المشابه لتقدية ، فلم يكن لهم بد من الاعتماد على عرض الحدث بتفاصيله القصصية
تتحقق لهم ذلك النوع من التصوير .

(١) هزجا : مصوتا ، والزناد : حجران يضرب أحدهما بالآخر فتخرج منه البار
والأجدم : مقطوع اليدين .

(٢) المفضليات ج ١ ص ١٠٠ ، صرمت : قطعت ، والحباثل : جمع حبل ، وهو
جمع لم يرد إلا نادرا ، ويقصد بالحباثل المودة ، وجنوب : اسم امرأة ، وفرعنا :
علونا فى البلاد ، وقضيب : واد بنجد ، مال بها : سلسكته .

ونظرة في شعر عنتره والشنفرى وعروة بن الورد وغيرهم من الفرسان الأبطال ،
تقفنا على هذا الملحظ .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى شعر الحضرم لم نجد اختلافا كبيرا بين المبارات الفنية ، والصور
البيانية عما وجدنا في الشعر البدوي ، انهم إلا في الحدود التي تفرضها البيئة على الشاعر
الصادق الذي يتمد في عباراته وصوره على ما يحيط به في بيئته .

ولا ريب في أن ما يجده الشاعر الذي يقيم في جوار المناذرة أو الفساسة من مادة
صوره غير ما يجده الشاعر الذي يقيم في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم وفي ظلال
القرآن ومدنية الإسلام من ذلك

ومن ثم لم يكن عربيا أن تسمع صوت الأعمى يستعير من كنائس المسيحيين
صورة الحراب في قوله .

كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر
وأن نجد المرقش الأكبر يشبه صياح اليوم بصوت النوايس في أوائل الليل في قوله:
وتسمع نرقاء من اليوم حولنا كما صربت بمد الهدو والنوايس (١)
ولا كان عربيا أن يمرض النابتة الديقاني في مدح الفساسة لبعض أعيادهم ، كعيد
الشمانيين (السباب) ، في قوله :

رقاق المعال طيب حجرانهم يحيون بالريحان يوم السباب
كما لم يكن عربيا أن تسمع صوت كعب بن زهير في اعتذاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قریش قال قائلهم يبطن مكة لما أسلموا: زولوا

* * *

٣ - والباظر في الشعر الجاهلي - بدويه وحصريه - يلاحظ أن الموسيقى فيه
ناسجة تماما ، سواء في ذلك ما يجده الورد ، وما تجده القافية ، ويبحث عن السرفى

(١) نرقاء - بفتح الناء - الصياح ، والهدو : أوائل الليل .

ذلك فيجده كما نرى في الوصول بمصدرى الموسيقى الشعرية - الورد والقافية - إلى أرقى درجة؛ فقد تمكنوا في هذا العصر من النسق الموسيقى، وبرعوا في تجرئة الأوزان، وملكوا زمامها، هلا هوا بينها وبين القافية، ثم استطاعوا أن يتخيروا من هذين ما يقسق مع المعنى، وضمموا الشعرهم أسلوبا ذميا متميرا يتأخر فيه الشكل للمادى مع الإيقاع الموسيقى مع المضمون الشعرى . على نحو ما نرى في شعر أصحاب الملهقات، ودريد بن الصمة، والمتأسس، والشنفرى، والثقب العبدى، وأبى دؤاد، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وغيرهم كثير ممن لا يحصون عدا .

وقد حاول بعض الدارسين أن يبعث تميز شعراء بعض المناطق عن غيرهم في الموسيقى الشعرية، لكن الوسائل إلى ذلك ما زالت محدودة لانتيج الوصول في هذا الصدد إلى رأى قاطع واضح، ولمسل في مستقبل الدراسات الأدبية ما يمكن من تحقيق ذلك .

ومن اشتغل بهذا اللون من الدراسة والبحث الدكتور عوستاف فون غرباوم، وقد حرج من دراسته تلك بنتائج خطيرة كان من أهمها - مما يتصل بموضوعنا - ملاحظته من أن الثفنن في الأوران الشعرية في العراق كان أغنى في هذا العصر مما كان عليه في أى مكان آخر .

وما لاحظته من نمو بحر الرمل في الشعر الحيرى، وإهماله في سائر المناطق الأخرى من بلاد العرب، فقد أكثر شعراء الحيرة من هذا البحر ولم يستعمله في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد، وطرفة في ثلاث قصائد، وعدى بن زيد في سبع قصائد، والثقب في قصيدة واحدة، والأعشى في اثنتين .

ولما بحث عن الملة في نمو هذا البحر في شعر الحيرة - مع إهماله في سائر البلاد العربية - أرجع ذلك إلى أن الرمل استعير من الرزن البهلوى الثمانى المقاطع كما صورته بنفيسته (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ سنة ١٩٣٠) ، وأنه عدل على نحو يلائم العروض العربى .

وما لاحظته من نزوع مدرسة الحيرة إلى بحر الحنيف، الذى نجد منه خمس عشرة قصيدة لأبى دؤاد، وسبعا لعبدى بن زيد، وخمسا للأعشى (١)

(١) راجع (دراسات في الأدب العربى ص ٢٦٥ وما بعدها ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين .

ولا ريب في أن هذا اللون من الدراسة - على طرائقه - يحتاج إلى بحث وتقص
للشعر الجاهلي في مختلف بيئاته ، حتى تتحقق من صحة ما يتقرر في هذا الصدد .

٤ - والناظر في الشعر الجاهلي يلاحظ أن للشعراء - بدوا وحضرا - منهجا
يكاد يكون ثابتا ، لا يختلف إلا في الندر اليسير ؛ فهم في مجموعهم يبتدون قصائدهم
بإهداءات تهمد للموضوع ، ينلب عليها أن تكون وقوفا على طلل ، أو دعوة إلى وقوف ،
أو تغزلا في امرأة ، ثم في براعة فنية يخلصون إلى الموضوع مدحا كان ، أو غزرا ،
أو غزلا ، أو رثاء . . . ا

كما يلاحظ أن الشاعر يعنى بتقديم موضوعه من خلال أنكاره في أناة وروية
- على اختلاف بين البدوي والحضري - في مظهر ذلك - فهو لا يستقل من فكرة إلى
أخرى حتى يطمئن إلى تمام عرضها ، متنوعا في ذلك الصور المختلفة التي قد تميز في
إيضاحها ، مستقصيا كل الجوانب والأبعاد فيها ، حتى أصبح من ينظر في القصيدة من
معاصرنا يشغل باله عن تاليتها ، ويتوهم أن القصيدة مفككة الأجزاء ، أو أنها
صتمدة الأغراض والقاسم . فأصبح - في تقدير هؤلاء - من عيوب الشعر الجاهلي
لافتقاده إلى الوحدة الموضوعية .

وفي الحق أن هذا ليس عيبا في الشعر الجاهلي ، وإنما هو عيب في معاصرنا ممن
لا يسرون في القصيدة الجاهلية بخطى أصحابها ، ولكن يسرون بخطاها في العصر الحديث .

ومن ثم كان للقصيدة العربية شكل متميز ثابت ، لا يكاد يختلف فيه شاعر عن آخر ،
لأنهم إلا في بعض الأحوال التي يفصل فيها الشاعر المقدمة ، أو يضطره المقام إلى الإسراع
توعا في عرض أفكاره ، فيتجاوز الاستقصاء والاستيعاب التصويري ، كما في المرثى ،
والمواعظ ، وبعض القصص .

البَابُ الرَّابِعُ

النثر بين البدو والحضر

الفصل الأول

فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن

لا أشك في أن العصر الجاهلي قد عرف للنثر الأدبي باعتباره وسيلة من وسائل البيان ، ولا أشك كذلك في أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لسلك أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي القول عندها ؛ ولا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهدون النثر الفني لما كان لتحديدهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدي المعجز لا يسكون عن فقر ، وإنما يكون عن مقدرة في ذلك المجال . هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآني ويحلوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام عمر بن الخطاب ، وعاملا من عوامل التشكك في نفس الوليد بن المغيرة وضربانه من الجاهليين الذين وجدوا في القرآن ما يدهمهم إلى التزوي في الحكم ، ومماودة النظر، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وحشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا أشك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه، ولضادته بالقرآن الكريم واشتغال العرب به من أسلم منهم ومن لم يسلم ، مما كان له أبعاد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظه .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا الفن الأدبي عند الجاهليين ، على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغيير في بعض عباراته ، وتحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو - مع كل ذلك - يطلعنا على فنونه السائدة

بينهم ، ويعرفنا بكثير من قضاياهم التي كانت تشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهجهم
البياني في ذلك الفن .

هذا فيما يتصل بالثر قبل الإسلام ، أما بعد مجيء الإسلام ، والحض - في ظهه - على
تعلم للكتابة ، واستئلاها في تدوين المهم من أمور الحياة العربية الإسلامية ، فإن حال
الأدب المنشور تختلف عن حاله فيما تقدم ؛ فقد وثقه التدوين ، وقام على حفظه طائفة
من السكاكين كل في ميدانه الخاص ، ابتداء بالقرآن الكريم .

فالثر العربي - في ظل الإسلام - يختلف من هنا عن الثر العربي قبل الإسلام .

ثم إنه يقوم على دعائم مختلفة من ألوان البيان العربي . . واختلاف هذه الدعائم
ليس اختلافا في أساليب الأداء ، ولا اختلافا في الشكل ، ولا في الموضوع فحسب ، بل
هو موق ذلك كله يختلف في المصدر ؛ وذلك لأن دارس الثر العربي في صدر الإسلام
يجد نفسه أمام ثر عربي ليس صادرا عن كائن عربي ، بل هو منزل من رب العرب
والمعجم رب العالمين ، دلسم هو القرآن الكريم ، ويجد نفسه أمام ثر عربي صادر عن
كائن عربي ، بيد أن له من الظروف ما يجعله في مراكز الريادة والقيادة والقدوة ، تهوى
إليه أممته العربي وغير العربي من مختلف بقاع الأرض ، وذلك هو الحديث النبوي
الشريف ، كما يجد نفسه أمام ثر عربي حاضع لكل ما تخضع له فنون الأدب من تأثر
وتطور واحتذاء .

من ثم لا يستطيع دارس للأدب العربي في ظل الإسلام أن يتجاوز في دراسته
القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ فالقرآن - وإن كان ليس من صنم بشر - بيان
عربي مبين . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بيان عربي ، نسجه أول من تلمذ
على القرآن الكريم وتأدب بأدابه . . . ومهمة الدارس أن يتناول كل بيان في بلسان
اللغة التي يدرس آدابها .

بيد أن الأمر يختلف في دراسة القرآن عنه في دراسة غيره من الآداب ؛ إذ دراسة
القرآن الكريم لا تتناول الأطوار المنية له ولا المؤثرات الخارجية التي خضع لها ؛
إذ كلام رب العالمين لا يخضع لمؤثرات خارجية ، ولا يمر بأطوار فنية ، إنما ذلك شأن
النتاج البشري الذي يخضع صاحبه نفسه للتغيرات ، ويعرف في حياته بمديد من الأطوار .

أما من يقول بأن القرآن الكريم ليس نثرا ، كما أنه ليس شعرا ، وإنما هو قرآن (١) ، فهو يتلعب بالألفاظ في محاولة للتلاعب بالمعقول ، وليس ترفعا بالقرآن الذي قال منزله في وصفه إنه « بلسان عربي مبين » ، واللسان العربي شعر ونثر ، فإذا لم يكن القرآن شعرا - وهذا واضح مقرر بالنص القرآني أيضا - كان نثرا دون شك أو جدال . لكنته نثر ذو سمات خاصة في قيوده البيانية ، وفي شكله ، وفي أسلوبه ، إلى غير ذلك ، كما أنه ذو سمة خاصة في مصدره .

* * *

والناظر فيما تناقله الرواة من النثر منسوبا إلى من قبل الإسلام يلاحظ أنه يدور في محورين متميزين :

أحدهما محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات البيانية والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصي ، دون إجهاد في بناء قصص ، أو في نقل خبرات الأديب بالحياة وهذا هو المعروف بالمثل والحكمة .

والثاني محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحسه ، وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والناشرات ، فهذا كله تعبير لصوت صاحبه وهيئته ومنهجه فيه دور كبير .

فالنوع الأدبية التي قدمها النثر الجاهلي هي المثل ، والحكمة ، والخطابة ، والوصايا ، والمحاورات ، والناشرات ، وأما ما روى من القصص الجاهلي فلا أستطيع أن أسلكها ضمن فنون نثرهم ، لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية ، فهي أدب غير جاهلي يمازج قضايا وأحداثا جاهلية ، بيد أنها - إلى ذلك - تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص وتداولوها فيما بينهم ، والناظر في كتاب الأغاني يجد حافلا بألوان من القصص الجاهلي .

(١) انظر من حديث الشعر والنثر للمدكتور طه حسين ص ٢٥ الطبعة العاشرة

(١)

الحكم والأمثال

الحكمة :

قول بلبيغ موجز يفيض به اسان حكيم يجمع خلاصة تجاربه وخبراته بالحياة ، ويقوم على مقررات ثابتة مسلم بها تقبلها العقول ، وتقاد لها النفوس والشاعر .

والحكمة من أنسب ما يتداول في البيئات القبلية التي تمتاز برجل القبيلة ، ويكبر شبابها شيوخها ، ويلتصقون بهم ، يأخذون عنهم ، ويتأسون طريقهم ، مهم لهم اللدرة للمرشدة ، والقيادة للوجهة . ومن ثم كثر في العصر الجاهلي الحكماء ، وكان في كل قبيلة حكيم - إن لم يكن أكثر من حكيم - تفزع إليه في الشدائد ، وتلجأ إلى رأيه في المضلات ، وتجلس إليه في وقت السلم تأخذ منه ما يمينها على مستقبل الأيام .

وحفاظا من الحكماء على مكانه ، وحرصا على أن تعلق به القبيلة ، كان يهتم كل الاهتمام بصياغة حكمته ، ويديرها في رأسه مرارا حتى تكون وافية شافية .

ولذلك كان للحكمة من الخصائص الفنية ما يميزها عن غيرها ، ويضمن لها أداء الغرض منها ، والوصول إلى قلب وعقل متلقيها ، ومن أبر تلك الخصائص :

اعتناء الحكماء بانتقاء ألفاظه وحرصه على أن تكون تلك الألفاظ الموحزة قادرة على أن تضم المعنى المجرد إلى المعنى الحسي لتصنع منها صورة قريبة التناول ، واضحة للدلالة ، ذات إيقاع ينسجم مع محتواها .

وحرصه على أن يشحن تلك الألفاظ بخلاصة خبراته وتجاربه الإنسانية ، معتمدا على الصدق والإخلاص والتميم .

ثم دقته في نظم تلك الألفاظ بطايرها لنقل ما تحمل لعمريحا أو تديحا .

ومن أشهر الحكماء الجاهليين .

١ - أكرم بن صيفي التيمي ، وكان من المعربين ، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في

للطريق وقد نسب إليه حكم كثيرة منها : شر النصره التمدي ، رب قول أنفذ من صول (١) . رب محلة تهب رينا (٢) . إذا نزع الأواد ذهب الرقاد . رب كلام ليس فيه أكتتام . ليس من العدل سرعة العدل . ويل للشجى من الخلى .

٢ — عامر بن الظرب للعدوانى ، وهو من العميرين كذلك ، ويقال : إنه لما أسن واعتراه اللسيان أمر ابنته أن تفرع بالمصا إذا هوفه (٣) عن الحكم وحاد عن القصد ، وكانت من حكيمات العرب . . وفى ذلك قال للتلسس (٤) :

لندى الحلم قبل اليوم ما تفرع المصا وما علم الإنسان إلا ليعلمها
وهد نسب إليه كثير من الحكم والوصايا، منها : رب زارع لنفسه حاصد أخيره .
العقل نائم والهوى يقظان . من طلب شيئا وجدته .

وكتب الأدب تفيض بالحكم الجاهلية ، لكن أكثرها يذكر غير منسوب إلى فائده ، مما كان عاملا من عوائل اختلاط الحكم الجاهلية بغير الجاهلية ، وإيجار الحكمة لا يتيسر لدارس أن يتلصص مصدرها .

المثل :

واضح من التسمية الفرق بينه وبين الحكمة ، وإذا كانت الحكمة تتمتع على خبرات قائمها وتجاربه ، فإن المثل يعتمد على المائلة والشابهة ؛ إذ يلاحظ فيه مشابهة موقف لموقف آخر فيقال فى هذا ما قيل فى ذلك . فالمثل : قول موجز سأرى شبه مضربه بمورده . ويمتاز المثل بأنه يوصى إلى حادثة أو قصة أو خبر تضمنت تلك العبارة السائرة ، بحيث تقترن القصة بها ، فإذا ذكرت العبارة مثلت القصة الأصلية وتراءت فى الألفى ؛ وبذلك يمكن أن تتعرف على كثير من أحداث الجاهلية بالنظر فى أمثالهم . وكما يشير المثل إلى موقف واقعى ، قد يشير إلى حادثة مفترضة ، يقصد بها الوصول

(١) الصول — بفتح فسكون — الاستطالة فى الحرب .

(٢) الريث : البطء .

(٣) فـه : حاد ومال .

(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٨

إلى عقل سامعها وقلبه ، فيتخيل أحداثها واقعة بين حيوانات أو أناسى أو جراد أو نحو ذلك ، ومن ثم كان من الأمثال الحقيقي والاقتراضى .

ولعل العرب قصدوا بالأمثال أن تكون وسيلة من وسائل النشر الأدبى ؛ إذ حملوا العبارة القصيرة السائرة قصة ذات دلالة خاصة ، فأصبح من السهل اليسور على كل عربى أن يتداول القصة العربية من غير حاجة إلى كتابة ولا إلى مجهود شاق فى حفظها ونقلها ، فيمكن أن تنثر تلك العبارة فى جميع ليستميدوا الحدث الأسمى الذى قيلت فيه .

وبذلك يكون للمثل رسالتان يؤديهما ، أحدهما . تشبيه حدث بآخر والإيماء بأن ما جرى هناك جدير بأن يحدث ها ، ثانيهما : إذاعة القصة العربية ونشرها بأيسر السبل ، وأقربها إلى ذوق كل عربى . من ذلك :

واقى شن طبقة :

قيل إن شا هذا رجل من دهاة العرب ، خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها ، مرافقه رجل فى الطريق إلى القرية التى يقصدها ، ولم يكن يعرفه . قال شن : أنعملى أم أحملك ؟ فقال الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، وكيف تحملى أو أحملك ؟ فسكت شن حتى قابلتهما جبارة ، فقال شن : أصاحب هذا اللعش حتى أم ميت ؟ فقال الرجل : ما رأيت أجمل منك ، ترى جبارة وتساءل عن صاحبها أميت أم حتى ، سكت هن ، ثم أراد مفارقتها ، فأبى الرجل وأخذها إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة ، فسألت أباها عن الضيف فأجبرها بما حدث منه ، فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ، إنه أراد بقوله أنعملى أم أحملك : أحمدهى أم أحدهى ، وأما قوله فى الجبارة فإنه أراد هل ترك عقبا يحيا به ذكره ؟ فشرح الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه ، فقال شن ما هذا بكلامك ، يصارحه بأنه قول أبنته طبقة ، وتزوجها شن ، فقيل : واقى شن طبقة وأصبح يضرب للمتواقين .

الصيف ضيقت اللبن :

قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخا كبيرا تزوج بامرأة فضانت به ، فطلبها فتزوجت هى جميلا ، ولكنهم أجدبت ، فبعثت تطلب من عمرو لبنا ، فقال : الصيف ضيقت اللبن ، وأصبح يضرب لمن يطلب شيئا دوته على نفسه .

على أهلها تجنى براقش :

كانت براقش كلية لقوم من العرب فأغبر عليهم ، فهربوا ومهمهم براقش ، فانبعث القوم آثار نباح براقش ، هجموا عليهم فاصطلموهم ، فقيل : على أهلها تجنى براقش . يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

كيف أعادك وهذا أثر فأسك :

أصل هذا المثل - على ما حكته العرب على لسان الحية - أن أخوين كانا في أبل لهما فأجدت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب وفيه حية تحمي من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المسكلى ورعيت فيه إبل وأصلحتهما . فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأنعمان ، فهبط الوادي ورعى به إبله زمنا ، ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أحوه : والله ما في الحياة بمسد أخي خير ، فلأطابن الحية ولأقتلها أو لأنعمن أخي ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها ، وقالت له الحية : ألسنت ترى أي قتلت أخاك ؟ فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم دينار ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : إني أفعل ، فخلف لها وأعطاها الموائيق لا يضرها ، وجملت تعطيه كل يوم دينار ، فكسرت ماله حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه تذكر أحاه ، فقال : كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي ؟ فعمد إلى رأس وأحذها ثم عمد لها فمرت به فتبها فاضربها فأخطأها ودحات الحجر ، ووقعت الرأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه ، ولما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، فخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها : هل لك مني أن تتوانق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : كيف أعادك وهذا أثر فأسك ؟ يضرب لمن لا يفي بالمهد .

(٢)

الخطابة

الخطابة أحد ديون النثر ، وهي ليست وثقا على أمة دون أمة ، لكنها في كل وسط تشكل بما يتناسب مع متطلبات الخطابين ؛ إذ هي كلام منشور يتجه به صاحبه إلى من يجتمعون إليه ، بقصد الوصول إليهم بما لديه من أفكار .

ولا ريب في أن أنسب البيئات لازدهار الخطابة ما ظلتها الحرية ؛ حيث يستطيع كل فرد أن يبرع عما في نفسه ، وأن يخاطب مجتمعه بما يوجد ، ويعمل على توجيهه إلى ما يرى .

ولا ريب في أن البيئة العربية في العصر الجاهلي كانت من أسبب البيئات لازدهار هذا الفن وتطوره ، بيد أن الشعر كان - في أول الأمر - المستحود على اهتمام العرب وسكان الشاعر يقدم على الخطيب ، لمرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفرح شأنهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، وأعمدوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (١) بل لقد أصبحت الخطابة ملازمة للسيادة فكانت من أهم ما يتميز به السادة ؛ وما كان يرتفع نجم سيد من ساداتهم إلا والخطابة صفة من صفاته ، ولم يكن يتماطى الخطابة في هذا العصر - غالبا - إلا سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدر المفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويحسون ذلك بالواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجاميع الحفيلة (٢) .

فالخطابة - كما يتضح من ذلك - إنما احتفل بها الجاهليون لأن الشاعر - في رأي بعض السادة - انحط بشعره إلى مستوى ألفة العربي الشريف ، وأبى أن يكون واحدا

(١) العمدة ج ١ ص ٨٢ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ ، ج ٤ ص ٨٣ بتحقيق

عبد السلام هارون

(٢) صبح الأعشى للقاتل شمدى ج ص

من هؤلاء الشعراء ، ترنما عن أن يظن فيه التمسك بالشعر وامتهاناً . ولم يخفوا بها لغاتها ولذوقها ودواعيها وأسبابها .

ومن ثم يلاحظ الناظر فيما وصلنا من خطابتهم - على تشكك في صحة نصه - أنه توقف عن التطور والنمو ، فلم يكن الخطيب يطمح في أن يصل من سامعيه إلى أكثر مما يصل إليه الشاعر منهم . وطأت قصاراه أن يستحوذ على قلوبهم ، ويملك مشاعرهم ، دون أن يهتم بأن يتجاوز التأثير إلى الإقناع ، لأن التمسك إلى الإقناع محتاج إلى التدبر قبل الكلام ، ومراجعة ما يقال ، وترتيب الحجج ترتيباً تقع به في مواضعها . . . إلى غير ذلك .

فالخطابة الجاهلية كانت إلى الشعر أقرب ، ولولا تحمل الخطيب من بعض قيود الشعر لكانت شعراً ، لأن أفكارها ومفانيها وأغراضها كانت في أكثرها شعرية ، فإذا ما تحققت في مبنائها البناء الشعري أصبحت الخطبة قصيدة بكامل مفهومها .

* * *

ومن يردد نظره فيما وصلنا من خطابة ترمز إلى هذا العصر يلاحظ أنها تتميز بمخامس بيئية من أبرزها :

١ - ضيق أسلوبها ؛ فقد أصبح يتردد بين أن يكون حكماً وأمثالا يسردها الخطيب لتقوم بدور التأثير ، وبين أن يكون أسجاعاً ذات قنود إيقاعية تقترب بالخطبة من الشعر خطوات ، وبين أن يكون أفكاراً متباينة لا يشدها إلى بعضها إلا رابط تقسى . مثال ذلك ما جاء على لسان هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذي قار ، يحرضهم على القتال :

« يا معشر بكر أهالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لا ينجي من القدر .
وان الصبر من أسباب النصر . المنية ولا الدنيا . استقبال الموت خير من استدباره .
لظعن في ثمر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور » .

فهى - كما ترى - جملة من حكم شتى ، لا يربطها رابط فنى ، سوى التأثير النفسى .

- ومثال ذلك - كذلك - قول الأوس بن حارثة يوصى ابنه مالكا :
« يا مالك المنية ولا الدنيا ، والعتاب قبل العقاب ، والتجملد ولا التبلد واعلم

أن القبر خير من الفقر . وشر شارب الشنف . وأقبح طاعم للخنف . والدهر يومان ،
فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك ولا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلامه
سينحسر .

وقال أكنم بن صبي في خطبته أمام كسرى :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ،
وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . للصدق منجاة ، وللكذب مهواة .
والشر لجابة ، والحزم مركب صعب ، والمعجز مركب وطيء . . .

« آفة الرأي الهوى ، والمعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن
ورطة ، وسوء الظن عصمة

« إصلاح ساد الرعية حـير من إصلاح فساد الراعي ، من سدت بطانته كان
كالماص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خامة البريء .

٢ - ضيق أعراضها ؛ وسكا ضاقت أساليب الخطابه الجاهلية ضاقت أعراضها ،
وانسكشت ضرورها ، تبعاً لما تقتضيه البيئة العربية إذ ذلك ، وحسباً تقسم به حياتهم
البدوية من البساطة والسذاجة ، سواء في ذلك حياتهم العقلية والسياسية والاجتماعية .
ومن ثم قصرت أعراض الخطابة على المنامرات والمفاخرات ، والحض على القتال ،
والتحريض على الأخذ بالنار ، وإصلاح ذات البين ، والنكاح ، والإرشاد ، وخطب
الحامل والوفود ، والوصايا ، وسجع الكهان .

ومع كثرة هذه الأعراض عددياً ، نلاحظ أنها كثرة لائثرى ، فليس في هذه
الأعراض ما يدفع الخطابة إلى الترقى فنياً ؛ إذ كلها يكاد يدور في محور - إن لم يكن
واحداً - فهو أدنى إلى التوحد .

فجمال المنامرات والمفاخرات يعتمد على دقة للمحفظ ، واستئلال السمات في إحام ،
الحصم ، دون أن يهتم بابتسكار للمعنى ، وتنميق العبارة ، وتجويد الأسلوب .

وميدان الحض على القتال ، والتحريض على الثأر ضيقته طبيعة العربي المنهثة
للاقتتال ، المستعدة للقتال ، والتحريض يحتاج إلى الابتسكار والتنميق والترتيب إذا
كان موجهاً إلى إنسان في حاجة إلى إثارة أو إقناع ، أما إذا كان عربياً جاهلياً فهو ليس
(٢٢ - الأدب العربي)

في حاجة إلى شيء من ذلك ، ومن ثم فالتهريض بالنسبة له ليس أكثر من تنبيه
ولفت نظر ، ومثل هذا ليس في حاجة إلى تفان وتحسين وترتيب

والإصلاح والإرشاد والوصايا أغراض حددتها حياة العربي ، والشكل الإجتماعي
الذي يسود بينه ، فليس شيء من ذلك في غالب الأمر بموجه إلى جمهور ، وإنما هي
أقوال من فرد إلى فرد أو بضمه أمراد لهم في القبيلة مركز القيادة والتوجيه . ومثل
هذا لا يحتاج إلى تشيقي الكلام وإعدادة إعدادا خاصا ، فالقائل والسامع في مركز
متقارب من قيادة القبيلة ، وليس بينهما غالبا سوى فارق السنين . . . انتهى أقرب إلى
الحكم الثبوتية منها إلى الخطابية .

أما خطب المحافل والوفود فتقيدتها طبيعتها السياسية ، وشكلها الرسمي للثابت ؛
إذ هي لا تتجاوز تحية في استقبال وفد ، أو شكرا في توديع مضيف ، ولا شك في أن
مثل هذا لا يطور من القول ، ولا يسهم في تطويره بالتقدير الذي يحسب له .

وما سمع السكهان بأومر حظا من تلكم الأعراض السابقة ، بل إنه أضيقها جميعا ،
وأبعدها عن مباشرة الإثراء لهذا الفن .

إذا فهي أغراض كثيرة ، لسكنها - كما رأينا - مع كثرتها لا يتسع ميدان واحد
منها لأن يطلق عقل الخطيب ، فيصول ويجول ، ويقب المعاني على مختلف الوجوه ؛
بل هي جميعا تسكد تصدر عن منبع واحد ، لا تختلف مذاقه ، وإن اختلفت ألوانه
ودواعيه ، فهي إلى الحديث السائر أقرب من أن تكون عملا أدبيا ذا قيم فنية مميّنة ،
أو قواعد أسلوبية يرتكز عليها . . . بيد أنهم - إلى ذلك - تمارفوا على سنن وتقاليدهم
تتبع في خطاباتهم ؛ فكانوا يخاطبون على رواحلهم في الأسواق المظلمة ، والمجانب ،
السكبار (١) . وكانوا يلوثون المائمه على رؤوسهم ، ويمسكون بالمخاض (٢) والقبضان ،
ويعتمدون على الأرض بالتمسك ، ويشيرن بالمعص واللقنا ، حتى كانت المخاض لا تفارق

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧

(٢) المخاض جمع مخضرة : ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده ، من عصا أو مقرفة

أو عكازة أو قضيب .

أيدي الملوك في مجالسها^(١) . وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان ، وحضور
البدية ، وقلة التلذذ ، وكثرة الربق ، وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيرون فيه
التنضح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام . . إلى غير ذلك مما عنى بتفصيله
الجاحظ . في بيانه .

٣ - قصر بناؤها ، ولعل ذلك من أهم ما يلاحظه المدارس على خطب الجاهليين ،
وهو قصر فرضته طبيعة الحياة الجاهلية على الخطيب ، وليس قصرا مقصودا أراداه
الخطيب تحقيقا لهدف واضح ؛ فاليئمة لا تستدعي طول الخطبة إلا إذا كانت ذات حياة
فكرية نامية ، وإلا إذا كانت ذات حضارة معقدة ، من كل ما يتطلب البسط في
الحديث ، والتبسيط في المواقف ، والتكرار في الأفكار بنية للتقرير والتأكيد ، وبسطا
للحجة ، وتقوية للبراهين لسكن البيئة العربية في ذلك الحين لم تكن تتقدم بها الحضارة ،
ولم تكن عزتها المدنية ، فقد كانت الحياة فيها بسيطة ساذجة ، ومن ثم كان العربي
يعيدا عن الفلسفة والتعقيد ، ولم يتيسر له من العوامل ما يخرج به عن طبيعته الفطرية
السائدة التي تدفعه إلى أداء فكرته بأوجز عبارة وأوضح أسلوب . وهذا مرثد
الخير أحد أقبال^(٢) حير يخطب في الصالح بين سبيع بن الحارث أخى ذى جند ،
وميثم بن مثنوب بن ذى رعين حين تنازعا الشرف ، وتناحنا حتى خيف أن يقع بين
حييها شرفيتان أصلاهما ، وذلك قوله : « إن التغبط ، وامتطاء الهجاج^(٣) .
واستحقاب الهجاج^(٤) سيقكما على شفاهورة في توردتها بوار الأميعة ، وانقطاع
الوسيلة . فتلافيا أمر كما قبل انتسكات المهدي وانحلال المقد . وتشتت الألفة . وتباين
السهم^(٥) » وأتانا في فسحة رافهة . وقدم واطدة . والمسودة مثرية^(٦) . والبقيا

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أقبال جمع قبيل : من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم .

(٣) امتطاء الهجاج : ركوب الرأس وعدم التروى .

(٤) استحقاب الهجاج : التمسك بالخصومة .

(٥) السهم : القرابة .

(٦) مثرية : متصلة .

معرضة^(١) ، وقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب بمن عصى النصح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتهم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور أمورهم ، قتلاوا القرحة قبل تفاقم النأى^(٢) ، واستفحال الداء ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشجناء ، وإذا استحكمت الشجناء تقضبت^(٣) عرى الإبقاء ، وشمل البلاء .

هذا مع استثناء بعض الخطب ؛ فقد كانوا يطيلون سببا في حطب النكاح ، وإصلاح ذات البين .

ولا يمكن بحال أن تتصور وصول خطبة من خطبهم كاملة مفصلة كما قالها صاحبها ؛ لعجز الرواة عن استظهارها كلها ، فهم إما يحفظون منها ما كان أشد قرعا للسمع ، ووقفا في النفس ، بمباراة تحمل ذات المعنى الأصيل ، وإن اختلفت عنها شيئا في بعض اللفظ .

ومع هذا فلا يمكن كذلك أن تتصور خطيبا جاهليا محيط به بيئة الجاهلية بكل أبعادها وأغوارها يخطب فيطيل الإطالة التي نهدها في الخطابة بمد ذلك المصير لما قدمنا آنفا ، ولا تطبع للعرب الجاهليين على الإيجاز ، ولأنها أسهل للمحفظ ، وأسرع شيوعا من الخطب الطوال .

٤ — عدم الاهتمام بالمقدمات ؛ فقد كان الخطيب في الجاهلية يرجع على أغراضه مباشرة من غير تقديم ولا تمهيد ؛ إذ الخطبة بالنسبة له لا تخرج عن أى عمل يقوم به العربي في تلك البيئة بما تشتمله من صراحة ووضوح وانكشاف ، وبما تنطوى عليه الحياة فيها من قسوة وخشونة . . فليس شيء مما يقع عليه نظر العربي مرت عليه يد التهذيب والتثقيف إلا أن تكون ضرورة الحياة هي التي تفرض عليه تهديبه أو تثقيفه ، وليس في صحرائه المكشوفة الواسعة ما يلفتته إلى الالتواء .

(١) معرضة : ممكنة .

(٢) النأى : الإنساد .

(٣) تقضبت : تظلمت .

هذا إلى أن شدة الحياة خلعت على نفسه الضيق والتبرم - وإن لم يعرفها في نفسه -
كما يدفنه إذا قال إلى أن يبدأ بما يريد أن يقول ، وإذا سمع أن يطلب سماع ما يراد أن
يقال حسب .

ثم إن الخطيب العربي - إلى ذلك - لم يكلف نفسه وضع خاتمة ينهى بها كلامه إذا
ما انتهى من عرض فكرته لذلك السبب الطرقي ذاته .

ومن ثم لم تكن في الخطبة الجاهلية أقسام واضحة ، وإنما هي أقوال مباشرة ،
كما تبدأ وتنتهى ، وفي خطبة مرثد للخير التي قدمناها آنفا ما يشير إلى تلك السمة في خطابة
الجاهليين ويقررها ، فضلا عن أن تلك السمة هي الطبيعة الواضحة التي لو وجد غيرها
في خطابهم لكان تزييدا أو شذوذا .

٥ - سذاجة الأمكار التي تشتملها الخطبة الجاهلية وبساطتها على العموم ، وذلك
لضآلة نصيب العرب في تلك الآونة من الثقافة العسكرية ، فقد كان جل همهم - في
الثقافة - أن يعرف المرء شيئا أو أشياء عما يحيط به مما تتطلبه الحياة في بيئته تلك
فعملى من يريد الثقافة أن يعرف شيئا عن مواعج النجوم ومطالع الكواكب ، وعن
أسرار الرياح في هبوبها وتذوعها . وعن تاريخ القبيلة ، وأيام العرب ، أو تاريخ
أمته . . . إلى غير ذلك من المعلومات السطحية البسيطة التي لا تخرج عن ذلك الإطار
الضيق المحدود ، والتي لا تنحوج إلى كد ذهن ، أو إعمال فكر ، أو قصد إلى ترتيب
وسمى إلى استنباط ، وإنما هي حقائق مقررة قسارى ما تتطلبه أن يستوعب ويستذكر .

ولم يقف الأمر بالأمكار عند حد السذاجة في طبيعتها ، بل لقد كانت ساذجة
كذلك في عرضها ، فلم يكن هناك اهتمام بترتيب الأمكار وتسلسلها وارتباط بعضها
ببعض . . . ولكن الخطيب يرسل أفكاره حسبما تتوارد في مخيلته ، دون أن يعتق
بتسويقها وترتيبها ، حتى ليسر على الناظر في كثير من الأحيان أن يحدد موضوع
الخطبة الذي يقصد إليه الخطيب .

٦ - التزام السجع : فقد التزموه في خطبهم ، ليسكون بدلا من موسيقى الشعر
غلا تتسع الهوة بين اللينين ، ولتسكون الخطبة أسهل في السمع ، وأقرب من القلب ،
ولتسكون الخطبة أسرع في الشبوع وأبعد في القديوع .

وفي مقدمة من التزام السجع في الخطابة كهان العرب ، بيد أنهم يمتازون عن غيرهم من الخطباء الجاهليين في إضافتهم إلى السجع غرابة اللفظ ، واستعمال صيغ في القسم غريبة ولعل ذلك كان منهم بقصد إضفاء الغموض على أنفسهم ، والمبالغة في السيطرة على نفوس السامعين ، وتأكيدها ما سيطر على الإنكار من مقدرتهم على السحر . والساحر - كما يستعمل بالطلاسم - يستعمل بالإيقاع الصوتي ، والألفاظ الغريبة ليتمكن من التأثير في الجماعة ، فهو من وسائل الإيحاء التي يعتمد عليها الكهان ، ونظرة إلى مثال من الخطب المسجوعة لغير الكهان ، وآخر مع سجع الكهان نقرر لدينا ما نقول .

قال علقمة بن علاثة في منافرة له مع عامر بن الطفيل : « إني لبر وإنك لفاخر .
وإني لودود وإنك لفاقر ، وإني لواف وإنك لنادر » فأجابه عامر بقوله : « إني أشرف منك أمة (١) ، وأطول منك قمه ، وأحسن لده (٢) ، وأجمد حمة (٣) .

وقالت الزبراء كاهنة بني رثام تنذر قومها ، وتنبئهم بمباغتة عدوهم لهم : « واللوح الخافق ، والليل انناسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوداق ، إن شجر الوادي ليأدو حتلا (٤) ، ويعرق أبيتا عصلا (٥) ، وإن صخر الطود لينذر شكلا ، لا تجدون عنه مولا (٦) » .

ويقرر ذلك ما ذكره عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاش حين سئل عن السر في إشارته السجع على المنثور فقال : إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد القائب والحاصر ، والراهن والنابر ، فالخلف، إليه

(١) يعني أكثر قوما .

(٢) اللمة : ما تجاوز شحمة الأذن من الشعر .

(٣) الجملة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) ياد وختلا : يميل خداعا .

(٥) بحر بضم الراء وكسرهما : يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت . وعصل

جمع أعصل : الناب الموج في صلابة .

(٦) المل : الملجأ . انظر الأما إلى ج ١ ص ١٢٦ .

أسرع ، والآذان لسماعة أنشط ، وهو أحق بالتمديد وبقلة التثقل ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزن عشره ، (١) .

أضف إلى هذا أن هذا الاتجاه يرجع إلى أنهم قوم فطروا على قول الشعر، وتأثرت لذلك لغة النثر عندهم واتجهت - عن قصد منهم أو عن غير قصد - إلى محاكاة لغة الشعر في مجازها وخيالها ، وموسيقى الفاظها .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٧ .

الفصل الثاني

حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم

(١)

أثر الإسلام في الحياة العربية

جاء الإسلام فقلب نظم الحياة الأساسية في شبه الجزيرة العربية رأسا على عقب ، ثم امتد منها إلى العالم أجمع في سنة ٦١٠ م بميث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى عشيرته بمكة ، ثم إلى العرب جميعا والناس كافة ، فبدأ يصل الناس بالدين الجديد ، ويأخذهم بمبادئه ، ويتعهدهم بقيمه ، حتى أصبح الناس عسير الناس حسنا وعمورا ، واعتقادا وتلكيرا ، وخلقا وسلوكا .

ولا أعنى بذلك أن كل ما جاء به الإسلام كان جديدا أو غريبا على الإنسان ، وإنما هو عبادة هادفة ومبدأ قاصد أقر من عادات الجاهليين وأخلاقهم ما يوائم منهجهم ، وعدل بما ينحرف منها عن طريقه ، وهدم ما يتناقض منها مع قيمه ومثله ، مقيا مكانه مبادئ تحقق ما يهدف إليه ، وتقرر ما يريد للإنسان من كرامة وعزة .

جاء الإسلام فلم يكن متغيرا لما كان عليه الرب في حياتهم من كل الوجوه ؛ فهو دين جاءت به السماء في اللحظة المناسبة ، بمد أن أعدت لاستقباله النفوس ، وأحست بالحاجة إليه للشاعر ، وبمحت هذه العقول فتاهت وضات ، ودعت إليه دواحي الفطرة المتبلورة في الأحياء من بني البشر . . . فهو دين الفطرة المستقيمة .

* * *

لقت الناس إلى الروحانية ، وكانوا مستسلمين لأوهام وعادات جمدت مشاعرهم ، وسدت الطرق في وجوههم ، تربطهم بالله الذي يجدر بهم أن يعطيهوه ، ويؤمنوا له ، ويؤمنوا به ، . . . إنه ليس إلها خاصا ، ولكن له الجميع (رب العالمين) ، وهو لا يغيب عنه

شئ ، (لا يمزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض)^(١) ، وهو واحد لا شريك له ، ولا ولد (الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد .) ، وهو خالق الكون وما فيه ومن فيه : يحيط علمه بكل شئ ، ويمتد سلطاناه إلى كل شئ (على كل شئ قدير) ، وهو يريد الخير للناس جميعا (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)^(٢) ، (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولا يمكن يريد ليظركم وليتم نعمته عليكم)^(٣) ، ومن هذا المنطلق يأخذ بأيديهم مبتدئا بهم عن سوء ، لتسمو نفوسهم ، وترقى مشاعرهم ، ويحضمهم على التمسك بعبادته التي يريدهم عليها ، مقررا أن ذلك سبيل هوزهم بحبه لهم ، ورضوانه عليهم (إن الله يحب المتقين)^(٤) ، (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)^(٥) ، (إن الله يحب المحسنين)^(٦) ، (والله لا يحب المفسدين)^(٧) ، (والله لا يحب الظالمين)^(٨) ، (إن الله لا يحب المعتدين)^(٩) . مؤسسا هذا المحب على حطى ما هو مذخور في الحياة الآخرة من جنة ونار يجارى بالجنة من استقام بمد أن يبعث من موته ويعاسب ، ويجارى بالنار من ضل وانحرف كذلك .

وأقام عقيدتهم على العسر والتدبر ، فجعل للعقل دورا في الحياة هو من أهم الأدوار ؛ إذ به يبحث ويفحص ويوازن . ليحمل إلى ما يعتقد ؛ ومن ثم أخذ الإسلام بيد الإنسان في جولات كونية بين الأرض والسماء ، يدهبه إليها إلى ما تنطوى عليه مفردات هذا الكون من دلائل تقفه على الحقيقة ، وتهديه إلى الصواب ، فمنعه بذلك الثقة ، وفتح له أبواب الانطلاق ، فجأر آفاقا بمد آفاق . « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فمنا عذاب النار »^(١٠) ، « أولا يظنون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رسمت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »^(١١) ، « وأسقط عنهم أغلال التبعية والتقليد الأعمى ، ودهمهم إلى أن يسيروا في طريقهم على هدى وبصيرة ، منبها إلى أن

- (١) سبأ : ٣ (٢) البقرة : ١٨٥ (٣) المائدة : ٦ (٤) التوبة : ٤
 (٥) البقرة : ٢٢٢ (٦) البقرة : ١٩٥ (٧) البقرة : ٢٠٥
 (٨) آل عمران : ٥٧ (٩) البقرة : ١٩٠ (١٠) آل عمران : ١٩١
 (١١) الناشية : ١٧ - ٢٠

الجراء مبني على العمل « ولا تزر وازرة ورر أخرى » (١) ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) .

وأسس حياتهم على الاجتماع والألفة ، موطن دعائم الاحوة ، وقوى روابط الوحدة ، فنبههم إلى وحدة الأصل البشري : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٣) . « وأرشدهم إلى أهمية الوحدة القائمة على وحدة العقيدة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٤) ، ثم وجههم إلى دعائم ذلك المجتمع الموحد المثالي فأوضح أن المجتمع القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٥) ، فانتقل بهم من البيضة الفردية التي يبيض فيها الإنسان لنفسه ، ولحق يدعوها إليها إلى نوع من حميد الصفات حرصه على نفسه حسب ، إلى مجتمع يقوم على الحب والتكافل والتضامن في مختلف مظاهر الحياة ومسالكها ، وخاصتهم بذلك من عادات وتقاليد كادت لتصبح عرفا وقانونا يلتزمون به ، من معاملات ربوية ، وانكباب على اليسر والقهار ، وهضم لحقوق طائفة من طوائفهم أو جنس من أجناسهم وصل بهم في بعض الأحيان إلى وأد البنات ، وقتل الأبناء . وهكذا تحول العرب من ذر منشور إلى مجتمع متلاحم الخيوط ، محكم النسيج .

وأنهض مجتمهم على مبادئ الحرية والكرامة ، والعدل والمساواة ؛ ليس لإنسان على آخر من سلطة موروثية ، وإنما للجميع سواء ، لافضل لعربي على عجمي ، ولا إكرام على عقيدة ، ولا اغتصاب لحق ، ولا عدوان على مسلم .



وهكذا جاء الإسلام قوما - أول ما جاء - هيأتهم الحياة لاستقباله ، وسار - حين تابوه - مبتعدا بهم شيئا وشيئا عما ألفوه واستبد بهم من أعراف وعادات ، حتى تلتفتوا بمد حين فوجدوا الطريق غير الطريق ، والحياة غير الحياة ، ونظروا فرأوا كل شيء قد تغيرت معالمه وتبدلت ألوانه وظلاله . . . واختلفت مذاهبه واتجاهاته .

(٢) الزلزلة : ٧ - ٨

(٤) الأنبياء : ٩٢

(١) الأنعام : ١٦٤

(٣) الحجرات : ١٣

(٥) آل عمران : ١١٠

وهكذا كان الإسلام تغييرا جذريا وعرضيا لجرى التاريخ الدينى والأدبى والإقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى ٠٠٠ وغير ذلك من الجوانب التى تواجه الإنسان وتوجهه . ولكنه - مع كل هذا - قد لقي مقاومة عنيفة ، وحربا لاهوادة فيها ، شملت الحرب النفسىة والمادية والمعنوية ، وكل ما يمكن أن تقع به حرب من قوم استبدت بهم الشهوات ، وسيطر عليهم حب الذات ، وجرتهم الماديات ، فأضلّتهم عما هم فى حاجة إليه .

وكان هذا التغيير المنتظم ، وتلك المقاومة العنيفة سر إقبال الشعوب الأخرى - غير العربية - عليه فى مدى بضع عشرات من السنين .

(٢)

أثر الإسلام في الادب العربي

من يتتبع الأدب العربي في العصر الجاهلي ، ويقارن بينه وبين الأدب العربي فيما بعد مجيء الإسلام يجد الفرق الكبير ، والبون الشاسع بين الأدبين بحيث لا يكون متسرا أن يميز باحث بين أدب كل من المرحلتين مع ما يبدو هناك من أصول أدبية ثابتة ، وقوانين مشتركة تربط بين أدب الجاهليين وأدب الإسلاميين وتلك الأصول والقوانين هي التي تضيء على الأدبين صفة العربية . وهذه سمة مشتركة بين جميع الآداب الإنسانية ، حيث تتأثر بكل ما يمرض للانسان من تغيرات، وما يطرأ على بيئته من مؤثرات .

وتأثر العرب بالإسلام أمر لا شك فيه ولا جدال ، بل إن كلمة تأثر هذه تدل على حقيقة ما كان ، إذ شمل تأثيرهم به كل مناحي حياتهم ، ولا يدل على ذلك إلا أن نقول : إن العرب تغيروا بالإسلام فأصبحوا ناسا غير الناس السابقين .

وبدا تأثير العرب بالإسلام أول ما بدأ حين سمعوا القرآن الكريم في أول علاقته بهم ، وهم ما يزالون على دين آباؤهم ، وما يزالون على إصرارهم وعنادهم ، ولما كان حين صكت أسماءهم بعض آيات القرآن الكريم فسرت في كل أجسامهم كانت كالرعدة تصيب الإنسان فتذهله عن التبصر السريع ؛ فلقد ذهل العرب حين سمعوا القرآن وشملتهم حيرة لم يكن واحد منهم ليتوقعها ، فهم ما لكو ناصية القول ، وهم أرباب البيان ، والكلمة فيهم هي كل شيء ، هي القلب النابض ، وهي الخيال الساجح ، وهي المشاعر الجياشة ، وهي - إلى ذلك - العقل المفكر فيها .

لقد أدهل العرب روعة نظم القرآن ، وحيرتهم قوة أسره ، فانطلق لسان الشانيء البنض قبل المادح المهب معبرا عن ذلك التسلط الذي يلتمه بحسه ووجدانه في آياته الكريمة . وهذا عتبة بن ربيعة أحد رعماء قريش يكشف عن بعض نواحي الدهول والحيرة في قوله حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات من أول سورة هات ، وقد سأله فومه حين عاد إليهم عما وراه .

« ورأى . . أن سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالسكّهانة يا مشر قريش أطيمنوني ، واجملوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه » .

— ثم هذا الوليد بن المغيرة أنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ ، فقرأ عليه :
« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

فقال : أعد . فأعاد صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفه لمنطق ، وإن أعلاه لمشر ، وما يقول هذا بشر (٢) .

فالمدرّس لتاريخ الأدب العربى يلاحظ أن من أهم عوامل التحول فيه على مدى تاريخه المتد طاهرتين لاتسكادان تفارقه منذ ظهور الإسلام ، وللتقاء العرب بكتابه الكريم ، واجتماعهم على مبادئه رقيه .

١ — أما أولى هاتين الظاهرتين فهو القرآن فى ذاته ، ذلك الكتاب العربى الذى توارى أمامه كل ما أنتج العرب من أدب ، وما قدموا من بيان ، فتمت له الصدارة ، وخلصت له الريادة والقيادة ، وأصبح هو النماذج الذى يحاول كل عربى ومسلم أن يحتذى فى حياته كلها أدبية كانت أو سلوكية أو إجتماعية أو تشريعية . . إلى غير ذلك من شتى مجالات الحياة التى قن لها القرآن ، وقاد إليها ، ووجه نحوها .

لقد رأى العرب فى القرآن ضالهم الذى طالما بحثوا عنها فلم تسمهم مقدرتهم حتى على تصورها . . رأوا فيه ما انتقدوه فى آدابهم ، وما تمنوه ولكنهم لم يدركوه . . . رأوا فيه السكال التمييزى الذى اهتمت الأسس الثلاثة بتأمها ، والتي حاولوا أن يضمنوها كلامهم فوقفوا دون ثالها عاجزين فقد أسس العرب بلاغة اللسق على ثلاثة لاينفى واحد منها عن الآخرين . . هذه الأسس الثلاثة هى :

(١) النحل : ٩٠

(٢) الرسالة الشافية للجرجانى ص ١٢٥ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

الطبعة الثانية .

(١) الوسيقى التى تحدثها الحروف بترتيبها ومخارجها ، وحركاتها ومناسباتها لما معها من كلمات ، حتى تصبح الكلمة مصدر نغم ورنين يهز النفس، ويستأثر بالمشاعر، وتهيب وجدان المتلقى لاستقبال ما توجه له الكلمة من معنى ، وما يفيض به المعنى من مضامين .

(ب) المعنى الذى تعمله الكلمة لتصل به بين مشاعر الإنسان وبين عقله .

(ج) الهدى فى التصوير المعنوى وما يترتب عليه من الإبداع فى تلوين الخطاب ، وترديده بين ألوانه المختلفة ، فيودع النفس مرة ، ويجاذبها أخرى، ويمهد إلى طرائف المعانى فيسوقها إليها وإلى شق وجوه البيان فيوردها عليها ، حتى يتمكن من السيطرة التامة للكلمة على جوانبها ، وحتى تصبح تلك النفس - من تفضيلها له وموافقتها إياه - كأنها هى الراغبة فيه ، القاصدة إليه التى تحاول أن يتصل أثرها بالكلام، وليس الكلام هو الذى يجرى إليها بهدف معالجتها والتأثير فيها^(١) .

فمع أن النسق البليغ يجب أن يشتمل على هذه الأسس الثلاثة، إلا أنه يرقى في ميدان البلاغة تبعاً لوضوح الأساس الثالث فيه ، حتى إذ كانت الدقة فى التصوير المعنوى ، والإبداع فى التلوين البياني شاملاً فى كل جوانب الكلام بحيث لا تفتقده فى جهة واحدة من جهاته ، بل بحيث لا يقل فى جهة عنه فى جهة أخرى . . أحس الإنسان أمام مثل ذلك الكلام بالعجز الذى لا أمل فى اجتيازه ، إلى جواز إحساسه بالافتتان به .

وإنما كان لهذا الأساس الثالث تلك الأهمية لأنه فى الحقيقة هو الذى كان يترامى للهربى ولا يتمكن من الوصول إليه فى تعبيراته . فصوت الموسيقى - وهو الأساس الأول - من الأصوات الطبيعية فى تركيب لغة العرب، وإنما هو يتفاوت بين السكالي والنقصان .
وصوت الفسك - وهو الأساس الثانى - لم يكن صعباً عليهم أن ينفوا عليه فى كثير مما جادت قرائح أدبائهم .

أما البعيد القريب منهم فهو هذا الصوت الثالث، فقد كانوا يرونه فى تصوراتهم أملاً،

(١) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ ، ص ٨٨ ، ودلائل الإعجاز ص ٤ وما بعدها

بتحقيق المراضى .

ولكنهم لا يجدونه في كلامهم واقفا، وإذا هم حاولوا الوصول إليه تبين لهم قصر باعهم عن أن يمتد إليه ليتمكن منه .

حق إذا جاء القرآن الكريم فوجئوا بأشغاله على ذلك الأساس - بالإضافة إلى أنه القمة في الأمسيين الأولين - فلم يجدوا بدا من الخضوع أمامه ، والاستسلام لروعته ومن ثم أصبح قصارى جهده كل عربي ومسلم أن يتحرف على شيء مما في التعمير القرآني وبني عليه أدبه ، ويروض عليه لسانه .

٢ - والظاهرة الثانية هي أن المسلمين اتجهوا بكل ما أوتوا من ثقافة ومعرفة يبعثون عن بواحي الإعجاز البياني القرآني ، ويكشفون عن مظاهرها ، ويربطون بين ذلك وبين الآداب - خصوصا الأدب العربي - فكان ذلك الاتجاه مبدانا لتدريج ~~وإثبات الفكر العظيم~~ واستنار ما أوتوا من أدوات وأسباب في ذلك الميدان ، وحرص على أن يتزودوا بكل ما يمين - حتى يكشفوا عن شيء من هذه النواحي البلاغية للمعجزة في النص القرآني . . مما خلف لديهم لنا جديدا في مقتناته وفي اتجاهاته . . ذلك هو فن القول ، ولم يكن من قبل علما مؤصلا ولاننا يمتد على المنهج الدروس والقوانين للمدة . وهذا من غير شك له في التحول الأدبي أثر البعيد . ولقد أشار البيهقي إلى هاتين الظاهرتين في قوله :

إن العرب طلبوا الأدب واهتموا بمدارسته وترويض أنفسهم عليه لغرضين: أحدهما يقال له الغرض الأدنى . والثاني الغرض الأعلى ؛ فالغرض الأدنى : أن يحصل للتأديب بالنظر في الأدب والشعر قوة فيه يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى : أن يحصل للتأديب قوة على فهم كتاب الله تعالى . وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ومحاكمته ، ويعلم منها الأحكام وتفروع الفروع . وتنتج للتأديب ، وتقرن القرآن على ما تقتضيه مبادئ كلام العرب ومجاراتها لما يفعل أصحاب الأصول (١) .

وهكذا أصبح القرآن الكريم منذ بدء الحياة الإسلامية رائد كل أديب، ومنار كل قائل ، ومنهل كل متعلم ، وميدان كل دارس - هذا إلى كونه وحى السماء للشتمل على كل أسس التشريع، والمحتوى على كل قوانين السلوك - وكان ملء عيون العرب

(١) البيهقي في (الانتصاب في شرح أدب الكتاب) لابن تينبة ص ٤ ط

وأسماعهم ، لا شريك ينازعه هذا المركز ، ولا صارف من شعر أو أدب أو فكر
أو فن يعرّفهم عنه ، ولا شاغل من شواغل الحياة أيا كانت ألوانها يشغلهم عن البحث
فيه ، والأخذ منه .

هذا ولقد جمع الإسلام أصحاب آدابه ، ووحدهم في تجربتهم الوجودية ، فأصبحت
أحاسيسهم ومشاعرهم غير أحاسيس الجاهليين ومشاعرهم .

وهذه المنايرة تناول ما يؤثر في الأحاسيس والمشاعر ، كما تناول الوحدة في
الاستجابة لتلك الاثرات ؛ إذ المارق كبير بين إنسان بشر بالنيه ، ويحس بأنه يعيش
في فراغ ، تخيفه الهواجس ، وتزعجه الهوائف ؛ تكسف الشمس فينخلع فؤاده ،
ويضطرب فكره . وتثور الريح فيتوقع الانتقام ، ويرتف موقف الاستسلام . وبين
إنسان يعرف مكانه في هذا الوجود ، ويعرف علاقته بكل كائن فيه ، ويدرك أبعاد تلك
العلاقة ؛ فهو يسير على هدى وبصيرة .

ثم إن هذه المعرفة ليست مقصورة على فرد أو أفراد لذاتهم ، ولكنها معرفة عامة
شائنة ، تمتد جذورها في نفس كل مسلم باسم الإسلام ، وفي هلال تواليه وقيمه .

ولقد وحد الإسلام أصحاب آدابه في منارهم الفكرية الأساسية ، فجعلهم جميعا
يديرون بدين واحد ، ويعتقدون عقيدة واحدة ، ومن ثم فتلك كبرهم يسير في مخطط
موحد ، لا يختلف في موضوعه أو أساسه من شخص إلى آخر ، ولكنه يمتد على
أسس ثابتة واحدة .

وعلى العكس من ذلك كان أصحاب الآداب في الجاهلية ، فقد كان لكل منزعه
الذي يوجه فكره ، ويملك حسه ، ويهيج وجدانه ، ويجرك ضميره .

وكذلك وحد الإسلام أصحاب آدابه في الاستجابة الخارجية ، فجعلهم جميعا
يخضعون لسلطان مبادئ واضحة محددة ، تنص على الشكل وعلى طريقة التعبير ؛ لأن
مبادئ الإسلام التي شملت كل مسلم ليست مبادئ مهوشة ، ولا مبادئ تقتصر على
المومنيات ، كما أنها ليست مبادئ طافية تهب على السطح . . ثم هي ليست مبادئ
فلسفية تبحث عن الأثوار لتختفي فيها ، درن أن تنفي بالظواهر .

إن مبادئ الإسلام تنسم بالشمول ، وتمتاز بالاستقصاء ، فهي في الاعماق تهتم
بالظواهر وتذكر بها ، وهي فوق السطح تبحث عن الخفايا .

ومن ثم إن هذه المبادئ كما وجهت الإنسان إلى الفكرة والمقيدة ، حرصت على أن تتدخل في توجيهه إلى الشكل بطريقة التعمير، فكان أن وسمت آدابها بالوحدة في ذلك كله .

أضف إلى هذا أن أصحاب آداب الإسلام جميعا يشتركون في الخضوع لنظام سياسي وإجماهي واحد، يرتبط بمبادئهم الموحدة، ويمتد على عقيدتهم ، ويقوم عليها . وليست صمة الوحدة متصورة على الآداب ، ولكنها تتناول كل ما يمكن أن ينشأ من التطورات المحلية المتولدة عن الإسلام وأخلاقه وأعرافه في كل أجيال الحياة التي تجدد مد ذلك .

وصفوة للتولى : إن الناقد المدارس يلاحظ أن من أهم ما طرأ على العرب بمجىء الإسلام تغييرا إيجابيا في قيمة فنية ، وثانيتها قيمة سلوكية ، ومن كلا القيمتين اتخذ الأدب العربي سمته الجديدة ، واكتسب بميزاته ، ظهر ذلك في محالات الأدب المختلفة من ألباط اللغة وأسلوبها ، وفنون الأدب وطرائقه وأفراضه . . إلى غير ذلك .

الفصل الثالث

أعلام من النافرين المسلمين

من المقرر أن دراسة الأعلام للفنفة فى نمايا دراسة الأدب ليس مقصودا مها الدراسة التاريخية الخالصة ، وإنما المقصود بها التعرف على الوحمة الفنية لهذا العلم ، وللاؤثرات التى خصص لها منذ نشأته ، ليتمكن الباحث من الوقوف على سر موافقته أو مخالفته معاصريه أو غيرهم فى اتجاهه الفنى ، وليتصرف المدارس على أطوار الأدب وهؤثراته فى وسط أو بيئه ، أو عصر من العصور من خلال تمرره على ذلك فى العناصر التى تتكامل بها الحياة للفنفة فى ذلك الوسط أو البيئه أو العصر .

و دراسة الأعلام الشعرية ليست مقصودة لئاسها ، وليس ضروريا أن توجه هذه الدراسة إلى أعلام بشرية ، بل قد تكون تلك الأعلام كيانا فنيا بارزا ، لا يدرك من خلال الخلق البشرى وماتعرض له فى نشأته وحياته من مؤثرات ، وإنما يدرك من خلال العمل الفنى ذاته والمظهر فى أساليب عرضه ، ومساهم تقديمه . . إلى غير ذلك ، وذلك إنما ينطق به - فيما بين أيدينا - على القرآن الكريم ، والبيان النبوى الشريف ، وذلك لأن القرآن الكريم بيان رب العالمين أنرله على الناس معجزة لئنيه ؛ فكأنه من أدب العرب إذن مكان الصدارة والمثل الذى يحتذى ، كما أن البيان النبوى - وإن يكن بيانا شريا - لا ينظر إليه فى مجال الدراسة الفنية ، بصفته بيان كائن مخلوق خصص لأطوار الحياة التى مرت به ، واستجاب فيه للمؤثرات الفنية المختلفة ، وإنما بصفته بيانا مطريا وجه إليه صاحبه للاقيام بمهمة مخصوصة هى مهمة الرسالة الدينية .

من ثم لم يكن غريبا على أن أجعل التمرير بالقرآن الكريم والحديث النبوى على رأس أعلام النافرين المسلمين ، إذ هما بالنظرة المتقدمة يؤديان فى دراسنا تلك دور العالمين المسلمين .

(١) القرآن الكريم

هو معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي قدمها بين يديه ليثبت صدقه في دعوته لمن يحتاج في تصديقه إلى شاهد ودليل . « وقالوا: لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (١) .

وهو هدى للناس ، يأخذ بأيديهم إلى الطريق السوي والشايطىء الأمين . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢) . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (٣)

وهو يحمل دعوة الحق ، ويقرر ما تقدمه من كتب سماوية . « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل المرقان » (٤)

وهو تذكير للناس ، وتنبية إلى مسئولياتهم وما يتعلق بهم من واجبات . « وإنه لند كر لك ونقومك وسوف تسألون » (٥) .

ثم هو كتاب قوى الجانب ، تهووا الأثمة ، لا بساميه كتاب ، ولا يدنو منه كلام ، معصوم من الباطل . « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٦) . « الله رز أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشع منه حلود الدين يحشون رهم ثم تالين حلودهم وتلوهم إلى ذكر الله » (٧) .

(١) المـكـبوت : ٥١،٥٠	(٣) البقرة : ٣
(٣) إبراهيم : ١	(٤) آل عمران : ٢ ، ٤
(٥) الزحرف . ٤٤	(٦) نصلت : ٤١ ، ٤٢
(٧) الزمر : ٢٣	

وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « إن هذا القرآن مآدبة الله في أرضه فتعلموا من مآدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو جبل الله ، فهو نوره البين ، والشفاء النافع ، عسمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يموج فيقوم ، ولا يزيد فيستتب ، ولا ينعقد عخابه ، ولا يخناق عن كثرة الرد » (١) .

نزوله وحفظه .

أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الأحوال والمواقف ، بحيث تم إنزاله في ثلاث وعشرين سنة . وكان هذا المهج الإلهي في إنزال القرآن مثيرا لدهشة الجاهليين واعتراضهم ظنا منهم أن ذلك وسيلة يمكن بها مضايقة الرسول الكريم ، بطالبوه بأن ينزل عليه جملة ، ولكن كان في إجابة القرآن ما بسكت « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلناه ترتيلا » (٢) . وقال جل شأنه في ذلك أيضا : « وقرآنا مرثاه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (٣) . فإنزال القرآن على تلك الهيئة أحد مظاهر الإعجاز البياني فيه ؛ إذ لا يمكن لسكأن مخلوق أن يصوغ بيانه على مدى ثلاث وعشرين سنة لتتجمع في النهاية على تلك الهيئة من الإحكام والانساق ، دون أن تنبو عبارة عن جارتها - مع فارق الزمن الممتد بينهما - أو تتناقض مع أخرى ، أو يختلف مستوى الصياغة في موطن عنه في موطن آخر ، وأنى لسكأن مخلوق أن يكون على حال واحدة يوما واحدا ؟ إن طبيعة المخلوق خاضعة للتغير والتبدل لحظة بعد لحظة ، ومن ثم فتناحه لا يستقيم على هيئة واحدة ثابتة .

ومنذ بدأ نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وجه المسلمين إلى حفظ ما أتى به الوحي واصطفي من صحابته من يقومون بكتابة الوحي على حسب ما يوجهه ربه ؛ ضانا لحفظه على الهيئة التي يريد الله تعالى عليها ، حتى إذا أكمل الدين ،

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود

(٢) آية ٣٢ سورة الفرقان .

(٣) آية ١٠٦ سورة الإسراء .

وأتمت العمدة ، وروى الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كان القرآن في صدور المسلمين وبين أيديهم مرتباً على هيئته المحيكة : « إن علينا جمعه وقرآنه بإذنا قرآناً فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (١)

ولما اشتدت الحرب بين المسلمين وللمرتدين على عهد الخليفة الأول ، وقتل كثير من القراء حفظة القرآن الكريم ، حتى عمر رضى الله تعالى عنه على القرآن من الضياع ، فدعا أبا بكر إلى جمع القرآن من صدور الحفظة ومن السبب والخاف قبل أن يفنى الحفظة يضيع ويسى ، ولكن الصديق أبى في أول الأمر ، وبعد إلحاح من حمير وابق أبو بكر ، وعهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بجمعه ، فجمعه من السبب والخاف وصدور الحفظة مثل أبي بن كعب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء . متحرراً في ذلك الدقة والحيلة ، فكان لا يقبل من حافظ شيئاً حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما أتم جمع القرآن الكريم حفظ في بيت أبي بكر ، ثم انتقل إلى عمر حين تولى الخلافة بعد وفاة الصديق ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة أم المؤمنين . ومن ثم كانت عملية جمع القرآن عملية الأمة في ذلك الحين . تصاهر عليها أمرادها ، كل يقدم ما يستطيع في سبيل إتمامه حتى إذا تم لمزيد جمع القرآن ، وجدناه موثقاً أنهم التوثيق ؛ متواتراً لا شبهة فيه ، ولا شك يدنو منه

وعلى ذلك للمصحف اعتمد عمر رضى الله تعالى في إقراء المسلمين القرآن بعد أن اكتمت البلاد ، وكثر المسلمون ؛ فقد بعث إلى الشام ثلاثة ممن جمعوا القرآن حفظاً ؛ هم معاذ بن جبل ، وعباد بن الصامت ، وأبو الدرداء ، ليقوموا بهذه المهمة منتقلين بين حمص ودمشق وفلسطين (٢) .

ولسكن انتشار الإسلام ، والساح الدولة الإسلامية ، وكثرة عدد المسلمين كان أسرع وأقوى من جهود هؤلاء الثلاثة ، فلم يتمكنوا من توحيه كافة المسلمين الجدد إلى

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) أنظر الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٥٦

القراءة الصحيحة ، فظهرت حاجة الأمة إلى مصحف إمام مكتوب يضبط القراءة ، ويلتزم به المسلمون في كل مكان فاستنسخ للمصحف الذى جمع على عهد أبى بكر وجعل منه أربع نسخ ، أرسل واحدة إلى كل من الكوفة والبصرة والشام ، واحتفظ بالنسخة الرابعة عنده (١) . وعلى هذا المصحف مضى للقراء يقرءون الداس القرآن في بلاد المسلمين المختلفة .

من ذلك - على إجماله - يتضح أن القرآن الكريم أسدق بيان ، وأدق وثيقة تناقلتها البشرية في شتى أبعاد الحياة زمانا ومكانا ، وقد تماونت كل أبواب الحفظ ، ووسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيدا عن أى زيف ، وفوق كل اشتباه ، سواء كان ذلك بالكتابة في المصحف أو الحفظ في الصدور ، أو التلاوة الدائبة ليلا ونهارا في الصلاة وشق ضروب العبادة ، أو مراجعة آياته وتمحيصها والبحث فيها عن أحكام الشريعة وسنن الحياة ، أو كان ذلك عن ترداد النظر فيه من أهل الديانات الأخرى وغيرهم ، بحثا عن سقطه وجريا وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه . « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

طبيعته :

يتكون القرآن الكريم من أربع عشرة ومائة سورة ، تقوم جميعها على منهج واحد ، ويربط بعضها ببعض نسق واحد ، ويضمها جميعا سياق واحد .
لكنها - إلى تلك الوحدة - تختلف طولا وقصرا ؛ إذ تتضمن أطول سورة ستا وعشرين ومائتي آية ، وتتضمن أقصر سورة ثلاث آيات فقط .

وتختلف منزلا ؛ إذ نزل جزء من القرآن قبيل الهجرة في مكة ، ونزل الجزء الآخر بعد الهجرة في المدينة ، ومن ثم أصبحت السور إما مكية وإما مدنية ، ولكل سماته وخصائصه .

وتختلف غرضا ؛ إذ خوطب ببعضها المسلمون في أول الدعوة ، فدارت حول

(١) البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢ .

العقيدة وما يقرها في النفوس ، وخوطف يعضها المسلمون بمد الهجرة حين أصبحت لهم دولة ، فدارت حول العلاقات الاجتماعية وما يتصل بذلك من تنظيمات سياسية ، وتشريعات مالية وجنائية . . الخ ؛ بيد أن سوره - مع هذا الاختلاف - تقوم على الوحدة العامة ، فلا تخرج على الإطار المحيط بها حبيبا .

وأعراض القرآن الأساسية متمدة المظاهر دون تعارض ؛ فهو ذكر ، وهو هدى ، وهو موعظة ، وهو نور ، وهو - مع هذا وذاك - كتاب مبين ، أو قرآن مبين : فهو يقوم في كل أغراضه على الإبانة ، ومن ثم كان البيان والإبانة من أبرز خواص القرآن الكريم ؛ تصاحب كل عرض من أغراضه - قارئنا كان للتلقى أو سامعا - فإن كان الغرض تذكيرا فهو مصحوب بالإبانة ، وإن كان هداية فهو مقرون بالإبانة ، فالإبانة هي القاسم المشترك بين كل أغراض التمييز القرآني .

والناظر في البيان القرآني يلاحظ فيه خصيصة لا يمكن بحال أن تطالب أو تنتظر من بيان أديب محلوق أيا كانت إمكاناته الأدب لديه ، ومهما أوتي من المقدرة التعبيرية وآلاتها ؛ فالبيان القرآني لا يقتصر على جنس من أجناس التعبير ، وإنما هو يستعين بكل ما سرف من أجناس الأدب المنشور على حسب ما يتطلبه الموقف ، موضوعا ، وأشخاصا ، ومكانا ، و زمانا . وعاية (١) . ثم هو في كل جنس يتردد بين الإيجاز والإطباب والمساراة ، بحيث تراه في كل حالة البيان الأمثل ، والتعبير الاسمى القنى لا يداني .

هذا ويلاحظ من يتصل بالقرآن اتصال درس أنه ميسر «ولقد يسرنا القرآن للذكر سهل من مذكر» (٢) . فالقرآن يسر يتلى ، وحير ينساب ، لا عسر فيه ، ولا حوائل تمنع عنه مريدا ، فهو قريب من كل نفس ، قريب من كل قلب وعقل . هو كتاب كل إنسى وجان ، ليس للخاصة دون العامة ، ولا للعامة دون الخاصة ، فليس فيه ما فى العلوم والقرون من مستملقات ومصطلحات لا يعرفها إلا أربابها ، ولا يعلمها إلا من راض نفسه على تعلمها ، ليس فيه ما فى كتب العقائد والفلسفات من لف ودوران ، وإقدام وإحجام ، وتعليق فوق الحقائق ، وكثيبت المدهن . . فما يرد على القرآن وارد إلا أصاب منه

(١) راجع بتوسع للدوافع : البيان التخصي في القرآن الكريم .

(٢) القمر : ١٨ .

خيرا ، وترود منه يراد طبيب كريم ؛ فهو ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال العقائد وحدهم ، وليس كتاب من اهتدى ومن آمن وحده ، وليس كتاب من يهتدو إلى الاهتداء والإيمان وحده . ليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون باقي الناس . . . إنما هو كتاب رب العالمين للعالمين من إنس وجان ، كل يأخذ منه على قدر ما يبلغ حده وتسع له نفسه وقلبه .



فالقرآن الكريم نعت وريد في الأساليب العربية ؛ له سماته وخصائصه التي تميزه عن أساليب الخلقين ، ولهذا التميز والتفرد مظاهر كثيرة من أبرزها : تميزه في نظمه ، وتميزه في أسلوبه ونهجه ، وتميزه في تناسقه وتلاؤمه ، وتميزه في التيسار بأغراضه التعميرية المختلفة ، وهذا التميز والتفرد الذي يتسم به القرآن الكريم يلحسه كل من يلتقي به على أية هيئة .

أنظر إلى قوله تعالى في تصوير أبي لهب ووجهه : *تبت يدا أبي لهب وتب . ما أعى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد .* نجد وحدة تعبيرية كاملة ذات مطلع وموضوع وقراءة ، وذات الساق في الجوه الموسيقي والموضوع والألفاظ ، وذات مشاهد مصورة ، وصورها ذات ألوان وظلال . كل هذا وذلك يشبه في روعة ودقته تلكم الثلاث وعشرون كلمة في خمس آيات

وأنظر إلى قوله تعالى : *و الضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدرك يتيما مآوى .* ووجدك ضالا مهدي . ووجدك عافلا فأغنى . أما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا نهر . وأما بنةمة ربك فحدث ، نجد - كذلك وحدة تعبيرية كاملة - على نحو ما ذكرنا - تقدمها أربعون كلمة في إحدى عشرة آية .

ثم أنظر التعبير القرآني في سورة المسد - حيث الحرب والإيمان - وفي سورة الصحن حيث التطمين والمهدنة ، نجد اختلافات في كل شيء .

سورة المسد عوذج من نماذج التحدي ، وسلسلة من سلاسل الدفاع عن الدعوة

ورسولها ، ومن ثم حمل مظلما في أوله دعاء بالهلاك والبوار ، وختم بتقرير هذا الدعاء وتأكيده . وعلى هذا الدسق سارت السورة ، حتى تقدمت امرأة أبي لهب في صورة حية تنذر بالهلاك والبوار - كذلك - ونثير السخرية منها والاستهزاء بها ، حيث ترى حاملة وسيلة إحراقها هي وزوجها ؛ فإذا كان هو أبو لهب وحامله ، فهي صاحبة الحطب وحامله . . فإذا كانا قريبين رأياهما . أرا في ص - ورة إنسان تشتعل وتسمى بين الناس ، ونجبر وراها زادها الذي يمددها بالوقود

وسورة الضحى نموذج من نماذج التسلية والتسوية ، والترويح والتطمين ، ومن ثم نسج مظلما إطارا شفاها رقرقا صائيا ، من الضحى الرائق ، والليل الساجي ؛ إذ هما أصنى أوقات الليل والنهار وأشبهها ، ميمما تسرى الروح ، وتطلق النفوس فإذا هي مستتركة في ^{الأممات} . وفي داخل هذا المطلع ينشئ. البيان القرآني صورة من نبات رقيقة بها الحب الصادق ، والحنان الطيب ، والإقبال العادل ، والرضا للشامل ، والرحمة الوديمة ، والشجى الشفيف ، والوعد القاطع . فأنت هنا أمام لوحة مانتمة أتم الالتئام ، وظلال تسرى منها الإيماءات الصادقة ، ليتسق المشهد مع حقائق الواقع ، مع الجو النفسى ، مع أحداث الأحداث .

وفي معرض آخر انظر إلى قوله تعالى: يفقد مراعم المشركين في شأن العقيدة :
« أم آخذوا آلهة من الأرض هم يشركون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا سبحانه الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يعمل وهم بسألون . أم آخذوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل - هم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » . نجد البيان المنسق مع موضوعه ، وهو يقرب الأمور على شق وجوهها ، بحيث لا يترك لدى مشتبه شبهة ، ولا أدنى فرصة لانتارة من شك . فأنت هنا - في مجال اللماشة العقلية - مع بيان هادى . يمهـل على تفتيح الآفاق المختلفة أمام المشركين ، إذ إذا هم من الردى والهلكة . فإذا نقلت نظرك إلى موطن آخر من مواطن العقيدة

مع قوله تعالى . دقل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له
كفووا أحد . وجدت الأسلوب للقاطع المقرر ، الذي لا يناقض ولا يحتمل أدنى
مراجعة أو تفكير .

وهكذا كلما رددت نظرك في آيات القرآن وسوره وحدث البيان الذي لا يداني ،
وللنسق المعجز ، الذي أقر بروعته المدو الجاحد له مع المؤمن به المطمن إليه ، والذي
أخذ العرب الأدباء أنفسهم به في ثرهم وشهرهم ، فتحولوا عن طريق ألائهم ،
وقدموا لنا أدبا حديدا على مدى الأجيال المتلاحقة .

الحديث النبوى

والذى يقصده بالحديث النبوى هنا هو ما أُر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وتواترت بنقله الروايات أو نص الدماء على أنه روى بلفظه ، فهذا الذى يتصل بدراسة فى الأدب العربى . أما ما عدا ذلك من جمهرة الأحاديث صلى الله عليه وسلم التى حرص فيها الرواة على المضمون دون اللفظ ، فاختلفت ألفاظها من راو إلى آخر ، فهذه لاتصل بنا نحن فيه ؛ فهى من صياغة الرواة على اختلاف أزمئتهم .

والحديث النبوى - على عمومه - نسق بىانى جديد على الأدب العربى إذ لم يسبق صلى الله عليه وسلم أحد إليه ، ولا عرف مثاله لأحد قبله ، حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب ، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبى ربي وأحسن تأديبى . فإذا ذكرنا مع هذا أن أبابكر هذا كان فى علم العرب وألسنها وأخبارها ولفاتها وآثارها النابئة التى ينتهى إليها ويوقف عندها ، حتى لا يبدل به عدل استطعنا أن نضع هذا الحكم موضعه .

وأهم ما يتميز به الحديث الشريف أنه بيان عربى موحد العرض ، محكم اللسق . يوضح تشريها ، أو بوجه إنسانا ، أو يصور موقفا من مواقف الإيمان أو الكفر . . إلى غير ذلك . فى إيجاز وإعجاز ، تحول به إلى حكم مأثورة ، وأمثال سارة . قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه . وفى رواية أخرى عنها أيضا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عدده الماد لأحصاه . وهذا يعنى أن منطقته صلى الله عليه وسلم يمر بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه ، بصرف له ، حتى لا يعتربه لس ، ولا يتخونه نقص . ومن ثم قال كلامه صلى الله عليه وسلم ، وخرج قصدا فى اللفاظ ، محيطا بزمانه ، تحسب النفس قد اجتمعت فى الخلة القصيرة والكلمات للمدودة بكل زمانها ، فلا ترى من الكلام الفاظا ، ولكن حركات نفسية فى الفاظ . ولهذا كثرت جوامع كمله ، وحلص أسلوبه ، ولم يقصر فى شيء ، ولم يبالغ فى شيء ، وتم له من هذا الأمر

على - كمال المصاحفة والبلاغة - ما لو أراد مريد لم يجز عنه ، ولو استطاع إنسان
بعضه لما تم له في كل كلامه ، ويكفيه أنه كان تلميذ القرآن ، به حبه الوحي ، ويرشده
إلى القول الفصل بمثل قوله تعالى : « وحادهم بالتي هي أحسن » ، و « خذ العفو
وأمر بالمعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون
الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ونظرة إلى نماذج من ما نثر حديثه صلى الله عليه وسلم تنطقك بما نطق به الجاحظ
من قبل فتقول : « لم يتكلم إلا بكلام قد حذف بالعمدة ، وشيد بالتأييد ، وإسر
بالتوبيق » (١) . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأتباع : « ما علمتكم إلا لتقلون
عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » . وقوله : « المسلمون تتسكفون دماؤهم ، ويسعى
بذمتهم أديانهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها مالم
تر الإمانة مغنا ، والصدقة مغرماً » . وقوله : « إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم
القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، للوطنون أكسافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم
إلى وأبغضكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » ، وقوله : « إن الله يرضى
لكم ثلثاً ويكره لكم ثلثاً ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن
تتصموا بجملة حميماً ولا تفرقوا ، وأن تصاموا من ولاء الله أمركم . ويكره لكم قيل
وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وقوله : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي ، وإنما
لك من مالك ما أكلت فأويت ، أو لبست فأبليت ، أو وهبت فأمضيت » . وقوله :
« أوصاني ربي بتسع : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، وبالعدل في الرضا والقمض ،
وبالقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطى من حرمي ، وأصل من
قطعتي ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونظمتي ذكراً ، ونظرتي عبراً » ، وقوله : « إن قوماً
ركبوا سفينة في البحر فاقسموا نصار لسكل رجل موضع ، فنزل رجل موضعه بفأس ،
فقالوا : ما تصعب ؟ قال : هو مكان أصعب به ماشئ ، فإن أخذوا عليه نجماً وبجوا وإن
تركوه هلك وهلكوا » .

وعلى الإجمال يستطيع الناظر في الحديث النبوي أن يلمس أثره في الأدب العربي

منذ صدر الإسلام إلى العصر الحديث، بما أدخل على الأدب من تراكم بيانية جديدة، فرفع منزلة النثر وخطابه خطوة أبعده عن سجع الكهان، وفتح له آفاقا جديدة من ذون الأدب. هذا إلى أنه كان إلى جوار القرآن الكريم مساعدا على توحيد اللهجات العربية، والحفاظ على لغة العرب وذيوها، وتوسيع مادتها، مما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص، كما أنه فتح أبواب دراسات جديدة لم يكن للعرب عهد بها، مثل علوم الحديث وما تفرع عنها من تراجم المحدثين، وكتب الحديث، وما عليها من شروح وتعليقات واستنباطات بيانية وتاريخية وتشريعية... إلى غير ذلك.

(٣)

أبو بكر الصديق

تولى زمام الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، فعمل بن الخطاب ، فعثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، فحرص كل منهم على أن تظل الدولة الإسلامية كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تغيير كبير ، فكانت البيئة امتدادا لعصر الرسول ، لا تكاد تشد عنه في شيء ، وكان أثر القرآن الكريم وبيان الرسول عليهم ما زال قويا ، والصحابة جميعا ينهلون من معينهما البياني والأخلاقي والعقدي ، لا يشاركنهما معين آخر فيه ، فكانوا - في مجملهم - مظاهر متحركة يتمثل فيهم البيان القرآني والتبوي ، حيث سرى في نفوسهم بما يتضمنان من ترعيب وترهيب ومواعظ تنزيهات ؛ فبدأ ذلك في سلوكهم حلقا رويما ، وعلى السنتهم بيانا ناضجا تراءى في خطاباتهم وكتاباتهم

* * *

أبو الصديق أبو بكر فكان وثيق الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي بالإسلام ، وكان أدل من أسلم من الرجال ، وظل الرويق للالصق لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والصديق المؤازر له في كل مراحل الدعوة ، حتى تولى الخلافة وعلم على أمم المسلمين ، فكان أثر البيان القرآني والديان النبوي فيه واضحا ، تجلّى في ذلك البيان الإسلامي المتدفق من لسانه تدفق السيل ، دأرا في إطار المعاني الإسلامية وقيمته الروحية ، كما يرى في خطبته حين تمت البيعة له ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتهم على حق فأعينوني ، وإن رأيتهم على باطل فاصبر . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، وإدا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، إلا إن أقرواكم الضمير حتى أحق الحق له ، وأضمتكم عدى العوى حتى أخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لي ولكم) (١) .

وأهم ما يلمت نظر الدارس في هذه الخطبة إيجازها ، والدقة في اختيار ألفاظها ،
والصرامة في القوة في عباراتها ؛ فإذا عرفنا ملامحها أدركنا وعيه رضى الله تعالى عنه
بالموقف وما يستدعيه ، وحرصه على أن يتلامم في خطبته مع الموقف . وذلك أنه قال
هذه الخطبة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد وجه باضطراب المسلمين في
مواجهة الصدمة اضطراباً حمل الكثيرين منهم - وفيهم عمر بن الخطاب - يرفضون
التسليم بهذا البأ ويقولون إن الرسول لم يميت ، وأقبل في حزم وكشف عن وجهه صلى
الله عليه وسلم وقال . بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا ، وخرج إلى الصحابة فلقى
فيهم خطبته المشهورة التي ارتكز فيها على القرآن الكريم ليقطع على كل شاك شبهة ،
وفيها قال : « من كان يبعد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يبعد الله فإن الله حي
لا يموت » ، ثم أخذ في تلاوة الآيات الكريمة التي ترد عليهم شبهاتهم مثل قوله تعالى :
« إنك ميت وإنهم ميتون » ، وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
أرسل أمم من قبله مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، ثم تلا قوله عز وجل : « كل نفس
ذاتة نوت » ، وقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، فتاب الجميع إلى الرشد ،
ورجعوا إلى الصواب^(١)

كما وجه في الموقف نفسه ببوادر اختلاف المسلمين حول قيادة الأمة ، فقد بان له
أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادته في سقيفة بني ساعدة يقولون : منا أمير ومن
قريش أمير ، فراه ذلك ، وحشى على الأمة من التمرد والطمع في الملك ، فبادر إليهم
هو وجمع من الصحابة حتى يقص على هذه التفرقة مهادها ، فلما انتهت بتولي أمر
المسلمين ألقى خطبته تلك .

ولا ريب في أن مثل هذا الموقف لا يتحمل خطبة أطول من تلك ، ولا يتسع المجال
لمزيد من التفصيل والإيضاح .

فإذا نظرنا في خطبة أخرى ، وجدنا رضى الله تعالى عنه ملتزماً بمنهج التراما
بدياً ، حيث يحرص على مراعاة الموقف واستدناؤه ، كما نرى في إحدى خطبه الوعظية
التي يقول فيها :

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥ وما بعدها

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أحلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحفظتم بتم به ، وضرائب أتيتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقرم وحاجتكم اعتر ، اعباء الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم الآن ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ذلك مساكنهم خالية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بيه وبين أحد من خلقه سبب يبطئه به حيرا ولا يصرف عنه به سوء إلا بطاعته وأتباع أمره ، واعلموا أنكم عباد مدينون وأن ما عده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا حير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة ، (١)

والخطبتان تحتلفان إطنابا وإيجازا بمقدار اختلاف الموقنين ، والإطناب في الخطبة الأخيرة يقوم على التمهيد للمشخص ، والخيال المقرب الذي يقلل المشاهد من عوالم غيبيتها السنون ليراهم النساء من حلال آذانهم فإذا هم يجمعون بين ما كان وما يكون ، لتتضح العظة ، ويقنع بها العقل ، وينبض لها القلب ببص الاستجابة والقبول .

أما مادة الخطبتين مستمدة من القرآن الكريم والبيان النبوي ، وروح الإسلام . ولم يقف الصديق بخطابته عند حد الموعظة والدعوة ، وبيان السياسة والمنهج الحكيم ، بل أضاف إلى ذلك غرضا آخر استغل الخطابة فيه ، وذلك أنه كان يخاطب في الجيوش الخارجة للدواع عن دين الله موصيا الجيش وقادته ، مستقيا وصايا من روح الإسلام ، فتبسا قدر الاستطاعة من وصايا القرآن الكريم والى صلى الله عليه وسلم حيث يدعوهم إلى التمسك بسماحة الإسلام ، في معاملة الملويين ، وبمخدرهم من الحيانة والقدر ، وينهاهم عن التمثل بالقتيل ، وعن قتل الصغير والشيخ الكبير والنساء الآمنات . . الخ ، تلك الوصايا المقررة في ظل الإسلام ، كما نرى في وصيته جيش أسامة بن زيد حين سيره إلى الشام ، وفيها يقول :

« أيها الناس قتلوا أوصيبكم بمشر فاحفظوها عن . لا تخونوا ولا تملوا (٢) ،

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٠

(٢) عل : حان في الفء .

ولا تندروا ، ولا تمثلها ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة .
ولا تقمروا^(١) نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة
ولا بقرة ولا بمرا إلا للأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع
فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له^(٢) .

ولعل أبرز سمات الصديق في خطابه تأييد السبع ، وحرصه على إزالة
الالفاظ ، ووضوح المعاني . وتمسكه من الكشف عما يحتاج بنفسه . ويريد أن يقفه
إلى سامعية .

(١) قمر النخلة - بفتح القاف والعين - استأصلها وقطعها .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٦٣ .

عمر بن الخطاب

وأما الفاروق عمر بن الخطاب فقد كان أحد العمرين اللذين دعا الرسول ربه أن يمز بأحدهما الإسلام ، وكان هو الذي استجاب الله بإسلامه دعوة نبيه وكان منذ أسلم المقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المصطفى لمشورته وبمازال على ذلك حتى توفي صلى الله عليه وسلم ، فظل على مكانه من حليفة رسول الله الأول ، فكان له الوزير والمعين والناصح والمستشار ، ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا ، فقد كان الفاروق قريبا الشبه بالصديق صدق عزم ، وضوح رؤية ، وصحة بيان ، وبلاغة لسان ، ورحابة عقل ، ونفاذ بصيرة ، وقوة شكيمة . وقد طبقت شهرته الخافتين حكمة ، وعدلا ، وحلما ، وعزما ، وحسن سياسة ، فأقبلت البلاد والممالك على الإسلام ودولة الإسلام قرارا من ظلم الملوك والحكام ، حتى اتسعت في عهده الدولة الإسلامية اسعالم بمهد في التاريخ مثله ، فقد فتحت بلاد فارس والشام وبصر .

ولهذه الحلال مجتمة كان له من التأثير في عقول وقلوب ساميه ما يكشف عن مدى صدقه ، وقوة بيانه ، ومصاحه لسانه ، كما يطلعا على ذلك مثل قوله في إحدى خطبه الوعظية :

« إن الله سبحانه وبمحمده قد استوجب عليكم الشكر ، وانخذ عليكم الحجج آناكم من كرامة الآخرة والدينا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، خلقكم تبارك وتمالى - ولم تسكونوا شيئا - لنفسه وعبادته . . وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة وحملك فى البر والبحر ، ووزقكم من الطيبات لمانكم تشكرون . ثم جعل لكم سما وبصرا ، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم احتص بها أهل دينكم ﷺ ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دوائكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو تم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أنعمهم شكرها ، ومدحهم حقها إلا بمون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . والله الحمدود مع الفتح العظيم فى كل بلد . . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته . »

ومن أم ما يلاحظه الناظر في هذه الخطبة وغيرها من خطبه رضى الله تعالى عنه خلوها من الصبح الذى كان يكلف الكهان به في ذلك العصر ، ويحرصون عليه كل الحرص ، والفاروق في ذلك ومن قبله الصديق ومثاران بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم ، حتى لقد أثر عنه أنه أنكر على سحار المبدى استخدامه للصبح دون حاجة إليه ، فقد روى الطبرى أن الفاروق سأل سحارا عن (مكران) الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال سحار : « يا أمير المؤمنين أرض مهمل جيل ، وماؤها وشل (١) ، وتمر دقل (٢) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والسكبر بها قليل . إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلاؤها ضاعوا » . فقال عمر : « أسجاع أنت أم مخبر ؟ » فقال سحار : بل مخبر (٣) .

كما يلاحظ أنه يسير فيها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبه من الامتاع بحمد الله وتمجيد ، والاعتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وتتار خطبة الفاروق هنا بطول عباراتها ، حرصا منه على تفصيل الحجج ، وتوضيح البرهان ، وبسط القول ، منوع وقسم ، وصور وشخص ، وهو في كل ذلك يدور في محور نعم الله على الإنسان وما استوجبه من شكر الله عليها .

وكما كان الصديق يخطب في الجيوش الحارحة للنزوموسيا وموجها . كان كذلك الفاروق ، وبما أثر عنه في ذلك أنه لما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أحابه حينئذ إلى الجهاد - وهو أبو عبيد بن مسعود - وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشركهم في الأور ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصالحها إلا الرجل المكيث (٤) الذى يعرف الفرصة والكف » .

وله إلى ذلك وصايا كثيرة يوصى فيها الأوصياء والقادة ، ومن ذلك ما أوصى به الخليفة من بعده ، وهي وصية طويلة جاء فيها :

« أوصيك بتقوى الله لاشريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا : أن

(١) الماء الوشل . القليل .

(٢) التمر الدقل : الردىء .

(٣) راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) المكيث : الرزين المتبصر في الأمور .

تعرف سابقتهم ، وأوصيك بالأصهار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ،
وأوصيك بأهل الأصهار خيرا فإنهم ردة^(١) العدو ، وجباة الأموال والنفوس ، لا تحمل
فيهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة
الإسلام : أن تأخذ من حواشي^(٢) أموال أغنيائهم فتد على فقرائهم . وأوصيك بأهل
الذمة خيرا ؛ أن تقابل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، وأوصيك بتقوى الله
وعدة الحذر منه ، ومخافة مقتته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تحشى الله في
الناس ولا تحشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم
وثغورهم^(٣) . ولا تؤثر غنيتهم على فقيرهم . وآمرك أن تشتد في أمور الله وحدوده
ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، واجعل للناس سواء عندك لا تبالى على من وحب
الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وأياك والآخرة والمآبة فيها ولاك الله بما أفاء الله
على المؤمنين ، فتجاوز ونظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسعه الله عليك .

فالوصية كما ترى دستور ضمنه عمر نظام الحكم القدي يجب أن يكون في ظل
الإسلام ، تناول فيها كل ما يحتاج الحاكم والمحكوم إيضاحه وتقريره ، في أسلوب واضح
بين ، لا فضول فيه يضل معه السامع ، ولا إيجاز فيه يختل معه المقصود ، والكلام
- كما ترى - ينساب انسيابا لا تشعر معه بتسكاف ، ولا تضيق الأذن بسماعه ، فهي
عبارات سهلة مع جزالتها وقوتها ورسالتها ووضوح المقصود منها .

(١) الردء : المين ، فهم يعينونك على العدو .

(٢) حواشي الأموال في البادية : صفاء الإبل والنعم .

(٣) الثغور جمع ثغر : وهو هنا الخلة والحاجة .

علي بن أبي طالب

علي بن أبي طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من أسلم من الصبيان ، تربى في بيت النبوة ، ونشأ في كنف الوحي ، فكان للقريب القرب منه صلى الله عليه وسلم ، عايش القرآن ، وجاور الرسول ، متخلق بمخلق الإسلام ، ودان به في كل تكبيره وتصوره ، فلم يقل عن سابقه شأوا في خطابه وبيانه ، بل لقد أتبع له من دوافع الإجابة ما لم يتبع لغيره ، فأر عنه خطب كثيرة تصدى فيها للخارجين عليه ، مما أتاح الفرصة للذس عليه ، ونسبه ما لم يقل إليه مما ضمنه كتاب « نهج البلاغة » للنسوب إليه كرم الله وجهه . ولقد تصدى لذلك كثيرون من المؤرخين والأدباء ، فنفاوا أن يكون هذا الكتاب كله من صنع علي رضي الله تعالى عنه ، وإنما هو في أكثره محمول عليه ؛ لما تضمن خطبه من السب الصريح في السيدين أبي بكر وعمر ، والخط من هأنهما ، ولما ينطوى عليه من التناقض ، ولما فيه من العبارات الركيكة ، والجلل الضعيفة التي يجرم من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة ، وبنس غيرهم ممن بدمهم من المتأخرين . . بأنها نسبت إليه باطلا وزورا (١) .

ومن ثم كان على المدارس أن يتحفظ في الأحذ عن كتاب « نهج البلاغة » وغيره من كتب المتأخرين ، ويرجع في ذلك إلى المصادر الأولى مثل البيان والتبيين للجاحظ فقد روى طرفا من خطبه ، مثل خطبته التي وجهها حين تقاعس بمض جده ، وأخذت جنود معاوية تمير على أطراف العراق ، وفيها يكشف عما في نفسه من ألم وضيق بصنيع هؤلاء المتقاعسين ، كما في قوله (٢) :

(١) انظر (لسان المبران) لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ طبع حيدر آباد ، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٢٠١ طبع لكهنؤ، وشذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٥٧ طبع القاهرة ، ومراة الجنان للياقبي ج ٣ ص ٥٥ طبع حيدر آباد .
(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٣ .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب النذل ، وقهله للبلاء ، ولزمه الضمار ، وسيم الحسف ، ومع الصف (١) ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اعروهم قبل أن يفرزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، تتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شات عابكم العارات .. فيا محبا من حد هؤلاء القوم في باطلهم ، وهشلكم عن حقكم .. حتى صرتم هدها يرمى ، ويثا ينتمب ، يغار عليكم ولا تفيرون ، وتنزون ولا تنزون .. وقد وريتم (٢) صدرى عيطاء ، وجرعتوني الموت أنفاسا (٣) ، وأفمدمت على رأي بالعصيان والخذلان .. »

والخطبة من أولها تعان عن حاله كرم الله وجهه وحال الجيش ؛ وتكفي النظر إلى ما طلع به عليهم من تعريف بالجهاد حيث لم يطل الوقوف مع ما ينتظره المجاهدون ، قدر إطلاله الوقوف مع ما ينتظره المتقاعدون الفارون ، فأكتفى في الإخبار عن الجهاد بمنبر واحد ، وأحبر عن من ترك الجهاد بحمسة أخبار متعاطفة في سلاسة حتى لتبدو كأنها خبر واحد يضم خمس صور من صور البلاء الذي يتوقع لمن يقعد عن الجهاد .

كما يملن عن البراءة مما أوقع هؤلاء أنفسهم فيه ، فقد قام بدور القائد البصير ، فلم يترك لحظة تمر إلا حث بها جنده على مواصلة القتال حتى لا تدور عليهم الدائرة ، ويقع بهم المخذور .

فالخطبة كما ترى إعداد منه رضى الله تعالى عنه ، وتبرؤ من التقصير أو الإهمال ، وضيق بموقف الجنود المتخاذل ، وشعور بالمرارة لما حدث .

وقد اضطرته حروبه مع الأمويين إلى الإكثار من هذا اللون من الخطب ، بيد أنه لم ينف على ذلك ، بل أترعته كثيره من المواعظ في مناسبات مختلفة ، منها قوله (٤) .

(١) النصف - بفتح النون والصاد - الإنصاف .

(٢) وريتم : ملأتم ، من روى للبيع جوهه إذا أكله .

(٣) الأنفاس جمع نفس - بالتحريك - الجرعة من الماء ونحوه .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٢

« إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوادع ، وإن الآخرة قد أقيت وأشرقت باطلاع ، وإن المضار (١) لليوم والسباق غدا ، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمه قبل حضور أجله فقد نعمة عمله ، ولم يضره أمه ، ومن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمه ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجبة نام طالبا ، ولا كالنار نام هاربا ، -

وهكذا نجد رضوان الله تعالى عليه في كل خطبه على اختلاف للواقف والدواع -
خاضعا لقيم الإسلام ومبادئه ، سائرا بجداء القرآن الكريم والبيان النبوي الشريف لا يشذ عنه ولا يخرج عليه ، في أسلوبه وعباراته والفاظه وأخيلته ومعانيه .

(١) المضار : الزمان الذي نضمر فيه الخيل لسباق .

الفصل الرابع

فنون النثر الإسلامى وخصائصه

(١)

الخطابة

عوامل تطورها :

ظلت الجاهلية بمؤثراتها مسيطرة على الفكر والتصور والسلوك فى المجتمع العربى ، وبدأ هذا التسلط فى شتى أمهالهم وأقوالهم ، حتى إذا جاء الإسلام بمحضارته أخذت عوامل التحول تتتابع من حولهم ، وتهمزم المرة بعد المرة ، حتى إذا غمرتهم مؤثرات الإسلام رأينا تحولاً تاماً فى الفعل وفى القول وفى التفكير وفى التصور والتخيل .

ونستطيع أن نفهم هذه المؤثرات الإسلامية إذا نحن نظرنا النظرة الفاحصة المقارنة . . أولاً : إلى العربى فى عهديه (الجاهلية والإسلام) ثانياً . إلى الزاد الفسكى والماعطى والوجدانى الذى قدمته البيئـة الجاهلية لأهلها ، ثم الذى قدمته البيئـة الإسلامية لأهلها .

ومن النظر فى تلك المؤثرات نستطيع أن نقف على أهم عوامل التحول التى كان لها أكبر الأثر فى تطوير الخطابة العربية ، وتتلخص تلك العوامل فى :

١ - أمثلة الخطابة التى قدمها القرآن الكريم ، وقد وجد العربى فى تلك النماذج الخطابية شيئاً غير ما اعتاده - ربما كان هذا الشيء هو نفسه لكنه ما كان ليجد لديه القدرة عليه - لما إن سمع العرب القرآن حتى فتنوا به ، وذهلوا عن الأخذ منه والانتفاع به ، ولما أنصتوا إليه وقرأوه أنسوا له ، فأقبلوا عليه ، فإذا بهم أمام عطف آخر من الخطابة يثار ما عرفوا من أعماطها ، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع مما فى أسلوب تربطه وحدة أقوى من الوحدة النفسية، مع اشتباهه - كذلك - على الوحدة النفسية.

فأثروا أنفسهم ترسم خطاه ، وانتهاج سبيله ، والسير على هداة ، وأخذ أسلنتهم بقوانينه
الأسلوبية ، وترويضها عليها حق تمتاد طى ذلك السبيل الجديد .

وذلك أنهم قرأوا اخطاب القرآن الكريم الموجه إلى بنى إسرائيل فى سورة البقرة :

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأودوا بعهدى أوف بعهديكم
وإياى مارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به .
ولا تشتروا آياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق
وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأركبوا مع الزاكين . أتأمرون الناس
بالبر وتقسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون . واستعينوا بالصبر والصلاة
وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقون ربهم وأنهم إليه راجعون .

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين .
وانتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل
ولا هم يعصرون » (١) .

ويتتابع الخطاب طى هذا النمط حتى يقطع أكثر من ثمانين آية (٢) . ومن أبر
ما يلمسه دارس هذا النص عمق الأفسار التى يرضها ، وترتيب هذه الأفسار ترتيباً
لافتقياً فيه ولا تكرار ، ومسار النص ومنهجه فى عرض المواقف ، والنص - كما ترى -
يسير فى اتجاهه واضحاً مستقيماً كل ما يتعلق بالموضوع من جزئيات تدفع الخطاب فى
طريقه . وتديه ، متجاوزاً كل جرئية تجمد الموقف ، أو تحول الأظار عنه هذا إلى
أن الدارس يلاحظ حرص النص على إداة ما قد يشأ عن طول الخطاب من الملل أو
الانصراف والتحول . . . وذلك بجمل الأسلوب مزاجاً من الخطاب والفنية والتحكم
(الالتفات) - مع الحرص على أن يكون لتلك الالتفات وظائف أخرى أسلوبية ليس
ها مجال الحديث عنها - وحمله مزاجاً من التذكير والمن ، والوعود والوعيد ،
والتساؤل المنهكم الساحر ، والوصف الشامل . . إلى غير ذلك .

وهكذا بلغ الإعجاز حداً جعل الخطاب قضية من قضايا السكر ، ذات مقدمات

(١) البقرة ٤٠ - ٤٨

(٢) البقرة ٤٠ - ١٣٣

وتنتائج يصل إليها التلقى ، وتقر في ذهنه بمجرد سماعه لذلك الخطاب . وما كذلك كانت خطابة العرب ، ولا وقع في أسماعهم من قبل خطبه تيسر هذا المسار (١) .

٢ - استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لمنهج الدعوة الذي أنتمه إليه ربه في قوله . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم على أحسن » . وهذا المذهب في الدعوة تيسر أكثر ما يتيسر في الخطابة ، وهي حـير ما يستعين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة ، وهي حير ما يستعين به الأنبياء والمصاحون في الدعوة إلى دياناتهم ؛ لأنها أمثل وسيلة تيسر الاتصال بالجمهور ، وتتيح الفرصة لمناقشة أفكارهم ، والإجابة على ما يطغى فوق سطح أذهانهم من حجاج ، ولأنها تمكن من التأثير في الجماعات ؛ ولذلك اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة بيت بها دعوته في نفوس العرب وغير العرب ، ويعتمد عليها في إقناعهم بصدق ما جاء به ، ولذلك - كذلك - اتخذها أداة يؤكد بها مبادئ الإسلام ، ويقررها في نفوس المسلمين . ومن ثم أصبحت الخطابة وسيلة العمل والولاية الذين يبعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمصار ، حيث يقوم الوالى أو العامل حظييا في الناس حين يصل إلى مصيره ، ليبين لهم منهجه ، ويوضح لهم طريقته التي سيسير عليها معهم ، حتى أصبحت سنة يتبعها كل خليفة ، ويستهل بها عهد الجديد كل وال .

ومن ثم أهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بما يتلاءم مع وظيبتها الخطيرة التي وظفوها فيها ، فحلوا خطبة أجزاء لما ابتداء واحتمام ، وبين هذين يمرض الموضوع مناسكا ، مرتبا ، واضحا ، مقاما مغريا ، صادقا . واشترطوا في المقدمة شروطا أملاها عليهم إحساسهم بجليل شأن الخطبة ، وتقديرهم الأبعاد التي يزونها بها من نفوس السامعين ، فالتزموا فيها - إلى كونها مهددة للموضوع ، موثقة لا كسافة - الاقتراح بالتحديد والتعجيد لله ، والصلاة والسلام على النبي .

٣ - ما استلزمه مجيء الإسلام من صراع بين من يدعون إليه ومن يربعون عنه ويقفون في وجهه ، كان عاملا في انتشار الخطابة ، وبابا واسما ينفذ الدعاة منه إليها ؛ سواء في ذلك المسلمون الداعون إلى الإسلام ، والمشركون الماوثون له .

(١) لرصد من التفصيل انظر للمؤلف (أثر الإسلام في الخطابة العربية) ص ٥٥

وهكذا نتج عن ذلك الصراع حرب كلامية لساقطت فيها عن الخطابة عيوب الجاهلية ، ورادت بها - على الأيام - قوة وتأصلا .

٤ - انجاء الأدباء العرب نحو القرآن الكريم . . . بما كون أسلوبه ، ويقتبسون من آياته ، ويتأبسون مسهجه وأمسكاره ؛ أكبوا على القرآن بكليتهم ، ونقلوا عنه فيما كتبوا وخطبوا ، لا فرق في ذلك بين المظاهر من حيث الأسلوب والصياغة ، وبين الحقائق من حيث الأمسكار والمعاني ، ومن حيث الصور والأخيلة . هذا إلى توضيح حطيم وكتماهم بآيات من آياته يقتبسونها ، حتى قال الجاحظ : إن الخطبة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت شوهاة (١) . وقال كذلك : كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك يرفع الكلام للبهاء والوفار وحسن للوقع (٢) .

وتأثر لقد الأدب بذلك فأصبح هيا في الخطيب ألا يتحلى بالثقافة القرآنية ، وأصبح عيبا في الخطيب ألا تبدو تلك الثقافة القرآنية في خطبته ولم يقف عند حد الميب ، بل لقد كان ذلك دليل عجز ، وعنوان خواء ، فقد أشار الجاحظ إلى عجز الأعراب الجفأة الذين لم يتفقهوا في الدين عن إحادة الخطبة (٣) . ويحدثنا عمران بن حطان حطيب الخوارج المشهور فيقول : خطبت عند زياد خطبة طنت آى لم أقصر فيها عن غاية ، ولم أدرع لطاء عن علة ، فمررت ببعض المجالس نسمنت شيئا يقول : هذا الفق أحطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (٤) .

ومعروف أن الأديب محرك الناقد ويوجهه ، ويعلى عليه ما يكتب وما لا يكتب ، إلا أن يكون الأديب متفوقا على معاصريه . سابقا مناهجهم فيكون رائد تجديد . ولا يلتزم بإملاء الناقد لأنه حينئذ يكون قد شآه . . . ومن ثم بيضت الخطابة الإسلامية

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

بروح غير الروح التي كانت تتحرك بها الخطابة الجاهلية . . استمع إن شئت إلى هذا الجزء من خطبة للصديق أبي بكر :

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا أن ما أحلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظهرتم به ، وضرائب أدتموها ، وسلف قد متموها ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقرتم وحاجتكم . . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا بالأمس ، وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين لهم ذكر القتال والناية في مواطن الحروب ؟ وقد تضعض بهم الدهر ، وصاروا رميا ، قد تركت عليهم القنات ، الحبيثات للخبيثين ، والحبيثون للخبيثات .

وهكذا كان للقرآن الكريم بنسقه وأسلوبه وصياغته ، ومعانيه وأنساره ، وأخيلته ، ذلك الأثر البالغ في توجيه الرب المسلمين حيث ترسموه وساروا على هداه ، وضمنوا أعمالهم الأُدس من آياته ، واقتبسوا منها ما ترقى بفن الخطابة ، وبث فيها روحا تلبس بالمعاليه والحياة .

أو استمع إلى هذا الجزء من خطبة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :
أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بoudاع ، وأن الآخرة قد أقبلت فأشرفت باطلاع ، وأن المضار اليوم وغدا السياق . ألا وإنكم في أيام أمل من وراءه أجل ، فمن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله فقد خسر عمله . ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرغبة . ألا وإنى لم أركلجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربا . ألا وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى حارب الضلال ألا وإنكم قد أمرتم بالظنن ، ودلتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل (١) .

نم انظر - مع الأفسكار والمعاني - إلى هذا النسق الذي قدم فيه الإمام علي خطبته وإلى تلك الانتقالات الرشيقية ، وإلى ذلك المرض الواضح المترابط ، تجرد التأثر بالقرآن الكريم بينا ، والتثل بأسلوبه وطريقته في المرض مقصودا إليه .

٥ - ما جاء به الإسلام في ضمن أنظمته من حرية في إبداء الرأي ، وشورى في نظام الحكم ، مما جعل طائفة من الأمة تتحرك مع الكلمة وتتحرك معها الكلمة ، لا على وجه الإباحة ولكن على وجه الإلزام ، فتمجلس الشورى ميداناً للخطابة الواجبة ، وعكس فعال للأفكار والعقول ، انعقد المجلس ، حيث يمرض الأمر ، يناقش من شق جوانبه ، ويبحث بكل أسباب البحث ، ويبحث كل قائل ما يقول حتى يضمن لما يقول السداد ، وينصت كل مستمع حتى لا يترك هنة يقرأها من غير أن يستوضح ويستبين .

وأول من بدأ السير في ذلك للطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كثيراً ما يجمع محبه يستشيرهم فيما يمرض من الأمور الهامة ، مثل أحد والخندق وكذلك كان شأن خلفائه من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليقول : « لا خير فيكم من غير شورى » .

وإبان الأحداث الهامة كان المسلمون يقدمون مجالس الشورى يتبادلون فيها الرأي ، ويسترضون الموقف ، فيقوم كل صاحب رأى خطيباً يقدم للآخرين ما يرى ، ويدعمه بالحجج ، ويقويه بكل ما يرى من أسباب القوة ، سواء كانت مادية كالحكم والأمثال والوقائع ، أو كانت صوتية بما تحمل من مؤثرات . من ذلك ما حدث يوم السقيفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان من اختلاف حوّن-تليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كانت ميدان شورى من أخطر ميادين الشورى بما طرح فيها من الموضوعات ، وبما قدم فيها من الآراء حتى إذا تسكلم أبو بكر قدم الحجة المسكنة ، والبيبة الصريحة الواضحة ، وذلك قوله : « نحن المهاجرون . . أول الناس إسلاماً ، وأوسطهم داراً ، وأكرمهم أحساباً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب . وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفداء ، وأنصارنا على العدو ، آؤيتهم وواسيتهم ، حزاكم الله حيزاً ، نحن الأمراء ، وأنتم للوراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحى من فريش ، وأنتم محقوقون ألا تنفوسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم » (١) .

ومن ذلك أنه لما كانت فتنة أصحاب الجمل انعقد محاس الشورى في مدينة الكوفة، ووقف بعض أعضائه داعياً إلى عدم المشاركة في الفتنة كأي موسى الأشعري، ووقف آخرون يدعون إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقمقاع بن عمرو (١)

وهكذا يتراءى الإسلام أمام عيوننا في الخطابة العربية من خلال ذلك المبدأ الذي أقام عليه دولته، فأوسع المجال لارتقاء الخطابة وأرددها:

٦ - الصراع بين الساميين بعضهم مع بعض - على ما حدث بين علي ومعاوية - كان من عوامل نمو الخطابة الإسلامية، لما يحتاج إليه هذا الموقف من تلوين الخطابة بألوان أخرى غير التي عهدت. تموج - من غير شك - إلى تفكير وبحث ودرس وأناة، حتى يتمكن القائل من الحجج التي يسهل بها على المسلم أن يجارح أحياه المسلم، ولم تكن الحاجة إلى الخطابة أمس منها في ذلك الحين، وقد كان قادة كل فريق يحرضونه على تقوية، الروح المعنوية، وخلق الإيمان في نفس أتباعهم بإسلامية عملهم هم دون غيرهم، وإقناعهم بأنهم يجارحون من أجل إقرار الحق، وشر دين الله. ثم إن القادة والزعماء ليتقرون الموقف حتى قدره، ويعلمون أنهم في حاجة إلى الإكثار من القول، وإعادته وتكراره، لأن تكرار القول يدخل في النفوس توهم صدقه وصحته. ومن ثم نستطيع أن نقف على السر في كثرة ما وصلنا من خطب هذه الفترة وما تلاها. ويلاحظ على خطب هذه الفترة - مع كثرتها - أنها تنسم بالطول والإطباب، وذلك مراعاة من قائلها لمتنقى الحال، فالوقوف يستدمى البسط والتفصيل، وقرع الحجة بالحجة، من كل ما يقتضى الإطالة.

وهكذا أصبحت الفتنة الكبرى التي وقعت بين علي ومعاوية مصدراً لإثراء للخطابة العربية الإسلامية؛ فالإمام على خليفة بايعة المسلمون وخرج عليه معاوية، ومن ثم فهو يعمل على ملء قلوب مناصريه بالحماسة والبسالة، ويبدل كل ما يستطبع من قوة الكلام في أن يتنزع من قلوبهم عاطفة الإحوة الدينية التي توشجت أواصرها بينهم وبين إخوانهم الذين انضوا تحت لواء معاوية وناصروه، فلا يجد بداً من أن يلجأ إلى العاطفة الدينية

نفسها ليثيرها في نفوس اصحابه ، ويظهر الآخرين في مظهر المارقين على الدين، والهاديين لأسسه ومبادئه. استمع إليه في إحدى خطبه إذ يقول : «وايم الله ماوتر قوم قط بشيء أشد عليهم من أن يوتروا بدينهم . وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليبتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويسيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم . وإن الفرار من الزحف فيه السلب للامز ، والنزلة على الفئء ، وذل الحيا والمئات ، وعاب الدنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه .»

وفي الجانب الآخر يقف معاوية وناصره يصنعون نفس الصنيع ، استمع إليه بخطب محرضا على قتال علي وحبه : « انظروا يا أهل الشام ، إنكم غدا تلتقون أهل الشام في قتال علي بن أبي طالب ، إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بشوا عليكم من بلادهم حتى نزلوا بيزتكم ، وإما أن تكونوا قومًا يطلبون بدم حنيتكم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوما تدينون عن سائلكم وأبائكم ، فطيبكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم الصبر .»

وفي هذا الميدان ظهرت جماعة من النساء ثارت في نفوسهن عاطفة الحب لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فتمن حطيات يماون بسلاح الحكمة عليا كرم الله وجهه ، فتسير حطيم من مسار النار في الهيثم، مثل عكرشة بنت الاطرش، وأم الخيزبت الحريش، والزرقاء بنت عدى . وبهذا اتسع مجال الخطابة ، وازدادت ثراء ، سواء كان مظهر ذلك .. الغرض ، أو الداعي لها ، أو القائل الخطيب . . .

٧- إيجاب الخطابة على المسلمين في بعض حالات العبادة ، واستجابتها في بعض آخر ، مع تحديد الخطيب في ذلك بناية، وربط الخطبة بأسباب ووسائل كان لها أكبر الأثر في نمو الخطابة وتطورها ؛ فصلاة الجمعة من كل أسبوع لا تتم بدون خطبة ، وفي كل مناسبة أو داعية خطبة يواجه فيها الإمام أو الخليفة جمهور المسلمين . وكل تلك الخطب غير محدودة الموضوع ، بل هي مطلقة على حسب ما يناسب الزمان والوأنع والموقف . بيد أن غايتها محدودة ، وكميتها تكاد تكون كذلك وأوضع نموذج لذلك النمط من الخطابة ما أُرز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع . قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى

لا أدري لى لا ألقىكم بعد عاى هذا بهذا الموقف أبدا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنسكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فأبؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رهوس أموالكم لا تظلمون . ولا تظلمون . قضى الله أن لا ربا . وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضغ دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . أما بعد أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يمبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكن إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحمقرون من أعمالكم فأحذروه على دينكم . .

* * *

وهكذا اجتمع للخطابة العربية بمجىء الإسلام كل أسباب النمو والترقى ، وباستطاعتنا أن نجمل تلك العوامل فى ثلاثة : أحدهما جذرى ، والثانى عرضى ، والثالث تهنيدى .

فالأول يعمل على تعميقها وتأصيل أسبابها بعد أن كانت مقصورة على خطاب للشاعر والوجدانات ، كما بدأ ذلك فى الحجاج الموضوعى ، والمناقشة الموضوعية ، والدعوة المذهبية .

والثانى يوسع أبعادها ، ويمدد ميادينها ، وذلك بتكثير الأعراض التى تستخدم فيها ، والثالث يحدد لها النهج ، ويرسم لها الطريق ، ويقسم لها الخطوات ، ويربط بين عناصرها وأفكارها .

ومن ثم تهباً للخطابة - مع الإعلام - من أسباب النديوع والانتشار ما لم يتها لها من قبل ، فقد أصبحت الوسيلة الأولى ، والأداء المبررة عن الدعوة ، تنطق بمحاسنها ، وتشرح لأسرارها ، ويواجه بها أصحاب الآراء والأفكار الجديدة معارضتهم بالتوضيح والتشويق والتفنيد .

أهم خصائص الخطابة الإسلامية :

نعت تأثير هذه العوامل وغيرها نعت الخطابة وتطورت، فاكتمت سمات وخصائص ميزتها عن الخطابة الجاهلية ، كان من أبرزها :

١ - أن الخطيب أصبح يميل إلى الطول ، حيث مست الحاجة إلى الإطناب فيها ؛ عرضاً لحوانب الكسرة التي يقدمها الداعي ، أو تمليلاً وتفسيراً لما اتخذ من المواقف ، أو بسبب ما يأخذ على الخصم من أخطاء واحرفانات ، أو استطراداً في ذكر الحجج والبراهين على قوة ما يرى وترهين ما يراه غيره... إلى غير ذلك من دواعي الإمالة ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله : إن جملة القول في الرداء أنه ليس به حد ينهي ~~الله~~ ~~عز وجل~~ ، وإنما ذلك على قدر السمعين ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود، وهارون، وشعيب، وإبراهيم ، ولوط لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف المعجم (١) . وقد روى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات ، غير أن ما وصلنا من خطبه صلى الله عليه وسلم إنما هي بقايا تلك الخطب ، فقد سقط منها الكثير قبل أن ينقذها التدوين ، مثال ذلك خطبته صلى الله عليه وسلم في أول جمعة له بالمدينة ، وفيها يقول .

« الحمد لله ، أحمدوه واستمعيه ، واستمفروه واستمديبه ، وأومس به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والبرر والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وصلاته من الناس ، واقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل . من يطلع الله ورسوله فهدى رشده ، ومن يمصهما فقد غوى وفرط ، وصل صلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه . ولا أفضل من ذلك نصيحة . وأصل من ذلك ذكرا ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وحل ومخافة من ربه ، عون صدق على ماتبتون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الهدى بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا يبوي

(١) البيان والتبيين : ١ ص ١٠٥

بذلك إلا وجه الله يكن له ذكر في عاجل أمره ، وذخرا فيها بمد اللرب حين يفترق المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بيته وبه أمدأ بميدا ، ويحدركم الله نفسه . والله رءوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأبجر وعده لا حلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : « ما يبذل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » فانقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويهظم له أجرا » ومن يتق الله فقد فار موزا عظيما ، وإن تقوى الله يوقى مقتته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله ببيض الوجهه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، وحدوا بحظكم ، ولا تهرطوا في جب الله ، قد هدكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليلم الذين صدقوا ويهلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه « وحاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » وسماكم المسلمين « ليملك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة » ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكرا الله ، واعملوا لما يمد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفنه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من أتانس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

٢ - أن الخطيب يحرص على تقسيم الخطبة ، حيث تبدأ بمقدمة توحى بالموضوع ، ثم عرض للموضوع يستخدم فيه كل ما يمكن من وسائل العرص ، ثم خاتمة بالخص فيها ما بسط ، ويجمال ما فصل . ولقد كان للخطاب القرآنى أكبر الأثر في توجيه العرب إلى ذلك للنهج في خطابه ، حتى إذا اطلع النقاد العرب على حطاة أرسطو وجـدوه يطلب من الخطيب السير على هذا المنوال ، فلما رجعوا إلى ما بين أيديهم من الخطابة القريبة الإسلامية وجدوها تسير في نفس الطريق .

٣ - وكما حرص الخطيب على تقسيم خطبته حرص على أن يكون العرض قائما على الترتيب المنطقي الصحيح الذى يتممـد على استخلاص النتائج من مقدماتها ، سواء بدأ بالمقدمات وثى بالنتائج أو عكس . ونظرة إلى ما قدمنا من نماذج تقرر ذلك .

٤ - قوة الأفكار التى تناوؤها الخطابه ، فلقد أصبحت هى أداة التعبير الأولى لديهم ، وكان عليها أن تحمل ما جد فى المجتمع الإسلامى الجديد من مضامين . ومن ثم أصبحت أفكارها فى مستوى الخطابين بها ، قوة وعمقا ولشعبا

٥ - إرسال أسلوبها ، وعدم التزام لون أسلوبها معين فيها ، فجملها تتردد بين الطول والقصر على حسب الحاجة إلى ذلك ، والسجع فيها غير ملزم ولا مقصود إلا أن يجي عفوا ، إذ لا خطيب من جلال موضوعه ، وترتيب أفكاره ما يشتهه عن الاهتمام بالتحسين اللفظي والتصد إليه .

٦ - وشيخ الخطبة آيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال السائرة ، تزيينا وإنعانا

(٢)

الكتابة

معرفة العرب بالكتابة سابقة على مجيء الإسلام ؛ لكن هذه المعرفة لم يصلنا من مظاهرها ما يدل على أنهم توسعوا في استخدامها ، أو تفننوا في موضوعاتها ، والتصوير العقلي لحياة العرب في العصر الجاهلي يحدد مجالات استعمالهم الكتابة وسيلة من وسائل الإبانة ؛ فقد كان متمدن الأصيل على الشعر الذي يقوم على الإنشاد والمشافهة . .

ولما جاء الإسلام ، واتسعت الدولة ، وتوحدت الأمة ، وتشابكت المصالح ، وتوطدت العلاقات على البعد المسكاني . . . في هذه البيئة الحضارية الجديدة مست الحاجة إلى الكتابة ، وأصبحت من أهم مقومات الدعوة الجديدة ؛ فهي مطلوبة لحفظ القرآن الكريم ، ولتوثيق المعهود والاتفاقات ، ولتبليغ الملوك والرؤساء الدعوة الإسلامية ، ولخطابه العمال والولاة بشئون الحكم ، ولتوسيع الرسل والقضاة بالحفاظ على مبادئ الإسلام . . إلى غير ذلك مما جد على العرب المسلمين ، ودعاهم إلى مزيد من الحرص على الكتابة ، والإقبال عليها تعلمًا وتعليلًا وتنمية

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمسكة سوى سبعة عشر كاتبًا (١) أسلم أكثرهم في مبتدأ الدعوة مثل أبي بكر الصديق ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعاصم بن فهيرة ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . . ومن بين هؤلاء الصحابة تخيير الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الوحي ، وكتاب الرسائل والمعهود (٢) . ولما أصبح للمسلمين دولة بعد الهجرة إلى المدينة وزادت الحاجة إلى الكتابة إلى السكانيين ، أقبل المسلمون على تعلم الكتابة ، وكان في مقدمة هذا التحرك التمامي ما فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على العاجزين عن دفع الفدية من أسرى بدر ، فقد عادل الفدية بتعليم عشرة من فتيان المسلمين . .

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١ ، ص ٤٧٣

(٢) الزرراء والسكران للجهمشيارى ص ١٢ طبعة الحلبي .

وهكذا وجدت الأرض الحصبية والجو المناسب تماما لانتشار الكتابة في عصر صدر الإسلام ، ومع انتشار المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية وما جاورها انتشرت الكتابة العربية ، حتى أصبحت معلما بارزا من معالم الحضارة الإسلامية الممتدة في تلك الفترة . وكان في مقدمة الدواعي المباشرة إلى الإقبال على تعلم الكتاب ، أن أول ما نزل من وحى السماء تضمن من الله سبحانه وتعالى طي الإنسان بنعمة القلم وتعليمه بالقلم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . وأنبع ذلك بقسمه جل وعلا بالقلم وما يكتب بالقلم ، وبالكتاب . . إلى غير ذلك مثل قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » . وقوله : « والطور وكتاب مبطور في ذلك منثور » . كما نزل القرآن الكريم أمر المسلمين أن يكتبوا القرآن على الألواح والكتب والسجيل من أجل ما قد يفهم من اختلاف ، فقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدابرتم بينكم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالمدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق . . » (١) .

وهكذا ارتبطت الكتابة بالإسلام وبالدولة الإسلامية ، كلما ازداد الإسلام اقتشارا ، وازدادت الدولة اتساعا، ازدادت الكتابة عوا وازدهارا، ونبتت عن الفعن الطوى أخصان ، وتمتقت عن تلك الأخصان أزهار وثمار ، أيسمت وبدا نضجها سريما ، فتقدمت الأدب العربي حتى طيبا شهيا ، كان نواة صالحة لما أنتجت البيئة العربية بمد ذلك من دنون الثر المكتوب .



والناظر بما أن من كتابة هذا العصر يجد فيها - بمد أول العصر - الكتابة للعبة ذات السمات والخصائص التي تتميز بها عن غيرها بما أضفت البيئة ومتطلباتها عليها من مناهج أسلوبية وبيانية خاصة ؛ فهي ليست - كما يتوهم بعض الدارسين - حديثا عاديا يسجل في كتاب موجه إلى شخص معين ، حاليا من الفمية والصنعة الأدبية . وإعماهي عمل فني ، صادر عن بقدر البيان التعبيري قدره ، وهو يقدم بين يدي دعوته الجديدة

كتاب الهدى يتعدى الإس والجن أن يأتوا بمثله مجتمعين متآزرين ، ومن أبرز مظاهر فنية الكتابة في ذلك العهد :

١ - أن الكتب والمراسلات لم يكن يلتزم فيها بشكل معين ولا صورة واحدة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يلونها على حسب المرسل إليه ، فإن كان المرسل إليه غير عربي حرص صلى الله عليه وسلم على أن يكون موجزا ، مختار الكلمات بحيث يسهل ترجمتها في بيان قاطع . كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل فارس :

« من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . فأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الخلق كافة ليدبر من كان حيا ويحقق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإنم الجوس عليك . »
وإن كان المرسل إليه عربيا انتقى من الألفاظ ما يناسب مع وسطه البيئى ، كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم المرسل إلى وائل بن حجر الحضرمى :

« من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة والأرواع المشاييب (١) . » ثم يقول :
« وفي التيمة شاة لا مقورة الألياط ولاضناك ، وانطوا الثبجة (٢) ، وفي السويبد الخمس (٣) ، ومن ربي مم بكر فاصقوم . مائة ، واستوفضوه عاما (٤) . ومن ربي مم ثيب مضر جوه بالأضاميم (٥) ، ولا توصيم في الدين ، ولا غمة في فرائص الله تعالى (٦) ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقبال ، (٧) . »

(١) الأقبال جمع قيل بفتح مسكون : الملك من ملوك حمير وحضرموت . والعباهلة : المقرون على ملكهم ، والأرواع : الذين يرعون بالهية والحلال . والمشاييب جمع معشوب : الجليل الزاهر اللون .

(٢) التيمة : أربعون شاة ، وهى نصاب الزكاة فى الضأن . والمقورة الألياط بضم الميم وسكون القاف وفتح الواو : المسترخية الجلود . والضناك بكسر الصاد : السمينة ، وانطوا : اعطوا بإبدال العين نونا فى لغتهم . والثبجة بفتح تين : الوسط .

(٣) السويب جمع سيب : العطية والمراد به الركار

(٤) مم : من بإبدال الميم نونا فى لغتهم . والصقع : الضرب ، والاستيفاض : التنوير .

(٥) الأضاميم : جمع إصامة : الحجارة الصغار . (٦) التوصيم : التوائى .

(٧) يترفل : يترأس .

وقد سار الصحابة في الطريق ذاته ، فاهتموا بتجويد الكتابة ، وحرصوا على اختيار من يتولى الكتابة لهم ، روى الجهمي أن عمر رضى الله عنه دعا زيدا فقال له ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به ، فكتب إليه كتابا ودفنه إلى عمر ، فنظر فيه ثم قال أعد ؛ فكتب غيره . فقال له أعد ، فكتب الثالث . فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الأول ولكنني ظننت أنه قد روى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت ففكرت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه لثلا يدخله العجب فيك (١) .

٢ - الميل إلى الأسلوب التصويري القائم على التحير والتجويد ، استجابة لما شب في آخريات ذلك العصر من فنن وجهت للحكام والكتابين إلى تضمين رسائلهم وسائل التهذيب في الخطوة عند الحكم والتهرب من الخروج عليه ، والتهديد من الإهمال على ما تجد في رسائل عثمان رضى الله عنه إلى عماله وولاته يبه فيها إلى ما شب في البلاد من فنن تمتد على للشائعات . وبين سياسة الجديدة . مثل رسالته إلى معاوية حين قام أبو در بدعوته في الشام ، وفيها يقول : « إن افنته قد أخرجت حطها وعبيها ، فلم يبق إلا أن نثب فلا تسكأ القرع » (٢) .

٣ - انحاء الكتابة إلى الإطناب والإطالة ؛ فالعصر في مرحله الأخيرة ملئ بالصراع السياسي الذي لم يترك فيه المتصارعون وسيلة من وسائل الحرب إلا استخدموها ، ومن بين وسائلهم في ذلك كانت الكلمة المكتوبة ، يفسدون فيها مزاعم الخصوم ، ويستعرضون آراءهم ، ويتنبهونها في استقصاء يقنع ، وهذا دون شك يستمد على الإطناب والإطالة ، وقد احتدوا في ذلك بالقرآن الكريم ؛ فهم في ذلك حاضرون للبيئة وأحداثها ، متأثرون بالقرآن الكريم ومنهجه .

٤ - سهولتها ووضوح أفكارها ، وبمدها عن التكلف ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، وتحليلتها بآياته ، كما ترى في كتاب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله وفيه يقول : « أما بعد .. فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جراه ؛ فاحل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصيرتك ، فإنه لا عمل

(١) الورداء والكتاب ص ١٩

(٢) الجهمية لأحمد صفوت ج ١ ص ٢٩٦ .

لا بية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا خلق
- بفتح الخاء واللام - له .



ويلاحظ المدارس لما أثر من كتابات ذلك العصر أنها رسائل أو عهود ومواثيق ،
وأن الرسائل تندوع بتنوع أعراضها ، فمنها رسائل الدعوة التي وجهها الرسول صلى الله
عليه وسلم ومحابته إلى الملوك والحكام غيـير المسلمين يدعونهم إلى الإسلام ، ومنها
الرسائل السياسية التي تتضمن توجيهها سياسيا يتماق بأمر الحكم - وقد رأينا فيما أسلفنا
نماذج لمذنب الغرضين - ومنها الرسائل الإحوائية التي تقوم على الإنسانيات ، كإحساء
في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ، يبريه في وفاة ابن له مات ، وفيها
يقول : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، وبإني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو . أما بعد فمظم الله لك الأحر ، وألممك الصبر ، وورقنا وإياك
الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا ومواليها من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ،
نتمتع بها إلى أجل محدود ، وتقبيض لوقت معلوم ، ثم ادترض علينا الشكر إذا أعطى ،
والصبر إذا ابتلى . وكان ابك من مواهب الله السنية ، وعوارفه (١) المستودعة ،
تمتع به في عبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير ؛ الصلاة والرحمة والهدى إن
صبرت واحتسبت ، فلا تجمن عليك بامعاذ خصلتين : أن يحبط حزعك صرك ، فتدم
أعطى ما فاتك ، ولو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده . عرفت
أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن
الجراء ، وتاجر الموعد ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك ، فسكأن قد ، (٢) .

ومنها رسائل المواعظ والنصح والتوجيه ، وهي تختلف عن الإحوائيات ؛ إذ ليس
سروريا أن يكتب بالنصح لآخر بمن تربطه به علاقة أحوة أو صلة قرى ، فقد يكتب
بذلك إلى مرد من عامة الناس ، أو إلى أمير أو عامل أو خليفة . ثم هي قائمة على هذا
الغرض المحدود استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . متبادله سلمان
الفارسي وأبو الدرداء .

(١) الموارف جمع عارفة : المعروف .

(٢) الموهرة ج ١ ص ٦٥

يقول سلمان في إحداها : « أما بعد فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي ، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره ، فليكن كلامك ذكرا ، وصمتك سكرا ، ونظرك عبرا ، فإن الهديا تنقلب ، وبهجتها تتغير ، ولا تغتر بها ، وليكن بيتك للمسجد » .

ومما كتبه أبو الدرداء إلى سلمان : « سلام الله عليك . أما بعد فإني أوصيك بتتوى الله . وأن تأخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن مراغك لشغك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جفائك لمودتك ، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين ؛ إما في الجنة وإما في النار ، فإنك لا تدرى إلى أيهما تصير » (١) .

ومنها كتب اليهود وللوائيق ، وهي كتب تمتد على الدقة في التعبير ، والوقوف على اللفظ المناسب ، دون الحاجة إلى المؤثرات العاطفية من تصوير أو تخيل ؛ فالدقة الفنية فيها تتطلب اليقظة للفظ الذي يؤدي الغرض منه .

ولا ريب في أن هذا النمط البياني لم يكن وليد الحضارة الإسلامية ، فقد كان للرب في الجاهلية معاهدتهم واتفاقياتهم المكتوبة ، وكان من عادتهم أن يودعوا لهم منها جوف السكبية توثيقا لها وحفظا ، كما حدث يوم واجهت قريش بنى هاشم للضبط عليهم وأسلم محمد إليهم ، فانفقوا على مقاطعتهم ، ودونوا هذا الاتفاق في صحيفة أودعوها السكبية .

بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل على المعاهدة من التحفظات والاشتراطات والتوضيحات ما نظمها في سلك العمل الفنى ، حتى أصبح الناظر فيها يجد نفسه أمام لون بياني يكشف فيه صاحبه عن كثير من الجوانب السياسية والاجتماعية القائمة والمتوقعة ، ويبين عن طبائع من يتعامل معهم وأفكارهم ، ويواجه الشاذ منها بالتقويم ، مثال ذلك معاهدته صلى الله عليه وسلم مع من كان بالمدينة التي جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم - بين المؤمنين والمؤمنات من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، وللهاجرون من قريش على ربعتهم (٢) يتماثلون (٣) بينهم ، وهم يهدون

(١) الحمرة ج ١ ص ٣٢٤ ، وحاية الأولياء ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) على ربعتهم : على استقامتهم ، يعنى على أمرهم الذي كانوا عليه .

(٣) يتماثلون : يعقل بعضهم بعضا ، ويدفع دية جنايته الخطأ .

عائيم (١) بالمعروف والقسط (٢) بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتماثلون معاقبتهم الأولى ، وكل طائفة نفذى عايبها بالمعروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر كل بطون من بطون الأنصار وأهل كل دار ؛ بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى البيت ، وبنى الأوس - وإن للمؤمنين لا يتركون مفرجا (٣) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقتل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .

ويسير صلى الله عليه وسلم في المعاهد على هذه الوتيرة من تحديد واجبات للمتاهدين قبل الآخرين ، ثم في النهاية ، يحدد معالم الواجبات العامة في قوله : « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قرىش ولا من نصرها ، وأن بينهم التنصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ويلتبسونه وإنهم يصلحونهم ويلتبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنهم لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبيهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الخضر من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم ولا آثم ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

والناظر في محتوى هذا الكتاب يلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم التزم فيه سبيل الدعوة إلى الدين والإبانه عن مبادئه ، إلى جوار المقررات السياسية التي تستدعيها نظم الحكم ، واستقرار الحياة في الدولة الناشئة ، فلم ينقل جانباً لحساب الجانب الآخر ،

(١) الماني : الأسير .

(٢) القسط : العدل .

(٣) المفرج - بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء - الذي أئتمه الدين والقرم . يقال : أفرجه إذا أئتمه ، ويروى (المفرج) بالجيم ، وهو القليل الذي لا يدري من قتله أو الذي لا وفاء له ولا مال ولا عشيرة .

ولسكنه - صلى الله عليه وسلم - خرج بين كل هذه الغايات في كتابه ، بحيث يجسد التأمل أنه أمام وثيقة سياسية بما تضمنه من مقررات محددة ، وأنه أمام رسالة تكشف عن أبرز مزايا الدين الجديد بما يشد الناس إليه ، ويجتذبهم نحوه (١) .

وصفوة القول : إن الكتابة في ظل حصاره الإسلام توفرت لها - بالقرآن الكريم ، وبالإسلام ومبادئه ونظمه ، ورسول الإسلام ومبادئه ، وبما جدد من أحداث في ظلال الإسلام - من أسباب النمو والترقي ما منحها القدرة على النهوض ، وأتاح لها فرصة القيام والتحرك في مجال النمو والترقي في مختلف الاتجاهات . . أسلوبا ، وموضوعا ، وفكرا ، ومنهجيا ؛ فأصبح للكتابة كيان أدبي يؤرخ له في هذا العصر ، بأصناف لفنون الثرفن جديد .

(١) لزيد من التفصيل راجع للدولف (تأملات في البيان النبوي) ص ١٢٦ وما بعدها.

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٢	للقدمه
٢٤ - ٥	تمهيد
٥	الفصل الأول : الأدب
١٢	الفصل الثاني : العرب
١٦	الفصل الثالث : الوطن للعربي
٢١	الفصل الرابع : اللغة العربية
٨٥-٢٥	الباب الأول : الأدب العربي
٢٧	الفصل الأول : البيئته والأدب
٣٤	الفصل الثاني : أجناس الأدب العربي
٥١	الفصل الثالث : مصادر الأدب الجاهلي
٦٧	قضية نحل الشعر وانتحاله
٧٩	الفصل الرابع : المقصود بالبادية والحاضرة
١٦٣-٨٧	الباب الثاني : الشعر البدوي
٨٨	الفصل الأول : أعلام من شعراء البادية
	٩٢ عنتره ، ٩٩ الحارث بن حلزة ، ١٠٦ زهير بن
	سلي ، ١٢٠ الشنفرى ، ١٢٦ عروة ابن الورد
١٣١	الفصل الثاني : فنون الشعر البدوي
	١٣٣ الفخر ، ١٤٠ الهجاء ، ١٤٣ للضح ،
	١٤٧ الرثاء ، ١٥٢ الغزل ، ١٥٧ الوصف
٣٢٦-١٦٥	الباب الثالث : الشعر الحضري
١٦٦	الفصل الأول : أعلام من شعراء الحاضرة
	١٧٥ امرؤ القيس ، ١٩٢ عدى بن زيد ، ٢١٤ أنثابة

الصفحة	الموضوع
	الديباني ، ٢٢٦ العباس ابن مرداس السلمي ،
	٢٥٦ حسان بن ثابت ، ٢٦٢ كتب بن زهير
٢٦٦	الفصل الثاني - فنون الشعر الحضري
	٢:١. ٢:٢ المدح ، ٢٧٠ الهجاء ، ٢٧٤ الاعتذار ،
	٢٧٦ الفخر ، ٢٧٩ النزل ، ٢٨٢ الدينيات والمواعظ
	٢٨٤ الرثاء ، ٢٨٨ الوصف .
٢٩٧	الفصل الثالث : الشعر العربي بين البادية والحاضرة
٢٩٨	الخصائص المنوية والخيالية
٣١٢	الخصائص المضمونية
٣١٧	الخصائص الأسلوبية
٣٢٧-٣٩٥	التياب الرابع : النثر بين البدو والحضر
٣٢٨	الفصل الأول : فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن
	٣٣١ الحكم والأمثال ، ٣٣٥ الخطابة
٣٤٤	الفصل الثاني : حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم
	٣٤٤ أثر الإسلام في الحياة العربية
	٣٤٨ أثر الإسلام في الأدب العربي
٣٥٤	الفصل الثالث : أعلام من النثرين المسلمين
	٣٥٥ القرآن الكريم ، ٣٦٣ الحديث النبوي ،
	٣٦٦ أبو بكر الصديق ، ٣٧٠ عمر بن الخطاب ،
	٣٧٣ علي بن أبي طالب
٣٧٦	الفصل الرابع : فنون النثر الإسلامي وخصائصه
	٣٧٦ الخطابة ، ٣٨٨ السكتانة

رقم الإيداع ٤٧٠١ / ٨٢